



جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

دراسات أدبية ولغوية

في الحديث النبوي الشريف

تألیف

الدكتورة هند سحلول

الدكتور بديع السيد اللحام

أستاذ مساعد بقسم علوم القرآن والحديث
مدرسة بقسم اللغة العربية

جامعة دمشق



محتويات الكتاب

المقدمة	
٧	الباب الأول : في علوم الحديث
١١	الفصل التمهيدي : معرفة تأسيسية
١٣	المبحث الأول: تعريفات أساسية
٢٠	المبحث الثاني: تطور تدوين الحديث الشريف
٢٥	المبحث الثالث: تاريخ علوم الحديث
٣٣	الفصل الثاني: طرق الرواية وأنواع علوم الرواية
٥٩	الفصل الثالث: أنواع علوم الحديث من حيث القبول والرد
٦١	المبحث الأول: الحديث الصحيح
٦٦	المبحث الثاني: الحديث الحسن
٧٠	المبحث الثالث: الحديث الضعيف
٧٢	المبحث الرابع: الحديث الموضوع
٧٥	الفصل الرابع: الأنواع المتعلقة بدراسة المتن والسنن
٧٧	المبحث الأول: أنواع الحديث الخاصة بالمتن
٨٢	المبحث الثاني: أنواع الحديث الخاصة بالسنن
٨٨	المبحث الثالث: أنواع الحديث المشتركة بين السنن والمتن
٩٥	الباب الثاني: الحديث النبوي وعلوم العربية
٩٧	الفصل الأول : أثر الحديث النبوي في اللغة والنحو

١٠٠	المبحث الأول: أثر الحديث النبوى في رواية العربية
١٠٤	المبحث الثاني: أثر الحديث النبوى في رواية العربية
١١٢	المبحث الثالث: أثر الحديث النبوى في حفظ العربية
١١٨	المبحث الرابع: حجّيّة الحديث النبوى في علوم العربية
١٢٧	الفصل الثاني: الخصائص الأسلوبية والمعنوية للحديث النبوى
١٢٩	تمهيد : شمائل النبي محمد ﷺ وخصائصه الخلقية والخُلقيّة
١٤٠	المبحث الأول: التكوين الأدبي للنبي ﷺ
١٥١	المبحث الثاني: خصائص البلاغة النبوية
٢٢٣	الفصل الثالث: موقف النبي ﷺ من الشعر والشعراء
٢٢٦	المبحث الأول: موقف النبي ﷺ من الشعر
٢٤١	المبحث الثاني: موقف النبي ﷺ من الشعراء
٢٥١	الفصل الرابع: الوسائل البلاغية في الحديث النبوى
٢٥٦	المبحث الأول: التشبيه في الحديث النبوى
٢٧٣	المبحث الثاني: الاستعارة في الحديث النبوى
٢٨٣	المبحث الثالث: الكناية في الحديث النبوى
٢٩٧	الفصل الخامس: دراسات لفنون من الخطاب النبوى
٢٩٩	المبحث الأول : الفضة في الحديث النبوى
٣٢٦	المبحث الثاني: الخطابة في الحديث النبوى
٣٣٧	المبحث الثالث: رسائله وكتبه ﷺ
٣٤٥	المبحث الرابع: الأمثال في الحديث النبوى
٣٥٣	الفصل السادس: دراسة أدبية ولغویة لنصوص من الحديث النبوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على رسوله الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذي أُتي جوامع الكلم وروائع الحكم، فدانت له الفصاحة، وواتته البلاغة، وكان له من ربيع البيان الحظ الأوفى والنصيب الأتم.

وبعد ...

فقد وفق الله تعالى هذه الأمة إلى حفظ حديث نبئها، فنقلته بعدلٍ وتوازيٍ وضبطٍ، فمنذ فجر الرسالة إلى عصرنا الحاضر عني به المسلمون؛ فتتبعوه وجمعوه، وارتحلوا في طلبه، وعُنوا بالألفاظه ومعانيه ومناسباته، كما عُنوا برجاته ورواته، جرحًاً وتعديلًاً وتوثيقاً، وبلغوا فيه من الدقة والإتقان ما جعله مضرب المثل في طرق التحقيق وأساليب التوثيق، وتحري الدقة في الرواية والتصنيف، حتى كان لنا منه علمٌ عظيمٌ مبتكراً، يقوم على أدقّ منهاج علميٍّ، لا يحيط به إلا العلماء الخذاق، والحدّثون الحفاظ.

وكان لكل طائفة من العلماء - على اختلاف علومهم واحتياطاتهم - نصيبٌ من العناية بالحديث النبوي، إذ كما عني به أهله من الحدّثين والرواة ، وعلماء المصطلح وعلماء الرجال عني به

أهل اللغة وعلماء البلاغة، وذلك بأنّ: «علم الحديث ولغة أخوان يجريان في وادٍ واحدٍ»^(١).

فقد تبوأ البيان النبوي الدرجة العليا بين صنوف التعبير وضروب البيان بعد القرآن الكريم، لما توفر فيه من خصائص سامية ومقومات فريدة، أقرّ بها الفصحاء والبلغاء، وأشار بما ذروه الفكر السليم والذوق الرفيع.

^(١) المزهر في علوم اللغة: ٣١٢/٢.

وقد شهد الدارسون قديماً وحديثاً بعلوّ البلاغة النبوية، وتميزها في سائر جوانبها؛ في أغراضها وموضوعاتها، في خصائصها وأسرار بلاغتها، في فاعليتها وقوّة تأثيرها. وهذا عكس العلماء من أهل اللغة والبلاغة على هذا البيان المبدع، يدرسونه ويحفظونه ويشرحونه، ويستنبطون منه الأفكار، ويستخرجون منه المعاني والأسرار.

ومن هنا كان لا غنى لدارس الحديث النبوى عن معاناة كلا الجانبين؛ الجانب العلمي الاصطلاحي، والجانب الفنّي واللغوي.

وقد وضع هذا الكتاب / دراسات أدبية ولغوية في الحديث النبوى / لتحقيق هذه الغاية، ومن ثم رُصِّدت أبوابه وفصوله لتشمل بالبحث والدراسة هذين الجانبين. فقام الكتاب على بابين رئيسين:

الباب الأول: في علوم الحديث

والباب الثاني: في الحديث النبوى وعلوم العربية

اشتمل الباب الأول على أربعة فصول:

الفصل التمهيدي : ويتضمن معارف تأسيسية

الفصل الأول : طرق الرواية وأنواع علوم الرواية

الفصل الثاني : أنواع علوم الحديث من حيث القبول والرد

الفصل الثالث : أنواع علوم الحديث المتعلقة بدراسة المتن والسنن

واشتمل الباب الثاني على خمسة فصول:

الفصل الأول : أثر الحديث النبوى في اللغة وال نحو

الفصل الثاني : الخصائص الأسلوبية والمعنوية للحديث النبوى

الفصل الثالث : الرسول صلى الله عليه وسلم والشعر

الفصل الرابع : الوسائل البلاغية في الحديث النبوى

الفصل الخامس : دراسة فنية لفنون الخطاب النبوى: (القصة، والخطابة، والرسائل،

والكتب)

الفصل السادس: دراسات أدبية ولغوية لنصوص من الحديث النبوي الشريف
والله تعالى نسأل أن يجعل هذا الكتاب لِبَنةً في بناء طالب العلم، ترقي به في تكوين
بنيانه المعرفي والثقافي، وإسهاماً معرفياً يقوده لاحتداء المثل الأعلى في تطبيق المنهج العقللي
الرَّصين ، والأسلوب العلمي الدقيق في تلقي المعرفة ونشرها
والله من وراء القصد.





الباب الأول^(١)

في علوم الحديث

الفصل التمهيدي : معارف تأسيسية

الفصل الأول : طرق الرواية وأنواع علوم الرواية

الفصل الثاني : أنواع علوم الحديث من حيث

القبول والرد

الفصل الثالث: أنواع علوم الحديث المتعلقة

بدراسة المتن والسنن

^(١) أُعده الدكتور بديع السيد اللحام.



الفصل التمهيدي

معارف تأسيسية

المبحث الأول : تعريفات أساسية

المبحث الثاني : تطور تدوين الحديث

المبحث الثالث : تاريخ علوم الحديث



المبحث الأول

تعريفات أساسية

أولاً - الحديث:

الحديث لغةً: ضدّ القديم ، ويُستعمل بمعنى حقيقة الخبر.

الحديث في الاصطلاح عند عامة العلماء: هو «ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ خلقيَّة أو خلقية»^(١).

وإليك أمثلة موضحة لهذا التعريف:

مثال ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول: قوله عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار»^(٢).

ومثال ما أضيف إليه عليه الصلاة والسلام من فعل: قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى تقول : لا يُفطر، ويُفطر حتى تقول : لا يصُوم»^(٣).
ومعنى الإقرار أن يقع أمامه عليه الصلاة والسلام أمر فيسكت ، ولا ينكر على فاعله، أو يوافقه عليه صراحةً، ومثاله: حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لِمَّا أرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَعْثُثَ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاء؟؟»، قَالَ : أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ،

^(١) وهذا المعنى يطلق عند علماء الحديث على: «السنّة» و «الأثر» و «الخبر»، وقيل:

السنّة: ما أضيف إلى النبي ﷺ خاصة.

والخبر: ما أضيف إلى غير النبي ﷺ.

والأثر: ما أضيف إلى الصحابي خاصة.

^(٢) أخرجه ابن ماجه، في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بمحاره (٢٣٣٧).

^(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٨٨٠)، ومسلم، في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (٢٠٢٧).

قال: «فَإِنْ لَمْ يَجُدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟»، قال: فِي سُنْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قال: أَجْتَهَدْ رَأِيًّا وَلَا آلُو. فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَقَ رَسُولُ رَسُولَ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ»^(١). فقد أَفْرَأَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى طَرِيقَتِهِ فِي الْقَضَاءِ وَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِ.

ومثال ما أُضِيفَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ خُلُقٍ مَا رَوَاهُ أَبُو سَعِيدُ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَدْرَاءِ فِي خَدْرِهِ»^(٢).

ومثال ما أُضِيفَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ وَصْفٍ خَلْقِيٍّ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا، لَيْسَ بِالظَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ»^(٣).

ثانيًا - تعريف «السنن، المتن، الإسناد، المسند»:

- **السنن**: هو الطريق الموصى للمنتن.

أي: هو رواة الحديث الذين وصلنا متن الحديث عن طريقهم.

- **المتن**: ما انتهى إليه السنن من ألفاظ الحديث الدالة على معانيه.

- **وإسناد الحديث**: هو رفع الحديث إلى قائله، وقد يطلق على «السنن».

- **والمسند** - بكسر السين - : الذي يرفع الحديث إلى قائله.

أو هو: من يروي الحديث بسنده، ويسمى «راوياً» أيضًا.

ويمثل لبيان ما تقدم بما يلي:

(١) أخرجه أبو داود، في الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء (٣١٣٦) والترمذى، في الأحكام عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (١٢٨٦).

(٢) أخرجه البخارى، في المناقب، باب صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (٣٣٩٠) ومسلم ، في الفضائل، باب كثرة حياته، (٤٣٨٦).

(٣) أخرجه البخارى ، المناقب، باب صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (٣٣٧٧) ومسلم ، في الفضائل، باب في صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (٤٤١٣).

قال الإمام البخاري^(١): (حدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوينِسِ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انتِزاعًا يَتَّسِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُقْبِلْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا خَهَالًا، فَسُلِّمُوا فَأَفْتَوُا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا») فقول البخاري: «حدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوينِسِ ... - إِلَى قَوْلِهِ - سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ» يسمى «سنداً».

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انتِزاعًا ... إِلَخُ الْحَدِيثِ» يسمى «متناً».

فالحديث «مسند» أي: مروي بسنده.

والبخاري «مسند» أي: يروي الحديث بسنده.

وفعل البخاري يسمى «إسناداً».

ثالثاً: الألقاب العلمية للمشتغلين بالحديث الشريف:

- **الرواي**: هو «المُسَنَّد» وقد مرّ تعريفه قريباً.

- **المحدث**: من تحمل الحديث روایة، واعتنى به درایة، وذلك بحفظ جملة مستكثرة من المتن، ومعرفة الرجال جرحًا وتعديلًا وتاريخًا ...

- **الحافظ**: هو الذي يكون ما يعرفه من الأحاديث روایة ودرایة وفهمًا أكثر مما يجهله.

- **الحاكم**: من أحاط علمًا ومعرفة بجميع ما يروى من الأحاديث متناً وإسناداً، روایة ودرایة، وفهمًا.

- **أمير المؤمنين في الحديث**: من فاق أقرانه في المعرفة والعلم بالحديث بحيث يصبح مرجع أهل عصره، وأطبقوا على أهليته دون مخالف.

^(١) في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠).

وقلَّ من نال هذه المرتبة من المُحَدِّثين، فمَمْنَ أُطْلِقَ عليه هذا اللَّقب:

- سُفِيَّانُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ مُسْرُوقٍ الشَّوَّرِيُّ الْكُوفِيُّ (ت: ١٦١هـ).
- شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ بْنُ وَزْدٍ أَبُو بَسْطَامَ الْعَتَكِيُّ (ت: ١٧٠هـ).
- عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَبَارِكِ بْنُ وَاضْحَى الْمَرْوَزِيُّ (ت: ١٨٢هـ).
- سُفِيَّانُ بْنُ عَيْنَةَ بْنِ مَيْمُونٍ الْهَلَالِيُّ الْمَكِّيُّ (ت: ١٩٨هـ).
- الْبَخَارِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ (ت: ٢٥٦هـ).
- مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ التَّیَسَابُرِيُّ (ت: ٢٦١هـ).

رابعاً - علم الحديث:

- علم الحديث: «عِلْمٌ يُعرَفُ بِهِ أَحْوَالُ السَّنَدِ وَالْمُتَنَّ من حيث القبول والرَّد، وآدَابُ روایته، وكيفية فهمه».

ويسمى هذا العلم أيضاً: «علم مصطلح الحديث» و«علم مصطلح الأثر» و«علم أصول الحديث».

ويقسم علم الحديث بهذا المعنى الإضافي إلى قسمين:

- ١ - علم الحديث روایة.
- ٢ - علم الحديث درایة.

أمّا علم الحديث روایة: فهو علم يقوم على نقل الأحاديث، وروايتها بدقة، وتحرير ألفاظها وضبطها.

وأمّا علم الحديث درایة: فهو علم يتضمن تحيص هذا المَرْوَى ونقدِه، لتمييز المقبول من المردود، ثم فهم هذا المَرْوَى.

وعليه فعلم الروایة يتحقق بمَرْدَدِ النَّقْلِ مع الضَّبْطِ والإتقان، وعلم الدَّرَايَة يتحقق معرفة القواعد وتطبيقاتها، للوصول إلى الحكم على الحديث، كما يهدف إلى فهم المتن فهماً صحيحاً.

أهمية هذا العلم وفائدة:

هذا العلم فوائد كثيرة منها:

١ - معرفة ما يُقبل من الحديث وما يُردّ:

فالمقبول يؤخذ به ويعوّل عليه في الاحتجاج اللغوي والاستنباط الفقهي، والمردود يؤطرح
ويُبَدَّل فلا يؤخذ به.

٢ - إيجاد الثقة في النقوص في الأحاديث التي يثبت إسنادها وتُعرف صحتها.

٣ - تكوين ملامة عند الدّارس لهذا الفن يتمكّن بها من تمحيص الأخبار الواردة من
أحاديث نبوية أو أخبار تاريخية وغيرهما.

هذا وقد قامت في هذا العصر دعوة إلى إيجاد منهج ضابط يستعمل في تمحيص
الأخبار والحوادث التاريخية، ولقد بيّن عددٌ من المؤرخين غير المسلمين أهمية المنهج الذي اتبّعه
المحدثون من خلال علم مصطلح الحديث^(١).

٤ - الإكبار لهذا الخصم من علماء الحديث الذين سعوا لإبراز هذا المنهج المتميّز في
توثيق الأخبار الذي لا يوجد له نظير في أي حضارة معروفة إلى الآن.

^(١) يحسن هنا أن نشير إلى كتاب (مصطلح التاريخ) للأستاذ الدكتور أسد رستم، فقد اعتمد اعتماداً كبيراً
على كتب مصطلح الحديث ، ومنها (علوم الحديث) لابن الصلاح فقد نقل منه نصوصاً كاملة.

المبحث الثاني

تطور تدوين الحديث الشريف

مررت كتابة الحديث الشريف وتدوينه في طريقه إلينا بعدة مراحل ساعدت على تخلصه من الشوائب، ونستطيع أن نحصر هذه المراحل في أربع مراحل هي:

المرحلة الأولى - الحفظ في الصدور:

واستمرت هذه المرحلة في الصدر الأول من الإسلام، أي: في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين ومطلع الخلافة الأموية، ويرجع الاعتماد في حفظ السنة النبوية على حفظ الصدر في هذه المرحلة لعدة أسباب هي:

السبب الأول: أن الأمة العربية التي وُجد فيها رسول الله ﷺ - وكان واحداً منها - أمة أميّة لا تحسن القراءة ولا الكتابة إلا النذر اليسير منهم، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بذلك، فقال عزّ من قائل: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَسُلُّو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرِكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [الجمعة: ٢] وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أُمَّةَ أُمِّيَّةً، لَا نَكْثُرُ وَلَا نَحْسُبُ...»^(١).

لكنها إلى جانب ذلك كانت مضرب المثل في الذكاء وصفاء الطبع وقوّة الذاكرة وسرعة الحفظ، وإننا لنجد ذلك في حفظ العرب لأنساقهم وشعرهم وتاريخ وقائهم وأيامهم مع الإحاطة والدقة.

(١) أخرجه البخاري، في الصوم، باب قول النبي ﷺ: (لا نكتب) (١٨٢٥) ومسلم، في الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤبة الملال (١٨٦٠).

السبب الثاني: عدم توفر وسائل الكتابة عند من يستطيع الكتابة منهم، فقد كانوا يكتبون على ما يتوفّر لديهم من حجارة صالحة لذلك، أو عظام، أو سعف نخلٍ، أو جلود ماشية، وقليلًا ما كانت متوفّرة لديهم.

السبب الثالث: انشغالهم بكتابه القرآن الكريم وعنائهم به وانصرافهم إليه دون ما عداه، وهذا السبب له ارتباط بالسبب التالي.

السبب الرابع: ما ورد من نهي النبي ﷺ عن كتابة أي شيء غير القرآن مخافة أن يلتبس بالقرآن الكريم، فقد قال ﷺ: «لا تكتبوا عني، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي عَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»^(١) اللَّهُمَّ إِلَّا مَا أَذِنْتَ بِهِ لَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد قال عبد الله: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَيْتُنِي قَرِئْشٌ، وَقَالُوا: أَنْتَ كُنْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْعَصْبِ وَالرِّضَا؟، فَأَنْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأَصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ، فَقَالَ: «أَكْتُبْ، فَوَاللَّهِ نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(٢). إضافة إلى ما كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتبه من عهود ومواثيق ... وغير ذلك.

المرحلة الثانية – مرحلة التدوين:

وهي مرحلة تدوين الحديث وكتابته مخافة الاندراس والضياع، وخشية الاختلاط بغيره، أو الوضع والدنس فيه، ففي رأس المئة من الهجرة رأى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز (ت: ١٠١ هـ) رحمة الله أن يحمل العلماء على أن يدونوا الحديث، فكتب إلى أمرائه على الأمصار الإسلامية يأمرهم بذلك، فكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت: ١٢٠ هـ): «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإليّ حفظ دروس

^(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، باب الشبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٥٤٣٧).

^(٢) أخرج أبو داود، في العلم، باب في كتاب العلم (٣١٧٩).

العلم وذهب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ. وكذلك كتب إلى سائر ولادة الأمصار.

وقد امثل الولاة والعلماء هذا الأمر، فكان من بادر إلى الكتابة الإمام ابن شهاب الزهري (ت: 124 هـ) عالم الحجاز والشام، وكذلك فعل أبو بكر بن حزم وغيره، ولكن المنية عاجلت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قبل أن يجتمع لديه نتاج ما قام به هؤلاء العلماء الأفذاذ.

وقد نجح العلماء في ظل الخلافة العباسية - في القرن الثاني الهجري - نجح سيدنا عمر بن عبد العزيز في تدوين الحديث، وزادت العناية والاهتمام به في هذا القرن، كما شجع الخلفاء العلماء على التّصصي والجمع ، فقد طلب أبو جعفر المنصور ثانية خلفاء بني العباس من الإمام مالك بن أنس (ت: 179 هـ) إمام أهل المدينة أن يجمع كتاباً في الحديث، فدُون الإمام مالك كتابه «الموطأ» في مقبول الحديث وصححه.

وامتاز التّدوين في هذه المرحلة بالجمع والزنج بين السنن والأحاديث المروفة للنبي ﷺ وبين أقوال الصحابة وفتاوي التابعين وأقاويلهم.

ومن كتب هذه المرحلة التي وصلتنا سوي «الموطأ» للإمام مالك:

- المصنف: لأبي بكر عبد الرّزاق بن همام الصنعاني (ت: 211 هـ).

- المصنف: لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي (ت: 235 هـ). وهذه الكتب مرتبة على الأبواب.

المرحلة الثالثة - مرحلة تحرير الحديث النبوي:

وفي هذه المرحلة قام العلماء الحفاظ بتدوين الأحاديث النبوية فقط، وذلك بتحليصها مما كان متزجاً بها من آثار الصحابة وفتاوي التابعين، وهذه المرحلة ترجع إلى القرن الثالث والقرن الرابع الهجريين، وقد شاع في هذه المرحلة تدوين الحديث على طريقة المسانيد - جمع أحاديث كلّ صاحبي على حدة - ومن أشهر من صنف على هذه الطريقة:

- الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ).
- أبو يعقوب إسحاق ابن راهويه التميمي المروزي (ت: ٢٣٨ هـ).

كما ظهرت في هذه المرحلة الأصول السُّنَّة التي عليها التعويل عند جمهور المسلمين، وهي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم^(١)، والسنن لأبي داود، والجامع للترمذى، والسنن للنسائي، والسنن لابن ماجه^(٢).

ولم يكُن القرن الرابع الهجري ينتهي حتى أُحضرت متون الأحاديث النبوية، واستُوِعِبتْ أسانيدُه في مجموع المصنفات الحدیثیة، ولم يفُتْها إلا ما شدَّ وندر.

المرحلة الرابعة – مرحلة الترتيب والتهذيب:

وقد ابتدأت هذه المرحلة مع أواخر القرن الرابع الهجري، وهي مستمرة إلى يومنا هذا، فكان كُلُّ جيل من أئمة المسلمين يقوم بترتيب تلك السنن وتنسيقها، وتحذيفها وشرحها، وتنميقها في مؤلفات استلهماها من خلال حاجة تلك العصور فيما يُعنون ويفوّتون ويجمعون ويفرقون.

ومن ألوان التصنيف التي ظهرت في هذه المرحلة.

- الجمع بين عدد من كتب المتقدمين مع شيء من التصرُّف والاختصار والترتيب على الأبواب، مثل كتاب «جامع الأصول» لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦ هـ) الذي جمع بين الأصول السُّنَّة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائي، وموطأ مالك.

- كتب جمعت الأحاديث في مواضيع مفردة مثل:

كتاب «الترغيب والتهذيب» للإمام عبد العظيم المُنْذَرِي (ت: ٦٥٦ هـ).

^(١) سُيّاطي التعريف بهما في بحث الصحيح.

^(٢) سُيّاطي التعريف بما في بحث الحسن.

كتاب «رياض الصالحين» للإمام يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦ هـ).
وغيرها الكثير.



المبحث الثالث

تاريخ علوم الحديث

تقدُّم معنا أنه يقصد بعلوم الحديث مجموعة القواعد والقوانين التي يتوصل من خلالها إلى تمييز مقبول الحديث من مردوده، ومعرفة آداب روایته، وكيفية فهمه. وقد مررت بعده مراحل وفق ما يلي:

المرحلة الأولى – دور النشوء:

نشأ هذا العلم مع نشوء رواية الحديث في عصر الصحابة رضوان الله عليهم، إلى نهاية القرن الهجري الأول، فقد راعى الصحابة وكبار التابعين أصول الرواية وقواعدها التي تشكل منها هذا العلم فيما بعد، وذلك في أثناء نقلهم وروايتهم لحديث رسول الله ﷺ، فمن تلك القواعد التي التزمت عند رواية الحديث عند الصحابة والتابعين رضي الله عنهم:

- ١ - تقليل الرواية عن رسول الله ﷺ خشية الخطأ أو النسيان أو الوهم.
- ٢ - التثبت في الرواية عند التلقي وعند الأداء:

وكان أول من احتاط في قبول الأخبار سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد سار على نهجه في التثبت الخليفة من بعده سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الإمام شمس الدين الذهبي^(١) في ترجمة عمر رضي الله عنه: «وهو الذي سنَّ للمحدثين التثبت في التلقي ، وربما كان يتوقف في خبر الواحد إذا ارتتاب ، فروى الجirيري عن أبي نصرة عن أبي سعيدٍ أنَّ أبو موسى سَلَّمَ على عمرَ من وراءِ البابِ ثلَاثَ مَرَّاتٍ ، فلمَّا يُؤْذَنَ له فرجعَ ، فأرسلَ عمرَ في أثْرِهِ ، فقالَ: لَمْ رجعتَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَلَّمَ أَخْدُوكُمْ ثَلَاثَةً فَلَمْ يُجْبِ فَلْيَرْجِعْ» . قالَ: لَتَأْتِيَّ عَلَى ذَلِكَ بِيَّنَةً أَوْ لَأَفْعَلَنَّ بِكَ . فَجَاءُنَا أَبُو مُوسَى مُتَقْعِداً

^(١) تذكرة الحفاظ: ١١/١.

لوئه ونحْن حلوسٌ، فقلنا: ما شائُنك؟ فأنجربنا، وقال: فهل سمع أحدٌ منكم؟ فقلنا: نعم، كُلُّنا سمعَه، فأرسلوا معي رجلاً منهم حتَّى أتني عمرَ فأخبره».

وقد أوضح عمر رضي الله عنه الدافع وراء صنيعه هذا بقوله: (إِنِّي لَمْ أَهْمِكْ وَلَكِنْ أَحِبُّتْ أَنْ أَثْبِتَ).

٣ - **نقد المرويات:** ويعدُّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رائداً في ذلك، فقد سمع من فاطمة بنت قيسٍ رضي الله عنها أنَّ زوجها طلقها ثلاثة، فلم يجعل لها رسول الله ﷺ شُكْرٌ، وَلَا نَفَقَةً، قالَ عَمْرُ: لَا تَنْتَرُكِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنْنَةَ نَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَ لَا تَدْرِي لَعْلَّهَا حَفِظَتْ أَوْ تَسْيَطَتْ، لَهَا السُّكْنَى، وَالنَّفَقَةُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» [الطلاق: ١] ^(١).

المرحلة الثانية – ابتداء تدوين مفردات من هذا العلم:

حافظ الصحابة ومن بعدهم من كبار التابعين على هذه القواعد والقوانين في أثناء تحمُّلهم للحديث، وفي أثناء أدائهم له، وإن لم تكن هذه القواعد قد دُوِّنت بعد، إذ إنَّ أولى قواعد هذا الفن المكتوبة ظهرت في طيَّات كتاب «الرسالة» للإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت: ٢٠٤ هـ) حيث تكلَّم عن: قبول حديث الواحد والمرأة، وصيغة من ثُقُول روایته، وقبول العنونة من غير المدلِّس، وقبول روایة المدلِّس إن صرَّح بالتحديث، وردَّ خبر من كثُر غلطه ... إلخ.

كما جاءت بعض قواعد هذا الفن مدَّوَنة في أثناء كتب الرواية، كتلك التي جاءت في تراجم بعض أبواب صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) حيث تقرأ في (كتاب العلم) التراجم التالية: باب قول المحدث: «حدثنا وأخربنا»، باب ما يذكر في المناولة، باب متى يصحُّ سماع الصغير؟، باب كتابة العلم ... وغيرها.

(١) أخرجه مسلم، في الطلاق، باب المطلقة ثلاثة لا نفقة لها (٢٧٩٧).

كما أشار رحمة الله إلى بعض مسائل هذا الفن في مواضع متعددة من صحيحه كمسألة: زيادة الثقة، والمتابعات، وبيان غريب بعض الألفاظ، والاختلاف الروايات.

وأيضاً الإمام مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١ هـ) فقد أورد في مقدمة صحيحه جملة من المسائل، منها: تقسيم حملة الأخبار إلى طبقات، وكيفية معرفة المنكر في حديث المحدث، وزيادة الثقة، وأداب الرواية، وجواز الجرح وأنه ليس من الغيبة، والحديث المعنون وصححة الاحتجاج به.

كما تناولت بعض المسائل في ثانيا سنن الإمام محمد بن عيسى الترمذى (ت: ٢٧٩ هـ)، إضافة إلى ما ذكره في «العلل الصغير» الملحق بالسنن، وما كتبه الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥ هـ) في رسالته إلى أهل مكة المعرفة بكتابه «السنن».

المراحل الثالثة - ظهور مصنفات ذُكرت بعض الأنواع المفردة:

وتنتهي من بداية القرن الثاني إلى بداية القرن الهجري الثالث إلى منتصف القرن الرابع الهجري:

فقد ظهر في هذه المرحلة بعض الكتب المفردة في نوع من أنواع علوم الحديث، ككتب في علم غريب الحديث، وكتب في علم مختلف الحديث ومشكله، وكتب في علم الناسخ والمنسوخ، وكتب في معرفة العلل، ... مثل: غريب الحديث للقاسم بن سلام (ت: ٢٤٥ هـ)، والناسخ والمنسوخ لأبي بكر ابن الأثرم (ت: ٢٦١ هـ)، والاختلاف الحديث للإمام محمد بن إدريس الشافعى (ت: ٢٠٤ هـ)، والعلل للإمام علي بن المديني (ت: ٢٣٤ هـ).

وهذه القائمة غيرها من فيض يصعب حصره من الكتب التي غيرت بتدوين علوم الحديث المفردة حيث: «أصبح التصنيف أمراً متابعاً لا ينفك عن إمام في الحديث».

المرحلة الرابعة – ظهور المؤلفات الجامحة لأنواع علوم الحديث:

وتبدأ من منتصف القرن الرابع المجري، وتقنـد إلى منتصف القرن السابع المجري تقريباً: ففي هذه المرحلة أصبحت علوم الحديث ذات شخصية اعتبارية، لها معالمها المتميزة عن بقية العلوم والفنون التي عرفها المسلمون، ولعل أول من حاول جمع مباحث علوم الحديث بفنونها المتعددة، القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرَّامِهُرْمُزِي (ت: ٣٦٠ هـ) في كتابه الذي سمى «الحاديـث الفاصل بين الرَّاوِي والواعِي» تكلـم فيه عن: آداب الرواية، وطرق التحـمـل والأداء ... وغيرها.

ثم تلاه في هذا المضمار الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن البيـع المعروف بالحاكم النـيسـابوري (ت: ٤٠٥ هـ) في كتابه «معرفة علوم الحديث» حيث نـوع مسائل هذا الفن إلى اثنـين وخمسـين نوعـاً.

وجاء من بعدهم الإمام الخطـيب أـحمد بن علي البـغـادـي (ت: ٤٦٣ هـ) فأـلـفـ في أـغلـبـ أنـواعـ الحـدـيـث كـتـبـاً مـفـرـدةـ، وـوـضـعـ أـيـضاـ كـتـابـيـنـ مـسـتـوـعـبـيـنـ: خـصـصـ أحـدـهـماـ لـقـوـانـينـ الـرـوـاـيـةـ، وـقـوـاعـدـهاـ، وـأـصـوـلـهاـ الـعـامـةـ، بـعـنـوانـ: «الـكـفـاـيـةـ فـيـ قـوـانـينـ الـرـوـاـيـةـ».

وـخـصـصـ الثـانـيـ مـنـهـماـ فـيـ آـدـابـ الـرـوـاـيـةـ وـتـدـوـينـ الـحـدـيـثـ وـحـفـظـهـ وـتـوـثـيقـهـ، وـالـرـحـلـةـ فـيـ طـلـبـهـ، بـعـنـوانـ: «الـجـامـعـ لـأـخـلـاقـ الرـاوـيـ وـآـدـابـ السـامـعـ».

وـعـلـىـ كـتـبـ الـخـطـيبـ أـصـبـحـ تعـوـيـلـ الـمـشـتـغـلـيـنـ وـالـكـاتـبـيـنـ فـيـ عـلـومـ الـحـدـيـثـ، حـتـىـ قـالـ ابنـ نقطـةـ: «كـلـ منـ أـنـصـفـ عـلـيـ أـنـ الـحـدـيـثـ بـعـدـ الـخـطـيبـ عـيـالـ عـلـىـ كـتـبـهـ».

المرحلة الخامسة – دور الـاكـتمـالـ:

ويـسـتـمرـ منـ منـتـصـفـ الـقـرنـ السـيـاحـ إلىـ بـداـيـةـ الـقـرنـ الـعاـشرـ المـجـرىـ تقـرـيـباـ: فقد تمـ فيـ هـذـهـ الـمـرـحـلـةـ جـمـعـ شـتـاتـ مـقـاصـدـ عـلـومـ الـحـدـيـثـ وـضـمـ مـتـفـرـقاـتـهاـ، وـالـعـنـيـةـ بصـيـاغـةـ قـوـاعـدـ وـفـقـ الـحـدـودـ الـمـنـطـقـيـةـ ، وـقـدـ كـانـ رـائـدـ هـذـهـ الـمـرـحـلـةـ إـلـامـ اـبـنـ الصـلـاحـ أـبـاـ

عمرو تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن الشهراوى نزيل دمشق (ت: ٦٤٣هـ)، فقد قام بإتماله كتاب جامع لتصانيف الخطيب البغدادي ومن سقه، فهذب فنون الحديث، فحوى كتابه ما تفرق في غيره.

وقد كان كتاب ابن الصلاح تحولاً جديداً في هذا الفن، فقد قسم علوم الحديث إلى خمسة وستين نوعاً تناولت جوانب هذا العلم كافة، قدّمها في شكل مصطلحات وتعريفات محررة منظمة ودقيقة غالباً.

ومن ثم عكف عليه العلماء شرحاً ودرساً وتدريساً ونظموا واحتصاراً ومعارضة وانتصاراً وإليك أمثلة من هذه الجهدات:

احتصره كلٌّ من:

- الإمام النووي يحيى بن شرف (ت: ٦٧٦هـ) بكتابه: «إرشاد طلاب الحقائق» ثم اختصر هذا الكتاب بكتابه: «التقريب والتيسير لمعرفة سُنن البشير التَّدِيرِ».
- بدر الدين بن جماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله الكتاني (ت: ٧٣٣هـ)، وله «المنهل الرَّوِيُّ في علوم الحديث الْبَوِيِّ» لخُصُّه من كتاب ابن الصلاح، وغيره في ترتيبه.
- ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) وله «الاختصار في علوم الحديث».

ومن علق عليه:

- بدر الدين الزركشي: محمد بن بحدار الشافعى (ت: ٧٩٤هـ) في «النُّكَّت على ابن الصلاح».

- الزين العراقي: عبد الرحيم بن الحسين (ت: ٨٠٦هـ) وله: «النُّكَّت على ابن الصلاح» أو «التفيد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح».

- ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) وله: «الإفصاح بتكميل النُّكَّت على ابن الصلاح».

وغيرهم.

وقد نظمه كله من:

- زين الدين العراقي: عبد الرحيم بن الحسين (ت: ٨٠٦هـ) في أفيته المشهورة.
- جلال الدين عبد الرحمن الشيوطي (ت: ٩١١هـ) في أفيته المشهورة بعنوان: «نظم الدرر في علم الأئمة».

وخلال الذين كتبوا بعد ابن الصلاح ساروا على سيره في الترتيب، ومنهم من خالفه في طريقة التصنيف والتبويب، كابن جماعة (ت: ٧٣٣هـ) في «المنهل الروي». وابن حجر (ت: ٨٥٢هـ) في متن «نخبة الفكر» الذي شرحه في «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر».

المراحلة السادسة – وتمتد من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر المجري، وقد اتسمت هذه المرحلة بالجمود والركود؛ فقد اكتفى معظم المشغلين بهذا الفن بمتابعة من سبقهم في المرحلة الخامسة، فقاموا بشرح كتبهم أو التعليق عليها أو وضع الحواشى، وكان محور اهتمامهم مرئياً – بالدرجة الأولى – على (نخبة الفكر) وشرحها لابن حجر ، وعلى كتاب ابن الصلاح ثانياً، فلم نشهد في هذه المرحلة تجديداً في منهج التصنيف أو طريقة التأليف .

المراحلة السابعة – وتبدأ من مطلع القرن الرابع عشر المجري، فقد نهض أهل العلم فأعطوا دفعاً جديداً إلى هذا العلم اقتضته عوامل منها:

- ١ - ظهور المنهج الأكاديمي المعاصر في تعريب العلوم والتأليف فيها، إذ كثرت الجامعات والكليات الشرعية، ومن ثمّ كان من الواجب تقديم علم مصطلح الحديث بقوالب جديدة واضحة.
- ٢ - الشبهات الكثيرة التي بدأت تلقي بظلالها على الحديث وعلومه من قبل بعض المستشرقين وأتباعهم من المستغربين، مما اقتضى أن تتضمن المصنفات المعاصرة في هذا الفن أبحاثاً جديدة في كشف الشبهات والردّ عليها، ودفع الافتراءات والأكاذيب.

ومن مصنّفات هذه المرحلة:

- ١ - توجيه النظر إلى علوم الأثر: للشيخ طاهر الجزائري (ت: ١٣٣٨هـ).
- ٢ - قواعد التحديث: للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ).
- ٣ - المنهج الحديث في علوم الحديث: للدكتور محمد السماحي رحمه الله.
- ٤ - منهج النقد في علوم الحديث: للأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله.

وقد كان لهما الفضل في ابتكار ما يمكن تسميته «الطريقة المنهجية» في التأليف في هذا العلم، إذ قسما علوم الحديث إلى أقسام، بين أفراد كل قسم من هذه الأقسام قاسم مشترك، فقسم في علوم الرواية، وقسم في علوم الرؤاية، وقسم في أنواع الحديث من حيث القبول والرد، وقسم في علوم المتن .. وهكذا.

هذا ولا ننسى في هذا المقام المؤلفات القيمة النافعة التي قام بتأليفها أساتذة أكارم،

منها:

- «علوم الحديث ومصطلحه» للدكتور الشهيد صبحي الصالح رحمه الله.
- «أصول الحديث: علومه ومصطلحه» للأستاذ الدكتور محمد عجاج الخطيب حفظه الله.
- «الوسيط في علوم الحديث» للأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد أبو شهبة رحمه الله.
- «لتحات في أصول الحديث» للأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح حفظه الله ... وغيرهم.



الفصل الثاني

طرق الرواية وأنواع علوم الرواية

المبحث الأول: طرق تحمل الحديث وأدائه

المبحث الثاني: علم رواة الحديث



المبحث الأول

طرق تحمل الحديث وأدائه

- التَّحْمِلُ: «تلقى الحديث عن راويه أو الشَّيْخِ».

ويشترط في التَّحْمِلِ أَنْ يكون مُبِيِّراً، صحيح السَّمَاعِ، ويحصل التَّمييز بفهم الخطاب ورد الجواب على ما عليه أهل التحقيق من أئمة المحدثين، وعليه فلا يشترط في المتلقِّي أن يكون بالغاً، فيصبح سَمَاعُ الصَّيْحِ المُبِيِّرِ، ولا اعتبار للسِّنِّ، خلافاً لمن حَدَّدَ سَنَّ السَّمَاعِ بخمس سنوات استدلاًّا بحديث مُحَمَّودَ بْنِ الرَّبِيعِ رضي الله عنه الذي يقول فيه: «عَقَلْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجَّهًا مَجَّهَا فِي وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ حَمْسِ سِنِّي مِنْ ذَلِيلٍ»^(١)، لأنَّ هذا الحديث لا يدلُّ على أكثر من أنه كان في هذا السِّنِّ مُبِيِّراً، وعليه فلو كان مِنْ دون هذا السِّنِّ مُبِيِّراً صح سَمَاعُه، أمَّا إن تجاوز هذا السِّنِّ ولم يُبِيِّرْ فَلَا يصُحُّ سَمَاعُه.

- الأداء: «هو تحديد الرَّاوِي الشَّيْخِ ما كان قد تَحْمَلَه».

ويشترط في الحَدِيثِ المُؤَدِّيِّ ما تَحْمَلَه أَنْ يكون عند أدائه قد بلغ أهلية الأداء حتى يقبل منه ويُحتجَّ بحديثه، وهذه الأهلية تأتي تفصيلاً في بحث (الجرح والتعديل)، وبحمل القول فيها أن يكون المؤدي: «عدلاً، ضابطاً».

وقد حصر العلماء التَّحْمِلُ والأداء بثمانية طرق، هي:

أولاً - السَّمَاعُ مِنْ لِفْظِ الشَّيْخِ

وهذه الطريقة أعلى طرق التَّحْمِلِ عند الجمهور، وتقسم إلى:

١ - إِمْلَاءُ: ويقصد به أَنْ يَتَّخِذُ الْمَحْدُثُ موعداً مُحدداً يجتمع إليه فيه طلاب الحديث، فيقوم بينهم، وينلي عليهم الحديث وهم يكتسبون، وبعد أن يفرغ من إِمْلَائِه يقابل ما أَمْلَاه لِإِصْلَاحٍ ما يمكن أن يقع فيه من الخطأ.

^(١) أخرجه البخاري في العلم، باب متى يصح سَمَاعُ الصَّغِيرِ؟ (٧٧).

وللإملاء آداب، منها: أن يتحرّى بإملائه الأحاديث (الواضحة المعاني، العالية الإسناد، القصيرة المتن) وأن يُتبّع روایته للحديث ببيان درجته، ويضبط غريبه، ويشحّ مُشكّله، ويبيّن ما يستفاد منه.

٢ - التحديد من غير إملاء: أي بسرد الحديث متتابعاً، وهذه الصورة هي الأكثر شيوعاً.

وفي الحالين يمكن أن يكون تحديد الشيخ من حفظه أو من كتابه. ويجوز لمن تحمّل بالسماع أن يؤكّد بقوله: حدثنا، أو أخرين، أو أباًنا، أو أمّنا، أو سمعت من فلان، أو قال لنا فلان ... أو ما شاء من الألفاظ التي تعبر عن تحقق السّماع.

ثانياً - القراءة على الشيخ:

ويسميّها بعض المحدثين: «العرض» إذ إن القارئ يعرض ما يقرؤه على الشيخ. والرواية بها صحيحة وجائزة عند جمهور العلماء، سواءً أكان الرواية يقرأ من حفظه أم من كتابه، أم سمع من غيره يقرأ على الشيخ، بشرط أن يكون الشيخ حافظاً لما يقرأ عليه، أو يقابل على أصله الصحيح، سواءً أكان أصله بيده أم بيد ثقة آخر، فإذا أراد أن يحدّث بما تحمّله بالقراءة على الشيخ حاز أن يقول: قرأْتُ، أو: قرئَ على فلان وأنا سمع فآقرَ به، أو أخرين، أو: حدثنا قراءةً عليه.

ثالثاً - الإجازة:

وهي الإذن بالرواية لفظاً أو كتابة، وهي دون السّماع أو القراءة في المرتبة.

والإجازة على أوجه، منها:

- ١ - إجازة معين لمعين: مثل أن يقول ل聆ميذه: أجزتك برواية كتابي أو مرويّاتي - ويحدّدها - أو يقول: أجزت فلاناً برواية «كتاب الصحيح للبخاري». وهي جائزة عند الجماهير.

٢ - إجازة غير معين لمعين: كأن يقول الشيخ: «أجزت فلاناً برواية مسموعاتي أو مرويّاتي» دون أن يحدد له تلك المسموعات أو المرويات.

وفي الرواية بها خلاف، والراجح جواز الرواية بها إذا عرف تلك المرويات أو تحديد المسموعات.

٣ - الإجازة لغير معين: مثل أن يقول: «أجزت للمسلمين» أو «أجزت للموجودين». أو «أجزت ملن قال: لا إله إلا الله» وتسمى «الإجازة العامة» وقد اعتمد بها طائفة من الحفاظ أمثال الخطيب البغدادي وغيره.

٤ - الإجازة للمجهول بالمجهول: مثل أن يقول: «أجزت محمد بن خالد» وهناك عدد من الأشخاص بهذا الاسم دون أن يحدد واحداً منهم. أو يقول: «أجزت لفلان أن يروي عني السنن» وهو يروي مجموعة من كتب السنن، ولم يحدد أي كتاب يريد.

ومثله ما لو قال: «أجزت ملن يشاء فلان» فإن فيها جهالة وتعليقًا.

وهذا الوجه من الإجازة فاسد لا تصح الرواية به على الصحيح.

٥ - إجازة ما لم يتحمّلها: كأن يجيز بكتاب صحيح البخاري وهو ليس من مروياته أصلاً، وذلك كأن يقول: «أجزتك برواية صحيح البخاري إن رويتها» فهذا الوجه من الإجازة لا يصح.

٦ - إجازة المُجاز: مثل أن يقول: «أجزت لك رواية ما أرويه بالإجازة» أو «أجزتك بمحازاني». وال الصحيح صحة هذا الوجه من الإجازة، والله أعلم. ومن صيغ الأداء بالإجازة أن يقول: «أجازني فلان» أو «أبأني إجازة» أو: «حدثنا إجازة» أو: «أحررنا إجازة».

رابعاً - المناولة:

وهي «إعطاء الشَّيْخ الطَّالب شَيْئاً مِنْ مَرْوِيَّاتِه بِيَدِه، وِإِخْبَارُه أَنَّه مِنْ مَرْوِيَّاتِه».

وهي على نوعين:

١ - **المناولة المقرونة بالإجازة:** وحكمها ما تقدَّم عند الكلام عن إجازة المعين بمعين، وقد جعلها بعضهم منزلة السَّمَاع.

وصورتها: أن ينأى الشَّيْخ الطَّالب كتابه ويقول له: هذا سَمَاعِي فاروه عني، ثم يقيمه معه، إِمَّا تَمْلِيْكًا وَإِمَّا لِيَنْسَخَه.

ولها صورة أخرى، وهي: أن يأتي الطَّالب إِلَى الشَّيْخ بكتاب فيه مَرْوِيَّاتُ الشَّيْخ أو مَسْمُوعَاتِه، فيتناوله الشَّيْخ ويتَأْمِلُه، ثُمَّ يعيده للطالب ويقول له: هو حديثي فاروه عني، أو هو سَمَاعِي وقد أَجْزَتُك بِرَوَايَاتِه عَنِّي.

وقد استحسن العلماء تسمية هذه الصورة من التَّحَمُّل «عرض المناولة».

٢ - **المناولة المجردة عن الإجازة:** مثل أن ينأى به كتاباً ويقول له: «هذا سَمَاعِي» أو «هذا من مَرْوِيَّاتِي» أو «هذا من حديثي» وفي جواز الرواية بما خلاف. وصَحَّ النَّوْيُ عدم جواز الرواية بها.

ومن صيغ الأداء بها: أن يقول: «نَاؤْلَنِي فلان وأَجَازَنِي» أو: «نَاؤْلَنِي مَعَ الإِجازَة» أو: «حَدَّثَنِي فلان بالمناولة» أو «أَنْبَأَنَا فلان بالمناولة والإجازة».

خامسًا - الكتابة أو المكابحة:

وهي: «أَنْ يَكْتُب الشَّيْخ للطالب شَيْئاً مِنْ مَسْمُوعَاتِه أو مَرْوِيَّاتِه بِخَطَّه، أو بِخَطَّ ثَقَة يَأْمُرُه بِذَلِك، سَوَاء أَكَان الطَّالب حاضراً أَمْ غائباً».

وهي على نوعين أيضاً:

١ - كتابة مقرونة بالإجازة، فهي كإجازة المقرونة بالمناولة من حيث صحة التحمل والرواية بها.

٢ - كتابة مجردة عن الإجازة: وقد صحّح الرواية بها كثيرون إذا عُرِفَ خطُّ الكاتب. وقد جعلها بعضهم أقوى من الإجازة، واحتار ذلك السيوطي، وقد روى بها صاحبا الصحيح البخاري ومسلم في صحيحهما.

ومن صيغ الأداء بها قوله: «حدثني فلان مكتبة أو كتابة» أو «كتب إلى فلان قال».

سادساً - الإعلام:

«إعلام الشيخ الطالب أنّ هذا الحديث أو الكتاب من سمعه أو من مرويّاته» أي: من غير أن يصرّح له بالإجازة، كأن يقول الشّيخ لبعض من حضر عنده: «أروي صحيح البخاري عن فلان، وصحيح مسلم عن فلان» أو يقول: «أروي حديث النّيّة عن فلان». وفي صحة الرواية بها خلاف، ولعل الصحيح عدم صحة الرواية بها. وصيغة الأداء بها عند من يقول بها: «أعلمني فلان».

سابعاً - الوصيّة:

وهي «أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره لشخص معين بكتاب، أو حديث، أو أحاديث رواها هذا الشيخ» وقد صحّح الرواية بها بعض العلماء، والصحيح الذي عليه ابن الصلاح والنّووي أنها لا تصح.

وصيغة الأداء بها عند من يجّوزها: «أوصى إلى فلان»

ثامناً - الوجادة:

وهي «أن يقف على أحاديث أو كتاب من مرويّات شيخ، بخطه أو مكتوب بحضرته» قال ابن كثير: له أن يرويه على سبيل الحكاية، فيقول: «وحدثت بخط فلان: حدثنا فلان...» وقع هذا في مسند الإمام أحمد: يقول ابنه عبد الله: «وحدثت بخط أبي: حدثنا فلان»

ثم قال: «والوجهة ليست من باب الرواية، وإنما هي حكاية عمّا وحده في الكتاب».



المبحث الثاني

علوم رواة الحديث

أولاً - تواريخ الرواية

التاريخ هو: «التعريف بالوقت الذي تضيّق به الأحوال في المواليد والوفيات وما يلتتحق به من الحوادث والواقع التي ينشأ عنها معانٍ حسنة من تعديل وتحريف ونحو ذلك»^(١). وفائدة معرفة تواريχ المحدثين كشف اتصال الأسانيد وانقطاعها، والكشف عن أحوال الرؤاة وفضح الكاذبين.

قال سفيان الثوري: «لَمَّا استعمل الرؤاة الكذب استعلمنا لهم التاريخ». وقال حفص بن غياث: «إِذَا أَهْمَمْتُمُ الشَّيْخَ فَحَاسِبُوهُ بِالسَّنَنِ». يعني احسبوا سنه وسنّ من يروي عنه.

قال الحاكم النيسابوري: لَمَّا قدم علينا محمد بن حاتم الكشمي وحدّث عن عبد بن حميد سأله عن مولده، فذكر أنه ولد سنة ستين ومئتين. فقلت لأصحابنا: سمع هذا الشيخ من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة !!

ولذلك اعنى علماء الحديث بتواريخ الرواية، ومعرفة وفيات الشيوخ ، ولا سيما ما يتصل بالنبي ﷺ، ورواية الحديث من أصحابه، وأئمة علماء الدين من بعدهم، فلا يجوز أن يغفل عنها طالب الحديث.

وأشهر مؤلف في تواريخ الرواية:

(التاريخ الكبير) للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تكلّم فيه بإيجاز عن الراوي، وذكر شيوخه وتلامذته، وربما تعرّض أحياناً للجرح والتعديل.

^(١) فتح المغيث للسحاوي: ٤٥٩/٤.

ثانياً - طبقات الرواية

الطبقة لغة: القوم المتشابهون.

وفي الاصطلاح: قوم تقاربوا في السنّ وفي الإسناد، أو في الإسناد فقط، بأن يكون شيوخ هذا هم شيوخ الآخر^(١).

ويحتاج الناظر في هذا الفن إلى معرفة مواليد الرواية ووفياتهم. ومن أخذوا عنه، ومن أخذ عنهم^(٢).

ويختلف اعتبار الراوي من أي طبقة هو باختلاف الجهة والأمر الذي نصّفه على أساسه، وعند هذا فُرْبَ شخصين يكونان من طبقة واحدة لتشابههما بالنسبة إلى جهة، ومن طبقتين بالنسبة إلى جهة أخرى لا يتشابهان فيها.

فأنس بن مالك الأنصاري وغيره من أصغر الصحابة دون أبي بكر ونحوه من أكابر الصحابة بطبقات، إذا نظرنا إلى تفاوّتهم في السبق إلى الإسلام، لكنه يُعدُّ معهم من طبقة واحدة هي عموم الصحابة إذا نظرنا إلى اشتراكهم في أصل صفة الصُّحة، وعلى هذا فالصحابة جميعهم طبقة أولى، والتابعون طبقة ثانية، وأتباع التابعين طبقة ثالثة، وأتباع أتباع التابعين طبقة رابعة، وأتباع أتباع التابعين طبقة خامسة.

وهذه الطبقات الخمس هي طبقات الرواية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وهو نهاية عصر الرواية.

وفائدة معرفة الطبقات التوصل إلى التمييز بين الرواية المتشابهين، والأمن من التداخل، لأنّ يتّفق إسمان في اللفظ فيُيظنُّ أحدهما الآخر، فيتميّز ذلك بمعرفة الطبقة.

وأشهر مصنّف في هذا الفن:

(الطبقات الكبرى) للإمام الحافظ محمد بن سعد كاتب الواقدي.

^(١) تدريب الراوي: ٣٥٠ / ٢.

^(٢) ينظر المرجع السابق.

ثالثاً - الصحابة رضي الله عنهم

الصحابة رضوان الله عليهم هم الجيل الأول الذي تلقى الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ، وقاموا ببرويتها وإذاعتها بين الناس، ومن هنا تأتي أهمية معرفة الصحابة وأحوالهم، لتمتين الثقة بصحّة نقلهم للحديث.

والصحابي: «هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام».

وعليه يدخل في الصحابة من طالت محالسته أو قصرت.

وخرج بقولنا «مؤمناً به» من لقيه قبل أن يسلم ثم أسلم بعد ذلك ولم يجتمع به ﷺ بعد الإسلام، مثل التَّنْوِيْحِيِّ رَسُولُ هرقل.

ومن أهم فوائد معرفة الصحابة تمييز الحديث المرسل من المنقطع والموصول، فإذا لم نعرف النَّاقل للحديث فهو صحيبي أو ليس بصحيبي لا يمكن لنا ذلك.

طرق إثبات الصُّحْبَة: يُعرَفُ الصَّحَابِيُّ بِإِحْدَى الْطُّرُقِ التَّالِيَّةِ^(١):

١- **التوأثر:** بأن ثبُّت صحبته عن عدد كبير من الصحابة، كالخلافاء الراشدين الأربع وبقية العشرة المبشّرين، والسيدة عائشة الصَّدِيقَة رضي الله عنهم جميعاً.

٢- **الشهرة والاستفاضة:** وهي قاصرة عن رتبة التوأثر، كضمّام بن شعبة، وعُكَاشة بن مخْصَن رضي الله عنهمَا.

٣- أن يُروى عن واحد من الصحابة أنَّ فلاناً له صحبة، مثل حَمَّةَ الدَّوْسِيِّ: شهدَ له أبو موسى الأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا سَيَّعْنَا فِيمَا تَعْنَى مِنْ نَيْكُمْ ﷺ، وَمَا بَلَغَ عِلْمَنَا، إِلَّا أَنَّ حَمَّةَ شَهِيدٌ»^(٢).

٤- أن يُروى عن أحد التابعين أن فلاناً له صحبة.

^(١) ينظر كتاب الإصابة: ١٤/١ - ١٥.

^(٢) انظر تدريب الراوي: ١٢٦/٢ . والإصابة: ٣٥٤/١ . والحديث أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢٣٩).

٥- أن يدعى لنفسه الصحبة، وذلك بشرطين:

أ - ثبوت عدالته.

ب - أن يكون في المدة الممكينة، وهي مئة سنة بعد وفاة النبي ﷺ، لقوله في آخر عمره لأصحابه: «أرأيتم كُلَّمَا تُكْثُرُ هذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِنْهَا هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ»^(١).

ولهذا التحديد النبوى المعجز لم يصدق الأئمَّةُ أحداً داعى الصحبة بعد المدة المذكورة. وقد كان أبو الطفيل عامرُ بنُ وائلةَ رضي الله عنه^(٢) آخر الصحابة موتاً، توفي سنة عشر ومائة للهجرة.

وقد داعى الصحبة جماعةً بعد هذا التاريخ فكذبوا، منهم رَبِّ الهندى، داعى الصحبة بعد السنتين.

طبقات الصحابة:

قسم الصحابة إلى طبقات من حیثيات متعددة ، منها سبقمهم في الإسلام، وشهود المشاهد الفاضلة^(٣)، وأما من حيث الرواية فيقسام الصحابة إلى ثلاث طبقات:

الأولى - طبقة كبار الصحابة، كالعشرة المبشرين بالجنة، ومن في طبقتهم من تقدم إسلامهم.

الثانية - طبقة أوساط الصحابة.

^(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر ، ورواه مسلم من حديث جابر ولفظه: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ الْيَوْمَ، تَأْتِيَ عَنْهَا مِائَةٌ سَنَةٌ، وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ» .

^(٢) تدريب الراوى: ٢/٤٥.

^(٣) كما صنع الحاكم في معرفة علوم الحديث: ١٥٨-١٦٣، حيث قسمهم إلى اثنى عشرة طبقة.

الثالثة - طبقة صغار الصحابة الذين تأخر إسلامهم، أو كانوا صغاراً في عهد رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عدالة الصحابة:

لقد احتضنَ الله الصَّحَابَة رضي الله عنهم بخُصُوصِيه لِيُسْتَ لسوامِهم من الْخَلْق، وهي أَنَّه لا يُسْأَل عن عدالة أحدٍ مِنْهُم، فهم جمِيعُهُم عُدُول ثبَّتَ عدالتَهُم بالقرآن والحديث: أَمَا القرآن: فقوله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ» [آل عمران: ١١٠] وقوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: ١٤٣]. وهذا ينطبق على الصَّحَابَة كُلُّهُم، لأنَّهُم المخاطبون مباشرةً بهذا النص.

وغير ذلك كثير من الآيات في فضل الصَّحَابَة والشهادة بعد التَّهْمَة. وأَمَا الأَحَادِيث: فكثرة غزيرة، منها: ما تواتر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَنُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَنُهُمْ»^(١).

وحدث أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق على صحته^(٢) أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تُسْبِّبُوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَخْدُوكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَخْدِ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَخْدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٣).

فهذه نصوص تُثْبِتُ العدالة لـكُلِّ الصَّحَابَة، مَنْ تَقدَّمَ إِسْلَامَهُ وَمَنْ تَأَخَّرَ، وَمَنْ طَالَ صحبته، وَمَنْ ظَفَرَ بِمُجْرِدِ اللِّقاء بِالَّتِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

^(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، وانظر الإصابة: ٢١/١.

^(٢) البخاري في المناقب، (٣٤٩١) ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٤٧١٥).

^(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠). والنصف هو النصف.

يقول ابن عبد البر: «قد كُفينا البحث عن أحواهم، لِجَمَاع أهْل الْحَقِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
وَهُمْ أهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنْهُمْ كُلُّهُمْ عَدُولٌ»^(١).

بعض مناقب الصحابة:

- ١ - قال ابن الصلاح: «أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان أو الأحداث عليّ، ومن النساء خديجة، ومن المولى زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال»^(٢).
- ٢ - أفضل الصحابة: أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان «أبي قحافة» التميمي، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم عليّ بن أبي طالب، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية.
- ٣ - أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ: أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدؤسي، وعبد الله بن عمر، وعائشة الصديقة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم جيئاً.
- ٤ - اشتهر بالعلم من الصحابة العبادلة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو. عاشوا حتى احتاج إلى علمهم، فإذا اجتمعوا على شيء قيل: هذا قول العبادلة، أو هذا فعلهم.
- ٥ - آخرهم موتاً على الإطلاق: أبو الطفيلي عامر بن وايلة، ثُوّي سنة عشر ومئة^(٣)، ثُوّي بمكة المكرمة. وآخرهم وفاة بالمدينة محمود بن الربيع (ت: ٥٩٩هـ). وبالبصرة أنس بن مالك (ت: ٥٩٣هـ). وبالكوفة عبد الله بن أبي أوفى (ت: ٥٨٦هـ). وبالشام عبد الله بن بُسر

^(١) الاستيعاب في أسماء الأصحاب: ١/٨.

^(٢) علوم الحديث: ٣٠٠.

^(٣) وقال ابن الصلاح مات سنة مئة من الهجرة. والتحقيق ما ذكرناه.

(ت: ٩٦ هـ) توفي بحمص. ومحضر عبد الله بن الحارث بن جعزة الزييدي (ت: ٨٦ هـ) رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين^(١).

المصنفات في تراجم الصحابة:

ألف في تراجم الصحابة عشرات الكتب، أشهرها وأجمعها:

١ - الاستيعاب في أسماء الأصحاب: للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر النميري

(ت: ٤٦٣ هـ)، جمع فيه ما تفرق في كتب الصحابة المدونة من قبله، فلذلك سماه «الاستيعاب» وهو مرتب ترتيب حروف المعجم المغربي، وقد فاته ذكر جميع من الصحابة.

٢ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: للإمام علي بن محمد الجزرري عز الدين ابن الأثير

(ت: ٦٣٠ هـ): جمع فيه بين أربعة كتب سبقته، فكان غاية ما انتهى إليه الجمع /٧٥٠٠/ صحابي، رتبه على حروف المعجم ترتيباً دقيقاً، ووَقَعَتْ له بعض الأوهام تسرّتْ إليه من سبقه، وصحح أوهاماً أخرى وَقَعَتْ له.

٣ - الإصابة في تمييز الصحابة: للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

(ت: ٨٥٢ هـ)، استقصى في جمعه ما كتبه السابقون، وتتبع كتب الحديث وتاريخ الرواية والسير النبوية، فاستخرج منها أسماء صحابة فاتت غيره، وقد رتب الكتاب على أحرف الهجاء، وقسم كل حرف أربعة أقسام، ميّز فيه من ثبت لقاوه بالنبي ﷺ ممّن لم يثبت، وبئه فيه على ما ذُكر في الكتب السابقة على سبيل الوهم والغلط.

^(١) ينظر تدريب الراوي: ١٤٦/٢ - ١٤٩.

رابعاً - التابعون

التابع هو: «من شافه أصحاب رسول الله ﷺ»^(١).

وفائدة هذا العلم التمييز بين المرسل والمتصدّل.

طبقات التابعين:

يُقسّم التابعون إلى ثلاث طبقات ، وهي:

الأولى: طبقة كبار التابعين، وهم الذين روا عن كبار الصحابة.

الثانية: طبقة متوسطي التابعين، وهم الذين روا عن الصحابة وعن التابعين.

الثالثة: طبقة صغّار التابعين، وهم الذين حدّثوا عن صغّار الصحابة، وعن من سبّهم

من التابعين.

وأول التابعين موتاً أبو زيد معمراً بن يزيد، قُتِلَ سنة ثلاثين، وآخرهم موتاً خلف بن خليفة، مات سنة ثمانين ومئة.

ومن التابعين: **المُخضّرون**، واحدهم مُخضرم، وهو الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله ﷺ وأسلم، ولم يلقه.

ومن المخضّرين أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن ملّ، والأسود بن يزيد.

فضل التابعين:

خلف التابعون أصحاب رسول الله ﷺ في حمل العلم ونشره، فكان لهم الفضل على من بعدهم، وقد أثني عليهم القرآن، قال تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأُوَلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ

وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» [التوبه: ١٠٠]

^(١) معرفة علوم الحديث: ٢٠٣.

وقال رسول الله ﷺ في حَقِّهِمْ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».»

ومن سادات التابعين:

من أهل مكة المكرمة: عطاء بن أبي رياح (ت: ١١٤هـ)، وطاوس بن گيسان (ت: ١٠٦هـ).

ومن أهل المدينة «الفقهاء السبعة»، وهم: سعيد بن المسيب (ت: ٩٠هـ)، والقاسم بن محمد (ت: ٦٠هـ)، وعروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ)، وخارجة بن زيد (ت: ١٠٠هـ)، وأبو سلمة بن عبد الرحمن (ت: ٩٤هـ)، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة (ت: ٩٤هـ)، وسليمان بن يسار (ت: بعد المغة).

ومن أهل الكوفة: علقة بن قيس النَّخعي (ت: بعد ٦٠هـ)، ومسروق بن الأجدع الحمداني (ت: ٦٢هـ).

ومن البصريين : الحسن بن يسار البصري (ت: ١١٠هـ)، ومحمد بن سيرين (ت: ١١٠هـ).

ومن الشاميين: أبو إدريس الخوارزمي (ت: ٨٠هـ)، وقيصية بن ذؤيب الخزاعي (ت: بعد ٨٠هـ).

ومن أهل مصر : يزيد بن أبي حبيب (ت: ١٢٨هـ)، وبكير بن عبد الله الأشجع (ت: ١٢٠هـ).

ومن سيدات نساء التابعيات: حفصة بنت سيرين (ت: بعد ١١٥هـ)، وعمرة بنت عبد الرحمن (ت: قبل ١٠٠هـ)، وأم الدرداء الصغرى (ت: ٨١هـ).

ومن الأخطاء الواقعة في هذه الطبقة:

أ - طبقة تُعدُّ في التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة، منهم إبراهيم بن سُوَيْد النَّخعي، وبكير بن أبي السميط، وثابت بن عجلان.

ب - طبقة عددهم في أتباع التابعين وقد لقوا الصحابة، منهم: أبو الزناد عبد الله بن ذكوان، لقي أنس بن مالك وأبا أمامة بن سهل.

وهشام بن عمروة وقد دُخل على عبد الله بن عمر وحابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

ج - قوم عُذُوا من التابعين وهم صحابة، كالنعمان وسويد ابني مقرن المزني عَدُّهَا

الحاكم من التابعين^(١)، وهو صحابيان معروفان^(٢).

خامساً - الأكابر الرواة عن الأصغر

قد يروي الكبير القدر أو السن، أو الكبير فيما معه عَمَّ دونه، كما قيل: «لا يُبَلِّغُ الرَّجُلُ حَتَّى يَأْخُذْ عَمَّا هُوَ فَوْقُهُ، وَعَمَّا هُوَ مِثْلُهُ، وَعَمَّا هُوَ دُونُهُ».

ومن فائدةهـ : أن لا يُتوهُّم انقلاب السند، وأن لا يُظَنَّ أن المرويَّ عنه أفضل من الراوي، نظراً إلى أن الأغلب كون المروي عنه أكبر من الراوي. روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَن نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»^(٣).

ومن أمثلة هذا النوع رواية الصحابي عن التابعي، كرواية بعض الصحابة عن كعب الأحبار بعض ما كان يحدُث به من أخبار السابقين.

شيءٌ وردَها:

يقول الدكتور نور الدين عتر: «وهذا قد استند إليه بعض الملاحدة فزعم - تبعاً للمستشرقين - أن الصحابة سمعوا من كعب الأحبار أشياء ونسبوها إلى النبي ﷺ ، وهذه دعوى فاجحة، قامت على تحريف كلام العلماء، فإن العلماء لم يقولوا أبداً (إن الصحابة

^(١) في نوع الأخوة والأخوات من كتابه معرفة علوم الحديث: ٤٥٣ . وانظر علوم الحديث لابن الصلاح:

. ٢٧٦

^(٢) ترجمهما ابن حجر في الإصابة: ٩٩/٢ و ٥٣٢/٣ .

^(٣) أورده الإمام مسلم في مقدمة صحيحه.

نسبوا ذلك إلى النبي ﷺ ولا وقع ذلك من الصحابة، وإنما نبهوا إلى هذا النزول في السند دفعاً للتّوهم.

ومن ذلك قولهم في عبد الله عمرو: (أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يرويها للناس عن النبي ﷺ) ونسب الطاعن ذلك إلى (فتح الباري)، وهذا خيانة وخداع، حيث دسَّ الطاعن في كلام الحافظ كلمة ليست فيه، وهي (عن النبي) فرادها كذبًا، ونسبها للحافظ ابن حجر بحتاناً ... !!!^(١).

ومنه أيضاً رواية التابعي عن تابع التابعي، كرواية ابن شهاب الزهرى (ت: ١٢٥ هـ) عن الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩ هـ).

سادساً - علم الجرح والتعديل

أهلية الرواية (الأداء):

أجمع المحدثون على أنه يشترط فيمن يُحتج بحديثه من الرواية أن يكون عدلاً ضابطاً:

١ - العدالة: «ملكة تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمرءة» أي تحمله على امثال الأوامر واجتناب التوادي، والوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل الصفات. وعليه فلا ثُقْبَل رواية الصغير، أو الجنون، أو الفاسق وهو: مرتكب الكبيرة، أو المصير على فعل صغيرة، أو مرتكب ما يُخلِّ بالمرءة.
وما يخلُ بالمرءة^(٢) ينقسم إلى قسمين:

الأول: الصغار الداللة على الخسارة كسرقة الشيء الحقير، أو التطفيف بالشيء البسيط.

الثاني: المباحث التي تسبِّب الازدراء من قبيل الآثرين وتذهب بالهيبة، كفرط المراح الذي يتجاوز به حد الاعتدال.

^(١) منهج الن قدص: ١٥٦.

^(٢) وهو ما يعبر عنه في مجتمعنا بـ(العيب).

٢ - الضبط: «وهو إتقان ما يرويه الرّاوي بأن يكون متيقظاً غير مغفل، حافظاً إنْ حدث من حفظه، ضابطاً لكتابه إن حدث منه، عالماً بما يُحيل المعاني إن حدث بالمعنى».

وقد ظهر من التعريف أن الضبط على قسمين:

- أ - ضبط الصَّدر:** ويراد به أن يحفظ الرّاوي ما سمعه وحفظه في صدره من وقت التّحمل إلى وقت الأداء بحيث يتمكّن من استحضاره متى شاء.
- ب - ضبط الكتابة:** بأن يصون كتابه الذي دون فيه ما تحمّله من الحديث من وقت تحمّله إلى وقت أدائه، بحيث يأمن عليه من التّغيير والتّبدل، والزيادة والنّقص.

رواية من اختلط: ويدخل في الكلام على الضبط الحديث عن رواية من اختلط.

والمحتليط: «هو من ساء حفظه لعارضٍ من كبر، أو خرق، أو ذهاب بصره، أو احتراق كتبه التي كان يعتمد عليها في روايته»، فهذا:

- إن حدث قبل الاختلاط قُبِلت روايته.
- وإن حدث بعده رُدِت روايته ولم يُحتاج بها.
- وإن لم يتميّز ما رواه؛ هل رواه قبل الاختلاط أو بعده ثُوّق فيه.

ويعرف ما رواه قبل الاختلاط باعتبار الرّواة عنه، فمن علم أنه لم يسمع منه إلا قبل الاختلاط قُبِل.

ومن اختلط من المشهورين:

- عبد الله بن همزة : اختلاط لذهب كتبه.
- عبد الرزاق الصياعي : اختلاط بأخره بعد أن عمى.
- أبو بكر بن مالك القطبي : اختلاط في كبره وخرف، حتى كان لا يدرِي ما يقول أو يقرأ.

- وَتُعْرَفُ عِدَالَةُ الرَّاوِيِّ بِأَحَدِ شَيْئَيْنِ:

١ - **الشهرة والاستفاضة**: فمن اشتهرت عدالته بين أهل العلم من أهل الحديث وغيرهم كان عدلاً، ولا يحتاج إلى البحث عن عدالته أو إلى أقوال أهل الجرح والتعديل فيه، كسفياں بن عيینة، وسفیان الثوری، وابن شهاب الزہری، واللیث بن سعد، وشعبة ابن الحجاج، والبخاری، ومسلم. وأمثالهم.

٢ - بتعديل أئمة الجرح والتعديل: بأن ينص إمام - من أهل هذا الشأن من يقبل قوله في الجرح والتعديل - على عدالة راوٍ.

- **أما الضبط**: فيعرف بمقارنة مرويات الثقات المتقنيين الضابطين، فإن وافقهم غالباً فهو ضابط، ولا تضر مخالفته النادرة، فإن كثُرت مخالفته وندرت موافقتها اختُل ضبطه ولم يُحتاج بحديده.

قواعد في الجرح والتعديل:

يقوم هذا العلم على مجموعة من القواعد، من أهمها:

القاعدة الأولى - الإجمال في التعديل والفصيل في الجرح:

فيقبل التعديل من غير ذكر سبب، لأن موجباته كثيرة، يصعب استقصاؤها، وأما الجرح فلا يقبل إلا مبيّن السبب.

القاعدة الثانية - تعارض الجرح والتعديل:

إذا اجتمع في راوٍ جرح وتعديل - بحيث جرحة إمام أو أكثر من أهل الفتن وعدله إمام أو أكثر - فالمعتمد أن الجرح مقدم على التعديل، بغض النظر عن عدد المعدلين أو الجارحين، لأن المعدل يُخبر عن ظاهر الحال، والجراح يُخبر عن باطنٍ خفيٍ على المعدل، فكان معه زيادة علم يؤخذ بها.

القاعدة الثالثة – شروط الجراح والمعدل:

لا يُقبل الجرح إلاً مَنْ توافرت فيه العدالة واليقظة والمعرفة التامة بأسباب الجرح والعدالة والضبط، مع حُسن تطبيق ذلك على الرُّواة، وسِير لأحوال الرُّواة والمرويات، وقد قرروا أَنَّه لا يُقبل الجرح مَنْ أَفْرَط في التَّجْرِيْح، أو أَفْرَط في التعديل فعَدَلْ بمُجَرَّد ما يُظَهِّر مِنْ غَيْرِ اخْتِبَار. ومن شروط المعدل – زِيادة عَلَى مَا تَقَدَّمْ – النَّقْوَى واللَّوْرَى والبَعْدُ عَنِ التَّعَصُّبِ والهُوَى. ومن أَشَهَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذَا الْفَنِّ مَنْ اتَّصَفُوا بِالْأَوْصَافِ الْمُذَكُورَةِ: الإِمَامُ مَالِكُ بْنُ أَنْسٍ (79هـ)، وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَاحِ (ت: 196هـ)، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيِّ (ت: 198هـ)، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ (ت: 238هـ).

وقد صنَّفَ الشَّمَسُ السَّخَاوِيُّ رسَالَةً بِعِنْوَانِ: «الْمُتَكَلِّمُونَ فِي الرِّجَالِ». مُطَبَّوِعَة.

المجهول والمستور:

ذَكَرْنَا أَنَّ التَّوْثِيقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالشَّهَرَةِ وَالاستِفَاضَةِ، أَوْ بِنَصٍّ مِنْ إِمَامٍ مُعْتَمِدٍ، وَأَمَّا مَنْ

لَمْ يَرِدْ فِي حَقِّهِ نَصٌّ بَحْرَجٌ أَوْ تَعْدِيلٌ أَوْ لَمْ يَشْتَهِرْ:

١ - فَإِنْ كَانَ يَرْوِيُ عَنْهُ وَاحِدًا فَقَطَ فَهُوَ «المجهولُ الْعَيْنِ» وَذَلِكَ مِثْلُ:

- خَيْرُ بْنُ شَفَاءَ: يَرْوِيُ عَنْهُ مَعاوِيَةَ بْنَ صَالِحٍ فَقَطَ، وَلَمْ يُذَكَّرْ فِيهِ جَرْحٌ أَوْ تَعْدِيلٌ^(١).

٢ - وَإِنْ رَوَى عَنْهُ اثْنَانِ فَأَكْثَرَ سُمِّيَّ: «مجهول الحال» وَيُسَمَّى أَيْضًا «مستورًا»، وَذَلِكَ

مِثْلُ:

- عَوْنَ بْنَ صَالِحِ الْبَارِقِيِّ: رَوَى عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَبَارِكِ وَوَكِيعُ بْنُ الْجَرَاحِ، وَلَمْ يَؤْتَ أَوْ

يُجَرِّحَ^(٢).

وَ«مجهولُ الْعَيْنِ» لَا تُقْبَلُ رِوَايَتُهُ عِنْدَ الْجَمَهُورِ.

^(١) ينظر المغني في الضعفاء: ١٢٨.

^(٢) ينظر تهذيب التهذيب: ١٧١/٨.

أَمَّا «الْمُسْتُورُ» فَيَحْتَاجُ بِرَوَايَتِهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ، وَيَحْسَنُ حَدِيثُهُ الْإِمامُ التَّرْمِذِيُّ إِذَا اعْتَصَدَ بِتَابِعٍ أَوْ شَاهِدَ.

الأفاظ الجرح والتعديل ومراتبها:

جعل العلماء لكل من الجرح والتعديل مراتب، وعبروا عن كل مرتبة بالأفاظ ثانية عن تفاوت الرواية في اتصافهم بالعدالة أو الجرح، ومئن بين مراتب الجرح والتعديل وأوضاعها الحافظ ابن حجر، وسند ذكر هذه المراتب اعتماداً على ما ذكره رحمه الله في (تقريب التهذيب) ^(١):

المرتبة الأولى: الصحابة على اختلاف مراتبهم، وهذه أعلى درجات التعديل.

المرتبة الثانية: من أكدد مدحه:

- إِمَّا بِأَغْفَلْ: كـ(أوثق الناس) ...

- أَوْ بِتَكْرِيرِ الصَّفَةِ لِفَظًا: كـ(ثقة ثقة) ...

- أَوْ بِتَكْرِيرِ الصَّفَةِ مَعِنًى: كـ(ثقة ثبت) أو (ثقة حافظ) ...

المرتبة الثالثة: من أفرد بصفة من صفات التوثيق، كـ(ثقة) أو (متقن) أو (ثبت) ...

المرتبة الرابعة: من قصر عن الثالثة قليلاً، وإليه الإشارة بـ(صدق) أو (لابأس به) ...

المرتبة الخامسة: من قصر عن الرابعة قليلاً، وإليه الإشارة: بـ(صدق و سوء الحفظ) أو (صدق يهم) ...

المرتبة السادسة: من ليس له من الحديث إلا القليل، ولم يثبت فيه ما يترك حديثه من أجله، ويشار إليه بـ(مقبول) حيث يتبع، وإنما (لبن الحديث).

^(١) ص (٧٥).

المرتبة السابعة: من روى عنه أكثر من واحد ولم يوثق، ويشار إليه بـ(مستور) أو (محظوظ الحال).

المرتبة الثامنة: من لم يوجد فيه توثيق، ووجد فيه إطلاق الضعف، ويشار إليه بـ(ضعيف).

المرتبة التاسعة: من لم يرو عنه غير واحد، ولم يوثق، ويشار إليه بـ(محظوظ).

المرتبة العاشرة: من لم يوثق البُنْتَة، وضُعِّفَ بما يقدح، ويشار إليه بـ(متروك) أو (متروك الحديث) أو (واهي الحديث) أو (ساقط).

المرتبة الحادية عشرة: من اتهم بالكذب.

المرتبة الثانية عشرة: من أطلق عليه اسم الكذب أو الوضع، وهذه أحط مراتب الجرح.

ويستخدم العلماء ألفاظاً أخرى في التعديل أو الجرح يمكن عند التأمل إلهاقاتها بإحدى المراتب السابقة.

المؤلفات في الجرح والتعديل:

صنف الأئمة في الكلام على الرؤاة جرحاً وتعديلأً كثيراً من الكتب، ومن هذه المؤلفات ما أفرد للثقات، أو أفرد للضعفاء، ومنها ما جمع بينهما:
فمما أفرد للثقات:

- ١ - الثقات: للإمام أحمد بن عبد الله العجلي (ت: ٢٦١هـ) وهو غير مرتب، وقام بترتيبه الإمام السبكي وسياه (ترتيب الثقات).
- ٢ - تذكرة الحفاظ: للحافظ شمس الدين محمد الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، ترجم فيه لكل من بلغ مرتبة الحافظ.

وممّا أللّف في الضعفاء:

- ١ - **الكامل في الضعفاء**: للحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي (ت: ٣٦٥هـ) أورد فيه كل من تكلّم فيه، ولو لم يكن الكلام مؤثراً.
 - ٢ - **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: للإمام الذهبي، اعتمد فيه على كتاب الكامل، فسار على منهجه في إيراد كلّ من تكلّم فيه.
- ## ومن الكتب التي تجمع الثقات والضعفاء:

- ١ - **الجرح والتعديل**: للإمام عبد الرحمن بن الإمام أبي حاتم الرّازي (ت: ٣٢٧هـ)، وهو من أجلّ كتب هذا الشأن.
- ٢ - **تحذيب الكمال في أسماء الرجال**: للحافظ أبي الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزّي (ت: ٧٤٢هـ)، وهو كتاب حافل ذكر في رواة الكتب الستة، واستعمل الرموز المصطلحة للكتب، فرمز للبخاري (خ) ولمسلم (م) ولأبي داود (د) وللترمذمي (ت) وللنّسائي (س) ولابن ماجه (ق) وللسّتة مجتمعين (ع) ولأصحاب السنّتين الأربع (عه).



الفصل الثالث

أنواع علوم الحديث من حيث القبول والرد

المبحث الأول: الحديث الصحيح

المبحث الثاني: الحديث المحسن

المبحث الثالث: الحديث الضعيف

المبحث الرابع: الحديث الموضوع



المبحث الأول

الحديث الصحيح

تعريفه: «هو الحديث الذي اتصل سنته بقل العدل الضابط عن العدل الضابط من أول السند إلى مُنتهاه: ولم يكن شاذًا ولا معللًا».

شروطه: يظهر من التعريف أنَّ شروط صحة الحديث خمسة هي:

- ١ - اتصال السند: أَنْ يكون كُلُّ رَاوٍ مِنْ روَاهُه قد تلقَّى الحديث عن شيخه من أول السند إلى آخره، فإذا كان أَخْدُلَ الرُّوَاةَ لم يتلقَّه عن شيخه مباشرةً كان غير مُتَّصل^(١).
- ٢ - عدالة الرواية: بأنْ يكون كُلُّ رَاوٍ مِنْ روَاهُه موصوفاً بالعدالة في فروایة الصغيرين والمخنوں، والفاسق لا تُعدُّ صحيحة.
- ٣ - ضبط الرواية: أي أَنْ يكون كُلُّ رَاوٍ مِنْ روَاهُه مُتَصِّفًا بالضبط، أي أَنْ يحفظ بدقة ما يرويه من وقت سمعه من شيخه إلى حين روایته، بحيث يتمكَّن من استحضاره وقت أدائه، سواء حفظ ذلك في صدره أم حفظه في كتابه.
- ٤ - انتفاء الشُّذوذ: والشُّذوذ هو مخالفة أحد رواة الحديث مَنْ هو أَقْوى منه في الحفظ والإتقان، أو مخالفته لمن هم أَكْثر عدداً.

- ٥ - انتفاء العلة القادحة: وهي أمرٌ خفيٌّ يؤثِّر في صحة الحديث مع أَنَّ ظاهره السلام، ومعرفة العلل من اختصاص الجهابذة من حفاظ الحديث المُتقين.

فإذا توافرت هذه الشروط كاملة حكمنا بصحة الحديث تبعاً لذلك.

^(١) غير المُتَّصل يتَّسِعُ إلى أنواع أهمها: المرسل، والمنقطع، والمعرض، والمدلس، وسيأتي تعريفها.

مثال الحديث الصحيح:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه قال: حَدَّنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: حَدَّنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنِ الرُّهْبَرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاةِ، فَقَالَ: «الْحَيَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ».

١- **السند منصل**: فقد تلقى كل راوٍ من رواة هذا الحديث الحديثَ عن شيخه مباشرةً من دون واسطة.

٢٣- كل الرواية ثقات موصوفون بـ(العدالة) وـ(الضبط):

أبو بكر بن أبي شيبة : عبد الله بن محمد العبسي ، (ت: ٢٣٥ هـ)، ثقة حافظ .
سفيان بن عيينة : أبو محمد الكوفي ، المكّي ، (ت: ١٩٨ هـ)، ثقة حافظ فقيه إمام حجّة .

الزهري: محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهري ، أبو بكر المديني ، (ت: ١٢٥ هـ)، فقيه حافظ متقن .

سالم: هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي المديني ، (ت: ١٠٦ هـ)، ثبت فقيه .

أبوه: هو عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي، أبو عبد الرحمن ، الصحابي الجليل (ت: ٧٣ هـ).

٤- انتفاء الشذوذ: إذ لا يوجد مخالف لما روى هؤلاء الثقات.

٥- انتفاء العلة القادحة: إذ لم يكشف لنا أحدٌ من أئمة الحدثين عن علة قادحة تعطن في صحته.

فتواترت فيه شروط الصحة الخمسة، فالحديث صحيح.

أصح الأسانيد:

تقدّم أنّ سند الحديث هو رواهه الذين ينقلونه بعضهم عن بعض، وأن رواة الأحاديث الصحيحة هم الثقات الذين توافر في كلّ منهم العدالة والضبط، وأنّ مراتب التوثيق تتفاوت، فالأسناد الذي يكون كثُر راوٍ من رواهه في الدرجة العليا من التوثيق (ضبطاً، وإنقاذاً، وعدالة) كان لا جرم أصحّ مما دونه، فلهذا بحث نقاد الحديث في أصحّ الأسانيد. ومن الأسانيد التي وُصِفت بذلك:

- ١ - الأعمش سليمان بن مهران ، عن إبراهيم بن زياد النخعي ، عن علّامة بن قييس النخعي ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
- ٢ - مالك بن أنس ، عن نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهذا السند هو المسمى بـ«سلسلة الذهب».
- ٣ - جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي كرم الله وجهه.

مصادر الحديث الصحيح: قام بعض المحدثين بوضع مصنّفات خاصة للأحاديث الصحيحة. ومن أشهر هذه المصنّفات:

- ١ - **الجامع الصحيح المُسند المختصر** من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: الذي جمعه الإمام البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت: ٤٥٦ھ)، وهو المشهور بـ (صحيح البخاري)، وهو أول كتاب اقتصر على ذكر الأحاديث الصحيحة، وهو أصح الكتب الصحيحة.
- ٢ - **الجامع الصحيح**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٤٦١ھ)، تلميذ الإمام البخاري، وقد اشتهر كتابه بـ (صحيح مسلم)، ويأتي بعد صحيح البخاري من حيث الصحة.

وإذا قيل في حديث: «متفقٌ عليه» فهذا يعني أنه اتفق على تخرّجه الإمامان الجليلان البخاري ومسلم في صحيحيهما، وقد اتفق العلماء على أنَّ كلَّ ما في كتابيهما صحيح لاشكَّ في صحتِه.

هذا ولم يجمع البخاريُّ ومسلمٌ في صحيحيهما كُلَّ الأحاديث الصحيحة، بل اقتصرَا على أصحَّ الصحيح، ولذلك قام بعض الأئمَّة بجمع كتب أخرى في الحديث الصحيح، منها:

٣ - المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم التيسابوري (ت: ٤٠٥ هـ).

٤ - الصحيح: للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة التيسابوري (ت: ٣١١ هـ).

٥ - التقاسيم والأنواع (المعروف ب الصحيح ابن حبان): لأبي حاتم محمد بن حبان (ت: ٣٥٤ هـ).

أقسام الصحيح: يقسم علماء الحديث الصحيح إلى قسمين:

١ - الصحيح لذاته: وهو الحديث الذي توافرت فيه شروط الحديث الصحيح الخمسة، وذلك لاستيفائه لصفات القبول العليا.

٢ - الصحيح لغيره: وهو الحديث الذي لم تكتمل فيه صفات القبول العليا، مثل أن يكون أحد رواته غير تأمِّن الضبط، ثم يُروى حديثه من طريق آخر فيه راوٍ مثله أو أقوى منه، فعند ذلك يرتفق الحديث ويصبح صحيحاً، ليس لذاته، بل لما تأيَّد به من طريق آخر، فيُسمَّى عندها بالصحيح لغيره، لكون هذا الغير عضده وقواه.

فالصحيح لغيره : «هو الحديث الذي كان في أصلِه حديثاً حسناً، ثم تقوَّى فارتكب للصَّحة». والله أعلم.

حكم الحديث الصحيح: الحديث الصحيح حجّة في الأحكام الشرعية (العبادات، والمعاملات، ونظام الأسرة ...) فضلاً عن حجّته في الأخلاق والفضائل، كما أنه يعدُّ أصلاً من الأصول اللغوية عند جمهور أهل اللغة.



المبحث الثاني

الحاديـث المـعـدـن

تعريفه: هو الحديث الذي تتصل سنته بعقل القائل الضابط الذي حفظ ضبطه من غير أن يكون شاذًا ولا معللاً:

فالفرق بين الحديث الصحيح والحديث الحسن إنما يظهر في «ضبط الرواية» فراوي الحديث الحسن ليس تمام الضبط، بينما يجب أن يكون راوي الحديث الصحيح تمام الضبط، سواء وقعت خلأة الضبط في راوٍ واحدٍ من رواة السند أم في أكثر من راوٍ، بينما تمام الضبط يشترط في جميع رواة الحديث الصحيح.

مثال الحديث الحسن: قال الإمام أحمد في (المسند): حدثنا يونس قال: حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الماء - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ألا أخربكم بأحلكم إلى وأقربكم ممّا مجلساً يوم القيمة؟» فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثة، قالوا: نعم يا رسول الله ، قال: «أحسنكم أخلاقاً». فهذا الحديث:

- ١ - متصل السند.
- ٢ - جميع رواته عدول.

٣ - رواته متصفون بالضبط التام إلا عمرو بن شعيب ووالده شعيب بن محمد، فقد حفظ ضبط كلّ منهما.

٤ - ولا يوجد لما رواه هؤلاء مخالف، فالحديث ليس فيه شذوذ.

٥ - لم يعثر للحديث على علة قادحة.

وعليه فإننا نحكم على هذا الحديث بأنه حسن لأنّه وإن توافرت له شروط الصحة - بعض رواته قد خفت ضبطهم.

مراتب الحديث الحسن وأحسن الأسانيد:

بما أنَّ خفَّةَ الضبط في الرواية تتفاوت، فلذلك بحث العلماء في مراتب الحديث الحسن، كما بحثوا في مراتب الحديث الصحيح، وقد ذكروا أنَّ الحسن منه ما يكون قريباً من درجة الصحيح، ومنه ما هو دون ذلك، كالأسانيد التي هي قريبة من درجة الضعيف.

وبناء على ذلك ذكر العلماء أحسن الأسانيد وأقرها من درجة الصحيح، ومن هذه الأسانيد ما يرويه:

١ - **نَهْرُ بن حَكِيمٍ** عن أبيه حَكِيمٍ بن مُعاوِيَةَ، عن جَدِّه مُعاوِيَةَ بن حَيْدَةَ الْقُشَّيْرِيِّ رضي الله عنه.

٢ - **عَمْرُو بْنُ شَعِيبٍ** عن أبيه شَعِيبٍ بن مُحَمَّدٍ بن عَبْدِ اللَّهِ عن جَدِّه عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرُو ابْنِ العَاصِ رضي الله عنهمَا.

وهذان الإسنادان من الأسانيد التي عدَّها بعض العلماء - كالحاكم التيسابوري - من جملة أسانيد الصحيح، والجمهور على أлемها من أحسن الأسانيد.

وأَمَّا أدنى مراتب الحسن فمثل ما يرويه:

الحارث بن عبد الله الأعور، وعاصم بن ضمرة، وحجاج بن أرطأة، وأمثالهم من الرواة الذين يَعُدُّ بعض العلماء حديثهم في درجة الضعيف.

أقسام الحسن:

يُقسم الحديث الحسن إلى قسمين:

١ - **الحسن للذات**: وهو الحديث الذي توافرت فيه الشروط المذكورة في التعريف، وهو المراد إذا أطلق الحسن على الحديث.

وإذا تقوَّى الحسن لذاته ارتقى إلى رتبة «الصحيح لغيره» كما تقدَّم.

٢- الحسن لغيره: وهو الحديث الذي يكون في أصله ضعيفاً لاحتلال شرطٍ من شروط الحديث الحسن، ثم تقوّى بمعجمه من طريق آخر مثله أو أقوى منه، أو اعتمد بحديث آخر يشهد لصحة معناه، مع خلوه من شذوذٍ وعلةٍ قادحة.

ومثال الحسن لغيره: ما أخرجه الترمذى من طريق حنثى حسین بن قیسٍ، عن عکرمة، عن ابن عباسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا^(١) مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَعْمَلْ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ لَهُ». .

فهذا الحديث في سنته حسین بن قیس، وهو ضعيف عند أهل الحديث، لكننا نحكم بأن الحديث حسن لغيره، لأنّه تقوّى بأحاديث صحيحة تؤيّد معناه، منها الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» وأشار بِأَصْبَعِيهِ، يعني: السبابة والوسطى.

مظانُ الحديث الحسن: لم يفرد العلماء الحديث الحسن بصفات خاصة كما فعلوا بالنسبة للصحيح، لكن كتب السنن امتازت بأنّ معظم الأحاديث التي ترويها هي من قبيل الحسن، وفيها الصحيح والضعيف أيضاً، لكن أقل من الحسن. وأكثر كتب السنن شهرة وتدالياً :

١ - سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥ هـ)، وقد يبيّن درجة الأحاديث التي يرويها بقوله: «ذَكَرْتُ الصَّحِيحَ وَمَا يَشْبَهُهُ وَيَقَارِيهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ وَهُنْ شَدِيدُ بَيْنَهُ» وهو بعد الصالحين في الرتبة.

٢- سنن الترمذى (الجامع): للحافظ محمد بن عيسى الترمذى (ت: ٢٧٩ هـ)، ويعدّ العلماء هذا الكتاب أصلاً في معرفة الحديث الحسن، لأنّه أكثر من ذكره، ويمتاز الكتاب

(١) من قبض يتيماً: بيته الرواية الأخرى: (من آوى يتيماً) ولله المثلثة يطفئه ويقوم على شؤونه.

تبين درجة الحديث من الصحة والحسن والضعف، وكثيراً ما يشير إلى أسباب الضعف، وقد امتاز بأنه لم يذكر في كتابه إلا الأحاديث التي عمل بها العلماء أو بعضهم.

٣- **سنن النسائي** (**المجتبى أو المُجتَبى**): للإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت: ٣٠٣ھـ)، وقد احتصره من كتابه «السنن الكبير»، وهو أقل الكتب الأربع حديثاً ضعيفاً، وهو منزلة سنن أبي داود، وقد امتاز بعنایته الكبيرة بعنوانين الأبواب، بحيث تأتي متطابقة مع ما حواه الباب من الأحاديث.

٤- **سنن المصطفى**: للحافظ ابن ماجه محمد بن يزيد بن عبد الله القزويني (ت: ٢٧٩ھـ)، وهو أحد السنن الأربع، وقد امتاز بحسن التبويب في الفقه. وهذه الكتب الأربع بالإضافة إلى الصحيحين هي المعروفة بـ(**الأصول ستة**) أو (**الكتب ستة**) التي عليها المعمول في الحديث.

حكم العمل بالحديث الحسن: الحديث الحسن بقسميه - لذاته، ولغيره - حجة كالصحيح، وإنْ كان دون الصحيح في القوّة.

المبحث الثالث

الحديث الضعيف

تعريفه: هو الحديث الذي لم يستكمل صفات القبول.

وشروط الحديث المقبول ستة: العدالة، والضبط - ولو لم يكن تماماً - ، والاتصال، وعدم الشذوذ، وعدم العلة القادحة، وعدم العاضد عند الحاجة إليه.

أقسام الضعيف: يمكن أن نقسم الضعيف إلى قسمين رئيسين، هما:

١ - شديد الضعف: وهو غير صالح للاعتبار، ولا يصلح لأن يتقوى أو يقوى، ومن أنواع هذا القسم: الشاذ، والمنكر، والمضطرب.

٢ - خفيف الضعف: ويعبرون عنه بـ: (صالح للاعتبار) أي صالح لأن يتقوى فيصبح حسناً لغيره، إن جاء ما يقويه، فإن لم يأتي ما يقويه يبقى من مطلق الضعيف. ومن أنواع هذا القسم: المرسل، والمتقطع، والمتألس.

والحديث الخفيف الضعف هو الذي فقد شرط الاتصال، أو كان في رواته خفيف ضبط، بينما شديد الضعف هو الحديث الذي يكون في رواته من فقد شرط العدالة، أو يكون أحد رواته فاحش الخطأ، أو سيئ الحفظ.

حكم الحديث الضعيف :

المعتمد عند جاهير العلماء والمحدثين أنه يعامل بالحديث الضعيف في الفضائل والمناقب، ونحوها، بشروط هي:

١ - أن لا يكون الضعف شديداً.
٢ - أن يكون الحديث مندرجأ تحت أصل شرعي عام، معنوي به، أي يدرج تحت قاعدة عامة في الشرع.

٣ - أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته عن رسول الله ﷺ.

مثال ذلك:

ما أخرجه ابن ماجه قال^(١): حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدُ الْمَزَارِ بْنُ حَمْوِيَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَصْفُى، قَالَ: حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ نَوْرِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لِيَأْتِيَ الْعِيَدَيْنَ يَحْتَسِبُ اللَّهُ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْفُلُوبُ».

رواية إسناد هذا الحديث ثقات، إلا (بقيّة بن الوليد)، فهو وإن كان ثقة فإنه يدلّس عن الضعفاء ، وهو هنا لم يصرّح بما يثبت سماعه للحديث، فيكون الحديث ضعيفاً.

وقد ذهب العلماء إلى أنه يستحب إحياء ليالي العيدين بذكر الله تعالى وغيره من الطاعات لهذا الحديث الضعيف، لأنّه يُعمل به في فضائل الأعمال ، وهو مُندرج تحت أصل عام، وهو أنّ قيام الليل والتعبد فيه ورد الحضُّ عليه في القرآن والسنة، والتقرُّب إلى الله تعالى بالذكر والدعاء ومحوهما مُرْغَب فيه في جميع الأوقات والأحوال، وكل ذلك يشمل بعمومه ليالي العيدين اللتين همتنا من الفضل ما لهما.

^(١) في آخر الصيام برقم (١٧٨٢).

المبحث الرابع

الحديث الموضوع

تعريفه: «هو الحديث المُختار المصنوع المكذوب على النبي ﷺ». وإنما يسمى الموضوع حديثاً نظراً إلى زعم واضعه، فهو ليس بحديثٍ حقيقةً. والله أعلم.

حكم الوضع:

إذا كان مطلقاً الكذب يعد في الإسلام من الكبائر، فإن الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيْيَ لِيْسَ كَذَبٌ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبُوأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ولذلك قرر العلماء حرمة هذا الصنف.

حكم روایة الحديث الموضوع:

اتفق العلماء على حرمة روایة الحديث الموضوع مع العلم بوضعه، وعدوا فعل ذلك كبيرةً من الكبائر لقوله ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذَبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَابِينَ»، أمّا إنْ قصد بروايته بيان حال الحديث لينبه الناس فقد أجازه العلماء. والله أعلم.

علامات يُعرف بها الحديث الموضوع:

١ - إقرار الواضع صراحةً بفعله كما فعل أبو عصمة نوح الجامع، فقد وضع حديثاً طويلاً في فضائل سور القرآن ، وعلل فعله بإعراض الناس عن القرآن واشتغاظهم بالفقه والمغازي، فوضع لهم هذا الحديث حسبةً بزعمه.

٢ - التاريخ: كأن يحدّث الراوي بحديثٍ عن شيخٍ فيسأل عن مولده فيذكر تاريخاً يكون الشيخ المروي عنه قد مات قبله، فمثلاً: روى مأمون بن أحمد الهروي عن هشام بن عمّار من أهل الشام، فسألَه ابن حبان عن تاريخ دخوله إلى الشام ولقائه بهشام؟ فأجاب: سنة خمسين ومئتين. فقال له ابن حبان: إنَّ هشاماً الذي تروي عنه مات سنة خمس وأربعين ومئتين. فأظهر بذلك كذبه.

٣ - اشتغال الحديث على مبالغات مثل: «من قال: (لا إله إلا الله) خلق الله طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون له».

٤ - مخالفة الحديث الصريحة للقرآن الكريم، أو السنة الصحيحة، أو الإجماع: كحديث: مقدار الدنيا وأنها سبعة آلاف ونحن في الألف السابعة، فهو مخالف للحقائق التاريخية من ناحية، ويجعل كل واحد عالماً بوقت قيام الساعة من ناحية ثانية، ومن المعلوم ضرورة أن الله تعالى استأثر بعلم الساعة ومتى تكون.

إضافة إلى طرق أخرى يمكن من خلالها الكشف عن الحديث الموضوع وعن الوضاعين، تركنا سردها اختصاراً.

التصنيف في الموضوعات: عني الحفاظ عنية فائقة بجمع الأحاديث الموضوعة في كتب خاصة، منها:

١ - **الموضوعات:** لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، وهو من أجمع كتب الموضوعات وأكثرها شهرةً، لكن العلماء تعقبوه في بعض ما أورده.

٢ - **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة:** لجلال الدين السيوطي: اختصر موضوعات ابن الجوزي وتعقبه فيما يحتاج إلى تعقب منها.

٣ - **تنزية الشريعة المروفة عن الأحاديث الشنية الموضوعة:** لأبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكتاني: جمع فيه بين ما كتبه ابن الجوزي والسيوطى، مع التحرير والاختصار ومحسن التصنيف والترتيب.



الفصل الرابع

الأنواع المتعلقة بدراسة المتن والسنن

المبحث الأول: أنواع الحديث الخاصة بالمتن

المبحث الثاني: أنواع الحديث الخاصة بالسنن

المبحث الثالث: أنواع الحديث المشتركة بين السنن والمتن



المبحث الأول

أنواع الحديث المخالفة بالمعنى

أولاً - الحديث المرفوع

تعريفه: «ما أضيف للنبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو صفةٍ». والمرفوع قد يكون متصل السند، وقد يكون منقطعاً.

أمثلته: كل الأمثلة التي مررت معنا في الأنواع السابقة هي من الأحاديث المرفوعة.

ثانياً - الحديث القدسي

من الحديث المرفوع الحديث القدسي، وهو: الحديث الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه عزوجل. ويسمى أيضاً (الحديث الإلهي)

مثاله: ما رواه البخاري قال: حدّثني إسحاق بن نصر قال: حدّثنا أبوأسامة عن الأعمش قال: حدّثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: يقول الله تعالى: أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخرًا، بل ما أطليتم عَلَيْهِ ثُمَّ قرأ - أي النبي ﷺ - **«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ فَرْءَةٍ أَعْيُنٌ جَزَاءٌ إِنَّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** [السجدة: ١٧]^(١)

^(١) البخاري في التفسير، رقم (٤٧٨٠).

الفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم:

- ١ - «القرآن الكريم» وحْيٌ من الله تعالى للنبي ﷺ بلفظه، أمّا الحديث القدسي فمعناه وحْيٌ من الله تعالى ولفظه من النبي ﷺ، وهو من هذه الحيثيَّة تماماً كالحديث المرفوع، ولذلك أُدرج مع المرفوع.
- ٢ - «القرآن الكريم» معجزٌ، بخلاف الحديث القدسي فإنَّه ليس معجزاً.
- ٣ - «القرآن الكريم» ثبت بالتواتر جملةً وتفصيلاً، أمّا الأحاديث القدسية فربما يكون بعضها من المتواتر، لكنَّ معظمها ليس كذلك، ومنها ما هو صحيحٌ، ومنها ما ليس بصحيحٍ.

ومن المصنفات في الحديث القدسي: كتاب: (الإتحافات السنّية بالأحاديث القدسية) لعبد الرؤوف المُناوي.

ثالثاً - الحديث الموقوف

تعريفه: «ما أُضيف إلى أحد الصحابة قولاً أو فعلاً أو تقريراً» سواءً كان متصل بالسند أم لا.

مثال الموقوف المتصل: ما رواه مالِك^(١) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالِك رض قال: سمعتُ عمرَ بن الخطابِ، وخرجْتُ معه حتى دخلَ حائطاً، فسمِعْتُه وهو يقولُ وبئني وبيته جدارٌ وهو في جوفِ الحائطِ: «عمرُ بن الخطابِ أمير المؤمنين !! بخ !! والله لستَ بِئنَّ الله أو ليعذَّبَنَّكَ». وهو متصل بالإسناد، فكلُّ راوٍ من رواته سمعه من شيخه.

^(١) في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في التقى، رقم (١٨٦٧). الحائط: البستان. بخ: كلمة تقال عند تعظيم الأمر وتفخيمه.

مثال الموقف المنقطع: مارواه مالك^(١) عن نافع مولى ابن عمر أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ كَتَبَ إِلَى عُمَالَهُ: «إِنَّ أَهْمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَحْفَظُهَا وَحَفَظَهَا عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضَيَّعُ». فَهَذَا مَوْقُوتٌ مُنْقَطِعٌ، لَأَنَّ نَافِعًا مُولَى بْنِ عمرٍ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الْحَدِيثَ مِنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ رض، وَلَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ بِرْوَيَةً.

رابعاً - الحديث المقطوع

تعريفه: «هو ما أضيف إلى أحد التابعين من قول أو فعل» اتصل سنته أم لم يتصل.

مثال المقطوع المتصل:

ما رواه مالك^(٢) عن هشام بن عروة عن أبيه (عروة بن الزبير) أنَّه كان يقول في هذه الآية «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» [يونس: ٦٤] قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ثري لها». عروة بن الزبير: تابعي جليل ثقة، من فقهاء المدينة.

مثال المقطوع غير المتصل:

قال البخاري: «باب الحياة في العلم، وقال مجاهد: لا يتعلّم العِلْمُ مُسْتَخِي ولا مُسْتَكِرٌ». مجاهد بن جابر: تابعي جليل ثقة، ولم يذكر البخاري سنته إليه، فالحديث غير متصل.

مصادر الموقف والمقطوع كثيرة، منها:

١- المصنف: لأبي بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة.

٢- المصنف: لعبد الرزاق بن همام الصناعي.

٣- الموطأ: للإمام مالك بن أنس.

^(١) في الموطأ، كتاب وقوت الصلاة، رقم (٦).

^(٢) في الموطأ، كتاب الجامع، باب في الرؤيا، رقم (١٧٨٥).

مسائل تتعلق بالموقوف والمرفوع والمقطوع

الأولى - شاع عند المتأخرین والمعاصرین إطلاق مصطلح «الآثار» على الأحادیث

الموقوفة والمقطوعة.

الثانية - هناك صور يکون فيها الحديث موقوفاً وله حکم المرفوع، منها:

١ - قول الصحابي: «كُنَّا نقول كذا في زَمْنِ النَّبِيِّ ﷺ» أو: «كُنَّا نفعل كذا في

زَمْنِ النَّبِيِّ ﷺ» أو: «كُنَّا لَا نرَى بِأَسَانِدِ بَعْكَلَهَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِينَا» أو: نَحْوَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا الحديث وإن كان موقوفاً فهو في حکم المرفوع.

مثاله: قال البخاري^(١): حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ عَنْ يَحْيَى

بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ أَبِي عُمَرَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا لَخَيْرٌ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمْنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَحْيَرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٢ - إذا قال الصحابي: «أَمْرُنَا بِكذا» أو «نَهَيْنَا عَنْ كذا» فهو «مرفوع» أيضاً، لأنَّ

الامر والنهي في مثل هذه الأحوال هو رسول الله ﷺ.

مثاله: قال الترمذى^(٢): حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ خَلَفٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ هِشَامٍ

بْنِ حَسَّانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيْرِينَ عَنْ كَثِيرِ بْنِ أَفْلَحٍ عَنْ رَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَمْرُنَا أَنْ نُسَبِّحَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثَيْنَ، وَنَحْمَدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثَيْنَ، وَنُكَبِّرُهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثَيْنَ».

٣ - قول الصحابي: «مِنَ السُّنَّةِ كذا»

^(١) في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ، رقم: (٣٦٥٥).

^(٢) في سننه، كتاب الدعوات، رقم: (٣٤١٣).

مثاله: قال الترمذى: حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري قال: حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال: «من السنة أن تخرج إلى العيد ماشياً، وأن تأكل شيئاً قبل أن تخرج»^(١).

٤ - قول الرأوى عند ذكر الصحابي الذى يروى عنه: «يرفعه» أو «ينميه» أو «بلغ به» أو «رواية».

مثاله: جاء في المسند^(٢): حدثنا سفيان عن عمرو، عن ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مئليخ، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء يبلغ به: «من أعطي تحظة من الرفق أعطي سخطه من الخير، وليس شيء أتقل في الميزان من الخلق الحسن».

خامساً - غريب الحديث

غريب الحديث: «هو ما جاء في المتن من لفظ غامض بعيد عن الفهم لقلة استعماله».

فهو علم يهدف إلى الكشف عن معاني ألفاظ الأحاديث التي قد تخفي، وهو بدوره يساعد على فهم الأحاديث، واستنباط ما فيها من أحكام ومسائل.

كيفية معرفته:

معرفة الغريب والأحكام من أهم المهام في التشريع، يصبح جهله بأهل العلم، لأنّه هو السبيل إلى التطبيق والعمل بمضمونه.

وخير ما يفسّر به الغريب ما يرد في بيان معاني ألفاظ الغريبة في الأحاديث أو الروايات الأخرى، وإلا جلانا إلى لغة العرب.

(١) سنن الترمذى، في الجمعة، باب ما جاء في المشي إلى العيد، رقم : (٥٣٠).

(٢) للإمام أحمد بن حنبل، رقم (٥: ٢٧٠).

ومن أمثلة ذلك:

ما أخرجه ابن ماجه في الفتن عن خديفة بن اليمان رضي الله عنهمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَكُونُ فِيْنَ عَلَى أَبْوَاهَا دُعَاءً إِلَى النَّارِ، فَإِنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌ عَلَى جَذْلِ شَجَرَةِ حِيلٍ لَكَ مِنْ أَنْ تَسْتَعِيْنَ أَحَدَهُمْ» وَمِنْهُ «جَذْلُ الشَّجَرَةِ». أَيِّ: «أَصْلُهَا» كَمَا فَسَرَّهَا رِوَايَةُ الصَّحَّاحَيْنِ.

وَمِنْ أَشْهَرِ مَصْنَفَاتِ هَذَا الْفَنِ (النَّهَايَا) فِي غَرِيبِ الْحَدِيْثِ (وَالْأُثُرِ) لِأَبِي السَّعَادَاتِ مُحَمَّدِ الدِّينِ الْمَبَارَكِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُعْرُوفِ بِابْنِ الْأَئِثِ الْجَزَرِيِّ (ت: ٦١٦ هـ) وَهُوَ أَشْهَلُ كِتَابٍ فِي مَوْضِوْعِهِ، وَمِنْ أَكْثَرِ كُتُبِ هَذَا النَّوْعِ جَمِيعاً.^(١)

(١) مَا يُجَدِّرُ ذِكْرُهُ هُنَّا أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ أَحَدُ الْمَصْنَفَاتِ الَّتِي اسْتَوْعَبَهُ الْلَّغُوِيُّ الْمَشْهُورُ ابْنُ مَنْظُورِ الْإِفْرِيقِيِّ ضَمِّنَ مَعْجَمِهِ الطَّائِرِ الصَّيْتِ (لِسَانُ الْعَرَبِ).

المبحث الثاني

أنواع الحديث المخالفة بالسند

أولاً - الحديث المتصل

تعريفه: «هو الحديث الذي سمعه كُلُّ راوٍ مُنْ فوقه من أَوَّل السَّنَدِ إِلَى مُنْتَهِاهِهِ».
 والمتصل قد يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ، أو موقوفاً على أحد الصحابة، أو مقطوعاً
 مُضافاً إلى أحد التابعين، وذلك بناءً على مُنتَهِي سنته.
 وقد مررت قريراً أمثلة للموقف المتصل، والمقطوع المتصل.

ثانياً - الحديث المُهْبَطُ

تعريفه: «هو المتصل المرفوع». وقد تقدّمت أحاديث كثيرة تصلح أمثلة لهذا النوع، فلا حاجة للتكرار.

حكم المتصل والمسند من الأحاديث: توافر في هذين التَّوْعِينِ اتّصال السَّنَدِ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اتّصال السَّنَدِ أَحَد شُرُوطِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْخَمْسَةِ، وَعَلَيْهِ فَإِنْ تَوَافَرَ فِيهِ بَقِيَّةُ الشُّرُوطِ كَانَ صَحِيحًا، فَإِنْ خَفَّ ضَبْطُ رَاوِيِّهِ أَوْ رَوَاتِهِ أَوْ أَكْثَرُ أَصْبَحَ حَسَنًا، فَإِنْ فَقَدَ شَرْطًا مِّنْ شُرُوطِ الصَّحِيحِ أَوْ أَكْثَرُ أَصْبَحَ ضَعِيفًا، وَلَا يَفِيدُ عِنْدَ ذَلِكَ اتّصالُ سنته.

ثالثاً - الحديث المرسل

تعريفه: «هو ما رفعه التّابعيُّ إلى النَّبِيِّ ﷺ».
أو: «هو قول التّابعيٍ: قالَ رسولُ الله ﷺ كذا، أو فَعَلَ كذا».
مثال الحديث المرسل: قالَ التَّرمذِيُّ^(١): حدَثَنَا أبو هِشَامٍ الرَّفَاعِيُّ الْكُوفِيُّ قالَ:
حدَثَنَا يَحْيَى بْنُ الْيَمَانِ عَنْ جَسْرٍ أَيِّ جَعْفَرٍ عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ:
«يَشْفَعُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُمْثِلُ زَيْعَةً وَمُضَرَّ».
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ تَابِعٌ لَمْ يُدْرِكِ النَّبِيَّ ﷺ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ، بَلْ اجْتَمَعَ بِصَاحْبِهِ وَرَوَى
عَنْهُمْ، وَهُوَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَسْقَطَ الْوَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَحَدِيثُهُ هَذَا مَرْسَلٌ.
حَكْمُهُ: الْمَرْسَلُ عِنْدَ جَمِيعِ الْمَحْدُثِينَ ضَعِيفٌ، وَذَلِكَ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ قَدْ سُقِطَ قَبْلِ
الصَّحَابِيِّ تَابِعٍ غَيْرَ مُرْسِلٍ، وَمَنْ تَمَّ لَا نَعْرِفُ حَالَهُ هَذَا الرَّاوِيُّ السَّاقِطُ هُلْ هُوَ ثَقَةٌ أَمْ لَا؟

رابعاً - الحديث المنقطع

تعريفه: «ما سقط من سنته قبل الصَّحَابِيِّ راوٍ وَاحِدٍ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ
مَوْضِعٍ».
وَكَمَا هُوَ وَاضِعٌ مِنَ التَّعْرِيفِ قَدْ يَسْقُطُ مِنَ السَّنَدِ أَكْثَرُ مِنْ راوٍ وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ
التَّابِعِ، بَلْ يَكُونُ فِي مَوْضِعَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، عَلَى أَنْ يَكُونَ السَّاقِطُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ رَاوِيًّا وَاحِدًا
فَقَط.

^(١) كتاب، صفة، القيامة، والرائق والورع، رقم: (٢٤٣٩).

مثاله: ما أخرجه الترمذى قال: حدثنا علي بن حمْرٍ قال: حدثنا الوليد بن مسلم عن معاوية بن يحيى الصدّيق عن الزهرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يؤذن إلا متوسطٌ»^(١).

فهذا الحديث لم يسمعه الزهرى محمد بن شهاب من أبي هريرة عليهما، وقد سقط بينهما راوٍ واحد، فإسناده منقطع بينهما.

خامساً - الحديث المُعَضَّل

تعريفه: «ما سقط من سنته راويان فأكثر على التوالى في أي موضع كان السقط».

مثاله: جاء في الموطأ للإمام مالك: أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبأ يمُوث حتى يُخَيِّر». قالت: فسَمِعْتُه يَقُول: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقُ الأَعْلَى»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ ذَاهِبً.

فيما بين الإمام مالك والسيدة عائشة رضي الله عنها في رواية هذا الحديث راويان على الأقل لم يذكرها، فالحديث مُعَضَّل.

حكم المنقطع والمُعَضَّل: ما من أنواع الضعف لجهلنا بحال الرَّاوي أو الرواية الساقطتين من السند.

^(١) كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهة الأذان بغير وضوء، رقم: (٢٠٠).

سادساً - الحديث المدلّس

التَّدْلِيسُ: «أَن يَرَوِي الرَّاوِي عَنْ شَيْخِهِ الَّذِي سَمِعَ مِنْهُ مَا لَمْ يَسْمَعْهُ مِنْهُ بِلِفْظٍ مُّوْهِمٍ لِلسَّمَاعِ».

أَيْ أَن يَرَوِي الرَّاوِي عَنْ شَيْخِهِ حَدِيثاً مِنَ الْأَخْدَافِ الَّتِي لَمْ يَسْمَعْهَا مِنْهُ مُبَاشِرَةً، وَإِنَّمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيْخِهِ فِيهَا وَاسْطَةً، فَلَا يَذْكُرُ تَلْكَ الوَاسِطَةَ، وَإِنَّمَا يَرَوِي عَنْ شَيْخِهِ مُبَاشِرَةً بِلِفْظٍ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيْحٌ بِالسَّمَاعِ مِنَ الشَّيْخِ، كَأَنْ يَقُولُ: عَنْ فَلَانَ، أَوْ: أَنْ فَلَانَ قَالَ ... مَثَلَّهُ: قَالَ أَبُو دَاوُدَ^(۱): حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا حَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْأَسْوَدِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ يُؤْمِنُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ».

الْأَعْمَشُ سَلِيمَانُ بْنُ مَهْرَانَ: ثَقَةُ مُوصَوفٍ بِالْتَّدْلِيسِ، وَقَدْ لَقِيَ إِبْرَاهِيمَ وَسَعَ مِنْهُ، فَهُوَ شَيْخُهُ، لَكُنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَدَلَّسَ عَنْهُ بِلِفْظٍ يُوْهِمُ السَّمَاعَ، إِذْ رُوِيَ عَنْهُ بِلِفْظٍ (عن).

حَكْمُهُ: حُكْمُ الْمَدَّلِسِ الْمُصَعُّفِ لِجَهَلِنَا بِرَتْبَةِ وَحَالِ الرَّاوِي الَّذِي حُذِفَ مِنَ السَّنَدِ.
تَبَيْبَهُ: يُوصَفُ الرَّاوِي بِالْتَّدْلِيسِ، وَيُسَمَّى مَدَّلِسًا إِذَا وَقَعَ مِنْهُ التَّدْلِيسُ وَلَوْ لَمْ يَرَأْهُ وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي رِسَالَتِهِ^(۲).

هَذَا وَقَدْ جَمِعَ أَسْمَاءُ الْمَدَّلِسِينَ وَعَرَّفَهُمُ الْحَافِظُ أَبُو حَمْرَيْرَةَ الْعَسْقَلَانِيَّ فِي كِتَابِ سَمَاهَ: (تعريف أَهْلِ التَّقْدِيسِ بِمَرَاتِبِ الْمُوْصَفِينِ بِالْتَّدْلِيسِ)

^(۱) فِي سَنَتِهِ، كِتَابُ الطِّبِّ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْعَيْنِ، رَقْمُ (۳۸۸۰).

^(۲) الرِّسَالَةُ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ: (۱۶۴).

سابعاً - المُعَنَّ وَالْمُؤَنَّ

المُعَنَّ: «هو الذي يُؤديه الرَّاوِي عند نقله عن شيخه بقوله: (عن فلان) دون أن يذكر لفظ التَّحدِيث أو الإِخْبَار».

وَأَمَّا الْمُؤَنَّ: « فهو الذي يُؤديه الرَّاوِي عند نقله عن شيخه بقوله: (أنَّ فلاناً قال) من دون أن يذكر لفظ التَّحدِيث أو الإِخْبَار».

حَكْمُه: يتوقف الحُكْمُ عَلَيْهِ عَلَى مَعْرِفَةِ الرَّاوِي الَّذِي رُوِيَ بِالْعَنْعَنَةِ:

- ١ - إِنْ كَانَ هَذَا الرَّاوِي مَوْصُوفًا بِالتَّدْلِيسِ، فَحُكْمُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ ضَعِيفٌ كَمَا مَرَّ مَعَنِّا فِي بَحْثِ الْمَدْلُسِ.
- ٢ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الرَّاوِي مَدْلُسًا فَالْحَدِيثُ مَتَّصِلٌ ، وَحُكْمُهُ مَا مَرَّ فِي حُكْمِ الْحَدِيثِ الْمَتَّصِلِ وَالْمَسْنَدِ، فَقَدْ يَكُونُ صَحِيحًا أَوْ حَسَنًا أَوْ ضَعِيفًا.

المبحث الثالث

أنواع الحديث المشتركة بين السنن والمتن

أولاً - الحديث الغريب

تعريفه: «هو الحديث الذي ينفرد بروايته راوٍ واحد، لا يُعرف الحديث إلا من طريقه».

أقسامه: يقسم الغريب إلى قسمين، هما في المتن

الأول: الغريب متنًا وسندًا: وهو الذي لا يُعرف متنه إلا من طريق واحد. وهو الذي يُسمى «الفرد المطلّق».

مثاله: ما أخرجه الترمذى^(١) قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ نَافِعِ الْبَصْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ الْعَبْدِيِّ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ مِّنَ الْقُرْآنِ لِيَلَّا.

هذا الحديث لم يروه من أصحاب الكتب السنتة إلا الترمذى، ولا يُعرف له إلا هذا الإسناد. فهو فرد مطلق، أو غريب سندًا ومتنًا.

الثاني: الغريب سندًا لا متنًا: وهو الحديث الذي روی متنه من طرق متعددة عن أكثر من صحابي، ثم ينفرد بروايه راوٍ عن صحابي آخر، فهو من جهة هذا الصحابي غريب، لكن متنه ليس غريباً، ومثل هذا يُسمى أيضاً «الفرد النسبي».

مثاله: ما أخرجه الترمذى قال: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ: حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ بَكَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ فُلَانٍ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَحْمَامَةَ بْنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّلُحَى ثَنَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا مِّنْ ذَهَبٍ فِي الْجَنَّةِ».

^(١) كتاب الصلاة، باب ما جاء في قراءة الليل، رقم (٤٤٨). وقال هذا حديث حسن غريب.

فهذا الحديث لا يُعرف عن أنس بن مالك رضي الله عنه إلّا بهذا السنّد، وقد روتة أيضًا السيدة أم هانئ رضي الله عنها، وقد رواه عنها عددٌ من الرواة، وعليه فالمتن ليس غريباً، ولكنه من طريق أنس رضي الله عنه غريب السنّد.

تنبيه: كمَا كان الغريب والفرد متداوين اصطلاحاً جرى المحدثون على إطلاق «الفرد» على الفرد المطلق أو الغريب سنداً ومتناً غالباً، ويطلقون «الغريب» على الفرد النّسي أو غريب السنّد فقط.

من أشهر مصادر الفرد والغريب: (المعجم الأوسط) للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطراوي.

ثانياً - الحديث العزيز

تعريفه: «هو الحديث الذي يرويه اثنان من الرواية في أقل طبقة من طبقات سنده».

وهي عزيزاً إما لقلة وجوده، أو لكونه عزراً - أي قوي - بمحبيه من طريق آخر.

مثاله: حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والديه وولديه والناس أجمعين». فقد رواه عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه اثنان من الصحابة، ورواه عنهمما عدد من التابعين كما يأتي:

١ - رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، ورواه عن أنس: عبد العزيز بن صهيب وفتاده، ورواه عن عبد العزيز كل من: عبد الوارث وإسماعيل بن عليلة، ورواه عن فتادة كل من: شعبة وحسين المعلم

٢ - ورواه عن أبي هريرة: الأعرج عبد الرحمن بن هرمز، وعنده رواه أبو الزناد.

فهذا الحديث كما نرى رواه اثنان من الصحابة، وهذا أقل عدد في طبقات سنده، وجاء عدد الرواية في الطبقة التي تليها (طبقة التابعين) ثلاثة، وهكذا يرداد عدد الرواية في الطبقة التي تليها.

ثالثاً - الحديث المشهور

تعريفه: «ما رواه جماعةٌ من الرُّوَاةِ عن جماعةٍ، بحيث لا يقل عدد الرُّوَاةِ في كُلّ طبقةٍ عن ثلاثةٍ». وقد سُمِّي «المشهور» بذلك لانتشاره ووضوحه وظهوره.

مثاله: قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثْرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»، فقد رُوي من طريق عدد من الصحابة، منهم:

١ - عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أخرجه الترمذى^(١)

٢ - أبو هريرة رضي الله عنه، أخرجه أَخْمَد^(٢)

٣ - عمران بن حصين رضي الله عنه، أخرجه أَخْمَد^(٣)

حكم الغريب والعزيز والمشهور

الحديث سواء أكان غريباً أم عزيزاً أم مشهوراً قد يكون صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً، وذلك تبعاً لتوافر شروط الحديث الصالحة مكتملةً فيه، فإن اختلف بعض تلك الشروط أو تختلف لا يكون صحيحاً، ومن ثم فلا يلزم من تعدد الطرق أو شهرة الحديث أن يكون صحيحاً، فمن المنشهور الصنفان مثلاً حديث: «أَرْجَمُوا مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةً: عَزِيزٌ قَوْمَ ذَلِيلٍ، وَغَيْرٌ قَوْمَ افْتَقَرٍ، وَعَالَمٌ بَيْنَ جُهَاهٍ» فقد رُوي من طرق متعددة عن عدد من الصحابة، منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة رضي الله عنهم، ولا يخلو سند من أسانيده من ضعفاء أو متهمين بالوضع أو الكذب، بحيث لا يمكن أن يرتفع مع تعدد طرقوه إلى درجة الحسن لغيره فضلاً عن الصحيح.

(١) كتاب الأدب، ما جاء أن الله يحب أن يرى أثر نعمته، رقم (٢٨١٩).

(٢) المسند ، رقم (٨٠٤٥).

(٣) المسند ، رقم (١٩٤٣٢).

رابعاً - الحديث الشاذ

تعريفه: «هو ما رواه الثقة مخالفًا لمن هو أوثق منه أو أكثر عدداً».

مثاله: قال أبو داود^(١): حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلَيٍّ عَنْ أَبِيهِ الْحَنْفِيِّ عَنْ هَمَّامَ عَنْ أَبْنَيْ جُرَيْجِ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ عَلِيهِ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ وَضَعَ خَاتَمَهُ.

فهذا الحديث شاذٌ لأنَّه رواه زيد بن سعيد (وهو أوثق من همام بن يحيى) عن ابن جُرَيْج عن الزُّهْرِيِّ عن أنسِ بْنِ مَالِكٍ بَطْرِيقاً: أَنَّه أَبْصَرَ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا مِنْ وَرِقٍ يَوْمًا وَاحِدًا، قَالَ: فَصَنَعَ النَّاسُ الْخَوَاتِمَ مِنْ فَرِيقٍ فَلَيْسُوهُ، فَطَرَحَ النَّبِيُّ ﷺ خَاتَمَهُ، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِمَهُمْ^(٢).

فرواية همام للحديث شاذة، ورواية زيد بن سعيد هي الصحيحة، وتسمى (المحفوظة).

حكمه: الشذوذ موجب لضعف الحديث، لدلالة على احتلال ضبط الراوي.

^(١) في سننه، كتاب الطهارة، باب الخاتم يكون فيه ذكر الله تعالى، رقم (١٩).

^(٢) أنحرج رواية الأوثق مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزيمة، باب في طرح الخواتم، رقم (٢٠٩٣) والورق: الفضة.

خامساً - الحديث المنكَر

تعريفه: «هو ما انفرد بروايته الرواوى الضعيف مخالفًا لما رواه الثقة».

مثاله: روى ابن أبي حاتم الرّازى^(١) من طريق: حبيب بن حبيب الزيات، عن أبي إسحاق السّبئي، عن العيازى بن حربٍ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أقام الصّلاة وآتى الزّكاة وحجّ وصام وقرى الضّيف دخل الجنة».

فهذا حديث منكَر للإسناد، لأنَّ حبيباً الزيات (وهو راوٍ ضعيف) قد انفرد بروايته مرفوعاً من قول النبي ﷺ، بينما رواه الثقات من قول ابن عباسٍ رضي الله عنهما موقوفاً عليه.

حكمه: حكم المنكَر من الحديث حكم الشاذ، بل هو أشدُّ ضعفاً منه.

سادساً - الحديث المُضطرب

تعريفه: «هو الحديث الذي يُروى على أوجهٍ مُتعارضة لا يمكن الجمع بينها، وهي متساوية في القوّة، لا يمكن ترجيح بعضها على بعض».

وهذا الاختلاف قد يكون من راوٍ واحد، بأنْ يرويه مرّةً على وجه، وأخرى على وجه آخر معارضٍ للوجه الأوّل.

وقد يكون الاختلاف واقعاً من أكثر من راوٍ، كُلُّ واحدٍ من الرّواة روى الحديث بوجهٍ مخالفٍ للأخر.

حكمه: ضعيف، لإشعاره بعدم ضبط رواته.

^(١) في كتاب علل الحديث (١٨٢/٢).

سابعاً - الحديث المَعْلُول

تعريفه: «هو الحديث الذي يجمع شروط الصحة في الظاهر، ثمٌّ يتبيّن لإمام حافظٍ ناقِدٍ أنَّ فيه علةٌ خفيةٌ تقدح في صحته».

فالحديث يسمى معلولاً إذا تبيّن لإمام من أئمَّة الفتن أنَّ فيه سبباً خفيّاً يقدح فيه، فيزحزحه عن درجة الصَّحيح.

مثاله: روى بقيةُ بنُ الوليدِ عنْ يُونسِ بنِ يزيدَ الأَيَّالِيِّ عنْ الزُّهْرِيِّ عنْ سَالِمٍ عنْ أَبِي عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَذْرَكَ رَكْعَةً مِنْ صَلَاةِ الْجَمَعَةِ وَغَيْرِهَا فَقَدْ أَذْرَكَ». .

فهذا الحديث في الظاهر أنَّه صحيحٌ ورواته ثقافت، لكنَّ أبا حاتِم الرَّازِي نقل عن أبيه الإمام الحافظ أبي حاتِم أنَّ في هذا الحديث علةً في السند والمتن:

فعلة السند: أنَّ الذي يروي هذا الحديث هو الزُّهْرِيُّ عنْ سَلَمَةَ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ، وليس الزُّهْرِيُّ عنْ سَالِمٍ عنْ أَبِيهِ أَبِي عُمَرَ رضي الله عنهما.

وعلة المتن: أنَّ نصَّ روايته الصَّحيحة هو: «مَنْ أَذْرَكَ رَكْعَةً مِنْ صَلَاةٍ فَقَدْ أَذْرَكَهَا»^(١). وليس فيه التقييد بصلاة الجمعة.

كيف نكتشف علة الحديث؟

لما كانت العلل خفيةً لزم تعرُّف طرق كشفها، وقد قال علماء الفتن: إنَّ طريق معرفة العلة أن يجمع الحافظ طرق الحديث من مصادره، ثم يسرِّ أحوال الرواة، فيتعرَّف على مقدار ضبطهم وحفظهم وتفاوت إتقانهم ومكانتهم، ثم يدقق في مواطن اتفاق الرواة واختلافهم، ثم

^(١) أخرج الرواية الصحيحة البخاري في صحيحه، كتاب المواقف، باب من أدرك ركعة الفجر، رقم (٥٨٠) ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب من أدرك ركعة من الصلاة، رقم (٦٠٧) وانظر علل الحديث لابن أبي حاتم (١٧٢/١).

ينظر في الفرائض العامة المتعلقة بهذا الحديث، وبعد كل ذلك يحکم بما يغلب على ظنه، فإن تردد في الأمر توقف فيه.

أشهر المصنفات في علل الحديث:

صنف الأئمة عدداً من الكتب التي يبيّنوا فيها الأحاديث المعلولة، ومن أشهر هذه

الكتب:

١ - كتاب «علل الحديث» لابن أبي حاتم الرَّازِي: جمع فيه الأحاديث التي سُأْلَ عنها أباه وشیخه أبا زرعة الرَّازِي، فقلالا: إن فيها عللاً.

٢ - «العلل» للإمام الدارقطني وهو أوسع كتب العلل وأكثراها فائدة.

ثامناً - الإدراج في الحديث

تعريفه: «الإدراج هو زيادة تقع في الحديث من بعض الرواية بحيث يتواتّم أنّها جزء

منه».

مثاله: حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمُبَرِّ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعْفُفَ عَنِ الْمُسَأَلَةِ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِّنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالْسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»

فقوله: «الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ ... إلخ»^(١) مدرج من كلام سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لبيان المراد من الحديث شرحه، ذكره بعض الرواية على أنّه جزء منه.

سبيل معرفة الإدراج: جمع طرق الحديث ورواياته، فغالباً ما تأتي بعض الروايات فاصلة بين أصل الحديث، وبين ما أدرج فيه.

حكم الإدراج: نصّ العلماء على تحريم تعمّد الإدراج.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب الرِّكَّاة، باب في فضل اليد العليا، رقم (١٦٥٢).

الباب الثاني^(١)

المحدث النبوي وعلوم العربية

الفصل الأول : أثر الحديث النبوي في اللغة وال نحو.

الفصل الثاني : الخصائص الأسلوبية والمعنوية للحديث النبوي.

الفصل الثالث: النبي ﷺ والشّعر

الفصل الرابع: الوسائل البلاغية في الحديث النبوي

الفصل الخامس: دراسات لفنون من الخطاب النبوي

الفصل السادس: دراسة أدبية ولغوية لنصوص نبوية شريفة

^(١) أعدته الدكتورة هند سحلول.



الفصل الأول

أثر الحديث النبوي في اللغة وال نحو

المبحث الأول: أثر الحديث النبوي في رواية العربية

المبحث الثاني: أثر الحديث في إغناء العربية

المبحث الثالث: أثر الحديث النبوي في حفظ العربية

المبحث الرابع: حُجَّيَّةُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيُّ في علوم العربية



تمهيد: للحديث النبوي الشريف شأنٌ جليلٌ مع اللغة العربية، وأثرٌ كبيرٌ في إغنائها وإثرائها، في أصواتها وألفاظها، في تراكيبيها وأساليبها، في أدبها وبيانها، في نحوها وصرفها، في تدوينها وتوثيقها ...

ولمَّا كان الحديث النبوي الشريف المصدر التشريعي الثاني فلاغُرُوا أن يكون كذلك مصدر التشريع اللغوي الثاني بعد كتاب الله تعالى على الرغم من الجدل والاختلاف في مسألة الاحتجاج اللغوي والنحوي وما لا يسعها من مسائل.

وقد أشار العلماء إلى أهمية الأحاديث النبوية الصحيحة وفضلها على سائر النصوص في الدراسات اللغوية. يقول أحدهم: «فالأحاديث الصحيحة أهم كثيراً في نظرنا، أثناء البحث اللغوي، من الشعر الجاهلي الصحيح، لأنها من التمر، وهو دائماً يعطي الباحث اللغوي صورة صحيحة لروح عصره، بخلاف الشعر، لأنه يحتوي على كثيرٍ من الصيغ الفنية، والعبارات المتكلفة التي تبعده عن تمثيل الحياة العادلة الحقة»^(١).

^(١) تاريخ اللغات السامية ص ٢١١.

المبحث الأول

أثر الحديث النبوي في رواية العربية

كان العرب أمةً أمية لا يقرؤون ولا يكتبون إلا ما يلقيون من معاني الطبيعة، فيأخذون عنها بالحس، ويكتبون باللسان في لوح الحافظة، فكان كلُّ عربي على مقدار وعيه وحفظه كتاباً أو جزءاً من كتاب، وكانت كلُّ قبيلة بذلك كأنها سجلٌ زمئيٌّ في إحصاء الأخبار والآثار.

«بيد أنَّ كلَّ ما حفظوه وتناقلوه لم يدُون منه شيء، ولم يكن فيه إسناد، لأنَّه لا خطر، ولا يتعلَّق به أمر من أمور الدين، بل هو لا يعدو أن يكون أدباً ونافلةً وباباً من التطوع».

وقد ابْتُلِيت اللغة العربية - كما ابْتُلِيَ الحديث - بالوضع، وكان لذلك الوضع عوامل. وكما قيل: آفة الرواية رقة الأمانة. وتناول الوضع مأثر اللغة والشعر والخبر، فكان هذا حافراً لينهض العلماء إلى الحفاظ على فنون الشعر واللغة والخبر، وأن ينفضوا عنها ما لحق بها من مُفتَعَل مدسوس، لتجتمع في مدونات رصينة محمية من كل مدخل فيها.

ولا شكَّ أنهم في ذلك كله محتاجون إلى مسلك دقيق وقانون علمي لمحاربة هذه الظاهرة ولتنقية اللغة العربية من شوائب الافتراء، وليس بدعاً أن يأتسي مثل هؤلاء بأهل الحديث الذين هبوا لدفع الخطر عن حديث رسول الله ﷺ منذ عهود مبكرة، فضربوا أروع المثل في التثبيت في النَّقل، ونقد الروايات، ومحاربة الوضاعين، وتتبع الأسانيد.

ولمَّا نضجت تلك القواعد لدى علماء الحديث صارت أسوة لعلماء العربية في قبول رواية اللغة والشعر والتأكُّد من صحة النقل. وحسبنا عودة إلى كتب اللغويين الأصوليين

ليتبَدِّى لنا أنَّ أهْلَ الْلُّغَةِ سَارُوا عَلَى خُطَا أَهْلِ الْحَدِيثِ لَا يَدِّلُونَ وَلَا يَعْدِلُونَ إِلَّا
القليل^(١).

ولمَّا كَانَ مَقَامُنَا لَا يَتَسْعُ لِلِّاسْتِفَاضَةِ وَالتَّفْصِيلِ فَإِنَّا سَنُوجِزُ مُخَاوِرَ هَذَا الْمَنْهَجِ مِنْ
خَلَالِ الْحَدِيثِ عَلَى :

- توثيق الرَّاوِي اللُّغُوي.
- توثيق المَرْوُيِّ اللُّغُوي.

أولاً - توثيق الرَّاوِي اللُّغُوي:

مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي اتَّبَعَهَا أَهْلُ الْلُّغَةِ فِي توثيق الرَّاوِيِّ اللُّغُويِّ مُخْتَدِلِينَ نَحْنُ أَهْلُ الْحَدِيثِ :

- ١ - الْبَحْثُ عَنْ عَدَالَةِ الرَّاوِيِّ وَجَرْحِهِ
- ٢ - قَوَاعِدَ الْجُرْحِ وَالْتَّعْدِيلِ، وَالرَّوَايَةِ عَنِ الْمَهْمُولِينِ.
- ٣ - طُرُقُ الْأَخْذِ وَالْتَّحْمُلِ عِنْدَ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: وَهِيَ مِنْ وَضْعِ الْمَدْحُودِينِ، وَلَهُمْ فِيهَا
تَفْصِيلٌ وَتَفْرِيعٌ، وَهِيَ فِي الْلُّغَةِ - كَمَا هِيَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ - سُلْطَنٌ، بِسُطْهَا السِّيُوطِيُّ فِي
مَزْهُرَهِ^(٢).

ثانيًا - توثيق المَرْوُيِّ اللُّغُويِّ.

لَمْ يَكْتُفِ الْمَدْحُودُونَ بِالْتَّمْحِيصِ فِي أَحْوَالِ الرَّوَايَةِ النَّاقِلِينَ، بَلْ كَانَ لَهُمُ النَّظَرُ الثَّاقِبُ فِي
الْمَرْوُيِّ نَفْسِهِ، فَعُنِوا بِنَقْدِهِ وَتَميِيزِ مَقْبُولِهِ مِنْ مَرْدُودِهِ مِنْ خَلَالِ قَوَاعِدَ عِلْمِيَّةِ دُقِيقَةٍ، تِلْكَ الَّتِي
نَجَدَ صِدَاحَاهَا لِدِي أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ :

^(١) انظر الحديث النبوى الشريف وأثره في الدراسات اللغوية وال نحوية ص ١٨١ وما بعد.

^(٢) المزهر في علوم اللغة ١٤٤٠/١٧٠

١- جمع النصوص المروية :

وقد أكد بعض الباحثين افتداء أهل اللغة بأهل الحديث في أصل التفكير في جمع اللغة، وكذا في منهج هذا الجمع العلمي في مراحله.

جاء في (ضحى الإسلام): «كما أήجَهُ الحَدِيثُونَ إِلَى الْحَدِيثِ يَجْمِعُونَهُ، وَالْفَقَهَاءُ إِلَى الْحَدِيثِ وَفَتاوى الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ يَدْوِنُونَهَا، أَجْهَهُ قَوْمٌ إِلَى الْلُّغَةِ يَجْمِعُونَهَا، وَكَانَ مَهْمَتُهُمْ جَمْعُ الْكَلْمَاتِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا الْعَرَبُ وَتَحْدِيدُ مَعَانِيهَا، فَرَحِلَ الْعُلَمَاءُ إِلَى الْبَادِيَةِ عِدَادُهُمْ وَصُحْفُهُمْ يَسْمَعُونَ وَيَكْتَبُونَ»^(١).

٢ - نقد النصوص المروية :

بذل أهل اللغة الجهد في تمييز النصوص والفصل فيها، لبيان الأصيل والموضوع، وائتسوا في ذلك بأهل الحديث، وقسموا المنقول إلى متواتر وآحاد. ومن ثم ميَّزَ اللغويون الأخبار الآحاد المقبول منها والم ردود، وفرَّعوا وفقاً لذلك أنواع الأخبار : أ- الصحيح ب- الضعيف ج- المردود.

ولعل نظرة سريعة إلى إطلاقات أهل اللغة على المرويات تُظهر أخذهم بمصطلحات المحدثين واتباع تقسيماتهم.

٣ - التصنيف اللغوي :

- ذهب أكثر أهل اللغة إلى إطلاق لفظ (المعجم) على الكتاب المعنى بتفسير المفردات في موضوعات، وقد سبق في ذلك الحَدِيثُونَ.

- وقد تأثر أهل النحو واللغة في تصانيفهم بأسلوب أهل الحديث والفقه، ويظهر ذلك جلياً في مصنفات أهل اللغة، مثل ما نجده في كتاب (لمع الأدلة في أصول النحو) لأبي البركات ابن الأنباري (ت: ٥٧٧ هـ)، ثم كتاب (اللمع الجديـة في كيفية

^(١) ضحي الإسلام ٢٥٢/٢ .

التحدُّث في علم العربية) لعثمان بن محمد المالقي (ت: ٦٣٥هـ). وكتاب (المُزَهْرُ في علوم اللغة) للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) يُظْهِرُ الْمُحَاكَاهَ الْأَتَامَةَ لِمَنْهَجِ أَهْلِ الْحَدِيثِ فِي التَّقَاسِيمِ وَالتَّبَوِيبَاتِ، وَالْبَحْثُ فِي فَرْوَنَةِ الْلُّغَةِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي مُقْدِمَتِهِ إِذْ قَالَ: «حَاكَيْتُ بِهِ عِلْمَ الْحَدِيثِ فِي التَّقَاسِيمِ وَالْأَنْوَاعِ، وَأَتَيْتُ فِيهِ بِعِجَائِبِ وَغَرَائِبِ حَسَنَةِ الْإِبْدَاعِ... وَقَدْ سَمِّيَّتُهُ بِالْمُزَهْرِ فِي عِلْمِ الْلُّغَةِ»^(١).

- تأثُّرُ أَهْلِ الْلُّغَةِ بِالْمُحَدِّثِينَ فِي التَّصْنِيفِ فِي عِلْمِ الرِّجَالِ وَمَا يَنْفَرِعُ عَنْهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الطَّبَقَاتِ وَالْحِفَاظِ وَالْتَّقَافَاتِ وَالضُّعْفَاءِ وَمَعْرِفَةِ الْآبَاءِ وَالْأَمْهَاتِ وَالْمُؤْتَلِفِ وَالْمُخْتَلِفِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ فَرْوَنَةِ عِلْمِ الرِّجَالِ الَّتِي اشْتَهِرَتْ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَنَجَدَ صِدَارَاهَا فِي كِتَابِ تَرَاجِمِ أَهْلِ الْلُّغَةِ^(٢).

^(١) المُزَهْرُ ١/١.

^(٢) يَنْظَرُ المُزَهْرُ ٤١٨-٣٩٥/٢.

المبحث الثاني

أثر الحديث النبوي في إغناء العربية

مثّلت الدعوة الإسلامية انقلاباً مهّماً في حياة العرب، فهدمت عقائد وعادات فاسدة، وأرست على أنقاضها عقيدة جديدة ومنهج حياة.

ولاعْرُو أن يستلزم هذا التغيير حِراكاً لغويّاً يؤسّس لقالب لغوي يكون وعاء للعقيدة الجديدة والتكاليف الشرعية المترفة من الشّارع الحكيم. وقد تجلّى هذا الأثر اللغوي في الألفاظ الإسلامية التي شَكَّلت ثروة لغوية ضخمة لفتت أنظار الباحثين اللغويين، ودفعت أهميتها وكثراها الإمام أبو حاتم الرّازي (ت: ٣٢٢ هـ) إلى أن يجمع كتاباً نفيساً لم يُسبق إليه في هذا الباب سماه (الزينة في الألفاظ الإسلامية)، فجمع فيه بعض الأسماء التي وردت في القرآن، والألفاظ التي اصطلح عليها المسلمون، وألفاظاً لها خطر في حياة المسلمين الدينية والعلمية والاجتماعية، وذكر معانيها ومدلولاتها الجاهلية والإسلامية، مستشهاداً على ذلك بالشعر المعروف وما روي عن علماء العربية وأهل التفسير في تفسير كلّ كلمة.

ولتوسيع هذا الجانب المهم في الحديث النبوي الشريف لابد من تصنيفه ضمن المحاور الآتية:

أولاً - النّقل .

ثانياً - الارتجال .

ثالثاً - ابتداع تراكيب بيانية ولغوية.

أولاً - النّقل: وهو تطهُّر مدلول اللّفظ وانتقاله إلى دلالة جديدة لم تكن وظهور الألفاظ الإسلامية هو مظهر مهمٌّ من مظاهر التطهُّر الدلالي للفظة العربية التي استحالّت شيئاً آخر يقتضيه الدين الجديد والبيئة الجديدة.

فقد تكلموا على لفظ (الصلة) مثلاً وتطور معناها وتخصّصه إلى المعنى الشرعي الاصطلاحي، وكذلك (الرِّكَاة) و(الصوم) و(الجهاد) و(الصدقة) و(الفرض) و(السُّنْنَة) ومئات الألفاظ التي نقلها الشرع واستعملها البيان القرآني في مجال تبيان أمور الشرع^(١).

ونرى في بحثنا هذا أن نضرب الصّفحة عن التفصيل في هذه الألفاظ التي نقلها الشرع لنخصّص الكلام في استعمال البيان النبوي للفظ، ونقله - هو خاصة - للألفاظ من معنى إلى آخر، ولعلّ العودة إلى كتب الغريب تبرز هذا الجانب المهم من الدراسة اللغوية الحدّيثية التي بيّنت معاني مخصوصة لألفاظ لها مدلولها اللغوي الأصلي، ثم سبق النبي ﷺ إلى تحصيص استعمالها، ومن ذلك:

استعمال لفظ (الصَّرُورَة) التي هي من الحبس والمنع ، قال في اللسان: «وأصله الحبس والمنع»^(٢).

قال ﷺ: «لا صَرُورَةٌ فِي الإِسْلَامِ»^(٣) فاستخدمها في معنى التَّبْتُلِ والانقطاع عن النّكاح.

ومن ذلك استعمال لفظ (الصُّرُوعَة)، الذي اعتاد العربي أن يستعمله في «القوى الذي لا يصرعه الرجال» وهو المعنى الذي أجاب به الصحابة رضي الله عنهم عندما سألهm: «ما تَعْدُون الصُّرُوعَةَ فِيهِمْ؟» فبيّن مفهومه الخاص لهذا اللفظ فقال: «ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٤).

وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى جانب آخر مهم في مسألة النّقل الدلالي وهو نشوء المصطلح الحديسي الذي وضعه أئمّة الحدّيثين الفصحاء، ويعُدّ مظهراً واضحاً من مظاهر النّقل

^(١) انظر التطور اللغوي التاريخي ص ٥٠ وما بعد.

^(٢) اللسان (صر).

^(٣) أخرجه أبو داود، في المنسك، باب «لا صَرُورَةٌ فِي الإِسْلَامِ» (١٧٣١).

^(٤) أخرجه مسلم، في البر والصلة، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (٢٦٠٨).

الدلالي وتحصيص المعنى، فنرى مثلاً انتقال دلالة (الرواية) من أصلها إلى مصطلح (الرواية الحديثية)، وما يتبع ذلك من مصطلح الرَّاوي وروايات الحديث، فأصل دلالة (الرواية) يتعلّق بسقي الماء وحمله، ثم انتقلت إلى (الرَّاوي) الذي ينقل الحديث مِنْ سمعه عنه إلى من يؤدّيه إليه، والجامع بين المعنين هو النَّقل.

أضف إلى ذلك التقسيمات الدقيقة التي ابتدعها أهل المصطلح لأنواع الحديث، إذ طوّعوا المعاني الأصلية للألفاظ لتؤدي المعنى الدقيق للمصطلح الحديثي، ومن تلك المصطلحات:

السند والمتن والاعتبار والتحمل والأداء، ومجموع أنواع الحديث كالمدّيج والمدلّس والمحفوظ والمستفيض ... إلخ. إضافة إلى ألقاب الرواية والأحوال المتّبعة للسند والمتن، وغيرها كثير مما يؤسّس لمعجم حديثي اصطلاحي يمثّل تطوراً مهمّاً للفظ في نقله من الدلالة الأصلية إلى الدلالة الوضعية الاصطلاحية، بعد الملاحظة الدقيقة لأصل المعنى وجذره الاستقافي.

ثانياً - الارتجال: وهو ابتداع ألفاظ لم تكن تُطلق من قبل، لتصبح جزءاً من كيان اللغة، وجانباً من ثروتها.

وقد ذهب أهل اللغة إلى قبول الارتجال، إذا صدر من فصيح لا يرقى شكًّا إلى فصاحته.

وقد تميّز الحديث النبوي الشريف من بين المصادر اللغوية باللفظ (الغريب)^(١) فيه، وغنى المادة اللغوية التي تستحق الدرس والتحليل، مما أنشأ جانباً تصنيفياً مستقلاً في باب الدراسات اللغوية، وهو التصنيف في (غريب الحديث) الذي ابتدأه أبو عبيدة معمر بن المشئ (ت: ٢١٠ هـ) ثم تبعه النضر بن شميل المازني (ت: ٢٠٤ هـ)، وتتالى التصنيف ليتوّجه ابن الأثير الجزري (ت: ٦٦٠ هـ) بكتابه الجامع (النهاية في غريب الحديث والأثر).

^(١) أي الغامض بعيد عن الفهم.

وبالإطلاع على المادة اللغوية في كتب الغريب يتبيّن أنّه أحد نوعين:

١ - ما كانت غرابة لانفراده في استعمال دلالة لفظ لم يُسبق إليها - وارتجاله إياها - وهو مجال بحثنا.

٢ - ما كانت غرابة لاستخدامه أمام فصحاء من غير أهل اللغة التي يسمعونها، حين كان يخاطب الوفود على اختلاف قبائلهم وتتنوع لهجاتهم، فيستغّرّها غير أهلها، وهذا ما سنبيّنه في موضع لاحق^(١).

والنوع الأول يُظهر قدرة النبي ﷺ على اختراع الألفاظ وإغناء اللغة بشروء لفظية مهمة، فإنه «لاجرم كان على حد الكفاية في قدرته على الوضع والشقيق من الألفاظ، وانتراع المذاهب البينية»^(٢) فقد كان ﷺ «يصرف اللغة تصريفاً، ويديرها على أوضاعها، ويشقّق منها في أساليبها ومفرداتها مالا يكون لهم إلا القليل منه، لأن القوّة على الوضع والكفاية في تشكّيق اللغة وتصارييف الكلام ... إنما هي إلهام بمقدار تخيّئ له الفطرة القوية، وتعين عليه النفس المجمعة والذهن الحاد والبصر النفاذ»^(٣).

وتحفل كتب الغريب بطاقة غنية من تلك المفردات، وهاتيك نماذج من هذا النوع:

^(١) في مبحث (أثر الحديث في حفظ العربية).

^(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣١٥.

^(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٨٤.

فمنها ما أورده ابن الأثير في مادة (عسا) عند كلامه على قوله ﷺ: «أفضل الصدقة المئحة تغدو بعساً وتزول بعساً» قال الخطابي: «قال الحميدي: العسا العس، ولم أسمعه إلا في هذا الحديث، والحميدي من أهل السان»^(١).

ومنه لفظ (الصير) في قوله ﷺ: «من اطلع من صير باب فَقَدْ دَمَرَ» أي دخل. قال أبو عبيد: «الصير في الحديث: إنه شق الباب، ولم يسمع هذا الحرف»^(٢). ولفظ (الزمارة) في قوله ﷺ: «بَشَنَ الْمَكْسُبُ أَجْرُ الزَّمَارَةِ وَثَمَنُ الْكَلِبِ»^(٣)، قال في الصحاح: «والزمارة في الحديث أنها الرنانة»^(٤)، قال أبو عبيد: «ولم أسمع هذا الحرف إلا في الحديث، ولا أدرى من أي شيء أخذ»^(٥).

وكذا كلمة (مهرمة) في قوله ﷺ: «تَرَكَ الْعَشَاءَ مَهْرَمَةً»^(٦) قال ابن الأثير: «أي مطينة للهرم، قال الفقيهي: هذه الكلمة حارية على ألسنة الناس، ولست أدرى أرسوْل الله ﷺ ابتدأها، أم كانت تقال قبله»^(٧).

فهذه الأمثلة وغيرها وافر في كتب الغريب، تلك المفردات التي لا نكاد نجد الكثير منها في أهم المعاجم اللغوية التي خسرت ثروة لفظية لا تخفي أهميتها كجمهرة ابن دريد وصحاح الجوهري. في حين أودعها ابن منظور معجمه الشامل، إذ نشر كتاب (النهاية في

^(١) النهاية ١١٠/٣ وغريب الحديث للخطابي ١/٥٠٨ والمشهور رواية مسلم «تَغْدو بِعْسًا، وَتَزْلُّ بِعْسًا» انظر شرح مسلم للنووي ١٦/١٠٨.

^(٢) النهاية ٦٦/٣ و الصحاح (صير) وانظر فتح الباري ٢٢/٢٨٥.

^(٣) مستند الفردوس ١/١٥٤ (٢١٥٢) والسنن الكبرى للبيهقي (١١٦٨٨) عن أبي هريرة.

^(٤) الصحاح ٤/٥٦

^(٥) غريب الحديث ١/٣٤١ وانظر المزهر ١/٣٠٢.

^(٦) أخرجه الترمذى في الأطعمة، باب فضل العشاء، (١٨٥٦).

^(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٢٦٣.

غريب الحديث والأثر) في تضاعيف موسوعته اللغوية، فسدّ ثغرة في المعجم العربي، وحفظ تلك الثروة اللفظية التي صدرت من أفصحخلق وأبلغهم كلاماً.

ثالثاً - ابتداع تراكيب بيانية ولغوية:

ابتكر النبي ﷺ ضروباً من التراكيب لم تألف لها العرب نظيراً، ولم تسمع به في متقدم كلامها، ولم يتفق لأحد مثلها؛ في حسن بلاغتها، وقوه دلالتها، وكلُّها قد صار مثلاً، وقد لفت ابن الأثير في (المثل السائر) الأنظار إلى الكلم الجامع في حديثه ﷺ، فقال: «هو أن ألفاظاً تتضمّن من المعنى مالا تتضمّنه أخواتها مما يجوز أن يُستعمل مكاحها»^(١). وضرب لهذا النوع أمثلة استوقفت علماء اللغة، منهم الإمام أبو سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) الذي قال: ومن فصاحته أنه تكلّم بالفاظ اقتضبها لم تُسمّ من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها. وذكر منها: «حَمِيَ الوَطِيس» و«ماتَ حَفْتَ أَنْفَهَ...»^(٢).

قال ابن الأثير في قوله ﷺ: «الآن حمي الوطيس»^(٣): وهذا لم يُسمّ من أحد قبل رسول الله ﷺ، ولو أتينا بمحاجز غير ذلك في معناه فقلنا: (استعرت الحرب) لَمَّا كان مؤدياً من المعنى ما يؤديه «حَمِيَ الوَطِيس»، والفرق بينهما أنَّ الوطيس هو التَّنُور، وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيّل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتقدّها، وهذا لا يوجد في قولنا «استعرت الحرب» أو ما جرى مجراه^(٤).

^(١) المثل السائر ٣٦/١ .

^(٢) غريب الحديث ٦٤/١ والمزهر ٢٠٩/١ .

^(٣) صحيح مسلم، في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٥)

^(٤) المثل السائر ٣٦/١ .

وقد روي عن عليٌ رضي الله عنه عجبه مما سمعه من النبي ﷺ، ولم يسبق له إذ قال: ما سمعتُ كلمةً غريبةً من العرب إلا وسمعتُها من رسول الله ﷺ، وسمعته يقول: «مات حتفَ أنفِه» وما سمعتها من عربيٍ قبله^(١).

لقد استأثرت هذه النفائس المبتكرة الجامدة باهتمام علماء اللغة والأدب، فجمعواها من مظاها، ومنهم الحافظ (ت: ٢٥٥هـ) حين قال: «ومن ذكر من كلام رسول الله ﷺ ما لم يسبق إليه عربيٌ، ولا شاركه أعمجيٌ ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحدٌ مما صار مستعملًا ومثلاً سائراً»^(٢).

وجمع ابن دريد (ت: ٣٢١هـ) في كتابه المختبىء مجموعة نفيسة من تلك الأحاديث في أول باب من كتابه، وأطلق عليه «باب ما سمع من النبي ﷺ ولم يسمع من غيره قبله» فذكر منها: «يا خيل الله أركي»، «الحرب خدعة»، «النّاسُ كأسنان المشطِ»، «الأعمال بالآيات»^(٣).

وبناءً على الإمام الشعالي (ت: ٤٣٠هـ) في هذا الجمع في كتابه (التمثيل والمحاضرة)، وعنيت كتب الأمثال بالإشارة إلى أولوية الرسول ﷺ في إطلاقها، كما نجد عند الميداني (ت: ٥١٨هـ) في (مجمع الأمثال) والمفضل بن سلمة (ت: ٢٩٠هـ) في (الفاخر).

ولعل أهم جهد بذل في هذا المجال وأوسع تقصٌ لتلك النفائس والأمثال كان على يد الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) في كتابه (الجازات البوبية) حين جمع ستين وثلاثة حديث نبويٌ شريف على تلك الشّاكلة، وأشار إلى سعة هذا الجانب من كلامه ﷺ، وعدم إمكان الإحاطة به، فقال: «ولست شاكاً في أن يفوتي من الجنس الذي أقصده أكثر من المحاصل

^(١) المختبىء لابن دريد ص ١٦-١٧ وانظر المزهر . ٣٠٢/١

^(٢) البيان و التبيين . ١٥/٢

^(٣) المختبىء ص ١٦ و ما بعد.

لي، والواقع إلي، ولكنني أقتصر على ما تناوله في هذا الوقت يدي، ويقرب من تصوّحي
وتأملي»^(١).



^(١) المجازات النبوية ص ٢٠ . وللتوسيع في هذا الفصل ينظر كتاب (أثر الحديث النبوي في الدراسات اللغوية وال نحوية) فيه فائدة عظيمة وقد أفادنا منه.

المبحث الثالث

أثر الحديث النبوي في حفظ العربية

أسهم الحديث النبوي إسهاماً كبيراً في حفظ اللغة، ويعُدّ جانباً مهمّاً منه تأصيلاً وتوثيقاً لكثير من اللهجات التي كادت تضيع وتندثر لولا حفظه لقسمٍ كبير منها، وقد كان لذلك فوائد علميةٌ مهمّة أعانت الباحثين على معرفة تاريخ العربية وتطورها خلال الزمان من جهة، والتدليل على فصاحة ما جاء منها مخالفًا للقواعد العامة، نحويةً كانت أو لغويةً، مما جاء ضمن عصور الاحتجاج اللغوي من جهة أخرى.

والجدير بالذكر في هذا الجانب أن الحديث النبوي - من حيث كونه مصدراً من مصادر الدراسات الصوتية اللهجية عند العرب - لا يقل شأناً عن القراءات القرآنية، بل إنه قد يحمل أساليب لغوية لم ترد في القراءات القرآنية المشهورة.

وقد نوه أبو حيان الأندلسي باحتواء الحديث النبوي على أفصح اللهجات، إذ قال: «ونعلم قطعاً - من غير شكٍ - أنَّ رسول الله ﷺ كان أفصح العرب؛ فلم يكن يتكلم إلا بأفصح اللغات، وأحسن التراكيب وأشهرها وأحرزها، وإذا تكلم بلغةٍ غير لغته فإنما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز وتعليم ذلك له من غير معلم»^(١).

ويُظهر اختلاف اللهجات ضخامة الثروة التي تتمتع بها العربية، ويُسهم في فهم طبيعة العربية الفصحى، ومعرفة أسرارها وطرق تعبيرها.

وهذه اللهجات على تنوعها واختلاف خصائصها يحتاجُ بها ويقاس عليها، وهي مهما تنوّعت واختلفت فإن أمرها يؤُول إلى جانبين اثنين هما:

الأول - التسوع اللغوي.
الثاني - التسوع الإعرابي.

^(١) الاقتراح في أصول النحو ص ٤٤، ٤٥

وقد عُني علماء العربية بدراسة ما جاء في الحديث النبوى من الوجوه المختلفة من لهجات العرب الفصحاء، ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال:

- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤ هـ) في (غريب الحديث).
- الرمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) في (الفائق في غريب الحديث).
- ابن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦ هـ) في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر).
- أبو البقاء العكبرى (ت: ٦١٦ هـ) في (إعراب الحديث النبوى).
- جمال الدين ابن مالك (ت: ٦٧٢ هـ) في كتابه (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح).

- جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ) في (عقود الزيرحد على مسنن الإمام أحمد).
ونبين إسهام الحديث النبوى الشريف في إبراز لهجات العرب، ومن ثم حفظها من خلال بعض النصوص الموثقة في هذين الجانحين:

الأول - التنوع اللغوى:

- من المظاهر الـلهجـيـة في الحديث النبوى:

١- الإبدال الصوتي: ومن ذلك ما جاء على لغة أهل اليمن من إبدال العين نوناً في قوله ﷺ: «لا مانع لـمـا أـنـطـيـتـ، ولا مـنـطـيـ لـمـا مـأـعـتـ»^(١)، ومنه الحديث: «الـيـدـ الـمـنـطـيـةـ خـيـرـ من الـيـدـ السـفـلـيـ»^(٢). ومنه كتابه لوايل بن حجر: «وأنـطـوا الـثـبـحـةـ ...»^(٣).

^(١) السنن الكبرى، باب بيان اليد العليا واليد السفلية، (٧٦٧٣) والمستدرك، في الرقاق (٧٩٣٠)

^(٢) الفائق في غريب الحديث: ١٩٢/١.

^(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٦٩/٥، والفائق في غريب الحديث: ١٤/١، ١٨٢، ١٨٢ أي أعطوا الوسط في الصدقـةـ؛ لا من خيار المال ولا من رذاته.

٢ - الحذف الصوتي: ومن ذلك ما جاء في قوله ﷺ: «لا تَحُورْ شَهادَةُ ذِي الظِّنَّةِ وَالْحِينَةِ».

قال ابن الأثير: «الْحِينَةُ الْعَدَاوَةُ، وَهِيَ لُغَةُ قَلِيلَةٍ فِي الْإِخْتِنَةِ، وَهِيَ عَلَى قِيَمَتِهَا قَدْ جَاءَتْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِّنَ الْحَدِيثِ»^(١).

٣ - القلب المكاني: ومنه قوله ﷺ: «عَلَيْكُم بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ إِنَّهُ أَيْطَبُهُ» قال: «هِيَ لُغَةٌ صَحِيحَةٌ فَصِيقَةٌ فِي أَطْيَبِهِ، كَجَذَبَ وَجَبَ»^(٢).

٤ - اختلاف الاستعمال: كما في الحديث الذي رواه الزهري: «مَنْ امْتَحَنَ فِي حَدَّ فَأَمَّا مَنْ ثَبَرَ فَلَيْسَتْ عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ»^(٣) أَمْ مَعْنَى أَفَرَّ.

قال أبو عبيدة: «وَلَمْ أَسْمِعْ الْأَمَّةَ بِمَعْنَى الْإِقْرَارِ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ»^(٤).

ولعل أبرز ما يطالعنا في هذا المجال ما نُقل إلينا من نصوص نبوية تعدّ مجالاً للدراسة اللهجيّة الصوتية، تلك التي خاطب بها وفود العرب كلاً على حدة، موافقاً لإيمانهم على لهجاتهم، على اختلافها وتنوعها، ومن الأمثلة على ذلك: كتابه ﷺ لوابيل بن حُجْرٍ الحضرمي رضي الله عنه، وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى وَائِلَ بْنِ حُجْرٍ وَالْأَقْوَالِ الْعَيَاهِلَةِ مِنْ حَضْرَمَوْتَ، بِإِقْلَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيَّاتِ الزَّكَاةِ مِنْ الصَّرْمَةِ التَّبَعَةِ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٠٧٢/١ والحديث في السنن الكبرى للبيهقي ٢٠١/١٠ باب لا تقبل شهادة خائن...، والحاكم في المستدرك ٦١/٦ كتاب الأحكام.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/٥٧٠ وذكره القاضي في مشارق الأنوار ٢/٤٠٣.

(٣) قال الجوهري: ««حَدِيثُ الزَّهْرِيِّ لُغَةٌ غَيْرُ مَشْهُورَةٌ» الصَّاحِحُ ٨/٩٤.

(٤) غريب الحديث ٤/٤٧٧ وانظر النهاية لابن الأثير ١/٦٧ والفتاق للزمخشري ١/٨٥.

ولصاحبِها الثيمةُ، لا جَلْبٌ ولا جَنْبٌ، ولا شَعْأَرٌ ولا وِرَاطٌ في الإسلام. لِكُلِّ عَشْرَةِ مِنَ السَّرَايا مَا يَحْمِلُ الْقِرَابُ مِنَ التَّمَرِ، مِنْ أَخْيَا فَقَدْ أَرْبَى، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»^(١).

الثاني - التسوع الإعرابي:

لم يقتصر التباهي اللهجي - كما هو معلوم - على الاختلافات الصوتية، وتنوع الدلالات والبنية، وإنما تعدّه إلى مظاهر إعرابيةٍ ضمنها كثير من النحوين تصانيفهم، مشيرين إلى أنَّ هذه اللهجات كانت مظهراً من مظاهر التسوع.

ولمَّا كان لهذه اللهجات مجالٌ واسعٌ في القراءات القرآنية وفي الشعر المحتاج به، فقد بدت جليّة في الأحاديث النبوية، لذا نرى لزاماً أن نشير إلى هذه اللهجات في النصوص النبوية الصحيحة، بإشارة تفي بالغرض دون الخصر والاستقصاء، فمن ذلك:

- ما جاء على لغة بعض العرب الذين يلزمون المثنى الألف رفعاً ونصباً وجراً، وذلك في قوله ﷺ: «لا وَتْرَانٍ فِي لَيْلَةٍ»^(٢) وهي لغة بني الحارث بن كعب، ومنها قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الْكَعْبَتَيْنِ الْمَوْسُومَتَانِ اللَّتَانِ ثُرْجَرَانِ زَجْرَأْ، فِيَّكُمْ مَيِّسِرُ الْعَجْمِ»^(٣).

- ما جاء على لغة «يتعاقبون فيكم ملائكة». وهي لغة بعض القبائل، إذ كانوا يُسندون الفعل للاسم الظاهر، ويُلحِّدون به ما يدل على التشيبة والجمع.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤٦/٢٢) (١١٧) وينظر العقد الفريد ١٠٧/١، وصبح الأعشى ٢٦٥/٢. الأقوال: الملوك. والعياهل: العظاماء. ولا وراط: لا يُقْوَم بِالقيمة. الشعاعر: أن يُرْوِج الرُّجْلُ ابنته، وينكح الآخر ابنته بلا مهرٍ.

(٢) أخرجه أبو داود ، في الوتر، باب في نقض الوتر، (١٤٤١) والترمذى، في الصلاة، باب ما جاء لا وتران في ليلة، (٤٧٠).

(٣) مسند الإمام أحمد ٤٤٦/١ مسند عبد الله بن مسعود رض.

ومنه ما أورده العكبي في إعرابه من قوله ﷺ: «مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثٌ بَنَاتٍ ...»^(١) قال:
 «وَقَعَ فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ بِتَشْدِيدِ النُّونِ، وَالوَجْهُ: مَنْ كَانَ لَهُ أَوْ كَانَتْ لَهُ، وَالوَجْهُ فِي الرَّوَايَةِ
 الْمُشْهُورَةِ أَنَّهُ جَعَلَ النُّونَ عَلَامَةً مُجَرَّدَةً لِلْجَمْعِ، وَلَيْسَ اسْمًا مُضْمِرًا. كَمَا أَنَّ تاءَ التَّائِيَّةِ فِي
 قُولُكَ: قَامَتْ وَقَعَدَتْ هَنْدَ عَلَامَةً لَا اسْمًا، وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُمْ ذَلِكَ، قَالَ الشَّاعِرُ :

يَلْمُونَنِي فِي اسْتِرَاءِ النَّخِيِّ
 مَلِ أَهْلِي فَكُلُّهُمْ أَلَوْمٌ»^(٢)

- حذف النون مع المضارع المرفوع:
 في قوله ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَبُّو»^(٣). فقد حذف
 النون تخفيفاً، وللمشكلة والازدواج الصوتي مع (تؤمنوا). واستشهد ابن مالك لهذا الحذف في
 النظم بقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فَإِنْ سَرَّ قَوْمًا بَعْضُ مَا قَدْ صَنَعْتُمُو سَتَحْتَلُّوْهَا لَاقِحًا غَيْرَ نَاهِلٍ^(٤)

- ومنه استعمال فعل القول مكان فعل الظرن:
 في قوله ﷺ: «مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبَيِّنُ مِنْ دَرَنَهُ»^(٥) فقد أجرى فعل القول مجرى فعل
 الظُّنُّ على لغة سليم.

^(١) روى الحكم في المستدرك، كتاب البر والصلة (٧٣٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثٌ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَى الْأَوَانِيهِنَّ، وَضَرَّأَهُنَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ...».

^(٢) إعراب الحديث ص ٣١

^(٣) أخرج أبو داود، في الأدب، باب إفساد السلام، (٥١٩٥) والترمذى، في الاستذان، باب إفساد السلام، (٢٦٨٨).

^(٤) شواهد التوضيح والتصحيح ص ١٧٣.

^(٥) أخرج البخارى، في مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفاراً، (٥٢٨) ولفظه: «أرأيتم لو أن نحرأ بباب أحدكم يقتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبَيِّنُ مِنْ دَرَنَهُ؟»

ومنه قوله ﷺ: «آلير تقولون بهن»^(١) أي تظنوون^(٢).

- ومنه ما جاء على لغة ربيعة في حذف التثنين من (منع و هات) في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ وَوَأْدَ الْبَنَاتِ وَمَنْعَ وَهَاتِ»^(٣) أي ومنعاً وهات^(٤).

وقد قاربت شواهد حذف التثنين من المضارع المرفوع المتصل ببأو الجماعة الخمسين في صحيح البخاري وحده.

فهذه الأمثلة وغيرها كثيرة ذكرها مصنفو النحو يشير إلى هذا الجانب المهم من النصوص النبوية التي حفظت لنا كثيراً من اللهجات الفصيحة، ليكون الحديث النبوى أحد أهم مصادر توثيقها وتأصيلها.

^(١) أخرجه البخاري، في الاعتكاف، باب الأئبة في المسجد، (١٩٢٩)

^(٢) شواهد التوضيح والتصحيح ص ٩٢ .

^(٣) أخرجه البخاري، في الاستئراض وأداء الديون، باب ما ينهى عن إضاعة المال، (٢٢٧٧)، ورواية «ومنعاً وهات» فيه أيضاً، في الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبار (٥٦٣٠)

^(٤) شواهد التوضيح والتصحيح ص ٤٩ .

المبحث الرابع

حجّيّة الحديث النبويّ الشريف في علوم العربية

يقوم البحث العلمي الموضوعي على الاستدلال والاحتجاج لإثبات القواعد والأحكام، وقد تميّز البحثان اللغواني والنحواني بتقريري الشواهد والأدلة لإثبات المسائل. ومعروف أن علماء العربية انتهجوا في قبول الشاهد المحتاج به مسلكاً دقيقاً عالياً تبؤا سماه الشاهد القرآني، ثم كل مأثور من شعر أو نثر مسموم مقبول وفق ميزان علمي متفق عليه.

وستقتصر في بحثنا هذا على بيان مكانة الحديث النبوي الشريف في الاحتجاج لعلوم اللغة والأدب والنحو من خلال تتبع مواقف المتقدّمين من هذا النّصّ الشّرِيف في إثبات الأحكام، وبيان مساحته في كتب العربية، وتلمس نواحي القضية الخلافية بين المخوزين والممانعين، لنصل إلى الحكم المنصف الشافي في المسألة.

و قبل الشروع في البيان لا بد أن نقدم بين يدي القضية تذكيراً بأمررين^(١):
- أولهما: فصاحة النبي ﷺ .

- ثالثهما: القيمة التوثيقية للحديث النبوي الشريف.

أولاً - فصاحة النبي ﷺ :

من المسلم به أن النبي ﷺ أُتي ملائكة البيان، وفصاحة اللسان، باصطفاء رباني وعناء إلهية، ليكون البيان النبوي مستعلياً على بيان كل إنسان، فقد ولد ﷺ في قبيلة هي أفعى أبناء الأمة ألسنة وأصفاهم لغة وأرفعهم نسباً، فحمل تلك البنية الوراثية الفاقعة، وتلقف

^(١) آثرت اختصارهما لأنهما استعصيا بالبحث في مواضعهما من الكتاب.

الفصاحة من أقرباء هم في قمة عروبة البيان، ثم قضى الله تعالى أن يدرج في مضارب عرب أصحاح يمثلون عروبة اللسان على أنقى ما تكون، فقد أمضى رسول الله بين ظهراني قبيلة هوازن - حيث رضع - أول سني حياته ليكتسب جذور الأصالة العربية والصفاء البيني، ثم انتقل إلى بيئة الفصاحة والنقاء في بني أسد بن عبد العزى القرشيين حيث كان زواجه الأول.

هذا وقد رعته العناية الربانية بالإمكانات البينانية العالية، فإذا هو في المقام الأعلى بين أصحابه الذين كانوا من قومه، وفي بيته، وكان رسول الله مع ذلك قد أوثق مهارات لغوية متميزة في مخاطبة القبائل بلهجاتها المختلفة، و بما تفهمه وتعلمها من أساليب الخطاب. ومن ثم شهد الدارسون قديماً وحديثاً أن الحديث الشريف «هو أفعى نصٌ إنسانيٌ عربيٌ على الإطلاق»، في تكوين حروفه وأصواته وصيغه وتركيبه وتأديبه وبلاهة رصده وتبيغه، فلا غرو أن يكون مادة لتأريخ العربية في علومها المختلفة، المعجم والصرف والإعراب والبلاغة وفنون القول والبيان»^(١).

ثانياً - القيمة التوثيقية للحديث النبوى الشريف:

لم يحظَ نصُّ - بعد القرآن الكريم - بما حظي به الحديث الشريف من جهود عظيمة؛ في ضبطه ونقله والوفاء بحفظه وصيانته، وتحرير مسائله ومفاهيمه، وتوضيح مساركه وأصوله، فقد نضجت مساعي الأولين والآخرين من حمامة السنة من صحابة وتابعين ومن تبعهم من المخلصين، وتکللت بإرساء صرح متكامل البنيان، لتكون السنة النبوية بروايتها ودرايتها حقيقة بأن تكون في المرتبة الثانية بعد النص الإلهي - القرآن الكريم -.

وقد بدأ حفظ هذه الثروة النبوية منذ بدايات عهدها حين أمر النبي رسول الله أصحابه بتبيغ حديثه من لم يبلغه، فانتشرت سنته في عهده مصونة محفوظة بورع ناقليها وتحريهم،

^(١) تاريخ الاحتجاج النحوي بالحديث النبوى الشريف ص ٦٧.

وكانت الأسس العلمية الدقيقة التي نظمت النشاط العلمي في عصر الصحابة والتابعين أنسياً يفخر بها العلماء، وتورث في القلب اليقين بعدلة الناقلين، وصحة المقول وثبوته. وتولت الجهود العلمية عبر العصور حتى انتجت المصنفات الحديثية على اختلاف مناهجها في الجمع والترتيب، من جوامع وسنن ومصنفات ومستدركات ومستخرجات وأطراف ومعاجم ... وغيرها. واستطاعت هذه الأنواع من التصنيفات أن تحيط بما لم يستطعه تاريخ قوله لأحد البشر.

وبهذا نجد أن أحاديث النبي ﷺ في الآثار المعتمدة هي أفعى وأصحّ نصٌ إنساني متناً وإسناداً. إنه إذاً يحمل أعلى مراتب القيم اللغوية بعد القرآن الكريم. فهل أدرك اللغويون والباحثة هذه الصفات المتميزة؟ وهل استفادوا منها فيما قدموها للعربية من بحث وتصنيف وتقديم؟^(١)

١ - الاحتجاج بالحديث في اللغة والأدب

لا يمكن بحالٍ فصل علوم العربية عن علوم الشريعة، فأول مصادر العربية القرآن الكريم، ثم السنة التي جاءت تبييناً له وتغريعاً لأحكامه، ومن ثم لا يمكن انفراد عالم بأحد فرعين المعرفة دون اشتغاله بالأخر، وإن نظرة عجلٍ في كتب كثير من اللغويين تُظهر اعتمادهم على الأثر النبوي في الاحتجاج اللغوي.

فمن ذلك كتب غريب القرآن التي اعتمد مصنفوها على الحديث الشريف أيماء اعتماد في الاستدلال والتأويل، وكتب غريب الحديث التي تُعدُّ مراجع لغوية حفظت لنا ثروة حديثية مهمة، ومصنفوها جلّهم من علماء العربية.

^(١) انظر: تاريخ الاحتجاج النحوى بالحديث النبوى ص ١١١.

وكذا اعتمدت كتب الأبنية والصيغ اعتماداً أساسياً على الحديث الشريف، ومن تتبع المعجمات العربية منذ نشأتها عبر تطورها يجد الحديث الشريف مصدراً أساسياً من مصادر التوثيق اللغوي فيها^(١).

وهناك أهم المظان اللغوية التي حفلت بالكثير الكثير من الحديث النبوى:

- معجم العين : للخليل بن أحمد الفراهيدى (ت: ١٧٠ هـ).
- جمهرة اللغة : لابن دريد محمد بن الحسن (ت: ٥٣٢١ هـ).
- البارع في اللغة : للقالي أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت: ٣٥٦ هـ).
- تهذيب اللغة : للأذرري محمد بن أحمد (ت: ٣٧٠ هـ).
- مقاييس اللغة : لأحمد بن فارس القرزويني (ت: ٣٩٥ هـ).
- تاج اللغة وصحاح العربية : للجوهري إسماعيل بن حماد (ت: ٥٣٩٣ هـ).
- لسان العرب : الذي أفرغ فيه ابن منظور (محمد بن مكرم) كتاب (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير .

أما في الأدب والبلاغة فالامر لا يختلف، فالمطلَّع على الكتب الأصول في الأدب

العربي يجد بها تفاصيل بالحديث النبوى، ومنها:

- البيان والتبيين : للجاحظ عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥ هـ).
- أدب الكاتب : لابن قتيبة عبد الله بن مسلم (٢٧٦ هـ).
- الكامل للمبرد .
- الأمالى : للقالي أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت: ٣٥٦ هـ).
- ثمار القلوب، والتمثيل والمحاضرة : للشعالى عبد الملك بن محمد (ت: ٤٢٩ هـ).
- أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجانى .

(١) انظر: أثر الحديث النبوى في الدراسات اللغوية وال نحوية ص ٣١١-٣٢١، وما بعد وتاريخ الاحتجاج النحوي بالحديث الشريف ص ١٣٠.

وغيرها مما يجعل الأمر لا يحتمل الشك في عمق أثر الحديث النبوي في كتب الأدب. وبعد هذا وذاك يعجب الفكر من اندفاع المتقدّمين إلى الاحتجاج بالحديث النبوي واعتماده أساساً في تخليلاتهم اللغوية، ثم موقفهم المناقض من الاحتجاج فيه في استبطان القاعدة النحوية، إذ «أصبح ربع اللغة به خصيّباً، بقدر ما صار ربع النحو منه جديّاً»^(١) والأعجب من ذلك أن يجد العالم نفسه - كالمبرد مثلاً - لا يتزدّد في اعتماد الشاهد الحديسي أساساً في كتاب من كتبه الأدبية - الكامل - ثم يحجم عن ذلك في كتابه (المقتضب).

فلمَ اغترف علماء العربية من معين الكلام النبوي في مجالاتهم اللغوية، ثم غضّوا الطرف عنه في أبحاثهم النحوية؟ إن هذا يدفعنا إلى الدخول في تلaffيف هذه القضية التي أثارت جدلاً بين علماء النحو، ألا وهي:

٢ - الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف في البحث النحووي

تبينت مواقف النّحّاة من الاحتجاج النحوبي بالحديث النبوي تباعاًً جعل بعضهم يتحفظ فيه عند توثيق القواعد في بداية الدراسات النحوية، فجعلوا يلحّون إليه على استحياء في كتبهم، في حين الذي عجّت فيه تلك الكتب بالمنقول من كلام العرب من شعر ونثر، حتى ولو لم تتحقق نسبته أو ثقة قائلية.

فقد ذهب جماعة من النّحّاة إلى أنه لا يصح الاستشهاد بالحديث النبوي في إثبات ألفاظ اللغة ولا في وضع قواعدها أو تقرير أحکامها. ومن هؤلاء ابن السید البطليوسى (ت: ٥٤٢هـ)، وابن الصّانع (ت: ٦٨٠هـ) وأبو حيان الأندلسى (ت: ٧٤٥).

^(١) نظرات في اللغة والنحو ص ٢٣.

وخلالفهم جماعة من النحاة، فأجازوا الاحتجاج بالحديث النبوى في اللغة وال نحو، وجروا على الاستشهاد به في تحقیق الألفاظ وتقریر القواعد، ومنهم ابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ) وابن مالك (ت: ٦٧٢هـ) وابن هشام (ت: ٧٦٢هـ).

وقد رأى المانعون أن الحديث النبوى لا يُستشهد به لأمرین:
أولهما : أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى، وترخّصوا في التصرّف في اللفظ.
ثانيهما: وقوع اللحن في رواية الحديث، لأن رواته من الأعاجم الذين لا يتكلّمون العربية بالطبع.

فاما رواية الحديث بالمعنى فقد أجب عنها بأن الرواية باللفظ هي الأصل، ومن أجاز الرواية بالمعنى إنما أجازها للضرورة واشترط لها شرطاً تضيّقها وتقيدها وهي: «أن يكون الحديث عالماً بلغات العرب ووجوه خطابها، بصيراً بالمعاني والفقه، عالماً بما يجيئ المعنى وما لا يجيئه»^(١).

وأما دعوى اللحن وعجمة الرواية فيجاب عنه من عدة جهات:

- إذ نجد علماء الحديث أوجبوا على رواة الحديث من عرب وغيرهم تعلّم النحو واللغة، ومن هؤلاء العلماء شعبة بن الحجاج، إذ يقول: «من طلب الحديث ولم يُنصر العربية كمثل رجل عليه بُرنس وليس له رأس»^(٢) ويقول حمّاد بن سلمة المحدث الحافظ: «مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو مثُلُّ الحمارِ عليه مُحلاةً لا شَعِيرَ فيها»^(٣).

-عروبة لسان المحدثين الأوائل من العجم، وحرصهم على تدوين الحديث، يقول الشيخ محمد الخضر حسين: «إن قسماً كبيراً من الأحاديث دونه رجال يُحتاج بأقوالهم في العربية، وإن كثيراً من الرواية يكتبون الأحاديث عند سماعها، وذلك مما يساعد على روایتها

^(١) المحدث الفاصل ص ٥٣٠

^(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢١٨.

^(٣) علوم الحديث ص ١٩٥، وتدريب الراوي ص ٣١٧.

بألفاظها، بالإضافة إلى التَّشديد في رواية الحديث بالمعنى، وما عرف من احتياط أئمَّة الحديث وتحريِّهم في الرواية، فيحصل الظُّرُفُ الكافي لرجحان أن تكون الأحاديث المدونة في الصدر الأول مرويَّة بألفاظها من يحتجُ بكلامه^(١).

- إن كثيراً ما قيل فيه إنه لحن في الحديث ظهر له وجه من الصحة، وقد ألف ابن مالك في هذا الباب كتابه (التوضيح في حل مشكلات الجامع الصحيح) وذكر للأحاديث التي يشكل إعرابها وجوهاً يستبين بها أنها من قبيل العربي الصحيح^(٢).

ونختم ببيان الفصل في مسألة الاحتجاج بالحديث النبوي، ونذهب إلى ما خلص إليه

الأستاذ محمد الخضر حسين:

«من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج به في اللغة، وهو ستة أنواع:

أحدها: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحتته عليه الصلاة والسلام، كقوله:

«حمي الوطيس»، قوله: «مات حتف أنفه»، قوله: «الظلم ظلمات يوم القيمة»، إلى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شيء من محاسن البيان كقوله: «ما زورات غير مأجورات»، قوله: «إن الله لا يملأ حتى تملأ».

ثانيها: ما يروى من الأقوال التي كان يتبعَّد بها أو أمر بالتبعد بها كألفاظ القنوت والتحيَّات وكثير من الأذكار والأدعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة.

ثالثها: ما يروى شاهداً على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم.

وما هو ظاهر أن الرواية يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة لرواية الحديث بلفظه.

رابعها: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة وأنْجَدت ألفاظها، فإنَّ اتحاد الأنماط

مع تعدد الطرق دليل على أن الرواية لم يتصرَّفوا في ألفاظها، والمراد أن تتعدد طرقها إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو التابعين الذين ينتطرون الكلام العربي فصيحاً.

(١) دراسات في العربية وتاريخها ص ١٧٥.

(٢) دراسات في العربية وتاريخها ص ١٧٥.

خامسها: الأحاديث التي دوّنها من نشاً في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، كمالك بن أنس وعبد الملك بن حريج والإمام الشافعي.

سادسها: ما عُرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى ، مثل ابن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حبيبة وعلي بن المديني»^(١).

«وخلاصة البحث: أنها نرى الاستشهاد بالألفاظ ما يُروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثنى إلا الألفاظ التي تحيي في رواية شاذة أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيح غمزاً لا مردّ له، ويشدُّ أزرنا في ترجيح هذا الرأي أن جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالألفاظ الواردة في الحديث ولو على بعض روایاته»^(٢).

^(١) دراسات في العربية وتاريخها ص ١٧٧ - ١٧٨

^(٢) دراسات في العربية وتاريخها ص ١٧٩ - ١٨٠



الفصل الثاني

المصائر الأسلوبية والمعنوية للحديث النبي

تمهيد : شمائل النبي محمد ﷺ وخصائصه الخلقة والخلقية

المبحث الأول : التكوين الأدبي للنبي ﷺ

المبحث الثاني: خصائص البلاغة النبوية .



تهنيد

شمائل النبي محمد وخصائصه المخلقية والمخلقة

ونحن إذ نتّخذ من الحديث النبوي الشريف روضاً يجعله ميداناً لبحثنا الأدبي في هذا الكتاب، لابدّ لنا من استعراض حياته ﷺ استعراضاً سريعاً، ينقلنا إلى صاحب الحديث، وبجعلنا نقف عند بعض أحداث حياته الشريفة؛ لتكون منه على مسافة أقرب، متعرّفين على خصائصه الجليلة، مهتمين من خلالها إلى خصائصه البينانية؛ إذ الكلام صفة المتكلم، والوقوف على خصائص المعلم زاد المتعلّم.

في زمانٍ غيّبه الظلام، وساده الجهل والجهلية والمجاهيلية والمجاهيل والمجاهيل الخلقية، واحتلّت به العقائد بالوثنية فعُيّد الحجر من دون الله، وغرق المجتمع في فساد السادة وقهْر العبيد، حين بلغ الاحتكام إلى سلطة القوة أعلى مبلغ، واجترأ الأحباش بقيادة زعيمهم أبرهة على الكعبة المشرفة أقدس وأطهر مكان في الأرض، حين ردّ الله عز وجل هذه القوة الطاغية من الفيلة والأحباش الحاذدين بمعجزة سماوية أظهرت عظمة المكان وقدسيته في الأرض والسماء، ظهرت مشيئة الله عز وجل بأنه قد آن الأوان لإرسال نور يبدّد ذلك الظلام ويُطهّر أدناس القلوب والعقول، فكانت ولادة أكرم الخلق وحبيب الحق ﷺ في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، من ذلك العام الذي عُرف بعام الغيل، ثمرة زواج مبارك بين عبد الله بن عبد المطلب سيد سادات قريش وأفضالهم حسباً وخلقاً وشرفاً، وآمنة بنت وهب كريمة الأسرة الأصيلة الشريفة، ليتسارّسل نسبه بأكرم الآباء والأجداد، إلى أن يتصل بسيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فاجتمعت في مورثاته فضائل الأخلاق والمكارم، وشرف الحسب والنسب، إذ ورثها من أبويه عن أجداده. حملت به أمّه من زوجها الشاب عبد الله الذي ما لبث أن توفي وتركه في بطنه جنيناً، ليخرج إلى الدنيا يتيمًا مباركاً جيلاً لا يملك من رأه إلا أن يحبه، فتعلّق به قلب جده كما تعلق بأبيه من قبله، فكفله ورثاه وعوّضه عن غياب الأب. وجرياً على عادة العرب في استرضاع أولادهم في البوادي لينشؤوا في جوها الصافي ويختلطوا بأهل

الفضاحة والأصالة أرسله في حضانة حليمة السعدية التي حملته إلى بادية بني سعد، وأرضعته عامين، ثم استأذنت أمه في بقائه لديها عامين آخرين؛ لتعلق قلبها به، فعاش في البداية نحوً من أربع سنين من عمره، ثم عاد إلى حضن أمه التي ما إن فرحت بعودته إليها وبدء التئام شملها عليه حتى توفيت عنه، وتركته أمانةً في عنق جده عبد المطلب، وهو ابن ست سنين، مما زاد حبّ جده له، فكان قرة عينه ومهوى فؤاده من بنيه وأحفاده، وعندما أحسَّ بدنو أجله أوكل أمر رعاية حفيده وكفالته إلى أبي طالب عم النبي ﷺ، الأخ الشقيق لوالده عبد الله، فتوفي عنه مطمئناً عليه لعلمه بحبِّ عمه له، الذي أدخله، وهو ابن ثمانين سنوات بين أبنائه، وأحبه كحبه لهم، بل فاق، فكان لا يستطيع أن يغيب ابن أخيه الغالي عن ناظريه، لذلك عندما بلغ من العمر الثني عشرة سنة بدأ يخرجه معه في رحلاته التجارية، إلى بلاد الشام ليكون قريباً منه، وليتدرّب على السعي والكسب، وتحمّل أعباء الحياة، فتعلّم من عمه فن التجارة، ثم أصبح يتاجر مستقلاً بأموال الناس، فكان نعم التاجر، تجارتُه راجحة، ورحلاته ناجحة، وهو خلوقٌ صادقٌ أمين، يحفظ المال والوعهد، فذاع صيته واشتهر بين الناس، فسمعت به السيدة خديجة بنت خويلد ذات الشراء والحسب، فدعنته للتجارة في مالها، فربحت مضاعفاً، ورأت من لطيف خلقه ﷺ وكمال فضله ما جعلها تعرض نفسها عليه، طالبةً الزواج به، مخالفةً بذلك عادات العرب أن المرأة في الزواج مطلوبةً لا طالبة، ولكنها عرفت بكمال عقلها عظيم قدره ﷺ، وكانت له نعم الزوجة والصاحبة وأم الأولاد، وسيدة نساء الأمة، رضي الله عنها.

ولما بلغ النبي ﷺ سن الأربعين أخذت تظهر عليه أمارات خاصة، بدأت بالرؤيا الصادقة في المنام، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلك الصبح، ثم حُبِّت إليه الخلُو بنفسه، متاماً الكون حوله، متفكراً بعظيم صنعه وجميل تكوينه مستنحجاً أنَّ ورائه لا محالة صانعاً جليلًا إلهًا عظيماً جل جلاله تعالى. وملجأه في تلك الخلوة غارٌ حراء، ليأتيه الملك جبريل عليه السلام حاملاً له أمر الله عز وجل باختياره مبعوثاً إلى الناس برسالة الإسلام، فقام يدعوه إلى توحيد الله عز وجل سراً مقتضاً في ذلك الحين على من يثق بهم من حوله ثلاثة سنوات

قبل أن يأمره الله عز وجل بأن يجهر بدعوته بين الناس من أهل مكة، فاشتد أذاهم له ولأصحابه؛ كحال الداعي إلى الحق في كل زمان ومكان، وتتنوع ذلك الأذى واختلفت أصنافه، فمن التسفيه والاستهزاء والشتم والوصف بأسوأ الصفات، إلى الضرب والحبس والتعذيب لأصحابه، ثم تصاعد الأمر حتى بلغ مرتبة المقاطعة والعزلة الاجتماعية، حيث أجاء أهل مكة هو ومن تبعه وأمن به ومن تعصّب له إلى شعب أبي طالب لأكثر من ستين، لحق بال المسلمين منها أعظم شدة وبلية، ليخرج بعدها رسول الله ومن معه منهكين، فيتوفى عم أبو طالب، لي فقد النبي رسول الله بمorte حليفه وسنده القوي في المجتمع، ثم تتبعه زوجته خديجة، المؤنس الروحي وشريكة الحياة وأم الولد، فيمسح الله عز وجل على قلبه برحمة علوية بما يُعرف بالإسراء والمعراج.

ومن ثم ينطلق النبي رسول الله ماضياً في مهمته بتبيّن رسالة ربه، عارضاً نفسه على القبائل في مواسم الحج، لعل قبيلة منها تستجيب له في دعوته لها إلى الإسلام والتوحيد، فاجتمع له اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة وأجابوه لطلبها، وأسلموا على يديه، ثم دعوه إلى أن يترك مكة ويهاجر إلى أرضهم، فيكونوا له حصناً ومانعاً، وتكون المدينة مهدداً ومقرّاً لأول دولة إسلامية في الوجود، فباع لهم على ذلك في العقبة فيما سمّي بيعة العقبة الأولى، ولكنهم تواعدوا على كتمان الأمر، حتى تخين الفرصة المناسبة، ثم عاد أولئك النفر إلى مدinetهم لينشروا الدعوة الإسلامية بين أهليهم وذويهم، فكان ثمرة سعيهم أن عادوا إلى مكة في موسم الحج التالي، زهاء سبعين رجلاً اقتسموا الفكرة وحملوا الأمل والوعيد بأن ينصروا النبي رسول الله، ويكونوا له عوناً في نشر دعوته ورسالته، فباع لهم في العقبة الثانية، ليوضع أول حجر أساس في المرحلة الجديدة؛ مرحلة العهد المدني، عرف عندها النبي رسول الله بوعيٍ من ربِّه أنه قد آن أوان الهجرة، فأخذ لأصحابه بالانتقال إلى المدينة ثم تبعهم، وقد تخلف عنهم ليطمئن على خروجهم من مكة سالمين، وهاجر برفقة صاحبه أبي بكرٍ إلى المدينة التي أُنيرت بقدمه عليها، فسمّاها أهلها (المنورة) ليبدأ بذلك تاريخ جديد في الفكر الإسلامي والعالمي، وفي ضمير الحضارات، إنّه تاريخ الهجرة، تاريخ إقامة أول دولة في الأرض تدين بدين الله، وتقييم حدوده، ثم بدأ

بعدها النبي ﷺ بناء نسيجه المجتمعي، وإحكام حُمته، وتوحيد الصنوف، وتربية النفوس والقلوب، وتنظيم الأحكام، وإقامة الحدود والشائع، فآخى بين المهاجرين والأنصار لتلاحم أواصر المجتمع، ثم نظم علاقة المسلمين مع غيرهم اليهود، الذين ساكنوهم المدينة على أساس المودة وحسن الجوار. ولما حصل الاستقرار وتوطدت أركان المجتمع الناشئ توجه النبي ﷺ صوب حرب الكفار الذين منعوه تبليغ رسالة ربه، فعقد الألوية، وقاد بنفسه الغزوات، وأرسل السرايا، وشنَّ على المعتدين الغارات، وغزا خمساً وعشرين غزواً بنفسه، من أشهرها بَدْرٌ وأَخْدُ وَالخندق، ثم كان الصلح مع المشركين، صلحُ الحديبية، في السنة السادسة للهجرة، اتفق فيها الطرفان على وقف القتال بينهما، فهدأت النفوس، وخففت حمأة الصدام والقتال، وأمن الناس، فنعم المسلمون بالحرية في تبليغ الدعوة وتعليم القرآن، فكثر الإقبال على الإسلام، ومنحت المدننة النبي ﷺ الفرصة ليتوسَّع في عرض دينه ونشر دعوته، فكثرت سفاراته إلى الدول الكبرى آنذاك، وأرسل رساله وكتبه إلى الملوك والعلماء أمثال كسرى الفرس وهرقل الروم وغيرهم، مما أكسب الدولة الإسلامية قوَّةً ومتانةً، وتتابع النصر المبين من الله عز وجل لمسيرة النبي ﷺ، فكان فتح مكة تحقيقاً لوعد الله بأنه ناصر عبده الداعي إليه، وبأنه إِلَهٌ مظہرُ الحق، ولو بعد حين، فدخل الناس في دين الله أَفْواجاً، وشقَّ الإسلام جزيرة العرب، وَدَحَّرَتْ راية التوحيد الوثنية البغيضة والحجر الأجوف، ومحَّتْ تغيب العقول والاستهزاء بالفكر الإنساني.

واطمأن النبي الأمين أنه قد أدى أمانة ربِّه على أكمل وجه، فهاهي ذي راية التوحيد تتلاألأً حفافة في سماء أرض العرب، وهاهو ذا صوت الأذان يعلو كل صوت شرك وغرور، عندها علم المرسل المبعوث أن مهمته قد انتهت، وأنه آن أوان أن يجيب دعوة ربِّه عز وجل، فكانت وفاته ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول السنة الحادية عشرة للهجرة. لقد تسامت شخصيته ﷺ بعظمٍ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، فهو عظيم في كل جوانب حياته؛ قائداً وزوجاً وأباً وسيداً وعابداً، سياسياً وإدارياً وعسكرياً وداعياً ...، وهو

عظيم، لأنه موضع الأسوة الحسنة لكل إنسان مهما اختلفت أحواله؛ فقيراً أو غنياً، يتيماً، أو مستضعفاً أو قوياً...

وهو عظيم لأنه نقل أمة العرب من حفاوتها وبدائيتها وبداوتها؛ لتكون خير أمة أخرجت للناس، أخرجها من حوالك الظلمات، فأخرجت العالم إلى أنوار الحضارة. وهو عظيم في كل ميزان، خلقاً **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** [القلم: ٤]، وديننا **«كَانَ خُلُقُهُ الْقَرآنَ»**، وقلباً **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَيْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التونية: ١٢٨]

ومن ثم لابد من الوقوف على شمائله وأوصافه ﷺ لنتوضّح بعض جوانب شخصيته:

شمائل النبي محمد ﷺ

من المهم أن نقدّم بين يدي دراسة الأدب النبوي ملامح من صورة النبي ﷺ، وخصائص شخصيته التي تكاملت فيها الجوانب الحُلُقية والخُلُقية، فغدت بكلاء الله وعنائه حديرة بتلقي الوحي الإلهي، مهيئة لتبليغه، خليقة بأن يكون مسکها ختاماً في ركب الرسالات السماوية.

أولاً - شمائله وخصائصه الخلوقية:

أجمعـت كـلـمة مـن رـأـيـ النبي ﷺ عـلـى أـنـه جـمـعـ المـحـاسـنـ وـالـكـمـالـاتـ الخـلـقـيـةـ، وـحدـثـوا عـنـ صـفـاتـهـ وـمـزاـيـاـ خـلـقـتـهـ، وـتـوـارـدـتـ الروـاـيـاتـ فـيـ كـتـبـ الـحـدـيـثـ وـالـسـيـرـ فـيـ وـصـفـهـ ﷺ، وـنـسـوـقـ مـنـ تـلـكـ الـرـوـاـيـاتـ:

ما رواه البراء رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنتهم خلقاً»^(١)، وعنده رضي الله عنه أنه «سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر»^(٢).

وروي عن عائشة رضي الله عنها وصفها بقولها: «وكان ﷺ أحسن الناس وجهًا وأنورهم لوناً، لم يصفه واصفٌ قطٌ بمعنى صفتة إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر»، يقول: هو أحسن في أعين الناس من القمر» وذكرت الحديث إلى أن قالت: «وكان ﷺ أحلى الجبين، إذا طلع جبينه من بين الشعر، أو اطلع في فلق الصبح أو عند طفل الليل، أو طلع بوجهه على الناس، تراءوا جبينه كأنه ضوء السراج المتقدّ ينلأ»^(٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كان الشمس تجري في وجهه»^(٤).

ووصف الإمام علي رضي الله عنه خلقة النبي ﷺ بكلمات يسيرات وافيات فقال: «لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممعطر، ولا بالقصير المتزدد، وكان زبعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط، ولا بالسيط، كان جعداً رجالاً، ولم يكن بالمطعم ولا بالملكين، وكان في الوجه تدوير، أياضُ مشرب بحمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار، حليل المشاش والكتد، أجرد ذو مسرية، شئ الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أحوج الناس كفًا وأشار لهم صدرًا».

(١) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٥٦) ومسلم، في الفضائل، باب في صفة النبي ﷺ، (٩٣).

(٢) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٥٩).

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم ١٩٦/٢، (٥٤٩) الأجل: الخفيف شعر الترعتين بين الصدغين، والذي انحر الشعر عن جبينه. الفلق: ما انفلق من عمود الصبح، وقيل هو الصبح بعينه، طفل الليل: طفل: دنا وأقبل بظلامه، والطفل: بعد العصر إذا طفلت الشمس للغروب.

(٤) مستند الإمام أحمد ٢/٣٨، (٨٩٣٠).

وأصدق الناس لحجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رأه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعنه: لم أر قبله ولا بعده مثله»^(١).

وما أروع وصف أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية التي قدر لها أن تلتقي به ﷺ في موقف أذهلها فيه ما رأته فيه؛ من كمال خلقي وخلقي، ولم تكن تعرفه من قبل، أو تعلم أنه نبي، وذلك في مرور النبي ﷺ وأبي بكر بها. فكان من حديثها ما كان، وكان من وصفها له أن قالت: «رأيت رجلاً ظاهر الوضاء، أبلع الوجه، حسن الخلق، لم تعيه نحيلة، ولم تُرَّ به صنعة، وسيم، في عينيه دعْج، وفي أشفاره وَطْفٌ، وفي صوته صَخْلٌ، أحْوَرُ أَكْحَلٍ، أَرْجُعُ أَقْرَنٍ، وفي عنقه سَطْعٌ، وفي لحيته كَثَاثٌ، أَزْجُ أَقْرَنٍ، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاته وأحسنه من قريب، حلُّ المنطق، كلامه فَصْلٌ لا هذَرٌ ولا نزَرٌ، كان منطقه خرزات نظمٍ يتحدرُّن، زَعْةٌ لا تشُنُّه عينٌ من طول، ولا تَقْتَحِمُه عينٌ من قصر، عُصْنٌ بين غصين، فهو أنصَرُ الثلاثة منظراً، وأحسنُهم قدرأً، له رُفقاء يُحْفُون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفودٌ محسودٌ، لا عابس ولا مفند»^(٢).

(١) أخرجه الترمذى، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٦٣٨).

المغط: الذاهب طولاً، المتعدد: الداخل بعضه في بعض قصراً، القحطط: الشديد المعود، الرجل: الذي في شعره ثفنن، المطعم: البادن الكبير للحم، المكثشم: المدور الوجه، المشرب الذي في بياضه حرقة، الأدعج: الشديد سواد العين، الأهدب: طويل شعر الأشفار، والأشفار هي الأحافان التي تبتت عليها الأهداب، الكبد: مجتمع الكفين وهو الكاهل، المسربة: هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة، الشلن: الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين، والتقلع أن يمشي بقوه ، والصبيب: الحدور، يقال: انحدرنا في صبور وصبيب، قوله: حليل المشاش يزيد رؤوس المناكب، العشرة: الصحبة، والعشير: الصاحب، والبديهة المفاجحة، يقال: بدتهه بأمر أي فجائه. انظر الشمائل للترمذى (ص: ١٨ - ١٩).

(٢) المعجم الكبير: ٤/٤٤٠٥ (٣٦٣٨).

ثانياً - شمائله وخصائصه الخلقية:

تحلى رسول الله ﷺ بكمال الخلق، فكان القرآن خلقه، وكان ثناء الله تعالى عليه أشرف شهادة له في ذلك: «نَّ وَالْقَلْمَنِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْمُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ١ - ٤].

وقد استفاض الصحابة الذين عاشوا معه ولازموه في بيان الكمالات التي حازها، حتى تجمعت من تلك الأخبار أسفار، جمعها العلماء في كتبهم، وأفرد لها بعضهم تصنيفات خاصة، كالأمام الترمذى في كتابه (الشمائل الحمدية) ويضيق مقامنا في هذه التقدمة عن إيراد ما يوفي بهذا الشأن، فنورد شذرات من تلك المرويات، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن هشام بن عامر، فذكر الحديث، وفيه «أنه أتى عائشة رضي الله عنها يسألها، فقال: يا أم المؤمنين، أنبيئني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: ألسنت تقرأ القرآن؟ قلت: بلـى، قالت: فإنَّ خلقَ نبِيِّ اللهِ ﷺ كانَ القرآن»^(١).

وروى عن عروة قال: «ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهله إلا قال: لبيك، ولذلك أنزل الله عز وجل: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: ٤]»^(٢).

= الث杰ة: عظم البطن، الصعلة: صغُر الرأس، الدعج: شدة سواد حدقة العين، الوطف: كثرة شعر الحاجبين والعينين، الصحل: كالبحة في الصوت، أحور: شديد سواد العين وبياض بياضها، وهو محمود محبوب، الكخل: سواد في أجفان العين خلقة، الأرج: دقيق طرف الحاجبين، الأقرن: مقرون الحاجبين أي بين الحاجبين شعر خفيف، سطع: ارتفاع وطول، النزر: القليل، المذر: الكثير، لا تشتهوه: أي لا يبغض لفريط طوله، ولا تقتصرمه: لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً، محفود: محظوظ، محسود: عنده حشد وهم الجماعة، المفند: الذي يكثُر اللوم.

(١) أخرجه مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، (١٢٠).

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٣٨، (١١٤).

وعن أبي عبد الله الجحدري قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟
قالت: «كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاجشاً ولا متفحشاً، ولا سخاباً بالأسواق، ولا
يجزى بالسيئة مثلها، ولكن يغفو ويصفع»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفاً، والله ما
كان يمتنع في غداة باردة من عبده ولا من أمته ولا صبيٍّ أن يأتيه بالملاء، فيغسل وجهه وذراعيه،
وما سأله سائلٌ قطٌّ إلا أصغى إليه أذنه، فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه، وما
تناول أحدٌ بيده إلا ناوله إياها، فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه»^(٢).

وروى الترمذى في الشمائى بسنده إلى الحسين رضي الله عنه قال: سألت أبي عن
سيرة النبي ﷺ في جلسائه فقال: «كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الحانب،
ليس بفظٌ ولا غليظٌ، ولا سخابٌ ولا فحاش، ولا عيابٌ ولا مشاح، يتغافل عمما لا يشهي،
لا يؤپس منه راجيه ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاثة: المرأة والإكثار وما لا يعنيه،
وترك الناس من ثلاثة، كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته، ولا يتكلّم إلا فيما رجا
ثوابه، وإذا تكلّم أطرق جلساوه، كما نما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا، لا يتنازعون
عنده الحديث، وإذا تكلّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، يضحك ما يضحكون منه، ويتعجب
ما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إنْ كان أصحابه
ليستحيلوهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الشفاء إلا من مكافئ،
ولا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام»^(٣).

^(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١٧٤، (٢٥٤٥٦) والترمذى في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ

^(٢) الصحب والسخب : الضجة، واضطراب الأصوات للخصام.

^(٣) حلية الأولياء ٣/٢٦ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/٢٣٢.

^(٤) الشمائى الحمدية للترمذى ص ١٨٩ ، (٣٤٥)، وينظر بجمع الروايد ١٨/٣٤.

ولو أردنا أن نسوق ما جاء في وصف الكمالات الخلقية للنبي ﷺ لضيق بنا المقام، فالباب واسع والبحر زاخر، ونختتم بما افتح به الرافعي كلامه في صفة النبي ﷺ، إذ قال: «ليس في التاريخ العربي كله من جمعت صفاته وأحصيـت شـمائـله وتوـاـترـ النـقـلـ بـذـلـكـ جـمـيعـهـ، من طرق مختـلـفةـ، عـلـىـ توـقـقـ إـسـنـادـهاـ غـيرـ النـبـيـ ﷺـ.ـ وهذاـ أـصـلـ ولاـ يـعـدـلـ بـهـ شـيءـ فيـ بـيـانـ حـقـائـقـ الـأـخـلـاقـ،ـ وـالـإـسـتـدـلـالـ عـلـىـ قـوـةـ الـمـلـكـاتـ وـاسـتـخـارـاجـ الصـفـاتـ الـنـفـسـيـةـ الـتـيـ حـصـلـ مـنـ جـمـعـهـاـ أـسـلـوبـ الـكـلـامـ عـلـىـ هـيـئـتـهـ وـجـهـتـهـ،ـ وـانـفـرـادـ بـهـ عـسـىـ أـنـ يـكـونـ مـنـفـرـداـ بـهـ،ـ أوـ شـارـكـ فـيـماـ عـسـىـ أـنـ يـكـونـ مـشـارـكاـ فـيـهـ».

وبعد أن ساق حديثاً في وصفه ﷺ قال: «ولقد أفضوا في تحقيق أوصافه ﷺ بأكثر من ذلك ألفاظاً ومعاني، ونقلوا الكثير الطيب من هذه الأوصاف الكريمة في كلّ باب من محاسن الأخلاق، مما لا يتسع هذا الموضع لبسطه، فتأمل أنت هذه الصفات، واعتبر بعضها بعض في جملتها وتفصيلها، فإنك متoscّم منها أروع ما عسى أن تدلّ عليه دلائل الحكمة، وسمة الفضيلة، وشدة النفس، وبعد الهمة، ونفاذ العزيمة، وإحكام خطّة الرأي، وإحراز جانب الخلق الإنساني الكريم».

ثم بين أثر هذه الصفات في الأسلوب فقال: «إذا تأملتها منسقة، وتمثلتها قائمة في جملة النفس، وأنعمت على تأمل صورها الكلامية التي تبعث الكلام وتزنه وتنظمه، وتعطيه الأسلوب، وتحمله بالرأي، وتزيّنه بالمعنى فإنك ستجد من ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبية في هذه اللغة وأشدّها وأحكمها مما لا يضطرب به الضعف، ولا تزايله الحكمة، ولا تخذله الروية، ولا يباينه الصواب، بل يخرج رصيناً غير متهافت، متسقاً غير

= ولا مشاح: ليس بخيلاً، المرأة: الجدال، الإكثار: استعطاط نفسه في الجلوس وغيره، وإن كان أصحابه ليستجلبواهم: يتمنون أن يأتي هؤلاء الأعراب ليستفيدوا من أسئلتهم لرسول الله ﷺ فأردوه: أعينوه على مسائلته، مكافئ: مقتضى في مدحه من غير إطراء أو مغalaة، يجوز: يبعدى الحق ويتجاوزه.

متفاوت، لا يغلب على النفس التي خرج منها، بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة، بل يضبطه العقل»^(١).

ونقول كما قال الرافعى ناقلاً عن الجاحظ بعد أن وصف كلام النبي ﷺ وحشى أن يظن بعض الناس أنه أفرط في ذلك الوصف: «ولعل بعض من لم يتسع في العلم ولم يعرف مقدار الكلام، يظن أنا تكفلنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجميد ما ليس عنده ولا يبلغه قدره، كلا، والذي حرم التزييد على العلماء، وقبح التكفل عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه»^(٢).

^(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص، ٢٨٨ وما بعد.

^(٢) البيان والتبيين ٢/١٨.

المبحث الأول

التكوين الأدبي للنبي ﷺ

لا يمكن لباحثٍ مُنصف أن يصف بلامة النبي ﷺ بناءً عن قضية النبوة وتبلیغ الرسالة، فالحديث عن بلامته لخصه البيان القرآني في قوله تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهُوَيِّ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» [النجم: ٤، ٣] وكلامه ﷺ كونته الصبغة الإلهية، وسبكته الحكمة الربانية، فأثير بلامة تفرد وتميزت عن كلام البشر، وكان مناطُ تفوقها سمة الإبلاغ التي نوه بها رسول الله ﷺ مراراً في خطبة الوداع بقوله: «أَلَا هُلْ بَلَّغْتِ» والأولى الاستدلال بهذه السمة بتوكيد الله تعالى لها في قوله: «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» [النور: ٥٤] وقوله: «إِنْ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْبَلَاغُ» [الشورى: ٤٨].

ولئن كان ﷺ مرسلًا إلى قوم يتصالون بالبيان، ويتقارعون بمحجة اللسان هيأه الله تعالى لامتلاك زمام الفصاحة.

ولما حمله الله تعالى رسالة تشريع وكتاب تبلیغ إلى قوم تغلغلت فيهم عقائد فاسدة وعادات مفسدة هيأه لامتلاك زمام البلاغة.

وهكذا أتي النبي ﷺ فصاحةً وبلاغةً، أشرقتا على المضمون الإلهي الذي أرسل به وأمر بتبلیغه.

ومن نافلة القول في هذا المقام الإشارة إلى أنَّ الفصاحة وصف يتعلَّق باللغة، أي: لغة المتكلم، أما البلاغة فهي متعلقة بالكلام، فالقول يوصف بالبلاغة عندما يكون رسالة لغوية بين مرسِّل ومستقبل، تؤدي إلى عملية تواصل متَّسِمة بالتأثير الوجداني والإقناع العقلي من خلال الوسائل الأسلوبية.

ولا يخفى أنه لم يؤثر عن النبي ﷺ تفوقُ أدبي قبل الرسالة، فإنَّ أحداً لم ينوه بذلك قبل الرسالة، بل نوهوا بالخلق الحمدي: الصدق والأمانة والتعقل والحكمة.

ومن هنا يلزم الحديث عن التكوين الإلهي أو التهيئة الربانية للنبي ﷺ المبلغ ضمن إطارين:

أولهما - الإعداد البيئي وال النفسي، لتكوين الفصاحة.

ثانيهما - عطاء النبوة والرسالة، لتكوين البلاغة.

أولاً - الإعداد البيئي وال النفسي:

ويتمثل هذا الإعداد في أمور عدّة نبيّها فيما يأتي:

١- التكوين النفسي للنبي ﷺ:

جَبَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ نَبِيَّهُ الْمُصْطَفَى ﷺ عَلَى خَلْقِ كَرِيمٍ، وَسَرِيرَةِ صَافِيَةٍ، وَنَفْسٍ كَرِيمَةٍ تَجْهَلُ فِي مَظَاهِرِ عَدِيدَةٍ فِي شَخْصِيهِ ﷺ، وَمِنْهَا الصُّورُ الْكَلَامِيَّةُ الَّتِي تَبْعُثُ الْكَلَامَ، وَقَدْ جَاءَ فِي وَصْفِ ابْنِ أَبِي هَالَةِ قَوْلُهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَاصِلًا بِالْأَحْزَانِ دَائِمًا لِلْفِكْرَةِ، لَيْسَ لَهُ رَاحَةٌ، وَلَا يَكْلُمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، طَوِيلُ السُّكُوتِ، يَفْتَحُ الْكَلَامَ وَيَخْتَمُهُ بِأَشْدَاقِهِ ... ذَمِيثًا، لَيْسَ بِالْجَافِيِّ وَلَا الْمَهِينِ»^(١).

وَهِينَ نَتَمَّلُ هَذِهِ الصَّفَاتِ وَغَيْرَهَا مَا نُقْلِلُ إِلَيْنَا فِي مَرْوِيَاتِ الصَّحَابَةِ نَسْتَخلُصُ الْمَلَكَاتِ الْفَضْسِيَّةِ الَّتِي انْعَكَسَتْ عَلَى الْبَيَانِ الْبَوْيِيِّ، وَجَعَلَتْ كَلَامَهُ ﷺ «يَخْرُجُ رَصِينًا غَيْرَ مَتَهَافِتٍ، لَا يَغْلُبُ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا، بَلْ تَغْلُبُ عَلَيْهِ، لَا تَسْتَرِسْلُ بِهِ الْمَخِيلَةُ، بَلْ يَضْبِطُهُ الْعَقْلُ، فَلَا يَعْرُفُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَسْلُوبٌ يَكُونُ سَوَاءً فِي الْحَدَّةِ وَالرَّصَانَةِ، مَبْنِيًّا عَلَى الْفِكْرَةِ بِنَاءً لِلْجَسْمِ مِنَ الْلَّحْمِ، مَتَوَازِنًا فِي أَعْصَابِ الْأَلْفَاظِ وَأَعْصَابِ الْمَعَانِيِّ، يَثُورُ وَعَلَيْهِ مَسْحَةٌ هَادِئَةٌ، فَكَانَهُ فِي ثُورَتِهِ عَلَى اسْتِقْرَارٍ، وَهُوَ فِي ظَاهِرِهِ وَحْقِيقَتِهِ كَالنَّجْمِ الْمَتَقَدِّمِ يُكَوِّنُ فِي نَفْسِكَ نُورًا، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ نَارًا ... لَا يَعْرُفُ لَأَحَدٍ مِنَ الْبَلَغَاءِ إِلَّا أَسْلُوبٌ أَفْصَحُ الْعَرَبِ، وَعَلَى هَذِهِ الْجَهَةِ لَا غَيْرُهَا يُحْمَلُ قَوْلُهُ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ قَالَ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ طُفِّثَ فِي الْعَرَبِ

^(١) المعجم الكبير للطبراني: ٤١٤، ٢٢، ١٥٥.

وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك (أي علمك)، فقال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ثم قوله: «أنا أ瘋صح العرب»، وما كان من هذا المعنى، لأنّه يستحيل أن يكون من ذلك الذي يبنّاها مما خُصّ به ﷺ، والاستحالـة راجعة إلى الطبع والجبلة وخلق الفطرة مما لا يتغير في الناس»^(١).

وعلى هذا يبدو أنّ أسباب الفصاحة الطبيعية كانت بـحـلقة لـدـيه ﷺ «ولـيس إـحـكام الأداء وروـعـة الفـصـاحـة وعـذـوبـة المـنـطـق وسـلاـسـة النـظـم إـلـا صـفـاتٍ كـانـتـ فـيـهـ ﷺ عـنـدـ أـسـبـابـهـ الطـبـيـعـيـة، لـمـ يـتـكـلـفـ لـهـ عـمـلـاً، وـلـاـ اـرـتـاضـ مـنـ أـجـلـهـ رـياـضـةـ، بـلـ خـلـقـ مـسـتـكـمـلـ الـأـدـاـةـ فـيـهـ، وـنـشـأـ مـوـفـرـ الـأـسـبـابـ عـلـيـهـاـ، وـكـانـهـ صـورـةـ تـامـةـ مـنـ الـطـبـيـعـةـ العـرـبـيـةـ»^(٢).

٢- نشأته في أ瘋صح العرب:

فالـبـيـهـيـ فـرعـ زـكـيـ منـ الدـوـحةـ الـهـاشـمـيـةـ الرـفـيـعـةـ، وـالـهـاشـمـيـوـنـ مـنـ قـرـيـشـ، وـقـرـيـشـ أـفـصـحـ الـعـربـ، فـقـدـ كـانـتـ تـخـتـارـ مـنـ فـصـيـحـ لـهـجـاتـهـ مـاـ تـسـتـحـسـنـهـ وـتـفـضـلـهـ وـتـضـمـنـهـ إـلـىـ مـخـزـونـهـ الـلـغـويـ الـعـالـيـ.

وقد أجمع العلماء بكلام العرب والرواة لأشعارهم على أن قريشاً أ瘋صح أبناء الأمة ألسنة وأصفاهم لغةً.

وعـنـونـ ابنـ فـارـسـ (ـبـابـ القـوـلـ فـيـ أـفـصـحـ الـعـربـ)، وـقـالـ: «أـجـعـ عـلـمـأـنـاـ بـكـلامـ الـعـربـ وـالـرـوـاـةـ لـأـشـعـارـهـ وـالـعـلـمـاءـ بـلـغـاتـهـ وـأـيـامـهـ وـمـحـالـهـ أـنـ قـرـيـشـاـ أـفـصـحـ الـعـربـ أـلـسـنـةـ وـأـصـفـاـهـ لـغـةـ، وـذـلـكـ أـنـ اللـهـ تـعـالـىـ اـخـتـارـهـمـ مـنـ جـمـيعـ الـعـربـ، وـاخـتـارـهـمـ مـنـهـمـ مـحـمـداـ ﷺـ، فـجـعـلـ قـرـيـشـاـ قـطـآنـ حـرـمـهـ وـوـلـاـةـ بـيـتـهـ، فـكـانـتـ وـفـودـ الـعـربـ مـنـ حـجـاجـهـاـ وـغـيـرـهـمـ يـفـدـونـ إـلـىـ مـكـةـ لـلـحـجـ، وـيـتـحـاـكـمـونـ إـلـىـ قـرـيـشـ، وـكـانـتـ قـرـيـشـ مـنـ فـصـاحـتـهـاـ وـخـيـرـهـاـ، وـرـقـةـ أـلـسـنـتـهـ إـذـ أـتـهـمـ

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية بتصرف يسير جداً ص ٢٩١ وما بعد.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٩٧.

الوفوود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أ方言 العَرَب»^(١).

وقد نُزِّهُوا - كما تذكر كتب الأدب - عن عَنْعَنَةِ قَيْمٍ، وَتَلَلَةِ هَرَاءٍ، وَكَشْكَشَةِ رِبَعَةٍ، وَكَسْكَسَةِ بَكْرٍ، وَغَمَّةَ قَضَاعَةٍ، وَطَمْطَمَانَيةِ حَمِيرٍ^(٢).

وبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ شَرْفُ نَسْبَهِ وَتَمِيزُهِ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِّنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قَرِيشًا مِّنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قَرِيشٍ بْنَيْ هَاشِمٍ، وَاصْطَفَاهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلَقَ، فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلَقِ بْنَيْ آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَّ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَّ قَرِيشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قَرِيشٍ بْنَيْ هَاشِمٍ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ حَيَّاْرٍ إِلَى حَيَّاْرٍ»^(٤).

وهكذا وُلِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ وقد حمل هذه البنية الوراثية في تكوين نفسه ولسانه، ثم ترعرع في أحضان أسرة مشهورة بعروبة اللسان، أحضان بني عبد المطلب، يتلقى الصفاء والنقاء.

^(١) الصاحبي في فقه اللغة ، وانظر : المزهر ٢١٠ / ١ .

^(٢) عَنْعَنَةِ قَيْمٍ: قلب المحمزة عيناً في بعض المواقع، وتلَلَةُ هَرَاءٍ: يقولون: تَعْلَمُونَ، وَتَفْعَلُونَ بِكَسْرِ أَوَّلِ الْحُرُوفِ، وَكَشْكَشَةِ رِبَعَةٍ: كانوا يقولون مع كاف ضمير المؤنث في الوقف: إِنْكَشْ، رَأْيَكَشْ، وَكَسْكَسَةِ بَكْرٍ: قولهم في الوقف: أَعْطِيَكَشْ، رَأْيَكَشْ، وَغَمَّةَ قَضَاعَةٍ: الْكَلَامُ الَّذِي لَا يَبْيَنُ وَلَا تَظْهَرُ حُرُوفُهُ، وَطَمْطَمَانَيةِ حَمِيرٍ: شَيْهٌ كَلَامُهُ بِكَلَامِ الْعَجْمِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُنْكَرَةِ.

^(٣) أخرجه مسلم، في الفضائل، باب فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، (٢٢٧٦).

^(٤) شعب الإيمان: ٢٢٩/٢ ، والمجمع الكبير: ٤٥٥/١٢ (١٣٦٥٠)، واللفظ للبيهقي.

٣- استرضاعه في بني سعد بن بكر:

درج النبي ﷺ في طفولته ممثلاً عروبة اللسان في مضارب عَرِبِ أقحاح، في بني سعد بن بكر بن هوازن، حيث اختيرت له السيدة حليمة السعدية مرضعةً طيبةً حانيةً، فامضى ﷺ أول سنتي حياته في أحضان هذه القبيلة، ولا يخفى اشتئار هذه القبيلة بفصاحة اللسان، حتى كانت لغتهم إحدى اللغات السبع الفصيحة التي نزل بها القرآن، وشهد بفصاحتها العلماء، ومنهم الإمام اللغوي المقرئ أبو عمرو بن العلاء إذ يقول: «أفحصح القبائل عُليا هوازن وسُفلی تميم».

وروي عن ابن عباس قال: «نزل القرآن على سبع لغات، منها خمس بلغة العَجَز من هوازن، وهم الذين يقال لهم: عُليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر، وجُشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف» قال أبو عبيد: «وأحسب أفحصح هؤلاء بني سعد بن بكر»^(١).

وحسينا من ذلك كله قوله ﷺ: «أنا أعرَبُ العَرَبِ ولدَتِي قريش، ونشأتُ في بني سعدِ بنِ بكرٍ، فأيّن يأتيني اللحن؟!»^(٢).

فجعل مناطاً فصاحته كونه من أفحصح العرب قريش، ورضاعه ليان الفصاحة مع ليان الحياة في بني سعد.

٤- يُتمه ورعايه للغنم:

تنقل النبي ﷺ من يُسم إلى يُسم، فحين كانت أمه تحمله في حشایاها أثار شجونها موثر زوجها الحبيب، فكان هذا الجنين ﷺ يقتات في رحم أمه لبناً حزيناً يحمل كوابئ الشجن، ثم قدر له بعد سنوات أن يفقد أمه الرؤوم وهو بعد في أيام الطفولة الأولى، لينتقل

^(١) المزهر: ٢١٠/١.

^(٢) المعجم الكبير: ٦/٣٥ ، ٣٧ (٥٤٣٧) ومسند الفردوس: ٩/٩٨ (٩٨).

إلى حضن جده ورعايته. وقد كان لذلك الأثر الكبير في تكوينه النفسي واتساع منافذ فكره للتأمل الصامت، وهما هما ذا وصف هند بن أبي هالة النبي عليهما السلام: «متواصل الأحزان، دائم التفكير، ليست له راحة، طويل السكوت»^(١).

والبيسم كما هو معروف قد يتحول إلى عقدة في نفس اليتيم الفاقد إن لم يجد من يرعايه ويحنو عليه، في حين يتحول في أكتاف الرعاية إلى رجولة مبكرة ونضج فكري ونفسي، كما كان عنده عليهما السلام.

أما رعيه الغنم «وَهُلْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا»^(٢)، و«مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْعَنْمَ»^(٣) فقد أورثه أناة وحلماً، فالإنسان إذا استرعى الغنم - وهي أضعف البهائم - سكن قلبه الرأفة واللطف، وعاش في أكتاف الطبيعة الصامتة بعيداً عن صحب الناس ولعاظهم، لينتقل عليهما بعد ذلك الصفاء النفسي والروحي إلى رعاية الخلق واللطف بهم.

٥ - تحنته في غار حراء:

كان عليهما السلام فيما روت السيدة عائشة رضي الله عنها: «يتختئ فيه - والتحنته: التعبد - الليلي ذوات العدد»^(٤).

^(١) سبق تخرجه.

^(٢) البخاري، في الأطعمة، باب الكبات وهو ثغر الأراك، (٥١٣٨). ومقامه: عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْتَفِي الْكَبَاثَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ» قَالُوا: أَكُنْتَ تَرْغِي الْعَنْمَ؟ قَالَ: ... الْحَدِيثُ، أَيْطَبُ: مَقْلُوبُ أَطْيَبُ وَهُوَ فِي مَعْنَاهَا.

^(٣) البخاري، في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، (٢١٤٣).

^(٤) البخاري، في التفسير، باب سورة العلق (٤٦٧٠).

هكذا كان ﷺ يجلس متأملاً متعبدًا يفكّر فيما هيأه الله له نفسه من عوالم الحق والخير والمعروف، يتأمل ليصل إلى معرفة رب الأكون وحالقها، فتأنس روحه وتصفو نفسه، وفي ذلك ما فيه من الإعداد الروحي والنفسي للفُلُجُ وحي السماء ورسالة الخلود.

وهكذا صُنعت شخصية نبى الله ﷺ، شخصية مهياًًا روحياًً ونفسياًً وتربوياًً لتحمل رسالة وتبليغها أحسن تبليغ.

ثانياً - عطاء النبوة والرسالة لتكوين البلاغة:

سنة الله في أنبيائه أن يصنعهم على عينه، برعاية خاصة تدعهم لتفادي التكليف وأداء الرسالة باقتدار فائق «الله أعلم حيث يجعل رسالته» [الأعراف: ١٢٤]. ولا بد لذلك الأداء والتبلیغ من ملکات وحجج بالغة، يتفوق بها النبي على قومه ليقطع حجتهم ويلجظ ظلمتهم. ولئلا اختار الله تعالى لرسالته محمدًا ﷺ اختار «أرجحخلق جناناً وأعظم القلوب حناناً، وأدق الألسنة منطقاً وبياناً، واختار له أباً وأمه وعشيرته وقبيلته، كما اختار الزمان والمكان في تقاطع دقيق يوفر الأسباب الازمة لتحقيق الغرض ونشر الرسالة»^(١).

والآمة العربية التي بعث فيها النبي ﷺ هي أمة تقاد بالاستنها وتنفن بإبداع تعابيرها، ومن ثم جعلت معجزته ﷺ آياتٍ قرآنية مُفحِمة، وكرامته قدرات بيانية خارقة.

وقد تأثرت هذه القدرات البيانية من أمور متعددة هي:

١ - اختصاصه بجموع الكلم:

خَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيُّهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْعَرَبِ بِخُصُوصِيَّةِ جَوَامِعِ الْكَلْمِ. قَالَ ﷺ:

«أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيُّ الْأَمِيُّ - قَالُوا ثَلَاثَةً - وَلَا نَبِيٌّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوْاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ

^(١) بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع. ص ١٣ .

و جوامعه »^(١) ، وقال: «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، و اختصر لي اختصاراً»^(٢).

وفي خصائصه: «نصرت بالرعب، وأعطيت جوامع الكلم، وبيننا أنا نائم حيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»^(٣).

و تلك الفضيلة لا ترجع إلى تحصيل أدوات بشرية أو إمكانات أدبية، ولا تكون بأحد النفس بالذرية والمران، وإنما هي خصوصية من عند الله عز وجل الذي بعثه نبياً ورسولاً.

قال الإمام الخطأي: «اعلم أنَّ الله تعالى لما وضع رسوله ﷺ موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدینه اختار له من اللغات أعرَّها، ومن الألسن أفضَّلها وأبَّها، ثم أمده بجوامع الكلم»^(٤).

وما أحسن قول العقاد: «ألا إنَّ الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي ﷺ هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الواقية في بعض كلمات، وقد يبسطها الشاعر في مجلَّدات»^(٥).

٢ - نزول القرآن على قلبه وتأدبه به:

امتنَّ الله تعالى على نبيه ﷺ بإنزال القرآن عليه وإساغ الفصاحة والبلاغة على كلامه، ولم يكن له ذلك قبل النبوة. قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُذَكَّرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا»^(٦) [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

^(١) مستند الإمام أحمد: ١٧٢/٢ (٦٦٠٦).

^(٢) قال المحيشي: رواه أبو علي، وفيه عبد الرحمن ابن إسحاق ضعفه أحمد. بجمع الروايات: ٤١٩/١.

^(٣) سنن البيهقي ٤٩٦/٢، (١٣٦٩٩).

^(٤) غريب الحديث: ١/٤٦ وانظر المزهر: ١/٢٠٩.

^(٥) عبقرية محمد: ص ٨٨ - ٨٩.

^(٦) الجار والمجرور متعلقان بالفعل (نزل) به الروح الأمين.

فبلغة النبي ﷺ من صنع الله «وَمَا يُنْطِقُ عَنِ الْهُوَيْ إِلَّا وَخَيْرٌ يُوحَى»^(١)
 ما كان من صنع الله تضيق موازين الناس عن وزنه.
 إنما يحيى بن أبي ربيعة أباً لـ«الوح الإلهي»، وقد روی عنه ﷺ أنه
 قال: «إِنَّ أَهْمَّ مَا أَنْتَ فِي دُنْيَاكُمْ مِنْ فَصْحَاتٍ إِلَّا مَا يَحْمِلُ نَفْحَاتٍ مِنْ
 هَبَةِ اللَّهِ». وإنما يحيى بن أبي ربيعة من سائر فصحّات العرب الذين كانوا من قومه
 وفي بيته، وذلك ليس بغير سمات الدعوة في أمة عُرِفت برفعه البيان وفصاحة اللسان.
 وهكذا كان قلبه مُسْتَقْرًّا تنزيل الوحي المحرز للبيان، فلاغر أن تشرق من هذا القلب
 الأنوار الإلهية ليفيض اللسان بالحكمة النبوية.

٣ - تعليم الله إياه وإيتاؤه الحكم:

ومن كمال امتنان الله عليه أن ألممه - توفيقاً - مهارات لغوية متميزة لم يكن قد
 عُرف بها قبل النبوة، ولم تكن لأحد من العرب قبله، قال تعالى: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» [النساء: ١١٣].

فقد خُصَّ ﷺ بمعرفة لمحات العرب، فكان يخاطب كلّ قوم بما يتقنونه ويفهمونه^(٢)،
 لم لا وقد أمر بتبلیغ الناس كافةً، وتبیان شرع الله لهم، فلا بد من أجل ذلك أن يؤتى قدرات
 التواصل البیانی والخطاب التبليغي، فقد روی أن وفدي بن زید قدموا على النبي ﷺ
 وخطبوا بين يديه، فشرع يخاطبهم بلغتهم والصحابة حضور، فعجبوا لذلك.

(١) مسند الإمام أحمد ١٣٠/٤ (١٧٢١٣).

(٢) وسيأتي تفصیل ذلك في خصائص أسلوبه ﷺ.

ومن ذلك كتبه الغربية التي كان يعليها ويبعث بها إلى قبائل العرب، يخاطبهم فيها بلحوذهم، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم، فيما يريد أن يلقىهم، وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يدخلهم ويقاربهم^(١).

قال القاضي عياض: «علم ألسنة العرب يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغاتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيراً من أصحابه يسألونه عن شرح كلامه وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسيره علم بذلك وتحققه»^(٢).

وهذا كله سرٌّ من أسرار النبوة - لا ريب - ويشهد لذلك قول الإمام الشافعي: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظاً، ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»^(٣).

ولم تقتصر قدرته اللغوية على محاكاة الناس بما يتلقنون ويفهمون من لهجات، بل آتاه الله حكمة المقال، فكان يخاطبهم بما يتاسب وأحوالهم ومقاماتهم، فلا يكلّم العامة بما يكلّم به الخاصة، ولا المعاند بما يكلّم به الموافق.

وهكذا تناسبت مقالاته مع المقامات على تباينها واختلاف أزمنتها على مدى سنته دعوته.

٤ - طبيعة الرسالة التي أمر بتبلیغها:

لاشك أن العلاقة وثيقة بين النَّصُّ والنَّاصِّ، وأن فحوى الخطاب ومضمونه الفكري هو المهيمن على أسلوب أدائه وطريقة تبليغه، فهو يؤثر في حامله أولاً ليلهمه وسائل إيصاله.

^(١) تاريخ آداب العرب: ٢٠٧/١.

^(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٧٥/١.

^(٣) أحكام القرآن: ٣٣/١.

ولمّا كانت الحنفية السمحاء هي الوحي الإلهي الذي أمر النبي ﷺ بتبلیغه كانت النصوص النبوية التي بیئت وفصلت أبعد ما تكون عن التعقید والغموض. وبعبارة أخرى: تخلّى في البيان النبوی انعکاس المضمون الإلهي على بنية الخطاب النبوی تبعاً لتأثير الخطاب الإلهي في النبي ﷺ الذي كان حلقة القرآن.

المبحث الثاني

خصائص البلاغة النبوية

تبيننا مما سبق أن النبي ﷺ امتاز بفصاحتـه على سائر العرب، وبزـهم بالفاظـه وأساليـه بما هيـا الله له من عوـامل، وما آتاه من مـلكـات لغـويـة وبيـانـيـة، فلـاغـرـهـ أن تـختصـ الـبلاغـةـ الـنـبـوـيـةـ بـخـصـائـصـ لـفـظـيـةـ وـتـبـيـيرـيـةـ لـيـسـتـ فـيـ غـيرـهـاـ مـنـ رـفـيعـ الـكـلامـ، فـكـلامـهـ مـحـفـوفـ بـالـعـصـمـةـ الـإـلهـيـةـ مـوـصـفـ بـالـحـكـمـةـ : «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» [النساء: ١١٣] تلكـ الحـكـمـةـ هـيـ الـسـنـةـ الـنـبـوـيـةـ^(١) بما تـشـتمـلـ عـلـيـهـ مـنـ فـصـاحـةـ وـبـلـاغـةـ، فـهـيـ مـضـمـونـ إـلـيـهـ حـكـيمـ، أـكـتـنـفـهـ أـسـلـوبـ نـبـويـ بـلـيـغـ فـصـيـحـ.

وـقـبـلـ أـنـ نـفـصـلـ فـيـ خـصـائـصـ أـسـلـوبـ النـبـوـيـ نـسـوـقـ كـلـامـاـ لـلـجـاحـظـ فـيـ وـصـفـ كـلامـهـ^(٢):

قال: «ألقى الله على كلامه الحبة، وغضّاه بالقبول، وجمع له المهابة والخلافة، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له ححة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يتمنس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتاج إلا بالصدق، ثم لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً ... من كلامه^(٣)».

وهـاـكـ خـصـائـصـ الـأـسـلـوبـ الـنـبـوـيـ، لـذـكـرـ مـنـهـاـ مـاـ يـسـمـحـ بـهـ الـمـقـامـ:

^(١) على أشهر الأقوال في تفسير معناها.

^(٢) البيان والتبيين ٤٤/٢

أولاً - السهولة والوضوح مع الجزالة:

على الرغم من عمق المعاني التي اشتمل عليها البيان النبوى، وتنوع الدلالات وغزارتها في كلامه الموجز صلوات الله عليه نلمس في جل الأحاديث النبوية وضوحاً وسهولة تناول، مع جزالة في المفردات والتركيب. وهذه السمة في بلاغته صلوات الله عليه تعود لأمور هي:

١- إشراق المعنى ووضوحه في نفسه صلوات الله عليه، ذلك «أنَّ المعنى إذا كان واضحاً في نفس الكاتب بارز الجوانب في تصوره انقاد له اللفظ انقياداً، فجاءات الألفاظ سلسلة طائعة تصور ما بنفسه من الأفكار الواضحة التي يراها دون حجاب»^(١)، كيف وقد ألقى الوحي على قلبه صلوات الله عليه، فأشرقت المعاني في بيانه وكيانه!

٢- طبيعة المضمون الذي بلغه النبي صلوات الله عليه، فالدعوة الإسلامية تمتاز بالبساطة والسماعة، ونظامها الفكري يقوم على التوحيد والتحرر عن الشرك، وهي بذلك منسجمة مع الفطرة السليمة، أضف إلى ذلك كون التكاليف الشرعية قائمة على اليسر والبعد عن الحرج «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [الحج: ٧٨] «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» [البقرة: ١٨٥] فلاغروا أن يكون الأسلوب الذي يؤدي هذه المضامين سهلاً بعيداً عن التعقيد.

٣- خلق النبي صلوات الله عليه وجلالته النفسية التي كانت مضرب المثل، والكلام صفة المتكلّم. وقد عُرِفَ عنه صلوات الله عليه أنه «ما خَيَّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخْدَى أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»^(٢). أضف إلى ذلك حرصه صلوات الله عليه على تبليغ أمْرِ رَبِّهِ، ورفقه بالمدعوين، وشفقته على خلق الله، مما يدعوه إلى سلوك أقرب السُّلُل للوصول إلى عقولهم، وفتح مغاليق قلوبهم «لَئِذْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَتَّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ»

^(١) البيان النبوى . ٢٤٨

^(٢) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي صلوات الله عليه، (٣٣٦٧).

[التوبة: ١٢٨] وهذا كله كفيل بأن يجعل القالب النبوي سلس المنزع، سهل المأخذ، طبع الدلالة.

وتحل هذه الخاصية في معظم أحاديثه ﷺ سواء أكانت تتناول عقيدة أم تتناول تشريعًا.

ففي أحاديث العقيدة بحد من سهولة الألفاظ وقرها من قلب السامع وعقله ما يمثل سماحة الحنفية التي بعث بها ﷺ وعبر عنها بقوله «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١).

ومن أمثلة هذا الجانب: ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا تَوَى، فَمَنْ كَانَ هُجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِيهِ جُرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَ هُجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةً يَتَرَوَّجُهَا فِيهِ جُرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

قال العلماء في هذا الحديث: إنه ثلث الإسلام، وقال الشافعي: يدخل فيه نصف العلم.

وكل هذه المعاني الجليلة أداها النبي ﷺ في كلمات موجزات يسيرات. ومن ذلك ما رواه النواس بن سمعان الكلاعي رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسنخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكروحت أن يطلع عليه الناس»^(٣).

بكلام سهل قريب المأخذ أوجز النبي ﷺ ما يتعلق بدین المسلم وعقیدته.

^(١) ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (٤٣). ومسند أحمد بن حنبل ١٢٦ / ٤ ١٧١٨٢ (١٧١٨٢).

^(٢) البخاري، في الأيمان والندور، باب النية في اليمين، (٦٣١١).

^(٣) مسلم، في البر والصلة والأدب، باب تفسير البر والإثم، (٢٥٥٣).

وكلما تحوّلنا في رحاب أحاديثه عليه السلام زدنا يقيناً باطراد بهذه السمة، وتلازمها مع مضمونها الذي أشرقت به.

وهذا المجال رحّبٌ نسوق بعض الشواهد فيه استئناساً:

عن أنسِ الجعفري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «من أعطى الله ومنع الله وأحب الله وأبغض الله فقد استكمَل إيمانه»^(١).

وعن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «دع ما يرثيك إلى ما لا يرثيك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة»^(٢).

وعن عطية السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا يأس به خدراً لما به البأس»^(٣).

وعن شدادِ بن أوسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول تعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناء، ولكن أعمالاً ليغير الله، وشهوده حقيقة»^(٤).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إن العبد إذا صلَّى في العلانية فأحسن وصلَّى في السرّ فأحسنت قال الله تعالى: هذا عبدي حقاً»^(٥).

وفي أحاديث التشريع بحد الأمر كذلك، فمهما حمل الحديث من تشريع وتكليف، لم يتسم بتعقيده، ولم يكتُج إلى تفصيل أو توضيح، بخلاف نصوص القانون والتشريعات الوضعية.

^(١) الترمذى، في صفة القيامة، (٢٥٢١).

^(٢) الترمذى، في صفة القيامة، (٢٥١٨).

^(٣) الترمذى، في صفة القيامة، (٢٤٥١).

^(٤) ابن ماجه، في الزهد، باب الرياء والسمعة، (٤٢٠٥).

^(٥) ابن ماجه، في الزهد، باب التوقي على العمل، (٤٢١٠).

فمن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعطى الناسُ بدَعْوَاهُمْ لادْعَى ناسٌ دِماءَ رِجَالٍ وأَمْوَالَهُمْ، ولِكُنَّ اليمينَ على المُدْعى عَلَيْهِ»^(١).
 وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهمما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ سلفٌ وبيعٌ، ولا شرطانٌ في بيعٍ، ولا يبعُ ما لم تضمنْ، ولا يبعُ ما ليسَ عندك»^(٢).
 وعن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أئمَا امرأةٌ زَوَّجَهَا وَلَيَانٌ، فَهِيَ لِلأَوَّلِ مِنْهُمَا، وَأئمَا رَجُلٌ يَاعَ يَعَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَهُوَ لِلأَوَّلِ مِنْهُمَا»^(٣).

وهكذا نجد السهولة والوضوح مع الجزالة في أداء المعاني العظام في كل نصٍّ نبوي.
 ولابد من الإشارة هنا إلى أن البيان النبوى لم يكدر يخرج عن هذه السمة إلا حين يقتضي المقام ذلك، وحينها تكون البلاغة في اختيار ما هو أليق بالسامع وأنساب للخطاب.
 ويتفرع عن هذا الخروج عن المألوف مسألتان مشكلتان تحدِّر الإشارة إليهما:
 الأولى: أن وجود هذا الضرب من الكلام في حديثه ﷺ يتناقض مع ما انطبع به كلامه من سهولة لفظ وقرب مأخذ.

والثانية: أنْ نَحْيَه ﷺ عن الإغراب والتسلُّد في الكلام يتناقض مع ورود بعض الغريب في أحاديثه - وإن كان هذا الخروج قليلاً - .

وباستعراض الغريب في حديثه ﷺ وتفصيله يظهر أنه لا يخرج عن واحد من أنواع ثلاثة هي:

١- الفاظ استعملت في عصر النبي ﷺ وكانت معروفة آنذاك مألوفة في استعمالات العرب، ثم تقادم بها الزمان والاستعمال اللغوي، كما هو شأن اللغات، فكانت مألوفة على أسماع من قيلت أمامهم، وتقادم عهدهم، غريبة على من أتى من بعدهم.

^(١) مسلم، في الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، (١٧١١).

^(٢) أبو داود، في الإجارة، باب في الرجل يبيع ما ليس عنده، (٣٥٠٤).

^(٣) أبو داود، في النكاح، باب إذا أنكح الوليان، (٢٠٨٨).

٢ - ألفاظ غريبة في البيئة القرشية، مألوفة في بيئه أهلها من قبائل العرب التي كانت تُنَذَّل إلى النبي ﷺ، فيخاطبها بلسانها، ويحاكيها ﷺ بما تفهمه، ويجاريها في أسلوب منطقها، فيستعمل ألفاظاً يستغربها فصحاء قومه، ويتعجبون من صدورها منه.

وقد أشار الرافعي إلى أهمية هذه الألفاظ الغريبة في حدثه ﷺ إذ قال: « وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يدخلهم ويقاربهم، ولا تجوز في غير أرضهم، ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تألف مع أوضاع اللغة القرشية، فلا ندري أهي ذلك أعجب، أن ينفرد النبي ﷺ بمعروفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه من ليس ذلك في لسانهم من غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتُقَّ اسمهم منه، وخالفوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم»^(١).

٣ - ألفاظ غريبة في أوان استعمالها، غامضة حتى على سامعيها حين أُلقيت عليهم، وهي على قلتها على جانب كبير من الأهمية، فهي من جهة تسد المعنى سداً لا يؤديه غيرها، بل إن اختيارها ضرب من ضروب الحكمة، وقول ما ينبغي من الكلام لما يتاسب مع المقام ومقتضى الحال، ومن جهة أخرى تعد هذه الكلمات فتحاً لغويًا وابداعاً لألفاظ أثرت المعجم اللغوي وزادت من رصيد اللغة، وقد كان النبي ﷺ يستعمل هذه الكلمات متعمداً. فأما الضرب الأول من الغريب في كلامه ﷺ، فلا يليدو مُشكلاً في قضية نفيه عن الإغراق أو مخالفة نهجه في التيسير والإيضاح.

وأما الضرب الثاني فلا إشكال فيه أيضاً، إذ هو إعداد إلهي، وأحد لوازם النبوة والتبلیغ ليصل ﷺ إلى كل من أمر بتبلیغه رسالة ربه، والله تعالى يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لَيَبَيِّنَ هُمْ» [ابراهيم: ٤] ورسول الله محمد ﷺ قد بعث إلى سائر الأقوام، فلاغروا أن يؤتى علم ألسنتهم كل من وصل إليه من بلغهم.

^(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣١٨.

ويتحضر الإشكال في الضرب الثالث من ضروب الغريب، وهي الألفاظ التي لم تكن مألوفة في عُرف مَنْ خطبوا بها حتى تكون مألوفة لدى غيرهم من اختلف زمامهم، وقد أشرت إلى أنها من بديع الكلمات^(١). تلك التي «كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله، كما عجبوا من الفصاحة التي احتضن بها ولم يخرج من بين أظهرهم»^(٢).

وقد سبقت الإشارة إلى أهمية هذا النوع من الغريب وخطره في إثراء اللغة وإغناء معجمها، و إظهاره تميز الحديث النبوى الشريف في تأثيره في اللغة^(٣).

ثانياً - حسن الأداء:

لم تقتصر فصاحتها ﷺ على حسن اختيار اللفظ الواضح الجزل، بل تميّزت أيضاً بحسن أدائه.

وما كانت الفصاحة تعنى الظهور والبيان وكان تعلقها باللفظ كان من متعلقها حسن أداء اللفظ لإظهاره وتوضيحه، ولعل تعريف بعض البلاغيين للفصاحة بأنها (تمام آلة البيان) يعوض ذلك، وكذا قول أبي هلال العسكري: «إِنَّ الْبَيْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحَاً وَلَا يُسَمَّى بِلَيْغَاءً، إِذْ هُوَ مُقِيمُ الْحُرُوفِ، وَلَا يُسَمَّى بِلَيْغَاءً بِلَيْغَاءِ الْمِنْدِيِّ»^(٤).

^(١) وهي من الألفاظ التي ساهمت في إغناء اللغة، وقد بحثنا هذا الجانب سابقاً تحت عنوان (أثر الحديث في إغناء اللغة العربية).

^(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٦.

^(٣) ومن الأمثلة التي أتبنا على ذكرها لفظ «العِسَاءُ» ولفظ «الصَّيْرُ» ولفظ «الرَّمَارَةُ» وكذا كلمة «مَهْرَمَةُ». والأمثلة كثيرة متنوعة جمعتها كتب غريب الحديث وبيّنت معانيها وأزالت غموضها.

^(٤) كتاب الصناعتين ص ٣.

وإذا طُبِّقَ مفهوم الفصاحة من هذا الجانب وجدنا الأسلوب التعبيري النبوى ممثلاً أعلى نموذج إنساني في حُسن البيان وصناعة الأسلوب.

فقد كان من شمائله عليه السلام في أداء الكلام وإلقاءه الخصال الآتية:

١ - إعطاء اللفظ حقه في نطقه:

فقد كان عليه السلام يوضح الكلمة إذ يلفظها. وقد وصفه هند بن أبي هالة حين سئل عن حِلْيَةِ رَسُولِ اللهِ صلوات الله عليه وسلم، فقال فيما قال: «يَفْتَحُ الْكَلَامَ وَيَخْتَمُهُ بِأَشْدَاقِهِ»^(١) ومعنى ذلك أنه يستعمل جميع فمه للتَّكَلُّمِ، ولا يقتصر على تحريك الشفتين، وفي ذلك دليل على حضور المعنى في ذهنه، والتيسير على السامع في حسن إدراكه وفهمه.

«ولقد كانت العرب تتمادح بسعة الفم وتذمُّ بصغره، لأن السعة أَدَلُّ على امتلاء الكلام وتحقيق الحروف وجهارة الأداء وإشباع ذلك في الجملة، وأن طبيعة لغتهم وخارج حروفها تقتضي هذا كله، ولا تحسُّن في النطق إِلَّا بِهِ، وهو بعده مزيتها الظاهرة في أَفْصَحِ أَساليبِها، إذ كانت الفصاحة راحة إلى حُسن الملاءمة بين الحروف باعتبار أصواتها وخارجها، حتى تستوي في تأليفها على مذاهب الإيقاع اللغوي»^(٢).

٢ - عدم الإكثار من الكلام:

فقد كان عليه السلام لا يتكلّم في غير حاجة، وإذا تكلّم كان كلامه قصداً، غير طويل مملٌّ، ولا مبتور مُخْجِلٌ.

^(١) المعجم الكبير للطبراني ١٥٥/٢٢ (٤١٤)

^(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٩٥.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُنْ يَسِيرُ الْحَدِيثَ كَسْرَدَكُمْ»^(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَيْضًا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْدُثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَهُ الْعَادُ لِأَحْصَاهِ»^(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُطِيلُ الْمَوْعِظَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِنَّمَا هُنَّ كَلِمَاتٍ يَسِيرَاتٍ»^(٣).

وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَّامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَهَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُمُعَةَ، فَقَامَ مُتَوَكِّلًا عَلَى عَصَمِهِ - أَوْ قَوْسِهِ - فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، كَلِمَاتٍ تَخْفِيفَاتٍ طَيِّبَاتٍ مُبَارَكَاتٍ»^(٤).

٣ - التَّأْنِي فِي إِلْقاءِ الْكَلَامِ:

فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسِيرُ الْكَلَامَ سَرِداً مُتَابِعاً لِيُتَمَكَّنَ فِي ذَهَنِ الْمُتَلَقِّيِّ، فَيُعِيهُ وَيُخَالِطُ قَلْبَهُ. وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي ذَلِكَ: «مَا كَانَ يَسِيرُ الْحَدِيثَ كَسْرَدَكُمْ هَذَا».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سِمَعَهُ»^(٥).

^(١) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٧٥) ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة، (٢٤٩٣).

^(٢) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٧٤).

^(٣) أبو داود، في الصلاة، باب إقصار الخطب، (١١٠٧).

^(٤) أبو داود، في الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، (١٠٩٦).

^(٥) أبو داود في الأدب، باب الم Heidi في الكلام (٤٨٣٩).

وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: «كَانَ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ تَرْتِيلٌ أَوْ تَرْسِيلٌ»^(١).

٤ - تكرار الكلام:

عن أنسٍ بن مالكٍ رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكُلِّمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفَهَّمَ مِنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا»^(٢). وقد بيَّنَ أحد العلماء حكمة تكرار كلامه ﷺ ثلاثًا فقال: «وَمِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ أَنَّ تَكُونَ الْأُولَى لِلإِسْمَاعِ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّنْبِيهِ، وَالثَّالِثَةُ لِلأُمْرِ، عَلَى أَنَّ الْثَّلَاثَةَ فِيهَا غَايَةُ الْإِعْذَارِ وَالْبَيَانِ، فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ بِهَا لَمْ يَفْهَمْ بِمَا زَيَّ عَلَيْهَا»^(٣). ومن تَبَعَّ أَحَادِيثَ ﷺ يَبْيَّنُ أَنَّ تَكَرَّارَهُ يَعُودُ لِأَسْبَابِ تَوْلِيهِ إِلَى أَمْرِ التَّبْلِيجِ وَالتَّذْكِيرِ. وَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ:

أ - الاهتمام بالمعنى وبيان خطورته: ومنه قوله ﷺ: «الله الله في أصحابي، الله الله في أصحابي، لا تَنْجِدوهُمْ عَرَضاً بعدي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فِي حُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فِي بُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ...»^(٤). وقوله يوم حجَّةِ الوداع في آخر خطبته: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهُدْ - ثَلَاثًا»^(٥).

(١) أبو داود، الأدب باب المدح في الكلام، (٤٨٣٨) ترتيل: تريل الرجل في مشيته وكلامه إذا لم يعجل.

(٢) البخاري، في العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه، (٩٢).

(٣) عن الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله في كتابه «سيدنا محمد رسول الله» ص ٦٠.

(٤) الترمذى، في المناقب، (٣٨٦٢).

(٥) البخاري، في المغازي، باب حجَّةِ الوداع (٤١٤١).

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي ثُوّي فيه: «الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَهْمَانُكُمْ»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه^(١).
 وعن أبي سعيد الخدري: جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر بريء، فقال له النبي ﷺ: «من أين هذا؟» قال بلال: كان عندنا تمر رديء، فبعث منه صاعين بصاع لطعم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «أَوَّلَ أَوَّلَهُ عِنْدَ الرِّبَا، أَعِنْ الرِّبَا، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرْدَتْ أَنْ تَشَرِّي فَبِعِ التَّمَرِ بِبَعِ آخر، ثُمَّ اشْتَرِ بِهِ»^(٢).

ب - تأكيد المعنى وترسيخه في ذهن السامع: كقوله ﷺ لمن سأله: مَنْ أَحْقُ النَّاسِ مُحْسِنٌ صاحبٍ؟ قال: «أَمْكٌ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أَمْكٌ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أَمْكٌ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثُمَّ أَبُوك»^(٣).

ومنه قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِنُ جَاهَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَكُرِّمْ ضيَفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيُقْلِلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْنُمْ»^(٤).

ج - التهديد والوعيد: ومن ذلك نهيه عن الزور في حديثه ﷺ في الكبائر: عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كُنَّا عندَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا أَبْتَكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ - ثَلَاثَةٌ - إِلَشَارُكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قُولُ الزُّورِ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكَبِّرًا فِي جَلَسٍ، فَمَا زَالَ يَكْرَرُهَا حَتَّى قَلَنَا: لِيَتَهَ سَكَّتْ»^(٥).

^(١) ابن ماجه، في الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله، (١٦٢٥).

^(٢) البخاري، في الوكيل، باب إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فيبيه مردود، (٢١٨٨).

^(٣) البخاري، في الآداب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة؟ (٥٦٢٦).

^(٤) البخاري، في الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، (٥٧٨٥).

^(٥) مسلم، في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكيرها، (٨٧).

وعن أبي شريح عن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»،
قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(١).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «رَغْمَ أَنفِكُ، ثُمَّ رَغْمَ أَنفِكُ، ثُمَّ رَغْمَ
أَنفِكُ» قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبُو يَهٰءِي عِنْدَ الْكِبِيرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلِمْ
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

هـ - إعطاء الكلام ما يستحقه من لهجة (بيان الحال أو دلالة الحال):

فقد كان ﷺ إذا تكلَّمَ بدا على وجهه ما يختلف في صدره، فيتغيَّر حاله عند الموعظة
اهتمامًا وإعظامًا.

عن جابرٍ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَتْ عَيْنَاهُ وَعَلَى صَوْتِهِ
وَاشتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَانَهُ مُنْذِرٌ جِيشٍ؛ يَقُولُ: صَبَّحْكُمْ وَمَسَّاَكُمْ»^(٣).
وعن جابر: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ أَوْ وَعَظَ قَلْتَ: نَذِيرٌ قَوْمٌ أَنَّهُمْ الْعَذَابُ،
إِنَّمَا ذَهَبَ عَنِيهِ ذَلِكَ رَأْيُهُ أَطْلَقَ النَّاسُ وِجْهَهَا، وَأَكْثَرُهُمْ ضَرِحَكَأَوْ أَحْسَنُهُمْ بِشَرَأً»^(٤).

ولا يمكن إغفال هذه الأحوال عند الحديث عن بلاغة نصٍ أو فصاحة أسلوب، فهي
أضواء كاشفة على النص لا يمكن قراءة النص دون الرجوع إليها، فمن ذلك حديث عديٌّ
بن حاتم، وفيه يقول: قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ» ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ» ثم
أعرض وأشاح، ثلاثاً، حتى ظنناً أنه ينظر إليها^(٥).

(١) البخاري، في الأدب، باب إنتم من لا يأمن جاره بوائقه، (٥٦٧٠).

(٢) مسلم، في البر والصلة والأداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبير، (٢٥٥١).

(٣) مسلم في الجمعة، باب تحريف الصلاة والخطبة، (٤٣).

(٤) أخرجه البزار في مسنده، ينظر بمجمع الزوائد، ٣٠٣/٨، (١٤٢٠٢).

(٥) البخاري، في الرقاق، باب من توقد الحساب عذب، (٦١٧٤).

إنه مشهد تمثيلي تكاملت فيه الألفاظ والصورة لتنقل للمشاهدين أبلغ المعانى التحذيرية من النار.

وعن أبي موسى الأشعري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أشياء كرهها، فلماً أكثروا عليه المسألة غضب، وقال: «سُلُونِي»، فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله! من أبي؟ قال: «أبوك حَدَّافَة»، ثم قام آخرٌ فقال: يا رسول الله! من أبي؟ فقال: «أبوك سَالِمٌ مولى شَيْءَة»، فلماً رأى عمر بن الخطاب ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: إنا نتوب إلى الله عز وجل^(١).

ففي الغضب إنذار وتحذير، وفيه تشديد وزجر وتمديد.

وكان لحركته وإشارته موضع كبير في إجاده الأداء، فحركته معبرة تستلطف النظر وتبيّن الغافل، وتعين على الحفظ والتذكر.

فإذا أراد أن يبيّن حال المؤمنين شبك بين أصابعه، روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالثَّيْبَانِ يُشَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» قال: وشك بين أصابعه^(٢).

وإذا أراد ذكر القلب أشار إلى قلبه، وقال: «التَّقْرِيْ هَا هَنَا»^(٣).
وإذا أراد أن يبيّن حكمًا من أحكام الطهارة عبر بكلتا يديه، وذلك فيما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنهم ذكروا عند النبي ﷺ الغسل من الجنابة فقال: «أَمَّا أَنَا فَأُفَيْضُ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثَةَ»، وأشار بيديه كلتيهما^(٤).

(١) البخاري، في الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب ما يكره من كثرة السؤال، (٦٨٦١).

(٢) البخاري، في المظالم، باب نصر المظلوم، (٢٣١٤).

(٣) مسند الإمام أحمد ٤١٩/٣، مسند واثلة بن الأسعف، (١٦٠٦٢).

(٤) أبو داود، في الطهارة، باب في الغسل من الجنابة، (٢٣٩).

ويبيّن حالة اليتيم، وملازمته لمقام النبي ﷺ بإشارته بعد قوله: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفوج بينهما شيئاً^(١).

ويصف رضاع الطفل بحركة تصويرية فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ثم أقبلَ على ثديه فجعلَ يرْتَضِيْعُ» ثم قال: «فَكَانَ أَنْظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةِ فِيهِ، فَجَعَلَ يَمْصُهَا»^(٢).

وكان يغْيِرُ جلساته لانفعاله وتأكيد أهمية الأمر الذي يتكلّم فيه.

قال ﷺ: «أَلَا أَبْيَكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثلثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالَّدَيْنِ»، وجلس وكان متكلماً، فقال: «أَلَا وَقُولُ الزُّورِ»، فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت^(٣).

وهكذا كان ﷺ يبلغ ما أمر به بكلٍّ ما آتاه الله من قدرة بيانية، يفصّلها لساناً وصيّدليّ لهجةٍ وتصاعنةً أداءً^(٤).

ثالثاً - الموسيقى التشرية في الحديث:

لا يخفى أن الموسيقى الموقفة صفة أساسية من صفات الجودة في الأسلوب، ولا سيما في نقلها الانفعال النفسي للمتكلّم، والعمق المعنوي للكلام، إنما (بلاغة الصوت في لغة الموسيقى)^(٥) فليس اللفظ وحده يسهم في أداء المعنى، بل صوته وإيقاعه.

وقد لفت النّقاد الانتباه إلى أهمية الموسيقى التشرية، وأنّرها في أداء المعنى؛ إذ «الموسيقى التشرية ليست حركة لفظة، وإنما هي كالموسيقى الشعرية، صورة حركة نفسية، أو هي ترجمة

(١) البخاري، في الطلاق، باب اللعان، (٤٩٩٨).

(٢) مسلم في البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلوة، (٨).

(٣) البخاري، في الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور، (٢٥١١).

(٤) وسيأتي الكلام في التعبير الإشاري في موضع آخر في الكتاب.

(٥) إعجاز القرآن وبالبلاغة النبوية ص ٢١٦.

صوتية عن تحرير الكاتب، من شأنها أن تعين اللغة والكلمات على أداء المضمون الروحي للكاتب، وبعبارة أخرى أن تعبر الألفاظ عن المعاني بذواتها، فإذا نُسقَت هذه الألفاظ تنسيقاً خاصاً اكتسبت من موسيقاه معانٍ جديدة، وهذا هو الذي يقصده البلاغيون من ألفاظ الرقة والجزالة والعدوينة والفحامنة والطلاؤة والسمامة التي تُفصّح عن موسيقى الأدب وأثرها في نفوسهم ... ولن يستطع الموسيقي في النثر دائماً رهينة السجع والازدواج كما يتبادر إلى الذهن، ولكنها فنٌ أخفى من ذلك، فمن الصحيح أن الكاتب قد يعتمد على توازن بين العبارات، لكن هذا التوازن ليس مطلباً أساسياً، وإنما كان التعبير عن حركة عاطفية قوية لا تستلزمها»^(١).

ومن الخصائص الحالية في النصوص النبوية التكوين الموسيقي للكلمة والجملة، وانسجامهما مع المعنى.

والحديث عن الانسجام الموسيقي في الحديث النبوي ينطلق من:

- ١ - حروف الكلمة الواحدة التي تكون الموسيقى الداخلية للكلمة، ومدى قدرها على تأدية المعنى.
 - ٢ - ومن الكلمات المختمدة في جملة.
 - ٣ - ومن الجمل التي تكون النص.
- ١ - الكلمة في الحديث النبوى :**

تتميز الكلمة في الحديث النبوى بانسجامها وتاليفها مع المعنى بحيث يبرز دقة اختيارها من النبي ﷺ وحسن انتقاءها من بين أخواتها في الحقل الدلائلي، وقد نجد اللفظ الواحد في الحديث يرسم صورة المعنى، ويُعين الخيال على تصوّره، والذهب على إدراكه وترسيخه.

^(١) النقد والبلاغة ص ١٥.

ومن الأمثلة على ذلك قوله ﷺ: «الماهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكَرِيمِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَهْرُأُ الْقُرْآنَ وَيَتَعَنَّعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ لِهِ أَجْرًا»^(١).

من الواضح أن ألفاظ الحديث متناسبة تماماً مع معانيها، فحرسها الموسيقي يتضمن مع المراد منها، فانظر إلى لفظي (السفرة) و(البررة)، وتأمل سهولة مخارجهما، وانسياط صوتيهما، مما إن تطرقان السمع إلا ويغدو في الذهن المعنى الذي تحملانه، ولا أظهر من التناسق الموسيقي في كلمتي (يتتعنّع) و(شاق) وانسجامه مع المعنى، فصوت (يتتعنّع) يبني المعنى ويؤجهه حين يطرق السمع قبل أن يدركه العقل، وتكرار مقطع الكلمة يشي بمعنى الفعل، ويدل على تكرار محاولة القراءة ومعاناه ذلك.

وكذلك لفظ (أرضين) في قوله ﷺ: «مَنْ ظَلَمَ قِيَدَ شَيْرٍ مِنْ أَرْضٍ طُوقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢).

فمن الواضح **ثقل** كلمة (أرضين)، تلك الكلمة التي نأى عنها البيان القراءي، ولم يذكرها في معرض جمع لفظ الأرض، وعدل عنها إلى التعبير بطريقة سواها، وذلك في قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مَثَلَهُنَّ» [الطلاق: ١٢] ولم يقل (سبع أرضين) فحشأ هذه الكلمة، وثقل الضاد المكسورة المتولدة بياء، مع الراء قبلها والهمزة الشديدة قبلها، تلك الأصوات الثقيلة لا تتناسب مع سياق الآية الناطقة بيديع خلق الله وجمال كونه، في حين تتناغم أصوات هذه الكلمة الثقيلة مع ثقل العقوبة التي يبيّنها الحديث النبوي، فعقوبة من يظلم شيئاً من الأرض هي ذلك الحمل الثقيل الثقيل، المتغلغل في أقصاصي الأرض، وذلك الثقل معلق طوقاً في عنق هذا الظالم، وهذا المعنى يناسبه التعبير بتلك الكلمة المختمة مع سواها من كلمات الحديث (ظلم، قيد، طوقه).

(١) مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن، (٧٩٨).

(٢) مستند الإمام أحمد ٦٤/٦، مستند السيدة عائشة رضي الله عنها، (٢٤٣٩٨).

واسع الإيقاع المواكب للمعنى في قوله ﷺ: «مَنْ اسْتَأْجَحَ فِي أَهْلِهِ بِيمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا، لَيْسَ»، يعني : الكفارة^(١).

ومن الأمثلة، قوله ﷺ: «أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَنْتُلٍ جَوَاطٌ مُسْتَكِيرٌ»^(٢) وفي رواية: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَاطُ وَالْجَحْظَرِيُّ»^(٣).

وقوله ﷺ: «أَلَا أَخْبِرْكُمْ مَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارِ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هِيَنِ سَهْلٌ»^(٤).

٢ - الكلمات المجتمعة في جملة:

فالانسجام الموسيقي لا يتوقف عند تألف اللفظة الواحدة مع معانيها، بل إنها تتآزر مع أحواها، لتشكل نظماً مسبوكاً يروق للسمع، ويعذب على القلب. والحق أنه لا يكاد حديث واحد يخرج عن هذه السمة، فكلّما تتبع حديثه ﷺ ازداد اليقين بذلك، وطربت الأذن بهذا الانسجام الصوتي. ولنضرب أمثلة على ذلك:

منها قوله ﷺ للبراء بن عازب رضي الله عنه: «يَا قُلَانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقلْلُهُ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَجْلَاثُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مُلْحَّاً وَلَا مُنْحَىٰ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آتَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَسِيَّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ أَخْرَأً»^(٥).

(١) البخاري، في الأيمان والنذر، باب قوله تعالى: «لَا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللُّغُوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ...» (٦٢٥١).

(٢) البخاري، في التفسير، باب سورة القلم، (٤٦٣٤)، الجواط: شديد الصوت في الشر، المستكير: المختال في مشيته.

(٣) أبو داود، في الأدب، باب في حسن الخلق، (٤٨٠١) الحظرى: هو الذي يتفتح بما ليس عنده.

(٤) الترمذى، في صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٨٨).

(٥) البخاري، في التوحيد ، باب قول الله تعالى: «أَنْزَلْهُ بِعِلْمِهِ» ، (٧٠٥٠).

ففي كل جملة من هذا الحديث يظهر الانسجام في إيقاع الكلمات، والتاليف بين مخارج الحروف، فلا ثقل في حرف، ولا تناقض في إيقاع صوت، بل إنها تناسب مع جوّ اليوم المادي، وتشعر السامع بالطمأنينة التي تغمر فؤاد الداعي، لأنّه يُسلِّم نفسه لله، ويتوَكّل عليه ويلحّ إلهه.

ومن ذلك ما يظهر فيه تدبيج المعاني وفق الحركات النفسية مع النسق الفني والإيقاع الداخلي للجملة، وذلك في قوله ﷺ الذي رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتَلُونَ الْدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَبْسُطُونَ لِلنَّاسِ خَلُودَ الضَّيْانِ مِنَ اللَّيْنِ، أَسْتَشْهُمُ أَخْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُومُهُمْ قُلُوبُ الدَّيَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَعْتَرُونَ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرُؤُونَ، فِي حَلْقَتِهِ، لَا يَبْعَثُنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا»^(١).

إن الانسجام في تألف الجمل لا يخفى على قارئ هذا الحديث، إذ يشعر أنه يسبّر مع الكلمات في طريق منسجم لا ارتفاع ولا انخفاض، هذا مع انسجام الكلمة الواحدة مع معناها، وإيحائهما تحمله من دلالات.

ومن الأمثلة ما رواه ابن عباس رضي الله عنهمما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيْوَمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالْبَيْوُنُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبَثْتُ، وَبِكَ خَاصَّمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخْرَجْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَمْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

(١) الترمذى، في الرهد، (٤٠٤).

(٢) البخارى، في التوحيد، باب قول الله تعالى: «لَمْ يَرِيدُوْنَ أَنْ يَدْلُوْ كَلَامَ اللهِ» ، (٦٠٧).

ولا يخفى ما لهذه الكلمات من أثر في تصوير المعنى؛ من خلال قوّة جرسها ونقل حروفها، بل إن السامع لها يتخيل معناها من صوتها دون أن يحتاج إلى شرحها، واللافت للنظر في الوقت نفسه انسجام الكلمات في الجملة الواحدة، تلك الكلمات التي تتأزر في انسجام تام دون تناقض.

٣- وأما الجمل التي تكون بناء النص فيبرز السجامها الموسيقي من خلال مظهرين:

أ- التوازن والتقابض.

ب- السجع.

أ- التوازن والتقابض ويكون حين يكون الكلام مقسماً تقسيماً يجعل موسيقى النص موزعة بانسجام بين أجزائه، لشکون فقرات الجمل المتوازية المتقاربة إيقاعاً جميلاً يُسبيغ على الكلام موسيقى عذبة.

ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ، فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبَرِّ، وَإِنَّ الْبَرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَرَأُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكَتَّبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِنَّكُمْ وَالْكَذِيبَ، فَإِنَّ الْكَذِيبَ يَهْدِي إِلَى الْفَجُورِ، وَإِنَّ الْفَجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَرَأُ الرَّجُلُ يَكُذِّبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِيبَ حَتَّى يُكَتَّبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(١).

فالتكوين الموسيقي المنسجم في هذا الحديث يُظهر الصياغة الفنية الحكمة، بحيث يترقى بالسامع من معنى إلى معنى، ويصعد بالمعاني وفق ما يتصور الذهن ويناسب الإحساس، بحيث لو تقدّمت جملة على جملة لاحتلّ استواوه الأدبي، واضطرب نسيجه الداخلي.

وتتأمل الانسجام بين الجمل وتقابض المقاطع في قوله ﷺ: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ

^(١) مسلم، في البر والصلة، باب بفتح الكذب وحسن الصدق و فعله، (٢٦٠٧).

صَرَأَهُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ^(١). وقوله ﷺ: «ما استخلفَ اللَّهُ خَلِيفَةً إِلاَّ لَهُ بِطَائَنٌ؛ بِطَائَنٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتُخْضُهُ عَلَيْهِ، وَبِطَائَنٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتُخْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ^(٢)». واستمع للتكوين الموسيقي في قوله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكان يوماً خلف النبي ﷺ: «يا عَلَامُ! إِنِّي أَعْلَمُ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظْ اللَّهَ يُفْظُكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجْدُهُ بِجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، إِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنَ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمَّةَ لَوْ اجْتَمَعْتُ عَلَى أَنْ يَنْقُعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْقُعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَحَفَّتِ الصُّحْفُ^(٣)». فقد اجتمع في هذا الحديث التوازن في أسلوب الشرط، والتقابل في جملتين هما: «اعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء...» «ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء...».

وتتأمل التوازن في قوله ﷺ: «كَلِمَاتِنِ خَفِيفَتِنِ عَلَى الْلِّسَانِ، ثَقِيلَاتِنِ فِي الْمِيزَانِ، حَسِيبَاتِنِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ^(٤)».

٢- السجع: وحده كما قال ابن الأثير: «تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد»^(٥).

وقد بين ابن الأثير ضابط السجع الفني الذي يجعله وسيلة جمالية، لا أصواتاً إيقاعية غثثة المعنى فقال: «والأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند

^(١) مسلم، في الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلها خير، ح (٢٩٩٩).

^(٢) البخاري، في القدر، باب المعصوم من عصم الله، (٦٢٣٧).

^(٣) الترمذى، في صفة القيامة والرقائق والوع، (٢٥١٦).

^(٤) البخاري، في الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٠٤٣).

^(٥) المثل السائر ١٩٥/١.

الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكن كل أديب من الأدباء سجاعاً ... بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة، طنانة رنانة، لا غثة باردة، وأعني بقولي غثة باردة أنَّ صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يُشترط لها من حُسن، ولا إلى تركيبها وما يُشترط له من الحُسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الْكُرسف، أو ينظم عقداً من الخزف الملوّن، وهذا مقام ترُّل عنده الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان أربابه قليلاً، فإذا صفي الكلام المسجوع من العثناء والبرد، فإنَّ وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كغمدٍ من ذهب على نصل من ذهب».

وبتلك الضوابط التي بينها ابن الأثير يتميز السجع الممحوج من السجع الذي تتوقف إليه النفس وتتألق به المعاني.

فما حظَّ السجع في حديث النبي ﷺ وما سعادته؟

وما موقف النبي ﷺ من كلام الساجعين؟

إذا تتبعنا النصوص المروية عنه ﷺ وجدنا الكثير من النماذج البدعة المسجوعة التي تتالف فيها موسيقى الكلمات، وتترافق فيها جملًا اتشكل نسيجاً معنوياً يزيّنه تكونين موسيقي يتماوج مع المعنى، ويقرع القلب قبل الأذن ليزيد المعاني رسوخاً في الذهن، وانطلاقاً في الخيال.

والأدلة على ذلك هي كل نصٌّ نبويٌّ تواطأ فواصله وتراكبيه على حرف واحد، ومن ذلك :

قوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ افْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نَيَّمٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١).

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قُلْبٍ لَا يَتَشَبَّهُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَتَفَقَّعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هُوَلَاءِ الْأَرْزَعِ»^(٢).
و«إِنَّ اللَّهَ حَرَمَ عَلَيْكُمْ عُطُوقَ الْأَمْهَاتِ وَوَادِ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرَّةً لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةً السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةً الْمَالِ»^(٣).

و«يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَا لِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنُ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَيْسَتَ فَأَبْنَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»^(٤).
و«تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنْ جَهَدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَائِلِ الْأَعْدَاءِ»^(٥).
والأكثر من ذلك أنه كان ﷺ يُؤثِّر هذا السجع في كلامه، ويطُوّع صيغه في بعض الأحيان ليزيّن به كلامه ويوازن به تراكيبيه، ومن ذلك دعاؤه في تعويذه لابني ابنته الحسن والحسين رضي الله عنهمَا: «أُعِيدُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّة»^(٦). والأصل: مُلْمَة.

وكذا قوله: «ارْجِعُنَّ مَأْزُورَاتِ غَيْرِ مَأْجُورَاتِ»^(٧) والأصل: موزرات من الوزر. وذلك طليباً للتوازن والسجع.

(١) ابن ماجه، في الأطعمة، باب إطعام الطعام، (٣٢٥١).

(٢) الترمذى، في الدعوات، (٣٤٨٢).

(٣) البخارى، في الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، (٢٢٧٧).

(٤) مسلم، في الرهد والرقاق، (٢٩٥٨).

(٥) البخارى، في القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء، (٦٢٤٢).

(٦) أبو داود، في السنة، باب في القرآن، (٤٧٣٧). الهمة: إحدى الموارم ذات السعوم.

(٧) ابن ماجه، في الجنائز، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، (١٥٧٨).

وفي هذه النصوص وغيرها من النصوص النبوية التي تمثلت فيها هذه الظاهرة برهان على تمثيل البيان النبوي في تسخير هذه الخلية اللغوية لتجلي المعنى وتحبيبه إلى النفس. ولعلنا نزداد يقيناً بهذا التمثيل حين نقف على تلك الشرائط الأربع التي حدّدها ابن الأثير وغيره من العلماء في تمييز السجع الحسن من غيره، وبخالي من خلالها سمات السجع النبوي:

- ١ - فأما الألفاظ فاشترط حسن اختيارها بأن تكون «حلوة حادة لا غثة ولا باردة» فتأمل الألفاظ النبوية: «لا يخشى، لا تسمع، بكلمات الله التامة، هامة ...» وحسن اختيارها.
- ٢ - وأما التراكيب فلا يخفى حُسن رصفها وتاليفها، بعضها مع بعض، في نظم بديعي واحد.
- ٣ - وأما كون اللفظ تابعاً للمعنى لا المعنى تابعاً لللفظ، فلا يشك أحد أن كل كلمة في الأمثلة السابقة وغيرها لا يؤدي معناها في موضعها أفضل منها، وهي مع ذلك رصينة في سياق الكلام واضحة على الأفهام غير مستدعاة ولا مجتبلة.
- ٤ - وأما السمة الرابعة - وهي أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير الذي دلت عليه أختها - فلا تحتاج إلى برهان، بل هي جلية واضحة وضوح الشمس في وضح النهار.

فهذا هو سجعه عليه السلام; اتساق في اللفظ، وانسجام في الصوت، ورصانة في التألف بين اللفظ وصوته والمعنى ودلالته، إنه كما قال العقاد: «ومذهبة في هذه الخلية اللطيفة مذهبة في كل حالية تليق بالرجل، فمحولة في القول، ومحولة في الزينة، فسجعه عليه السلام كحالية الذهب ... ولا مزيد»^(١).

^(١) عصرية محمد عليه السلام ص ٨٤.

وبعد هذا كله نقف على الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه إذ قال: اقتتلت امرأتان من هذيل، فرمي إحداهما الأخرى بحجرٍ فقتلتها وما في بطنهَا، فاختصمتا إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ أن دية جنينها غرة؛ عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها، وورثتها ولدتها ومن معهم، فقال حمَّل بن النابغة الهذيلي: يا رسول الله، كيف أغرنَ من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهَل؟ فمِثْل ذلك يُطْلَى. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْرَانِ الْكُهَّانِ» من أجل سجعه الذي سجع^(١).

وفي رواية أخرى قال: «أَسْجَحُ كَسْجِنَ الأَعْرَابِ؟!»^(٢).

فكيف كره النبي ﷺ السجع في الكلام وهو الذي تكلَّم به وزَّين به ألفاظه وطَوَّعه لأداء بعض معانيه؟!
ولِإِزَالَةِ الإِشْكَالِ فِي الْمَسَأَةِ نَنْظُرُ إِلَى حَدِيثِ حَمَّلِ بْنِ النَّابِغَةِ الشَّكَلِ

والمضمون:

فَأَئْمَّا الشَّكَلُ فَإِنَّ الرَّجُلَ أَتَى بِكَلَامِهِ مَسْجُوعًا كَلَهُ، وَتَكَلَّفَ فِيهِ السَّجَعُ تَكَلُّفًا
الْكَهَّانَ، فَقَدْ يَكُونُ التَّكَلُّفُ فِي الْقَوْلِ - الَّذِي نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ - هُوَ السَّبِبُ فِي إِنْكَارِهِ
عَلَى الرَّجُلِ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَضْمُونِ فَإِنَّ تَشْبِيهَهُ ﷺ لِسَجْعِهِ لِسَجْعِ هَذَا الرَّجُلِ بِسَجْعِ الْكَهَّانِ يَدْلِي عَلَى
كَراهَتِهِ لِهَذَا التَّزَيِّنِ الَّذِي يَقْصِدُ بِهِ إِدْحَاضُ الْحَقِّ وَهُرْجَةُ الْبَاطِلِ عَلَى سِنْ كَهَّانِ الْعَرَبِ
الَّذِينَ كَانُوكَثْرَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَحاَكِمُونَ إِلَيْهِمْ، وَإِلَى هَذَا ذَهْبُ ابْنِ الْأَثْيَرِ فِي تَوْجِيهِ هَذَا
الْحَدِيثِ إِذْ قَالَ: لَوْ كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَجْعَ مُطْلَقاً لَقَالَ: أَسْجَحُ، ثُمَّ سَكَتَ، وَكَانَ الْمَعْنَى يَدْلِي
عَلَى إِنْكَارِهِ هَذَا الْفَعْلِ لِمَ كَانَ؟ فَلَمَّا قَالَ: «أَسْجَحُ كَسْجِنَ الْكَهَّانِ» صَارَ الْمَعْنَى مَعْلَقاً عَلَى

^(١) مسلم، في القسامه والمحاربين، باب دية الجنين، (١٦٨١). ولا استهَل: أي ولا صاح عند الولادة ليعرف به أنه مات بعد أن كان حياً. فمِثْل ذلك يُطْلَى: أي يُهَدَّر ولا يُضْمَنْ يقال طل دمه إذا أُهْدِر.

^(٢) مسلم، في القسامه والمحاربين، باب دية الجنين، (١٦٨٢).

أمر، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه، فعلم أنه إنما ذمٌ من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، فإنه لم ينتم السجع على الإطلاق، وقد ورد في القرآن الكريم، وهو ﷺ قد نطق في كثير من كلامه^(١).

وخلاصة القول: إن استنكار النبي ﷺ لهذا السجع وكراهيته له لا يُحتاج به على كراهيته للسجع مطلقاً، بل إنَّ مردَّ الأمر إلى كراهيته للتتكلف من جهة، وإنكاره الحكم الزائف عن الحق والماوغة بأسلوب الكهانة من جهة أخرى.

رابعاً - العفوية والبداهة والبعد عن التتكلف

وهذه الخصيصة في الحقيقة مظہرٌ لما سبق ذكره من بعده ﷺ عن الإغراب واصطناناع السجع. إنه منهج اتبّعه رسول الله ﷺ ومذهب بلاغي لم يتجاوزه في كل ما ورد عنه على اختلاف الأوقات والمناسبات، كيف لا وقد نطق القرآن بذلك في قوله تعالى: «فَلَمْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْرِزٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ» [ص: ٨٦] كيف وقد نهى عنه ﷺ فيما رواه عمر رضي الله عنه قال: «خُيّبنا عن التتكلف»^(٢).

وفي قوله ﷺ: «وَأَبَعَدُكُمْ مَمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ التَّرَاثُورُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيَّهُونَ» قالوا: يا رسول الله! قد علِمنا التَّرَاثُورَونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فما الْمُتَفَيَّهُونَ؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(٣).

وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُغْضِبُ الْبَلِلَعَ من الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّ بِلِسَانِهِ تَخَلَّ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهِ»^(٤).

(١) المثل السائر ١٩٥/١. وانظر: نقد الشر لقدماء ص ٩٤

(٢) البخاري، في الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب ما يكره من كثرة السؤال، (٦٨٦).

(٣) الترمذى، في البر والصلة، باب معالى الأخلاق، (٢٠١٨).

(٤) أبو داود، في الأدب، باب ما جاء في المتشدق في الكلام، (٥٠٠٥).

وتكمّن أهمية هذه السّمة في الحديث النبوي في أمرين:

أولهما - أنَّ المضامين التي نقلها البيان النبوي على عظمها وغزارتها احتواها هذا الشكل الرصين البعيد كلَّ البعد عن التزيين والبالغة، وحمل مع ذلك أثراً عظيماً في النفوس، إنه بيان هُرْ القلوب وفتح العقول دون حاجة إلى بهرجة أو تزيُّد.

ثانيهما - أننا نلحظ أنه على الرغم من اختلاف المناسبات وتنوع أسباب ورود الحديث فالغفوية في تبيان كل طارئ، والبداهة في حل كل إشكال، والإجابة على أيّ سؤال، هي سمة لا تكاد تغيب عن واحد من الأحاديث النبوية، هذا لأنَّ أسلوبه يفيض عن الفطرة السليمة الصافية، والنفس المجتمعة الماءدة، والعقربية الفذة المتألقة، فلا تكُلُّ في عبارة، ولا تزيُّد في صورة.

يقول الرافعي: «هذا على أنَّ كلامه ليس مما تُكُلُّ له، ولا داخله الصنعة، ولا كان يتلَوَّم على حُوكِه وسُرُّده، ولكنه عفو البديهة ومساقطة الحديث مما يجريه في مُناقلة الكلام ومساق الحاضرة»^(١).

«فإن العرب وإن هذبوا الكلام وحدقوه وبالغوا في إحكامه وتجويده، إلا أنَّ ذلك قد كان منهم عن نظر متقدِّم ورويَّة مقصودة وكان عن تكُلُّف يُستعان له بأسباب الإجاده التي تسمى إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبهه أن يكون القول مصنوعاً مقدراً، على أفهم مع ذلك لا يسلِّمون من عيوب الاستكراه والزَّلَل والاضطراب، ومن حذفٍ في موضع الإطباب وإطبابٍ في موضع حذفٍ، ومن كلمةٍ غيرها أليق، ومعنى غيره أرد، ثم هم في باب المعانٰي ليس لهم إلا حكمة التجربة، وإنما فضل ما يأخذ بعضهم عن بعض، قلَّ ذلك أو كثُر، والمعانٰي هي التي تعمَّر الكلام وتستتبع ألفاظه، وبخُسنهَا يكون ماؤه ورونقه ... ييد أنَّ رسول الله ﷺ كان أفصح العرب، على أنه لا يتكلَّف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٢٧-٣٢٨.

وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يتجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريد، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستزله الفحاءة وما يبيده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة»^(١).

وسابقاً أشار الجاحظ إلى هذه المَيْزَيَّة في البيان النبوى فقال: «هو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثُر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصِّنْعَة، وزُنِّه عن التَّكْلُف، استعمل المبسوط في موضع البسيط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورَغَبَ عن المجنين السُّوقِيِّ . . .»^(٢).

خامسًا - اطْرَادُ الْبَلَاغَةِ فِي سَائِرِ كَلَامِهِ

تفردَتِ البلاغة النبوية بالاطراد والديمومة، مهما تنوَّعت الموضوعات واحتَلَفتِ الأزمنة والأحوال، وهذه الخاصية لم تتوافر لشاعر أو أديب أبداً كانت ذُرْتَه أو موهبته. فكلام البشر تتطرَّقُ إليه الاختلافات، والشاعر مهما سمت بلاغته وفصاحته فإنه قد تشتمل قصائده على الغث والسمين، شكلاً أو مضموناً، والأديب تختلف أحواله، فتساعده الفصاحة عند انبساط طبعه وفرجه، وتتعذر عليه عند الانقباض، وكذا أغراضه، فهي تابعة لفكرة أو هواه، وتتغيَّر وفقاً لاختلاف ظروفه ومزاجه، فنراه يميل إلى شيء تارة، ويميل عنه تارة أخرى.

ونجد من الناس من تسمى حكمته في بعض نواحي الحياة وتقتصر في بعض، وفيهم من إذا خطب في الجمهور رأيته في درجة عالية من حُسْنِ البيان، فإن عرض له حديث مع بعض الأفراد، أو تحدث في معانٍ قريبة التناول رأيته ينحطُ عن درجة التي كان عليها في خطابه.

^(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٨١-٢٨٢.

^(٢) البيان والتبيين ٢/٦-١٧.

ومن هنا تتميّز أحاديث رسول الله ﷺ، فقد نُقلت عنه عبر ثلاثة وعشرين عاماً، فلم تختلف بلاغته على اختلاف الأوقات والأحوال، بل كانت على نسق واحد في أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة شكلاً ومضموناً.

والسرور وراء هذا التفرد في البيان النبوى يعود إلى مسألة الوحي والنبوة، ذلك أن الحفائق التاريخية تشهد بأنه لم يؤثّر عن النبي ﷺ إنجاز قوله بلغ إلا بعد الرسالة، فقد ارتبط هذا المنهج القولي بالرسالة زمانياً، كما ارتبط بها موضوعياً وسياقاً، ومصداق ذلك في قوله تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» [النجم: ٤] وقوله ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي «كان يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله ﷺ» وقيل له: تكتب ورسول الله ﷺ يقول في العجب والرضا؟ فأمسك، حتى ذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال صلوات الله عليه: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق»^(١).

وتتجلى هذه السمة في الانساق البلاغي واطراده بوضوح، سواء تتبعنا أحاديثه ﷺ وفق تسلسل زمني أم وفق التنوع الموضوعي، وكذلك الأمر لو تتبعناها وفق اختلاف أحواله النفسيّة ﷺ:

وهناك بعض الأمثلة التي ندرك من خلالها التأثير المستمر للبيان النبوى:

١ - باختلاف الأزمنة: نجد أن ما قاله في أوائل بعثته لا يختلف في مزاياه عن ما قاله في أواخرها، وكذلك ما بينهما.

فمما قاله في أوائل الدعوة: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْرِثُكُمْ أَنْ خِيلًا بِالوَادِي ثُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صِدِقاً. قال: «فَإِنِّي نذير لَكُمْ بَيْنَ

(١) مسند الإمام أحمد ١٩٢/٢ (٦٨٠٢).

يَدِي عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فقال أبو هب: تَبَّأْ لَكَ سَايْرَ الْيَوْمِ، أَهْذَا جَمَعْتَنَا؟ فنزلت: **﴿تَبَّأْ يَدَا**
أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المد: ٢-١] ^(١).

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ**
الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، قال: «يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً، وبما صفتكم عمة رسول الله، لا أغنى عنك من الله شيئاً، وبما فاطمة بنت محمد سلبني من مالي ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً» ^(٢).

ومن أواخرها خطبته في حجة الوداع: عن جبير بن مطعم قال: قام النبي ﷺ بالخيف من مفي فقال: «أَضَرَّ اللَّهُ امْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّعَهَا، فَرِبُّ حَامِلِ فَقِيهِ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرِبُّ حَامِلِ فَقِيهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفَقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُعْلَمُ عَلَيْهِنَّ - يَعْنِي قَلْبُ مُؤْمِنٍ -؛ إِنْلَاصُ الْعَمَلِ اللَّهُ، وَالنَّصِيحَةُ لُؤْلَؤُ الْمُسْلِمِينَ، وَجَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دُعَوَّهُمْ تَحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» ^(٣).

٢ - تنوع الموضوعات: والمواضيع التي احتواها البيان النبوى غزيرة متنوعة بتتواء من أحي الحياة، مرافقة لكل حدث من أحداث الدعوة والرسالة، وهي على تنوعها تحمل السمات الأدبية نفسها، وتتبوا سلام البلاغة العربية في المنزلة ذاتها.

^(١) البخاري، في التفسير، سورة الشعراء، (٤٤٢٩).

^(٢) البخاري، في الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، (٢٦٠٢).

^(٣) ابن ماجه، في المنسك، باب الخطبة يوم النحر، (٣٠٥٦). لا يُعلَم: من الإغلال وهو الخيانة. ويروى: (يُغل) من الغل وهو الحقد والشحناه. ويحتمل أن يكون قوله (عليهن) حال من القلب الفاعل. فيكون المعنى قلب الرجل المسلم حال كونه متصرفًا بهذه الحالات الثلاث لا يصدر عنه الخيانة والحد و الشحناه، ولا يدخله مما يزيله عن الحق. ويحتمل أن يكون قوله (عليهن) متعلقاً بقوله (يُغل) أي لا يخون في هذه الحالات، أي من شأن قلب المسلم أن لا يخون ولا يحسد فيها، بل يأتي بما يتمامها بغير نقصان في حق من حقوقها.

والشاهد كثيرة نختار شذرات منها: تكلّم على الظُّلْم، فقال فيما رواه عنه ابن عمر رضي الله عنه: «الظُّلْم ظُلْماتٌ يوم القيمة»^(١).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأنجح فوق يديه»^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاث دعواتٍ يُستجابُ لهنَّ، لا شكٌ فيهنَّ: دعوةُ المظلوم، ودعوهُ المسافِر، ودعوهُ الوالد لولده»^(٣).

وتكلّم في حقوق المسلمين وواجباتهم: عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حقُّ المُسْلِمٍ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رُدُّ السَّلَامِ، وعيادةُ المَرِيضِ، واتباعُ الجنائزِ، وإحابَةُ الدُّعْوَةِ، وتشميُّ العاطِسِ»^(٤).

وعن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تباعضوا ولا تحاسدوا ولا تدابرُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يجعلُ مسلِّمٌ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ»^(٥).

وتكلّم في الطّبّ فقال: «في الحبة السوداء شفاءٌ من كلّ داءٍ إلا السَّام»^(٦).

وعن عائشة أنها كانت تأمر بالتلبيين للمريض وللمحزون على اهالك، وتقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ التَّلَبِيَّةَ بُحُمُّ فؤاد المريض وتدھب بعض الحزن»^(٧).

(١) البخاري، في المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيمة، (٢٣١٥).

(٢) البخاري، في المظالم، باب انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، (٢٣١٢).

(٣) ابن ماجه، في الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوه المظلوم، (٣٨٦٢).

(٤) البخاري، في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز، (١١٨٣).

(٥) البخاري، في الأدب، باب المحر، (٥٧٢٦).

(٦) البخاري، في الطب، باب الحبة السوداء، (٥٣٦٤).

(٧) البخاري، في الطب، باب التلبية للمريض، (٥٣٦٥).

وهكذا يسير نسق البلاغة النبوية في كل موضوع وفي كل موقف.

٣- اختلاف أحواله النفسية: فرسول الله ﷺ بشرٌ يطأ عليه ما يطأ على النفس الإنسانية من مشاعر وأحساس، فهو يغضب ويرضى، ويُسْرُّ ويحزن، ويحبُّ ويكره، وبلاugته مع اختلاف تلك الأحوال على حال واحدة لا تتراوح بين علوٍ وانخفاض، بل هي في تخليق عالٍ، وكلامه في ذلك كله مبسوط لا ينقطع دون غاية.

ففي حال سروه - مثلاً - تروي عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً تبرُّ أسرارِ وجهه، فقال: «أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ الْمَدْجُيُّ لِزَيْدٍ وَأَسَمَّةَ وَرَأَى أَقْدَامَهُمَا: إِنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْدَامِ مِنْ بَعْضٍ»^(١).

وعن كعبٍ بنِ مالكٍ قال: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُّ وجهه من السُّرُور: «أَبْشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْدٌ وَلَدْنُكَ أُمُّكَ»، قال: قلت: أَمْنٌ عندك يا رسول الله أَمْ من عندِ الله؟ قال: «لَا يَلِمُ مِنْ عَنْدِ اللَّهِ» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استئنار وجهه حتى كأنَّه قطعةٌ قمرٌ، وكأنَّ نعرفُ ذلك منه^(٢).

وتكلَّم في حال حزنه، فيما روتَه عائشة قالت: خرجَ النَّبِيُّ ﷺ من عندي وهو قريرُ العين، طيِّبُ النفس، ثم رجعَ إِلَيَّ وهو حزين، فقلت: يا رسول الله خرجت من عندي وأنت قريرُ العين، ورجعتَ وأنت حزين! فقال: «إِنِّي دَخَلْتُ الْكَعْبَةَ وَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُونَ أَتَعَبْتُ أُمَّتِي بَعْدِي»^(٣).

التبنيَّة: هي حسَاءٌ من دقيق أو نخالة، قالوا: ورها جعل فيها عسل. قال المروي وغيره: سميت تبليبة تشبَّهَا باللدين لبياضها ورقتها، تجم: تریح الفواد وتزيل عنه الهم وتنشطه، والجمام الراحة، وقيل: معناه تجمع وتكلَّم صلاحه ونشاطه. ويروى: (ت: حم) أي تتفق.

(١) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٦٢).

(٢) البخاري، في المغازي، باب حديث كعب بن مالك، (٤١٥٦).

(٣) ابن ماجه، في المنساك، باب دخول الكعبة، (٣٠٦٤).

وعن أسماء بنت يزيد: لما تُوفى ابن رسول الله ﷺ إبراهيم، بكى رسول الله ﷺ، فقال له المعرّي - إما أبو بكر وإما عمر - : أنت أحق من عظم الله حقه، قال رسول الله ﷺ: «تدمع العين ويحرّك القلب، ولا نقول ما يُسخّط الرّبّ، لولا أنه وعد صادق وموعد جامع، وأن الآخِر تابع للأول لَوْجَدْنَا علَيْكِ يا إبراهيم أفضَل ممَّا وَجَدْنَا، وإنَّكَ أَهْمَّ حَزَرْنَا»^(١).

وفي حال غضبه: رُوي عن أبي مسعود الأنصاري أَنَّه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إِنِّي لأتَأخِرُ عن صلاة الصُّبُح من أجل فلانٍ ممَّا يُطيل بنا. فما رأيت النَّبِيَّ ﷺ غضب في موعظةٍ قطُّ أشدَّ مما غضب يومئذ، فقال: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنْفَرِينَ، فَإِنْ كُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوْجِزْ، فَإِنَّ مِنْ ورَائِهِ الْكَبِيرُ وَالْمُسْعَفُ وَذَا الْحَاجَةِ»^(٢).

٦- مراعاة مقتضى الحال

وذلك بتحقيق مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال. وقد عُرف العلماء البلاغة بأنها مراعاة مقتضى الحال، فالمتكلّم يكون بليغاً بقدر استطاعته التصرُّف في كلامه، وفقاً للمقام والحال، وهذا ما أشار إليه حُذاق البلاغيين. وجاء في الصناعتين: «قال حكيم الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابطاً الجأش، ساكناً الجوارح، متخيلاً اللفظ، لا يكلّم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه التصرُّف في كل طبقة»^(٣).

ومقامتات القول التي دارت حولها أحاديث رسول الله ﷺ لا حصر لها، وكانت مع أشخاص كثُر، وأحاديثه في كل مقام، ومع كل حال بلغت القمة في الفصاحة والبلاغة، حتى إنَّه لم يقل أحد: لو قال كذا في مقام كذا لكان أفضل، أو لو قال لفلان غير ما قال لكان أمثل.

^(١) ابن ماجه، في الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، (١٥٨٩).

^(٢) مسلم، في الصلاة، باب أمر الأئمة بتحفيض الصلاة في تمام، (٤٦٦).

^(٣) كتاب الصناعتين ص ٧.

والامر في ذلك يدور حول محورين:
مراجعة مقتضى المقام، ومراجعة مقتضى أحوال المخاطبين.
وسيرته صلوات الله عليه زاخرة بالأمثلة البينية التي تُظهر بيانيه الذي لا يضارع في التعامل مع كل
مقام.

- فمن مراجعة ما يقتضيه المقام:

جاء في كتب السيرة: إنَّ قريشاً قالوا لأبي طالب هذه المقالة: يا أبا طالب، إنَّ لك سُنّاً وشرفًا ومنزلةً فينا، وإننا قد استئنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنَّا، وإنما والله لا ننصر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيهِ أحلامِنا وعيِّبِ آهنتنا حتى تكفه عننا، أو ننأله وإياك، حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداؤهم، ولم يطيب نفسه بأن يخذل رسول الله ، فقال له: يا بن أخي، إنَّ قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقي على نفسيك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظنَّ رسول الله صلوات الله عليه أنَّ عمَّه خاذلَه، وأنَّه ضعُفَ عن نُصرته والقيام معه، فقال له: «يا عمٌ والله لو وضعوا الشمسَ في يمْني والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهِرَ الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته»، ثم استعبرَ رسول الله صلوات الله عليه - أي حصلت له العبرة التي هي دمع العين - فبكى، ثم قام^(١).

في هذا الموقف العصيب كان كلامه صلوات الله عليه على وجاته قويَّ الأثر في أبي طالب، على رغم تهديد قريش ووعيدها، لأنَّه كلام الواثق بربِّه، المؤمن بوعده، فصادفت موقعها من النفس، وعلى أثر هذه الكلمة الموجزة ازداد أبو طالب تأييداً لابن أخيه ومنافحةً عن دعوته، رغم أنه لم يسلم.

وفي عودته من الطائف وقد استقبلته تقييف شرَّ استقبال، وقدفه صبيانهم بالحجارة حتى أدموا عقيبه، جلس تحت ظلِّ شجرة ثم قال: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتي وقلَّة

^(١) السيرة الحلبية ١٦١ والسيرات النبوية لابن هشام ٢٨٧.

حِيلتي وَهُوَيْنِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَحَمَّمُنِي أَمْ إِلَى قَرِيبِ
مَلَكَتِهِ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا عَلَيَّ فَلَا أَبْلِي ...»^(١).

إنه خطاب العبد الضَّعيف المتضرر إلى خالقه، في مقام الشعور بالخذلان من الناس، الذين أراد أن يخرجهم من الظلمات إلى النُّور، وينقذهم من الشقاء إلى السعادة، خطاب مؤثر صادق خرج من قلب خاشع مؤمن، في مقام اللجوء إلى الله تعالى، وجاء المقال مناسباً لهذا المقام.

- ومن الأمثلة الجليلة في مراعاة مقتضيات أحوال المخاطبين:

رسائله إلى الملوك والرؤساء، فعلى الرغم من أنَّ موضوع الرسائل واحد وهو الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، والإيمان برسالة النبي ﷺ، فالفرق واضح بين هذه الرسائل حسب المخاطبين بها.

فكتابه إلى النجاشي النصراوي الذي يؤمن بكتاب منزل، ويدينبني مرسل، يختلف عن خطابه لهرقل الذي غالب عليه حبُّ السيطرة وشهوة السلطان، فقد بعث ﷺ بكتابه مع عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي متنسماً فيه روح الإيمان، وحاثاً له على الدخول في الإسلام: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ، إِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الْمَلِكَ الْقَدُّوسَ الْمُؤْمِنَ الْمُهَمَّيْمَنَ، وَأَشْهُدُ أَنَّ عِيسَى رُوْحُ اللَّهِ وَكَلْمَتُهُ أَقَاهَا إِلَى مَرِيمَ الْبَتُولِ الطَّاهِرَةِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بَعِيسَى، فَخَلَقَهُ مِنْ رُوْحِهِ وَنَفَخَتْهُ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَهُ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُوْالَةُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتَبَعَّنِي فَتَؤْمِنَنِي بِي وَبِالَّذِي جَاءَكَ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ»^(٢).

إنما رسالة تحمل روح الأخوة بالعقيدة والأنس في خطاب من يميل إليه ويرجو الخير له.

(١) الجامع الكبير للسيوطى ٥٢٥/١ وجمع الزوائد ٤٥٦/٥ (٩٨٥١) وهذا لفظ الجامع الكبير.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١٨٨/٢ والسيرات النبوية لابن كثير ٤٢/٢

وليست رسالته إلى هرقل كذلك، فقد قال فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع المهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلّم يوْتِكَ اللَّهُ أَجْرُكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّتْ فَإِنَّ اللَّهَ إِلَّا يُعْبَدُ إِلَّا هُوَ أَكْبَرُ وَلَا شُرِيكَ لَهُ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْتَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ٦٤] ^(١).

واختلاف المقام وحال المخاطبين متجلٌ في اختلاف الخطاب، والفرق بين المخاطبين ناشئ من الاختلاف في موقف كلٍّ منهما من العقيدة، فهرقل السلطان القاهر ليس كالنجاشي المؤمن بالنصرانية بإيمان العبد بخالقه. وقد كان خطاب النبي ﷺ كما هو واضح مناسباً للمقام، ففي خطابه للنجاشي أكثر من أسماء الله الحسنى، وأشار إلى المسيح وأمه عليهما السلام بما يتفق مع عقيدته وعقيدة الإسلام.

- واللافت في مخاطبته الملوك، ومراعاة أحوالهم، كتابه إلى كسرى عظيم فارس الذي يتّحد النار إلهًا من دون الله، فلا يدين بدينه، ويظُنُّ بتكبره وغطرسته أنه أعلى من مرتبة البشر، ومن هنا لابد أن يخاطب بما يطامن كبره، ويحطم حبرونه، وهذا نصُّ رسالته إلى كسرى فيما أخرجه ابن حجر ^{ير} من طريق ابن إسحاق:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كَسْرَى عَظِيمِ فَارِسِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدِى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَدْعُوكَ بِدُعَاءِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَبِحَقِّ الْقَوْلِ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنْ تُسْلِمْ تَسْلَمْ، وَإِنْ أَبْيَتْ فَإِنَّ إِثْمَ الْمَخْوِسِ عَلَيْكَ» ^(٢).

^(١) البخاري، في بده الوحي، باب كيف كان بده الوحي إلى رسول الله ﷺ، (٧).

^(٢) تاريخ الطبرى ٣/٩٠ والسيره النبوية لابن كثير ٣/٥٧.

ولقد قرعت هذه الكلمات قلب هذا الرجل الذي كان يرى كلّ من حوله عبيداً له، فاستشاط غضباً ومرق الرسالة، وأزيد وتوعد، ولكن الله تعالى قصمه وأهلكه.

ومن مراعاة أحوال المحاطين كتبه للله إلى ملوك العرب، فقد كان للله يراعي طرائقهم في الكلام، ويختار لهم في جزالة ألفاظهم، وما يلائم استعمالاً لهم لمفردات كانت بعيدة غريبة عن لهجته ولهجة قومه.

ومن ذلك كتابه لوابن حجر الخزمي: «من محمدٍ رسول الله إلى الأقبائل العابلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التّيّعة شاء، والتّيّمة لصاحها، وفي السُّيُوبِ الْخُمُسِ، لا بِخَلَاطٍ وَلَا بِرَاطٍ، وَلَا بِشِنَاقٍ وَلَا بِشَغَارٍ، وَمَنْ أَحْجَى فَقَدْ أَرْبَى، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»^(١).

وكتب لأكيدر صاحب دومة الجندل مع خالد بن الوليد حين أتاه إلى الإسلام: «من محمدٍ رسول الله لأكيدر، إنّ لنا الصّاحبة من الصّ محلٍ والبُورِ والمَعَامِي وأعفافَ الأرضِ والحلقةِ والسلّاحِ والحافرةِ والحسنَ، ولكم الصّامنةُ من النّخلِ والمَعْيَنُ من المعمورِ، لا تعدلُ سارحُتكم، ولا تُعَدُّ فارِدُتكم، ولا يمحظُ عليكم النّباتُ، تقيمون الصّلاةَ لوقتها، وتؤدون الزّكاةَ بحقّها، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه»^(٢).

إنما القدرة اللغوية التي ملّكته الله إياها في خطاب الأقوام المأمور بتبلیغهم ودعوهم للإسلام وتعليمهم أحكام الشّرع. تلك القدرة التي عجب لها الفصحاء من بي قومه الذين ملکوا زمام البلاغة وفصاحة القول، ولم يكن لهم هذه الملكة مع تکامل فطرتهم اللغوية، فالقضية قضية نبوة ووحى، في خطاب النبي للله كلّ من بلغته دعوته.

ولم يقتصر الأمر على كتبه ورسائله، بل تجلّى في خطابه لكلّ ما يتّناسب ولغته.

(١) صبح الأعشى ٢٤٦ / ٢ والعقد الفريد ١١٢ / ١.

(٢) صبح الأعشى ٢٤٦ / ٢ والعقد الفريد ١١٢ / ١.

فقد رُوي عنه ﷺ في جواب من سأله: هلْ مِنْ امْرِ امْصِيَامٍ فِي أَمْ سَفَرٍ؟ فأجابه ﷺ:
«لِيَسْ مِنْ امْرِ امْصِيَامٍ فِي امْسَفَرٍ»^(١).

وكذلك في حديث عطية بن سعيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «ما أَنْطاكَ اللَّهُ فَلَا
تَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئاً، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلِيَا هِيَ الْمُنْطَبِطَةُ، وَالْيَدَ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطَاهَةُ، وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْمَسْؤُلُ وَالْمُنْطَبِطُ» قال عطية: فَكَلَمِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِلُغْتِنَا^(٢).

ومن مراعاة أحوال المخاطبين اختلاف أجوابه ﷺ للسائلين على الرغم من تشابه
أسئلتهم؛ فقد رُوي أنه ﷺ سُئل: أيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(٣).
وسُئل: أيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فقال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقِتِهَا»^(٤).

وسُئل: أيُّ الْأَعْمَالِ خَيْرٌ؟ قال: «أَنْ تُطْعِمَ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ
لَمْ تَعْرِفْ»^(٥).

فأجوبته ﷺ متنوّعة، وتتنوعها لا يعني اختلاف تضادٌ، بل لأنَّه ﷺ يخاطب أشخاصاً
مختلفاً بعضُهم عن بعضٍ، فيحجب كُلَّ شخصٍ بما ينفعه وما يعوزه في طريق هدایته إلى
الطريق المستقيم.

ومن مراعاته مقتضى الأحوال إطالته الكلام أحياناً وإيجازه أحياناً أخرى بما يتاسب
مع المقام. ومن أمثلة التطويل في الخطبة ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: صَلَّى بنا
رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ، ثُمَّ قَامَ خَطْبِيًّا، فَلَمْ يَدْعُ شَيْئاً يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ
إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيهِ مَنْ نَسِيهِ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حَلْوَةٌ،

^(١) غَايَةُ الْمَقْصِدِ فِي زَوَائِدِ الْمَسْنَدِ ١٩٢٠/١.

^(٢) المعجم الكبير ١٦٦/١٧ (٤٤٢).

^(٣) البخاري، في الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، (٢٦).

^(٤) البخاري، في الأدب، باب البر والصلة، (٥٦٢٥).

^(٥) مسند الإمام أحمد ١٦٩/٢ (٦٥٨١).

وإنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، أَلَا فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ...» وَذَكَرَ أبو سعيد حديثاً طويلاً ثم قال: وجعلنا نلتفت إلى الشَّمْسِ هَلْ بَقَى مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقَى مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ»^(١).

وبالتأمل في الحديث تظهر كثرة المعاني التي احتواها، مع الإيجاز المعهود في فقراتها، فطوطها ليس من باب الإطناب والتکلف، بل لتعذر وجوب الأمر الذي أراد التحدث عنه. ومن المواقف التي استدعت التطويل خطبة (حجَّة الوداع) التي أودعها خلاصة دعوته، وكانت آخر خطاب عامٌ وجهه إلى أمته، فلاغروا أن تكثر فيها المضامين التبليغية. ومن أمثلة الإيجاز في خطبه خطبته يوم (فتح مكة) عند باب الكعبة، وقد امتلأت قلوب المسلمين بفرح النصر، أما أهل مكة فهم في ذهول لما أصابهم.

وفي غمرة هذه المشاعر المتباينة وهذا الموقف الحاسم في تاريخ الدعوة أشرق بيان النبوة بحكمته بما هو جامع في هذا المقام، فقال ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَّ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلُّ مَأْتَىٰ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَىٰ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيِّ هَاتَيْنِ، إِلَّا سِدَانَةُ الْبَيْتِ وَسِقَايَةُ الْحَاجِ، أَلَا وَقْتَلُ الْخَطَّافِ شَبَهُ الْعَمَدِ بِالسُّوْدَاءِ. وَالْعَصَاصِيَّةُ الَّتِي مُغْلَظَةٌ، مَئَةٌ مِنَ الْإِبْلِ؛ أَرْبِيعُونَ مِنْهَا فِي بَطْوَنِهَا أُولَادُهَا. يَا مَعْشَرَ قُرْيَشٍ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَحْوَةَ الْجَاهْلِيَّةِ وَتَعْظِمُهَا بِالْأَبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ»، ثُمَّ تلا هذه الآية: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَرَّةٍ وَأَنْشَئَنَاكُمْ شَعْوَرًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرُفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»** [الحجرات: ١٣] «يَا مَعْشَرَ قُرْيَشٍ! مَا تَرَوْنَ أَيْ فَاعْلَمُ بِكُمْ؟» قال: خيراً، أخْ كريمٌ وابنُ أخْ كريمٍ، قال: «أَذْهَبُوا فَأُثْمِنُ الطُّلْقَاءَ»^(٢).

(١) الترمذى، في الفتن، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيمة، (٢١٩١).

(٢) سيرة ابن هشام ٢٥/٣.

٧- الموضعية في إلقاء الكلام

(التجدد من الأشخاص وقيود الزمان والمكان)

من المسلم به أن ما يعين على فهم وقائع الأشياء معرفةً أسبابها وظروفها، ولا شيء كال التاريخ يشهد بصدق ذلك، فما يسع مؤرخاً ثاقب الفكر دقيق الاستنتاج أن يجهل أسباب الحوادث ودفافعها.

ولا يختلف الأمر في العلوم الطبيعية والدراسات الاجتماعية والفنون الأدبية، فهي تشارك التاريخ في تطلعها إلى معرفة الأسباب والمسبيات، واستشرافها إلى العلم بالمبادئ والغايات.

وعلى صعيد الفن الأدبي - خاصة - ما نكاد نفهم نصاً ما فهماً سديداً أو نندوّقاً تندوّقاً سليماً إلا إذا مهدنا بين يدي دراسته بإزاحة النقاب عن الظروف النفسية والاجتماعية التي دفعت الأديب إلى التفكير فيه، ثم حملته على اختيار ألفاظه وابتداع معانيه^(١).
ومن جهة أخرى بحد البلاغ من مناسبات وأسباب ينطلقون، وفي فلكها: يدورون،
وهم في ذلك مقيدون بإسارها، لا تكاد معانيهم تتجاوزها.

وعلى الرغم من أهمية معرفة سبب النص في فهم مقاصده فإن السرّ البلاغي يكمن في قدرة الناصل على التحرر من أسر البيئة، أشخاصاً وزماناً ومكاناً، وتمكّنه من إخراج النص من حدود ظروفه لينطلق متجاوزاً محيطه، مخلقاً في آفاق المعاني.

وإذا نظرنا من خلال هذين الجانبيين إلى حديث النبي ﷺ وجدنا أن قسماً كبيراً منه كان لأسباب تحصل، ومناسبات مثل، وأقوله ﷺ كانت استحابةً لواقف طارئة وإجاباتٍ لمسائل ملحةً، وردوداً على مواقف عامة وخاصة، ومع ذلك كله لم تكن أحاديثه ﷺ مأسورة مقيدة لذاك السائل ولتلك الحادثة، بل كان متتحرّزاً من عامل البيئة، منطلاقاً في رحاب المعاني، إنه التحرّر من قيد الأسباب والأشخاص والزمان والمكان في بيان يعمُّ، ويشمل

^(١) انظر : مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص ١٢٧ .

السامعين من كانوا، وأينما وجدوا، وحيثما حلوا، إنه كلام المبلغ للناس كافة، المرسل رحمة للعاملين.

وبتتبع الأحاديث المروية مع أسبابها تظهر هذه السمة جليةً في ألفاظ الحديث ومعانيه، فمن ذلك ما أورده النَّقْلة في سبب ورود قوله ﷺ: «إِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يُنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهَا»^(١).

روى الطبراني بإسناد رجاله ثقات، حديث الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود قال: «من هاجر يتغى شيئاً فهو له، قال: هاجر رجل ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس، وكان يسمى مهاجر أم قيس»^(٢).

وفي هذا الحديث الجليل - الذي عده العلماء نصف الإسلام - لا نجد ذكرًا لتلك المرأة، ولا نلمس تقييد المعنى بحال ذاك الرجل والحادثة التي تُقتل.

ومن ذلك قوله ﷺ لابن الثَّنَيَّةِ الذي كان يجمع صدقات الناس، فجاء يوماً وقد نال من هدايا الناس ما نال، ولما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب وقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مَمَّا وَلَأَنِّي اللَّهُ، فَيَأْتِي فِي قَوْلٍ: هَذَا مَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأَمِّهِ حَتَّى تَأْتِيهِ هَدِيَّتُهُ! وَاللَّهُ لَا يَأْخُذُ أَحَدًا مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرَفُ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءً، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خُوارٌ، أَوْ شَاهَةً تَيَعْرُ» ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطه، يقول: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» بَصَرَ عَيْنِي وَسَمْعَ أُذْنِي^(٣).

^(١) البخاري ، باب كيف بدأ الوحي ، (١).

^(٢) المعجم الكبير ، ١٠٢٩ ، (٨٥٤٠) .

^(٣) البخاري ، في الحيل ، باب احتيال العامل ليهدي له ، (٦٥٧٨) .

فليس في الحديث ذكر لاسم الرجل لأن القضية خطيرة، وهذا الرجل هو نموذج إنساني يمثل صورة هذا الخطأ، فليس من المهم ذكر اسم الشخص في هذا التقرير والوعيد، لأن الأمر هام عام غير منحصر في هذه الحادثة، بل إنها صورة تتكرر في المجتمعات الإسلامية، فلا بد من إصدار حكم عام على فاعل هذه الخطيبة كائناً من كان.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: سأله رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنما نركب البحر ونحمل ماء القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفتتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماءُ الحِلْلِ مَيْتَتَه»^(١).

ولو أجاب النبي ﷺ بـ(نعم) لأوهم أنه طهور حال ضرورة يسأل عنها الرجل فقط، فكان جوابه أبلغ وأعظم في الفائدة، إذ أصدر حكماً عاماً شاملًا لا يخص السائل وحده ليقول بعموم واضح، وزيادة على سؤال السائل: «هو الطهور ماءُ، الحِلْلِ مَيْتَتَه».

- فاللافت للنظر إذاً أن القصة الحادثة قد تكون فردية، فيحولها ﷺ إلى موضوع يشمل بحكمه كل المكلفين، فلا يخاطب المعنى وحده، بل يقوم وينطبق في الناس ليبلغهم ويبيّن لهم حكم الشرع ويعلّمهم شؤون دينهم.

ومن الأمثلة التوضيحية على ذلك العموم في أحاديث لها مناسبات ما رواه أبو مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجلاً فقال: يا رسول الله إني لأنتحر في صلاة العدّاء من أجل فلان ممّا يطيل بنا فيها. فما رأيت رسول الله ﷺ في موعدة أشدّ غضباً منه يومئذ، فقال: «يا أيها الناس، إن منكم متّرقين، فأيّكم ما صلى بالناس فليجّوز، فإن فيهم الصّعيف والكبير وهذا الحاجة»^(٢).

^(١) أبو داود، في الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، (٨٣).

^(٢) ابن ماجه، في إقامة الصلاة، باب من أمة قوماً فليخفف، (٩٨٤).

ومن ذلك إياده لناس من المنافقين لتركهم الجماعات، فيما رواه ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أحهما سمعا النبي ﷺ يقول على أعاده: «لَيَتَهِمَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدِّهِمْ الْجَمَاعَاتِ، أَوْ لَيَخْتَمَّ اللَّهُ عَلَى قَلْوَاهُمْ ثُمَّ لِيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»^(١).

ومع ذلك قد تقتضي الحكمة ويستدعي الموقف أن يوجه الخطاب لشخص بعينه في مسألة تخصه لغرض تربوي لا يحقق كماله إلا بمخاطبة الشخص نفسه، ولكنه مع ذلك يؤسس لحكم تشريعي ثقاس به كل حالة تشبهه.

فمن ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص حين شدد على نفسه في العبادة، فنهاه النبي ﷺ ووجهه: قال عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: «أَلمْ أَخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟» ، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَفَطَرْ، وَقُمْ وَمَمْ، فَإِنَّ جَنَاحَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لَعْنَيَّ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزُوْجَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لَزَوْرَكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢).

٨- الأصلة والابداع في الحديث النبوى:

عرف العلماء الابداع فقالوا: «أن يبتدع الشاعر معنى لم يسبق إليه ولم يتبع فيه»^(٣). أما الأصلة فقد عرفها بعضهم بـ: «أن يكون أسلوب الرجل خاصاً به لا ينهاج به نهج غيره، وأن تكون في عباراته طرافة وجدة مع حلاوة ملموسة تحمل من يأتي بعده أن يحرصوا على اقتباسها واستعمالها.. ويراد بالأصلة في الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة، وتلك هي الصفة الجوهرية للأسلوب البلige، والسمة المميزة للكاتب الحق، وملاك الأصلة أن لا تكتب كما يكتب الناس، وملاكها أن تكون أصيلاً في

(١) ابن ماجه، في المساجد والجماعات، باب التغليظ في التخلف عن الجماعة، (٧٩٤).

(٢) البخاري، في الصوم، باب حق الجسم في الصوم، (١٨٧٤).

(٣) معجم مصطلحات النقد ص ٢٩.

نظرتك وكلمتك وفكريتك وصورتك ولهجتك، فلا تستعمل لفظاً عاماً، ولا تعبيراً محفوظاً، ولا عبارة مشاعرة.

وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، لأن الكلمة ميّة ما دامت في المعجم، فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها في التركيب ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة بدأ فيها الحياة، وسرت فيها الحرارة وظهر عليها اللون، وهيأ لها البروز.

والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة، إذا وضعت في موضعها على الصورة الازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة، ولا ظلت جامدة»^(١).

وتتمثل الأصالة في الحديث النبوى في مظاهرین:

أحدھما: دقة اختيار المفردات وخصوصيتها في التعبير، ووقوعها الموفق في الموقع المناسب، بحيث لا تستطيع أن تبدل لفظاً، ولا أن تنقله من موضعه، والأمثلة على هذا كل حديث نبوى.

ثانيهما: القدرة على ابتكار مفردات وعبارات ابتكاراً استعمالياً أو ارتحالياً.

وقد أُوتي النبي ﷺ قدرة على توظيف الألفاظ والعبارات في غایاته التبليغية، وهو ما لفت الفصحاء من قومه، ومنهم عليٌّ رضي الله عنه إذ قال: «ما سمعتُ كلمةً غريبةً من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ»^(٢). «فلا حرج كان ﷺ على حد الكفاية في قدرته على الوضع والتشقيق من الألفاظ، وارتفاع المذاهب البيانية، حتى اقتضب الفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تُعدُّ من حسنات البيان، لم يتنقّل لأحد مثلها في حُسن بلاغتها وقوّة دلالتها، وغرابة القرىحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صارت مثلاً، وأصبح ميراثاً حالداً في البيان العربي»^(٣).

^(١) دفاع عن البلاغة ص ٨١-٨٣

^(٢) الوفا بتعريف فضائل المصطفى ٣٤٢/١

^(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٥١٣

وتتمثل هذه القدرة اللغوية في: ابتكار المفردات، وابتكار التراكيب^(١).

أ- ابتكار المفردات:

وتصرُّفه ﷺ في دلالات الألفاظ يتمثل في جانبين:

أولهما: إضافة دلالات جديدة للألفاظ «وهذا الباب كانت تتصرُّف فيه العرب بالاشتقاق والمحاز، فتضيق الألفاظ وتنقلها من معنى إلى معنى، غير أنها في أكثر ذلك إنما تتسع في شيء موجود ولا تُوجَد معدوماً، فلم يُعرَف لأحد من بلغائهم وضعٌ بعينه يكون هو انفرد به وأحدثه في اللغة، ويكون العرب قد تابعوه عليه إلا ما ندر، لا يعد شيئاً، بخلاف المتأثر عنه ﷺ في مثل ذلك، فهو كثير تَعْدُ منه الأسماء والمصطلحات الشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم، ومنه ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها وهم عرب مثله»^(٢)

ومنه: لفظ (الرَّقُوب) الذي أسبغ عليه النبي ﷺ معنى جديداً في قوله: «ما تَعْدُون الرَّقُوبَ فِيهِمْ؟» قال: قلنا الذي لا يُولَد له، قال: «لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْدِمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئاً»^(٣).

قال ابن الأثير: الرَّقُوب في اللغة: الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد، لأنَّه يرقب موته خوفاً عليه، فنقله النبي ﷺ إلى الذي لم يَقْدِمْ من الولد شيئاً أي يموت قبله ... ولم يقله إبطالاً لتفسيره اللغوي^(٤).

^(١) وقد سبقت الإشارة إلى هذين الجانبيين في الفصل الأول لدى الحديث عن أثر الحديث في إغناء العربية.

^(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣١٦ .

^(٣) مسلم، في البر والصلة والأداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (١٠٦).

^(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٤٩/٢ .

كما أضاف للفظ (الهراء) معنى جديداً سوياً معناه اللغوي، فقد ورد اللفظ فيما رواه ابن الأثير من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ذاك الهراء شيطان» قال ابن الأثير تعليقاً على هذا الحديث: لم يسمع الهراء أنه شيطان إلا في هذا الحديث، والهراء في اللغة، السَّمْعُ الجَوَادُ، والهَذِيَانُ^(١). وهو بلغة أهل بحد فسيل التخل^(٢).

ثانيهما: ابتداع ألفاظ جديدة وإضافتها إلى اللغة.

كـ: لفظ (العِسَاء) في قوله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ تَغْدُو بَعِسَاءً وَتَرُخُّ بَعِسَاءً» قال الخطابي: قال الحميدي: العِسَاء: العس، ولم أسمعه إلا في هذا الحديث، والحميدي من أهل اللسان^(٣).

ومنه (مَهْرَمَة) في قوله ﷺ: «تَرَكَ العَشَاءَ مَهْرَمَةً»^(٤).

قال ابن الأثير: أي مظنة للهرم، قال القمي: هذه الكلمة جارية على السنة الناس، ولست أدرى أرسُولَ اللَّهِ ﷺ ابتدأها، أمْ كَانَتْ قَبْلَهُ^(٥).

بـ - وضع تراكيب لم يسبق إليها:

«وهذا ضرب عزيز من الكلام يختديه البلغاء، ويطبعون على قالبه، وكلما كثر في اللغة لانت أعطاها، واستبصرت طرق الصنعة إليها، وما من بلغ أحدها في العربية منه ما أحدهه النبي ﷺ»^(٦).

^(١) النهاية في غريب الحديث والأثره ٢٦١/٥.

^(٢) جمهرة اللغة ١٠٦١

^(٣) غريب الحديث ٥٠٧/١

^(٤) الترمذى، في الأطعمة، باب ما جاء في فضل العشاء، (١٨٥٧)، وابن ماجه في الأطعمة، باب العشاء، (٣٣٥٥).

^(٥) النهاية في غريب الحديث والأثره ٢٦١/٥.

^(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٦.

وأمثلة هذا النوع من الابتكارات النبوية لفت أنظار علماء العربية وعلماء الحديث، فأودعوها تصانيفهم، ووقعوا على أسرارها ودقائق معانيها.

ومن أمثلتها:

قوله ﷺ يوم حنين: «الآن حمي الوطيس»^(١).

وقوله: «اليد العليا خير من اليد السفلة، وابداً إمَّن تعول»^(٢).

و«خير مال المَرءُ مُهَرَّةٌ مَأْمُورَةٌ أو سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ»^(٣).

وقوله: «مات حتف أنفه»^(٤).

وقوله: «هُدْنَةٌ على دَخْنٍ»^(٥).

وقوله: «بُعِثْتُ في نَفْسِ السَّاعَةِ»^(٦).

«وكل ذلك من الأوضاع التي ابتدعها أفسح العرب ﷺ في هذه اللغة ابتداءً، ولم تسمع من أحد قبله، ولا شاركه في مثلها أحد بعد، وكل كلمة منها كما رأيت لا يعدها شيء في معناها، ولا يفي بها كلام في تصوير أجزاء هذا المعنى وانتظام هذه الأجزاء، ونفرض أصياغها عليها، وهذا الضرب من الكلام الجامع هو الذي يمتاز البلغ في كل أمة بالكلمة الواحدة من مثله أو الكلمتين أو الكلمات القليلة القليلة، ولو ذهبت تحصيه في العربية ما

(١) مسلم، في الجهاد والسير، باب في غروة حنين، (٧٦) وهذا لفظ الإمام أحمد: المسند ٢٠٧/١، ١٧٧٦). الوطيس: هو التور مجتمع النار والوقود.

(٢) البخاري، في الرِّكَاةِ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، (١٣٦١).

(٣) السنن الكبير لبيهقي ٦٤/١٠ باب من حلف ما له مال وله عرض، (١٩٨١٤) السكك: السطر المصطف من النخل، المأبورة: المصلحة الملقة، والمأمورة: الكثيرة النتاج والنسل.

(٤) مستند الإمام أحمد ٤/٣٦، (١٦٤٦)، مات حتف أنفه: أي من غير قتل ولا ضرب.

(٥) أبو داود، في الفتنة والملائم، باب ذكر الفتنة ودلائلها، (٤٢٤٤).

(٦) الترمذى، في الفتنة، باب قول النبي ﷺ: (بعثت...)) (٢٢١٣).

رأيته إلا معدوداً، على حين أن خطباءها وشعراءها وكتابها وأدباءها لا يأخذهم العُدُّ، وقد انفردت بكثرةم هذه اللغة الخاصة حتى لا تساويها في ذلك لغة أمة من الأمم»^(١).

٩- استعمال الوسائل البينية (الإيضاحية)

تمثل التبليغ في نحجه عليه السلام التعليمي في إيصال المعنى إلى المتكلمين في هيئة لا تُبس فيها ولا خفاء، وإزالة ما يعترض المعنى من عقبات قد تخفي بعضاً من المقصود، والذي لا شئ فيه أن المعنى لا يصل إلى السامع عن طريق اللفظ وحده، وإنما تساعدة أمور أخرى تنازره معه في تبليغ المراد، وهي ما تسمى بالوسائل الإيضاحية التي يستعين بها المتكلم، من حركة وإيماء، أو رسم وتوضيح، ومن هنا يزَّ بعض المتكلمين بعضاً، ومن هنا أيضاً يفترق الأسلوب المقوء عن الأسلوب الذي يلقيه صاحبه على الحاضرين.

وقد تستَّمِّنَ البيان النبوى أعلى مراتب البيان البشري نظراً لطبيعته ومقوّماته وطريقه، قال تبارك وتعالى: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» [النحل: ٤٤].

ومن ثم لم يدع النبي عليه السلام سبيلاً في أداء رسالة رسالته، إلا وسلكها، بل تفنَّن في تبيان كتاب الله وتبلیغ وحیه، فبلغته عليه السلام لم تكن بلاغة لسانٍ فحسب، بل هي بلاغة أحوال مصاحبة للفظ أيضاً، ترشد إلى غايته وتفصح عن غامضه، فهي جزء من سياق الكلام ومقامه.

وقد بيَّنَ العلماء قديماً أهمية الوسائل المصاحبة للفظ، ومنهم الجاحظ، وابن عبد ربه إذ يقول: «البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، ولكل وجه منها حظٌ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ورُبَّ إشارة أبلغَ مِنْ لفظِه»^(٢).

وقد حدَّت الدراسات المعنية بالحركة والإشارة، وصارت الإشارة فرعاً من فروع علم اللغة.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٣١.

(٢) العقد الفريد ١/١٧٥، وانظر: البيان والتبيين ١/٧٦-٧٧.

ومعلوم أنَّ النبي ﷺ كان رفيقاً بأصحابه في تبليغ رسالة ربه، فهو مع انسجامه مع ما يقول وتلامحه معه، كان يجذب القلوب والأسماع ويستلتفت الأنظار وينشط الذاكرة في استعمال الوسائل الإيضاحية لتمكن المعاني في النفوس وبلغ التأثير أقصى غاية.

وابتعَ النبِي ﷺ في ذلك الوسائل الآتية:

١ - البيان بأعضاء جسده ﷺ.

٢ - البيان بأحواله.

٣ - البيان بالوسائل الخارجية.

٤ - البيان بأعضاء جسده ﷺ

وهذه الوسيلة قد تصاحب اللفظ فتوضّح مدلوله، وقد تُغْنِي عنه في بعض الأحيان، وقد أشار البيان القرآني إلى هذه الجمالية في التعبير عن المعاني، ومن أمثلته قوله تعالى: «وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا» [التوبة: ١٢٧] ونظرهم كناية عن هلعهم، وقوله تعالى في وصف تعنت الكافرين وهرولتهم من الحق: «أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفُ رَأَيْتُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُعْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» [الأحزاب: ١٩] وفي التعبير عن ندم الظالم: «وَيَوْمَ يَعْضُلُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخْدُثُ مَعَ الرَّسُولِ سَيِّلًا» [الفرقان: ٢٧] و«وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقْلِبُ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرُكْ بِرَبِّي أَحَدًا» [الكهف: ٤٢].
- وفي البيان النبوي نجد ﷺ يرسم المعنى بيده ربماً، وهذا واضح في حديث هند بن أبي هالة حين وصف النبي ﷺ بقوله: «يُشير بِكَفِهِ كُلُّهَا، إِذَا تَعَجَّبَ قَلْبَهَا، وَإِذَا حَدَّثَ أَتَصِلُ بِهَا، وَضَرَبَ بِرَاحَتَهُ الْيُمْنِي بِاطْنَ إِهَامِهِ الْيُسْرِي»^(١).

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢٨٦/١.

قال ابن أبي الإصبع تعليقاً على هذا الحديث، تحت عنوان (الإشارة): «الإشارة أن يكون اللفظ القليل مستمراً على المعنى الكبير بإيماء أو لمحه تدل عليه ... فوصيَّه - أي النبي ﷺ - ببلاغة اليد كما وصفَه ببلاغة اللسان، يعني أنه يشير بيده في الموضع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة، وهذا حُدُقٌ بمواضع المخاطبات، قوله: (كلها) أي يُفهم بها المخاطب كلَّ ما أراده بسهولة، فإنَّ الإشارة ببعض الكفِّ تصعب، وبكُلِّ الكفِّ تسهل، فأعلمَنا هذا الوصيَّاف أنه ﷺ كان سهل الإشارة كما كان سهل العبارة ... قوله (إذا تعجبَ قلْبها) يعني أنه يشير بما على وجهها إذا كان المعنى الذي يشير إليه على وجهه ليس فيه ما يُستغرب فيعجب منه، فإنَّ الشيء المعجب إنما يكون معيجاً لكونه غير معهود، فكأنَّ الأمر فيه قد قُلِّبَ لمحالفته المعهود ... قوله (إذا حدثَ اتَّصلَ بها) يعني اتَّصل حديثه بها، فيكون المعنى متَّصلاً، والمفهوم بالعبارة والإشارة متلاحمًا، آخذه أعناقُ بعضه بأعناقِ بعضٍ. قوله (فضرَبَ براحتِه اليُمْنِي باطنَ إيهامِه اليسري) يعني أنه عند انتهاء إشاراته يضرب براحته اليمني باطن إيهامه اليسري مشيراً إلى أنه ختم الإشارة، لأنَّ الإهاب بما يُحتمِّ القبض، ولذلك عطف هذه الجملة بالفاء ... لكونها موضوعة للتعليق»^(١).

ومن الأمثلة على استعماله يده ﷺ ما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنه ﷺ قال: «كَيْفَ يُلَكَّ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَّالَةٍ مِّنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجْتُ عَهُودَهُمْ وَأَمَانَاتَهُمْ وَاحْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكُذاً وَشَبَّكُوا بَيْنَ أَصْبَاعِ يَدِيهِ»^(٢).

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفَتْنُ، وَيَكْثُرُ الْمَرْجُ»، قيل: يا رسول الله! وما المرج؟ فقال هكذا بيده فحرَّفَها، كأنَّه يريد القتل^(٣).

^(١) تحرير التسجيف ٣١/١.

^(٢) أبو داود، في الملاحم، باب الأمر والنهي، (٩٤٣٤٢). مرجح : اختلطت وفسدت.

^(٣) البخاري، في العلم، باب من أحاديث الفتيا بإشارة اليد والرأس، (٨٥).

وما رواه كعب بن مالك أَنَّه كان له مَالٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَمْزَةِ الْأَسْلَمِيِّ فلقيه، فلَزِمَه فَتَكَلَّمَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَمَرَّ بِهِمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا كَعْبُ!» فَأَشَارَ بِيَدِهِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ النِّصْفَ، فَأَخْذَ نِصْفًا مِمَّا عَلَيْهِ وَتَرَكَ نِصْفًا^(١).

وَحْدِيْث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتَيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وأشار بالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَىِ، وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا^(٢).

وَحْدِيْث أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبَلَّغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ» وَضَمَّ أَصَابِعِهِ^(٣).

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ نَجِدُ أَنَّ الإِشَارَةَ بَدِيلٌ عَنِ الْعِبَارَةِ، مُسْتَقْلَّةً فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى وَهِيَ جَزءٌ أَصَبِيلٌ فِي الْبَيَانِ.

وَقَدْ تَكُونُ الإِشَارَةُ مَصَاحِبَةً لِلْفَظِ، مَشَارِكَةً لَهُ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي تِرَابِطِ بْنِ هَاشِمٍ وَبْنِي عَبْدِ الْمَطَلِّبِ: «إِنَّا وَبْنُ الْمَطَلِّبِ لَا نَفْتَرِقُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ شَيْءٌ وَاحِدٌ»، وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٤).

وَهَذَا يَسْهُمُ بِالْطَّبْعِ فِي اسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْمَعْنَى وَتَمْكِينِهِ فِي النَّفْسِ.

وَمَا رَوَاهُ أَبُو سَعِيدُ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْانِ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا» وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٥).

(١) مسلم، في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين، (١٥٥٨).

(٢) البخاري، في الطلاق، باب اللعان، (٤٩٩٨).

(٣) مسلم، في البر والصلة، باب فضل الإحسان إلى البنات (١٤٩).

(٤) أبو داود، في الخراج والفيء والإماراة، باب في بيان مواضع قسم الحمس، (٢٩٨٠).

(٥) البخاري، في المظالم، باب نصرة المظلوم، (٢٣١٤).

فهذه الحركة جسّدت المقصود في أسرع وقت، وأثارت اهتمام السامعين، وصوّرت مدى الاتّحاد والتّلازم بين المؤمن وأخيه، بتصوّر يستقر في المعنى العقلي والمعنى الحسّي في آن واحد.

- وكان ﷺ بين لصحابته العدد من خلال حركات أصابعه، ولم يكن حساب الأعداد شائعاً عند العرب، بل كانوا يستعملون وسائل حسّية في بيانه، كالمحضي، أو حركات اليد والأصابع، فنجدوه ﷺ في أحيان كثيرة يصوّر العدد بصورة مرئية، ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أُمَّةً أُمَّةٌ لَا نَكُبُّ وَلَا نَخْسِبُ، الشَّهْرُ هَكُذا وَهَكُذا وَهَكُذا» وعقد الإيمام في الثالثة «والشهر هكذا وهكذا وهكذا»، يعني تمام ثلاثة^(١).

وفي حديث إيلائه ﷺ بين الشهر كذلك، فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: أقسم ألا يدخل على نسائه شهراً، فمكث تسعه وعشرين يوماً، حتى إذا كان مساء الثلاثاء دخل عليّ، فقلت: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً! فقال: «الشهر هكذا» وأرسل أصابعه كلها وأمسك إصبعاً واحداً في الثالثة^(٢).

وفي حديث سؤال اليهود للنبي ﷺ: قالوا يا أبا القاسم! كم عدد خزنة جهنّم؟ قال: «هكذا وهكذا» في مرّة عشرة، وفي مرّة تسعة^(٣).

ومن بلاغة البيان بالعقد ما روت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نوم محمراً وجهه وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يرددتها ثلاث مرات، وهو يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من زدم يأجوج ومأجوج مثل هذه»

(١) مسلم، في الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤيه الملال، (١٥).

(٢) ابن ماجه، في الطلاق، باب الإماء، (٢٠٥٩).

(٣) الترمذى، في تفسير القرآن، باب سورة المدثر، (٣٣٢٧).

وعقد عشراً^(١) أي ليُرِيهِم مقدار ذلك الموضع المفتوح، والمعنى أنه لم يبقَ بُجُيء الشّرّ إلا اليسير من الزّمن.

٢ - البيان بأحواله

ويقصد به دلالة حاله على المعنى، من فرح وحزن، وغضب وخوف، وإقبال وإدبار وإعراض، فهذه الأحوال لها دلالات كدلالة الألفاظ، فهي قد تُزيل ما في دلالة الألفاظ من غموض، أو تستقلُّ بالمعنى، وتكون بدليلاً عن اللّفظ، حين تكون أقدر على إيصال المعانى إلى القلوب.

وكان الصحابة ينظرون إلى وجه النبي ﷺ، فيعرفون الكثير من المعانى من أحواله، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه عَدَيْ بْنُ حَاتَمٍ رضي الله عنه، وفيه يقول: قال النبي ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ» ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ» ثم أعرض وأشاح ثلَاثاً، حتى ظنَّا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَا بِشَقِّ تَمَرٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةً»^(٢).

لقد أضافت هذه الإشاحة منه ﷺ معنى آخر سوى التّحذير، إنه معنى خوفه من النار، ونقل هذا الخوف للناس ليستشعروا خطرها ومدى شدّتها، وهي أيضاً انتقالاً إلى الصورة الحسية، ونقل الناس إلى هذا المشهد المخيف التي تمثّلت فيه النار، وكان النبي ﷺ ينظر إليها ويرى لظاها، ثم أسع وصرف وجهه كالخائف أن تناهه، فلما رأه الناس انتقل إليهم الخدر الشديد منها.

ومن المشاهد التي رسمها النبي ﷺ ودلّ عليها بأحواله وكانت مُغنية عن أقواله ما روتته عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان إذا عصَفَتِ الرِّيحُ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ» قالت: وإذا تخَيَّلْتِ السَّمَاءَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدَبَرَ، فإذا أَمْطَرْتِ سُرَّيِ عنْهُ فَعْرَفْتَ ذَلِكَ

(١) الترمذى، في الفتن، باب خروج ياجوج وماجوج، (٢١٨٧).

(٢) البخارى، في الرفاق، باب من نوqش الحساب عذب، (٦١٧٤).

في وجهه، قالت عائشة: فسألته فقال: «لعله - يا عائشة - كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلًا أَوْدِتُهُمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْنُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]^(١).

إن تغيير لونه ﷺ وتغيير حاله يشير في النفس ما يثير من معانٍ الخوف والترقب، ثم تأخذنا إيجابته إلى عالم آخر زماناً ومكاناً، تذكرنا بمصارع السابقين وحلول عذاب الله عليهم، وترتبنا شفقة النبي ﷺ على أمته أن يهلكوا كما هلك الأمم من قبلهم.

- ومن دلالة الحال أيضاً، ما كان يظهر على وجهه ﷺ من أمهات الغضب عند رؤيته مخالفة لأمر الله، ولم يكن النبي ﷺ يغضب لنفسه، لكن لاتهاك حرمات الله، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن أبي بكر عن أبيه: أنَّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من بنى عبد الأله على الصدقة، فلما قدم سأله إبلأً من الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرِفَ الغضب في وجهه، وكان مما يُعرف به الغضب في وجهه أن تحرّر عيناه، ثم قال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَسَّأْلُنِي مَا لَا يَصْلُحُ لِي وَلَا لَهُ، فَإِنْ مَنَعْتَهُ كَرِهْتُ الْمَنْعَ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ مَا لَا يَصْلُحُ لِي وَلَا لَهُ» فقال الرجل: يا رسول الله! لا أسألك منها شيئاً أبداً^(٢).

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأنتحر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يُطيل بنا. قال: فما رأيُت رسول الله ﷺ قطُّ أشدَّ غضباً في موضعٍ منه يومئذٍ، قال: فقال «يا أباها النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنْتَقِرِينَ، فَأَئُلُّكُمْ مَا صَلَى بِالنَّاسِ فَلَيَتَحَوَّزُ، فَإِنَّ فِيهِمْ الْمِرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ»^(٣).

ففي هذه الأحاديث نجد النبي ﷺ يبلغ بالحال والقال، فيجمع بين الغضب الشديد والإرشاد بالكلام، حتى صار الغضب مقاماً يحيط بالكلام ويوجه دلالته، ويأخذ بناصية

(١) مسلم، في صلاة الاستسقاء، باب التعود عند رؤية الريح والغيم، (١٥).

(٢) موطأ مالك، في الصدقة، باب ما يكره من الصدقة، (١٨١٩).

(٣) البخاري، في الأدب، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله تعالى، (٥٧٥٩).

المعنى إلى حيث التحذير. ففي إظهار الغضب دلالة بيانٍ تُشعر بالتشديد والتحذير والوعيد، وينقل هذا الحال إلى العقل معنى النهي والتهديد، وإلى النفس الخوف من المخالف، فتُخرج النفس عن مسبب هذا الغضب والانفعال، وتربأ عن الواقع فيه.

ونظيرٌ الغضب إظهار البُشْر والسرور إزاء أمرٍ ما، مما يبعث في النفس الرغبة فيه والتوّق إليه، بل يكون رسالة دلالية تفيد الرِّضا بما حصل، وصاحب هذه الحالة اللفظَ فتوضّحه، وقد تستقلُ بالدلالة دون الكلام.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن العاصٍ رضي الله عنه أنه قال لماً بعثه رسول الله ﷺ عام ذات السَّلَاسِل قال: احتَلَمْتُ في ليلةٍ باردةٍ شديدةً البرد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، فتيمممتُ ثم صَلَّيتُ بأصحابي صلاة الصُّبح، قال: فلماً قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عَمْرو! صَلَّيْتُ بأصحابك وأنت جُنْبٌ!» قال: قلت: نعم يا رسول الله، إني احتَلَمْتُ في ليلةٍ باردةٍ شديدةً البرد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن أهلك، وذكرت قوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» [النساء: ٢٩] فتيمممتُ ثم صَلَّيتُ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يُقل شيئاً^(١).

فسكتوه ﷺ وضحكه مما فعل عبد الله بن عمرو دليلاً بيانيًّا على إقراره ﷺ ما فعله ابن العاص، وإرشادًّا لغيره باتهاب هذا المنهج في الأخذ بالرخصة عند الضرورة، وكان الضحك في هذا المقام بديلاً عن المقال.

وقد علق الإمام ابن حجر على هذا الحديث مبيّناً هذه الدلالة فقال: لم يُلم رسول الله ﷺ عمراً، فكان ذلك تقريراً دالاً على الجواز^(٢)، وقال صاحب (عون المعبد): في الحديث دليل على جواز التيمم عند شدة البرد من وجهين: الأول التبسم والاستبشار،

(١) أخرجه أحمد ٤/٢٠٣، (١٧٨٤٥)، وأبو داود، في الطهارة، باب التيمم، (٣٣٤).

(٢) فتح الباري ٢/٢٦٩.

والثاني: عدم الإنكار، لأنَّ النبي ﷺ لا يقرُّ على باطل، والتبسم والاستبشار أقوى دلالة من السكوت على الجواز^(١).

٣- البيان بالوسائل الخارجية:

المقصود بالوسائل الخارجية الوسائل الإيضاخية الحسية من عصاً أو حصى أو خطأ، أو غير ذلك مما يصور المعنى أمام العين، وينقله على عجل إلى ذهن السامع. ولا خلاف في أهمية الوسائل الإيضاخية في الإقناع والتأثير في المتعلمين، فهي تنقل المعانٍ المجردة في الذهن إلى صور محسّدة الملائم واضحة المعالم.

وقد تنوّعت الوسائل الإيضاخية في أحاديث النبي ﷺ التوجيهية.

- ومن ذلك الاستعانة بالرسم لتجسيم المعانٍ، فقد روى البخاري عن عبد الله قال: خطَّ النَّبِيُّ ﷺ خطًا مربعاً وخطَّ خطًا في الوسَطِ خارجاً منه، وخطَّ خطوطاً صُبَغَاراً إلى هذا الذي في الوسَطِ، من جانبه الذي في الوسَطِ وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محظٌ به - أو قد أحاطَ به - وهذا الذي هو خارجٌ أمرُه، وهذه الخطوط الصغارُ الأعراضُ، فإنْ أحاطَه هذا نَهَشَه هذا، وإنْ أحاطَه هذا نَهَشَه هذا»^(٢)

وهذا المعنى لو نقل عن طريق اللفظ وحسب لأعوز الذهن جهداً كبيراً في تحصيل المعنى، فضلاً عن عدم قدرته على الإحاطة به، فكان الرسم عوناً ونصيراً في تملّك الذهن جزئيات الصورة وتفصيلاتها.

ونظير هذا ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا ثم قال: «هذا سَبِيلُ اللهِ» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سُبُلٌ

^(١) عون المعبود شرح سنن أبو داود .٣٥/٢٨

^(٢) البخاري، في الرقاق، باب في الأمل وطوله، (٦٠٥٤).

متفرقّة، على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعُو إليه» ثم قرأ: «وَأَنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَشْبُعُوا السُّبُلَ» [الأعمام: ١٥٣] لتلك الخطوط^(١)، فيئنَّ كثرة طرقه.

- ومن ذلك استعانته بالحصى في تصوير المعنى، فقد روى الترمذى عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «هل تدرؤن ما هذيه وما هذيه؟» ورمى بحصتين، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذاك الأملُ وهذاك الأجل»^(٢).

بالصورة الحسية بين أنَّ الأملَ بعيد جدًا، والأجلَ قريب جدًا، فأشرك الصحابة في تصور المعنى من خلال معاينة البعد بين الأمرين.

- ومن الوسائل الإيضاحية التي استعان بها النبي ﷺ المشاهدات التي تلازم المعاني، وتعلق الأحكام بها ، فقد روى عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أخذ حريراً بشماله وذهباً بيمينه ثمَّ رفع بما يديه فقال: «إِنَّ هَذِينَ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لِإِنَاثِهِمْ»^(٣).

لقد كان كافياً أن يبيّن الحرمة والحلَّ باللفظ، لكن لا شك أن إبراز متعلقات الحكم للعيان أدعى لاستحضار المعنى.

- ومن استعانته بالمشاهدات الحسية ما رواه جابرٌ بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ مرَّ بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس كفَّته، فمرَّ بمجدهِ أسلَكَ ميتٍ، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ» فقالوا: ما نحبُّ أنه لنا بشيءٍ، وما نصنع به؟ قال: «أَتَحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عبيًّا فيه أنه أسلَكَ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «فَوَاللهِ لَلَّذِي أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»^(٤).

(١) مسنـد الإمام أحمد ١/٤٣٥، (٤١٤٢).

(٢) الترمذى، في الأمثال، باب مثل ابن آدم وأمله وأجله، (٢٨٧٠).

(٣) ابن ماجه، في اللباس، باب لبس الحرير والذهب للنساء، (٣٥٩٥).

(٤) مسلم، في الرهد والرقائق، (٢٩٥٧)، الأسلَك: الكلب صغير الأذن، كفَّته: جانبه.

إنَّ حضور الْفُبُح الحسِّي يجسِّد الصورة ويحضرها لذهن السامع ليبيِّن المعنى أَيُّما تبيَّن، ولو حدَّثُم عن هذا الجُذُّي من خلال التصوير التشبيهي المجرَّد من المثال الحاضر لم يبلغ التأثير وتصوُّر قبح المشبه كما بلغت الصورة المحسوسة.

ومن هذه الصور التوضيحية التربوية ما رواه أنسُ بنُ مالكٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى شَجَرَةٍ يَابِسَةٍ الْوَرْقَ، فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ، فَتَنَاثَرَ الْوَرْقُ، فَقَالَ: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتَسَاقِطُ ذُنُوبُ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقِطُ وَرْقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»^(١).

إنَّ صورة تساقط ورق الشجرة وتكافُتها يستحوذ على الخيال وعلى الذهن لتشرق صورة الغفران والعفو عن العبد، في صورة حيَّةٍ حركيَّةٍ متتابعةٍ تدعم معانِي الألفاظ وترسخها في النفس، لتحثُّ العبد على المحافظة على هذا الدُّعاء والتسبِّيح والتهليل.

لقد تبيَّنَ من هذه النماذج البيانية أثر الوسائل الإيضاحية في تبيان اللفظ، ودورها في حمل المعاني، فهي جزءٌ من السياق والمقام المحيط بالألفاظ، وهي جزءٌ من عالم البلاغة إنَّ لم تكن من عالم الألفاظ.

١٠ - حُسْنُ الإِيجَاز :

من أبرز خصائص كلامه ﷺ الإِيجَازُ. وقد فاق بذلك أَفْصَحُ الفصحاءِ من الناس، وكان ذلك مِنْحَةً من الله تعالى له، فـ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قد أُوتِيتُ جِوامِعَ الْكَلِمِ وَخَوَاقِهِ وَاحْتَصِرْ لِي اخْتِصَارًا»^(٢).

وقدِّيماً وصف الجاحظ كلامَ النَّبِيِّ ﷺ بِأنَّه: الْكَلَامُ الَّذِي قَلَّ عَدْدُ حُرُوفِهِ، وَكَثُرَ عَدْدُ معانِيهِ، وَجَلَّ عَنِ الصَّنْعَةِ، وَنُزِّهَ عَنِ التَّكَلُّفِ^(٣).

^(١) الترمذى، في الدعوات، (٣٥٣٣).

^(٢) رواه أبو يعلى كما في جمجمة الروايد، ٢٢٣/١، (٨٥٧).

^(٣) البيان والتبيين ٢/١٧.

والإيجاز عند البلاغيين «هو المختار في الفصاحة، والدال على البلاغة»^(١)، فقد ذهبوا إلى أن البلاغة «قول يسير يشتمل على معنى خطير، وأبلغ الكلام ما حسنه إيجازه، وقلّ مجازه، وكثُر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه»^(٢).

وقد نوه الرافعي بأنّ «اجتماع الكلام مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكُلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزاءه، وأن يكون ذلك عادةً وخلقاً يجري عليه الكلام في معنى معنى، وفي بابٍ بابٍ شيء لم يعرف في هذه اللغة لغيره بِهِ»^(٣).

ذلك لأنّ كلامه بِهِ مبنيٌ على ثلاثة: الخلوص والقصد والاستيفاء؛ فأمّا الخلوص فهو في أسلوبه ولغته، وأمّا القصد والإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ في معانيها، فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية، وأمّا الاستيفاء فهو القائم على حذف فضول الكلام وإحكامه ووجازته، فيخرج الكلام مبسوط المعنى بأجزائه دون اضطراب، حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما زُجّت تركيباً على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه وطبيعته في النفس.

ولا جتماع تلك الثلاثة في كلامه بِهِ وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والوعي والخطأل، ولذلك السبب عينه كثر في البلاغة النبوية هذا النوع من الكلم الجامحة التي هي حكمة البلاغة^(٤).

فالإيجاز إذاً هو امتلاك لخاصية اللغة، وقدرة فائقة على التعبير، وهو أصلح للحفظ والتمثيل، وقد أشار ابن حني إلى ظاهرة الإيجاز وبعد الإفهام المتعلق به فقال: «قيل لأبي

^(١) انظر سر الفصاحة ص ٢٠٧ .

^(٢) العمدة ٢٤٩/١ وزهر الآداب ٤٨/١ .

^(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠٠ .

^(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٤٠-٣٣٨ بتصرف.

عمرو بن العلاء: أكانت العرب تُطيل؟ فقال: نعم لتبلغ، قيل: أفكانت توجز؟ قال: نعم لِيُحْفَظَ عَنْهَا»^(١).

وقد نبه ابن وهب إلى هذه الغاية أيضاً في حديثه عن الموضع التي يحسن فيها الإيجاز، إذ جاء منها: «المواعظ والوصايا التي يراد حفظها ونقلها، ولذلك لا نرى في الحديث عن رسول الله ﷺ والأئمة شيئاً يطول، وإنما يأتي على غاية الاقتصار والاختصار»^(٢).

- ويتطلب حسن الإيجاز أموراً لا تتأتى لكل بلغ، منها:
- حدة الذهن وإرهاف الحس البصري.
 - إدراك أحوال المخاطبين.
 - معرفة تامة بدلالة المفردات.

وقد اجتمع ذلك للنبي ﷺ على أتم وجه. وللن حفظ تاريخ القول نماذج من الإيجاز في الجاهلية وصدر الإسلام وما بعدها فإنما قلما حللت من التكليف، أو الصدق في البيان، وهذا ما جعل الإيجاز في كلامه ﷺ قليل النظير في كلام البشر، لأنه من مشكاة النبوة ومعين الوحي.

وخلاله القول، فإن الإيجاز سمة عامة غالبة في حديثه ﷺ «فقد كان ﷺ يُحدّث حديثاً لو عَدَ العاد لأحصاءه»^(٣) وهذه السمة الغالبة في حديثه أنتجت حِكْمَةً عالية جامعة هي (جوامع الكلم) التي عرّفها العلماء بأنها: الكلام الجامع للمعاني الكبير في الكلمات القليلة، ولو أراد أحد أن يشرح الجملة القصيرة منه جمع تحتها ألواناً من المعاني والأفكار.

^(١) الخصائص ٨٣/١.

^(٢) البرهان في وجوه البيان ٩٧/١.

^(٣) البخاري، في المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٣٧٤).

وما أحسن قول العقاد: «ألا إنَّ الإِبْلَاغَ أَقْوَى الإِبْلَاغِ فِي كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ اجْتِمَاعُ الْمَعَانِي الْكِبَارُ فِي الْكَلَمَاتِ الْقِصَارِ، بَلْ فِي اجْتِمَاعِ الْعِلُومِ الْوَافِيَةِ فِي بَعْضِ الْكَلَمَاتِ، وَقَدْ يُبْسِطُهَا الشَّارِحُونَ فِي مُجْلِدَاتٍ»^(١).

وأمثلة هذا الضرب في كلامه كثيرة، والوقوف على تفاصيل معانيها يقصر المقام عنه، لذا نكتفي بذكر بعض الأمثلة، ونفتح لطالب العلم باب الدرس البلاغي واستنباط المعانى الوافرة.

ومن أروع الأمثلة على جوامع الكلم الأحاديث التي عليها مدار الإسلام وهي:
- حديث عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلَكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَاتَ هَجْرَتَهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ هَجَرَ إِلَيْهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأٌ يَتَزَوَّجُهَا فَهُوَ هَجَرَ إِلَيْهِ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

قال الشافعي: إنه يدخل فيه نصف العلم، وقال غيره من أهل العلم: هذا الحديث ثُلُثُ الإسلام.

والثالث الثاني ما رواه النعمان بن بشير أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَهَاهٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبَرَّ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعِي حَوْلَ الْحِمَى يُوشِلُّ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لَكُلِّ مَلِكٍ حَمَىٰ، أَلَا وَإِنَّ حَمَىَ اللَّهُ مَحَارِمٌ»^(٣).

قال: والثالث الثالث: ما رواه مالك عن ابن شهابٍ عن عليٍّ بن حسين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حُسْنَ إِسْلَامٍ الْمُرِءُ تَرُكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٤).

(١) عبقرية محمد - ٨٨ - ٨٩، بتصرف يسير جداً.

(٢) البخاري، في الإيمان، باب ما جاء أنَّ الأعمال بالنية الحسنة، (٥٤).

(٣) مسلم، في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (١٠٧١).

(٤) ابن ماجه، في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، (٣٩٧٦).

ومنها حديث «كفى بالسلامة داء»^(١).

وعن سُفيان بن عبد الله قال: قلت: يا رسول الله، قُل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قُلْ أَمِنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ»^(٢).

و«الكيسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَيَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَّنَ عَلَى اللَّهِ»^(٣).

ومنها قوله للأنصار: «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَرَزِ وَتَقُولُونَ عِنْدَ الْجَحْيِ»^(٤).

و«صَنَاعُ الْمَعْرُوفِ تَقِيُّ مَصَابِعِ السُّوءِ»^(٥).

و«مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَا كَثُرَ وَأَلْمَى»^(٦).

و«الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِبِهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٧).

و«الْيَدُ الْعَلِيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ مِنْ تَعْوُلٍ»^(٨).

و«رَحْمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أَوْ سَكَّتَ فَسَلِّمَ»^(٩).

(١) مسند الشهاب القضاعي ٣٠٢/٢، (٣٦١). قال المناوي: «لأن سلامة العبد في نفسه وماله وأهله من المصائب تورثه البطر والعجب والكبير، وتنسيه الآخرة، وتحبب إليه الدنيا». التيسير بشرح الجامع الصغير ٤٠٤/٢.

(٢) مسلم، في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، (٦٢).

(٣) الترمذى، في صفة القيامة والرفاق والورع، (٢٤٥٩).

(٤) أخرجه العسكري في الأمثال كما في جامع الأحاديث ٢٠٥/٣٣، (٣٦٠٦٨).

(٥) المعجم الكبير، باب صدي بن العجلان، (٨٠٤).

(٦) مسند الفردوس ١١٧/٤ والمعجم الأوسط للطبراني ٣/٧٧.

(٧) البخاري، في الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، (٢٦٩٥).

(٨) البخاري، في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، (١٣٦١).

(٩) مسند الشهاب القضاعي ٣٣٨/١، (٥٨١).

و«يَعْمَلُنَّ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ؛ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

و«حُجِّبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِّبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(٢).

و«إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٣).

و«إِلَّا حَسَانٌ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَائِنَكَ تَرَاهُ، إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَكَ»^(٤).

و«تَجِدُونَ النَّاسَ كَيْابِلَ مِنْهُ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(٥).

و«الْمُتَشَبِّغُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسٍ ثَوَيَ زُورٍ»^(٦).

و«مَطْلُوكُ الْغَنِيٌّ ظُلْمٌ»^(٧).

و«دَعْ مَا يَرِيُّكَ إِلَى مَا لَا يَرِيُّكَ»^(٨).

و«أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انتِظَارُ الْفَرَجِ»^(٩).

و«إِنَّكُمْ لَا تَسْعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَلَيُسَعِّهُمْ مِّنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(١٠).

(١) البخاري، في الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ، (٦٠٤٩).

(٢) البخاري، في الرقاق، باب حجب النار بالشهوات، (٦١٢٢).

(٣) البخاري، في الأدب، باب إذا لم تستحب فاصنع ما شئت، (٥٧٦٩).

(٤) البخاري، في التفسير، باب سورة {أَلَمْ غَلِبتِ الرُّومُ}، (٤٤٩٩).

(٥) مسلم، في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قوله ﷺ: (الناس كيابل مئة)، (٢٣٢).

(٦) مسلم، في اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيرها، (١٢٦).

(٧) البخاري، في الاستعراض، باب مطل الغني ظلم، (٢٢٧٠).

(٨) النسائي، في الأشربة، باب الحث على ترك الشبهات، (٥٧١١).

(٩) الترمذى، في الدعوات، باب في انتظار الفرج، (٣٥٧١).

(١٠) مسنن إسحاق بن راهويه، ٤٦١/١، (٥٣٦).

و«انصُر أَحَادِيكَ ظَالِمًا أو مَظْلومًا»^(١).

و«الْحَيَاةُ شُعَبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢).

و«الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْنَانِ يُشَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٣).

ولأهمية ما ورد عنه ﷺ من تلك الجوامع، عني العلماء بجمعها، ومنهم القفال الشاشي في كتابه (جوامع الكلم) الواقع في خمسة عشر باباً وخاتمة. ومنها (الأربعون النووية) إذ جمع الإمام النووي الأحاديث التي قيل إنها تجمع أمور الإسلام. إضافة إلىأربعينيات غيرها، وقد اشتهرت أربعينية النووي أكثر من غيرها، وكثرت شروحها حتى لا تختصى.

١١ - قوة التأثير

من أدلّ دلائل قوّة البلاغة قدرة المتكلّم على إيصال المعاني إلى ذهن المتلقّي، بلّغ قلبه وخياله، حتى تتملّك نفسه وتحيمن على شعوره، فتسري في كيانه، لتوجّه فكره وتغذّي يقينه، إلى أن تصبح هي الحركـة العفويـة لجوارحه.

إنما البلاغة النبوية التي ملكت قلوب الصحابة، بل قلوب الأمة، فحوّلتها من أمّة أميّة غارقة في جاهليّة جهلاء إلى أمّة حاملة لواء الحضارات.

ولنندع الصحابة يحدثوننا عن بلاغة التأثير وأحوال التلقّي للبيان النبوبي.

فعن حنظلة الأنصاري قال : لقيني أبو بكرٍ فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبّحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنّار

(١) البخاري، في المظالم، باب أعن أَحَادِيكَ ظَالِمًا أو مَظْلومًا، (٢٣١١).

(٢) النسائي، في الإيمان وشرائعه، باب ذكر شعب الإيمان، (٥٠٠٦).

(٣) البخاري، في المظالم، باب نصر المظلوم، (٢٣١٤).

والجنة حتى كأنما رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافستنا الأرواح والأولاد والضياعات، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنّا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكرٍ حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنما رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافستنا الأرواح والأولاد والضياعات نسينا كثيراً. فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشتم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات^(١).

وعن العرياض بن ساري قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بلغة درفت منها العيون ووحلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «تركتم على البيضاء، ليها كهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهددين، عصموا عليها بالتواجد، وعليكم بالطاعة وإن عبداً خبيثاً، فإنما المؤمن كالحمل الأنف حيثما قيد انقاداً»^(٢).

ومن هنا لا يمكن إنكار خصوصية البلاغة النبوية بين غيرها من البلاغات، فهي بلاغة وحي، وبيان نبوة.

وقد تأثر التأثير البالغ في هذا البيان من أمرين:

(١) مسلم، في التوبية، باب فضل دوام الذكر والفكير في أمور الآخرة والمراقبة، (٢٧٥٠).

(٢) ابن ماجه، المقدمة، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهددين، (٤٣). الأنف: أي المأوف، وهو الذي عقر أنفه فلم يمتنع على قائله. حيث قيد انقاد: لا ينفر.

١ - براءة الرسول ﷺ اللغوية والبيانية، فقد ملّكه الله تعالى ناصية اللغة وقياد البيان، فوظفهما في أداء المعنى وتحفيظ المخاطب لحسن التلقي للمضامين الإلهية. وتلك هي البلاغة التي عرّفها بعضهم بأنها «إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»^(١).

٢ - الصدق الشعوري للرسول ﷺ على وجه لم يتوفّر لبشر، فناتي الألوان البلاغية معبرة عن المقصود أكمل تعبير وأصدقه، وهو ما يوثق الارتباط بين المبدع والمتلقي. ولا يخفى أنَّ الصدق الشعوري مع قوة الإحساس بالمعنى من الأمور البلاغة التأثير في جموع المخاطبين. ولا يتأتّي لبشر أن يتحدث عن غيرِ بالصورة الشعورية التي تحدث بها إلا رسول الله ﷺ، وإنَّه من السهل التأثير المؤقت بالسامعين من خلال التعبير الصادق الجميل، لكن الفضيلة تكمن في استمرار التأثير، بل تزايده على مدى الأيام، وهذه هي ميزة الكلم النبوي التي أوتها ﷺ.

١٢ - اجتماع الغاية التعليمية التبلغية مع الغاية الامتناعية والإقناعية

إنَّ الحديث النبوي الشريف خطاب تعليمي يحقق الغايات التشريعية والتبيينية، وجمعُ الحديث بين التعليم والإمتناع والإقناع تحت مظلة التبليغ جعل له خصوصيةٌ بين أنواع الخطاب المختلفة.

فرسالة التعليم التبلغية طبعت خطاب النبي ﷺ بطابع خاص تجلّت فيه شخصيته من جهة، وطبيعة الدعوة التي أُرسِل بها من جهة أخرى.

وطريقته في التعليم لم تكن تنظيرية أو إلقاءية بعيدة عن كينونة المخاطب أو غريبة عن قلبه وعقله وروحه، بل كان ﷺ مع أصحابه خير معلم وأرفق مبلغ - «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بَنْزَةٌ

^(١) العمدة في محسن الشعر: ٢٤٩/١.

الوالد»^(١) – إذ كان معهم في حُلُّهم وترحَّلهم، في عُسْرهم ويسْرهم، في سوقهم ومسجدهم، فكان يسألهم ويُشرِّكهم، ويُشَوّقهم إلى الجواب، ويفاجئهم بقلب مفاهيم ألقواها واعتادوها، فيستثير عواطفهم ويُشحدُ أذانهم، وبغفوية وبداهة يستمر كل موقف يعرض، وكل فرصة تسنح لتعليمهم ما يفيدُهم للترقي بهم، وهو مع ذلك كله رفيقُهم، حريصٌ عليهم.

وقد سلف أن بَيْنَ استعماله الوسائل البينية الإيضاحية بأنواعها المختلفة في سبيل توضيح ما يريد تبليغه، وهناك جوانب أخرى تتجلى من خلالها الغايات التعليمية والإقناعية والإمتاعية:

– كان ﷺ يسلك طريق التشويب والإغراء بالخير من خلال إلقاء سؤال، وإثارة النفس لمعرفة الجواب، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ؟» قلنا: نعم، قال: «فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بَهِنَّ أَحَدُكُمْ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ»^(٢).

وعن سعدٍ قال: كَنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أَيُعِجزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُسبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةً؟» فسألَه سائلٌ من جلسائه: كيف يَكُسبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةً؟ قال: «يُسْبِّحُ مِعْةً تَسْبِيحَةً فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يَحْطُّ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةً»^(٣).

– وقد يُشَوّقُهم إلى معرفة أمر من خلال الإلماح إليه، فتتوق نفوسهم إلى معرفته. ومن ذلك ما رواه أنسٌ رضي الله عنه قال: مُرِّ على النبي ﷺ بجنازَةٍ، فأثثوا عليها خيراً. فقال: «وَجَبَتْ»، ثم مَرُوا عليه بآخرِي، فأثثوا عليها شرّاً، أو قال غير ذلك، فقال :

(١) أبو داود، في الطهارة، باب كراهة استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، (٨).

(٢) مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وتعلمه، (٨٠٢). خلفات: الخلفات الخوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدتها، ثم هي عشار، والواحدة خلفة وعشراء.

(٣) مسلم، في الذكر والدعاة والتوبية، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (٢٦٩٨).

«وَجَبَتْ»، فقيل: يا رسول الله، قلت هذا: وجَبَتْ، ولهذا: وجَبَتْ؟! فقال: «شَهادَةُ الْقَوْمِ،
الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

وعن عمرانَ بنِ حُصَيْنٍ رضيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «عَشْرُ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «عِشْرُونَ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ». قَالَ: وَفِي شَاهِدٍ لَهُذَا الْحَدِيثِ عَنْ مَعاذِ بْنِ أَنَسِ الْجَهَنِيِّ رضيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: ثُمَّ أَتَى آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ، فَقَالَ: «أَرْبَعُونَ»، ثُمَّ قَالَ: «هَكَذَا تَكُونُ الْفَضَائِلُ»^(٢).

- ومن ذلك التشويق إلى معرفة ما ينبغي محاذيره وتجنبه، وذلك فيما رواه أبو ذرٌّ رضيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: انتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ فِي ظَلِّ الْكَعْبَةِ: «هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» قَالَتْ: مَا شَأْنِي؟ أَيُّرِي فِي شَيْءٍ؟ فَجَلَسَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُنَ وَتَغْشَأَنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقَلَتْ: مَنْ هُمْ بِأَيِّ أَنْتَ وَأَمْيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا»^(٣) يَعْنِي عَنْ يَمِينِهِ وَشَمَائِلِهِ وَبَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَرِيدُ: صِرَاطَ مَالِهِ عَلَى الْمُسْتَحْفِفِينَ وَفِي وُجُوهِ الْخَيْرِ.

- ومن ذلك تكرار الأمر للتنبيه إلى خطورته:

فَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضيَ اللهُ عنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَنْبَئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ - ثَلَاثًا -؟ قَالُوا: بَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكَبِّرًا فَقَالَ: «أَلَا وَقُولُ الرُّؤْرُ» فَمَا زَالَ يَكْرِزُهَا حَتَّى قَلَنَا: لِيَتَهُ سَكَتْ»^(٤).

(١) البخاري، في الشهادات، باب تعديل كم يجوز، (٢٤٩٩).

(٢) أبو داود، في الأدب، باب كيف السلام، (٥١٩٥) و (٥١٩٦).

(٣) البخاري، في الأيمان والذور، باب كيف كانت يمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (٦٢٦٢).

(٤) البخاري، في الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور وكتمان الشهادة، (٢٥١١).

- ويتعرض - أحياناً - لأمر خطير فيمهد له بطرح أمرٍ مستغرب ليصل بهم إلى المعنى المراد بعد أن تاقت نفوسهم إليه. ومن ذلك ما رواه عبدُ اللهِ بنُ عمّرو عن النبيِّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالدِّيَهُ» قيل: يا رسولَ اللهِ، وكيفَ يلعنُ الرجلُ والديه؟ قال: «يُسَبِّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فِي سَبِّ أَبَاهُ، وَيُسَبِّ أَمَّهُ فِي سَبِّ أُمَّهُ»^(١).

وكذا حديثه رضيَ اللهُ عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثَهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسولَ اللهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخْرَى»^(٢).

- ونراه في كثير من الأحيان يسلك طريق التشویق من خلال الإلغاز وشحد الأذهان والإمتاع، وصولاً إلى ما يريد إيصاله من معانٍ.

ومن ذلك ما رواه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرْقُهَا، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ؟» فوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي. قال عبدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدَّثَنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ. قال: «هِيَ النَّخلَةُ»^(٣).

ومنه ما رواه النسائي: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سَبَقَ دِرْهَمٍ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ» قالوا: وكيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمٌ، تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانطَّلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُزْرُونِ مَالِهِ فَأَخْذَ مِنْهُ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا»^(٤).

- وقد يسلك طريق الجوار وإعمال العقل بالقياس لتوضيح المعنى والإقناع بما لم تتألفه النفوس أو تعهده، ثم الإمتاع وتسكين القلوب لما أرشدتها إليه البيان النبوى.

^(١) البخاري، في الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، (٥٦٢٨).

^(٢) البخاري، في الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، (٦٠٧٧).

^(٣) البخاري، في العلم، باب قول الحديث حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا، (٦١).

^(٤) النسائي، في الزكاة، باب جهد المقل، (٢٥٢٧).

ومن ذلك حديث الأعرابي^(١)، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ، فقال: إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسوداً، فقال: «هل لك من إيلٍ؟» قال: نعم، قال: «ما ألوأها؟» قال: حُمْرٌ، قال: «هل فيها من أورق؟» قال: إنَّ فيها ورقاً، قال: «فإنَّ ثري ذلك جاءها؟»، قال: يا رسول الله، عرقٌ نزعها. قال: «ولعلَّ هذا عرقٌ نزعها»^(٢).

ومنه ما رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه أنَّ فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أئذن لي بالرِّزق، فأقبل القوم عليه فرَجروه وقالوا: مَهْ، فقال: «أذنْهْ» فدنا منه قريباً، فجلس. قال: «أتحبُّه لآمِّك؟» قال: لا والله، جعلني الله فدائِك. قال: «ولَا النَّاسُ يحبُّونَ لِأَمَّهَاكُمْ» قال: «أفَتُحِبُّه لابنِك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فدائِك. قال: «ولَا النَّاسُ يجدُونَه لِبَنَاتِهِمْ» قال: «أفَتُحِبُّه لأخِّك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فدائِك. قال: «ولَا النَّاسُ يحبُّونَ لأخِّهِمْ» قال: «أفَتُحِبُّه لعَمَّهِمْ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فدائِك. قال: «ولَا النَّاسُ يحبُّونَ لخالِهِمْ» قال: فوضع يده عليه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وطَهُرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» فلم يُكُنْ الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء^(٣).

وعن ابن عباس قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال له: إنَّ أختي ندرت أن تتحجَّ، وإنَّها ماتت؟ فقال: «لو كَانَ عَلَيْهَا دِينٌ أَكْنَتْ قاضِيهِ؟» قال: نعم، قال: «فإِنْهُ اللَّهُ، فَهُوَ أَحَقُّ بالفَضَاءِ»^(٤).

^(١) البخاري، في الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب من شَبَهَ أَصْلَهُ مَعْلُوماً بِأَصْلِ مَبْيَنِهِ، (٦٨٨٤) ومسلم، في اللعان، (١٥٠٠).

^(٢) مسند الإمام أحمد: ٢٥٦/٥.

^(٣) البخاري، في الأيمان والنذور، باب من مات وعليه نذر، (٦٣٢١).

- ونراه يتدرّج بهم في التعليم من خلال محاورتهم واستجواهم في حادثة تعرض ليكشف لهم أنَّ الأمر على خلاف ما قد يظنو.

ومن ذلك ما رواه سهلٌ رضي الله عنه قال: مَرْ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرَيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمِعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرَيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَلَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَلَا يُسْتَمِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلُ هَذَا»^(١).

- وكثيراً ما غير النبي ﷺ مفاهيم الفوها بطريقة تقنع العقل وتمتع النفوس، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ الْلُّقْمَةُ وَاللُّقْمَاتُ وَالثَّمَرَةُ وَالثَّمَرَاتُ» قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَجِدُ غَنِيًّا يُغْنِيهِ، وَلَا يَفْطَنُ لَهُ فَيَتَصَدِّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا»^(٢).

وقوله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مِنَاعَةَ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاطَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةً، وَيَأْتِي وَقْدَ شَتَّمَ هَذَا، وَقَدَّفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَقَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعَطِّي هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فِيتَ حَسَنَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أَخْدَى مِنْ خَطَايَاهُمْ فَفُطِرَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٣).

^(١) البخاري، في النكاح، باب الأكفاء في الدين، (٤٨٠٣).

^(٢) البخاري، في الزكاة، باب قول الله تعالى: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا حَافَ»، (١٤٠٦). ومسلم، في الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، (١٠٣٩). واللفظ مسلم.

^(٣) مسلم، في البر والصلة والأداب، باب تحريم الظلم، (٢٥٨١).

- ويستثمر الحوادث والمواقف، وبعفوئيةٍ وبداهةٍ يرتفق بهم إلى الحكم الذي يريد تبليغهم إياه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته ، فألصقته بيطها وأرضعته ، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدتها في النار؟» قلنا: لا ، وهي تقدر على إلا تطريحه ، فقال: «للله أرحم بعياده من هذه بولدها»^(١).

وروى عن البراء رضي الله عنه قال: أهدى للنبي ﷺ ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه ، فقال: «أتعجبون من هذا؟» قلنا: نعم ، قال: «مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا»^(٢).

- وهو مع ذلك كله يصوّر المعاني بالمعهودات القريبة ، فيُتضَح المعنى راسحاً في العقل ، مؤثراً في القلب .

من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أنّ هرماً بباب أحدكم يغسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من ذرته شيء؟» قالوا: لا يبقى من ذرته شيء . قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهم الخطايا»^(٣).

وعن المستورِد بن شدادٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه - و أشار يحيى بالسبابة - في اليم ، فلينظر تم ترجمة»^(٤).

^(١) البخاري ، في الأدب ، باب رحمة الولد و تقليه و معانقته ، (٥٦٥٣).

^(٢) البخاري ، في اللباس ، باب من مس الحرير من غير لبس ، (٥٤٩٨).

^(٣) مسلم ، في المساجد و مواضع الصلاة ، باب المشي إلى الصلاة ... (٦٦٧).

^(٤) مسلم ، في الجنة و صفة نعيمها ، باب فناء الدنيا و بيان الحشر يوم القيمة ، (٢٨٥٨).

هذه نماذج محدودة من السنة النبوية تُظهر تميُّز الخطاب النبوي، وبراعة النبي ﷺ في
نحوه التعليمي الذي جمع بين الإقناع والإمتناع ضمن إطار تعليمي فريد.



الفصل الثالث

موقف النبي ﷺ من الشّعر والشّعراء

المبحث الأول: موقف النبي ﷺ من الشعر

المبحث الثاني: موقف النبي ﷺ من الشعراء



مدخل:

الشعر ملَكة فطرية تعتمد على أمرتين؛ قدرة لغوية وبيانية، وإحساس جمالي مرهف، وقد امتلك النبي ﷺ الأمرين كليهما، وبلغ فيهما الذروة، فهو أفعى الفصحاء وأبلغ البلغاء، ملُكُه الله ناصية اللغة ومسالك البيان، يوجههما حيث شاء في سبيل التبليغ والتعليم، وأما الإحساس الجمالي فهو عنده ﷺ بال محل الأوّل والمرتبة التي لا تُدان، فقد كان ﷺ متأملاً قبلبعثة متفكراً، ففي رعيه الغنم وتحثته في غار حراء عاش في أحضان الطبيعة، وتذبذب في ملوكوت الله، ثم بعد البعثة كان متعاملاً مع من حوله بما جبله الله عليه من رأفة ورحمة، «فِيمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا عَلِيِظَ الْقُلُوبِ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَارِذُهُمْ فِي الْأَمْرِ» [آل عمران: ١٥٩] «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ» [التوبه: ١٢٨] وفي هذا التعامل تجلّى رهافة الحس وإشفاق القلب.

لقد امتلك ﷺ الأداة البيانية ومقوماتها، ولكنه لم يكن من الشعر في شيء، وعلمه الله تعالى ما لم يكن يعلم في حين نَرَهُه عن علم الشعر في قوله: «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ وَمَا يَبْغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَفُرْقَانٌ مُبِينٌ» [يس: ٦٩].

واستمع النبي ﷺ إلى الشعر في بيته كان الشعر شرفاً يتسابق لنيله البلوغ، واستحسنه حين قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سُحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمًا»^(١).

وللإحاطة بتلك الجوانب المتعددة لهذا الموضوع يلزم تقسيمه إلى مباحثين:

١ - موقف النبي ﷺ من الشعر.

٢ - موقف النبي ﷺ من الشعراء.

^(١) سنن أبي داود، في الأدب، باب ما جاء في الشعر، (٥٠١١).

المبحث الأول

موقف النبي ﷺ من الشعر

ونتناول فيه جانبيين: موقعه من كلامه ﷺ، وموقفه من قول الشعر.

أ— موقعه من كلامه ﷺ:

لم يكن النبي ﷺ على فصاحته ورهافة حسنه وبُعد خياله وصدق انفعالاته شاعرًا بحال من الأحوال، ومع ذلك كان متذوقاً للشعر الملتزم بمضمون شريف غاية التذوق، مقرضاً معانيه تارةً، مستحثناً عليه، متمثلاً به تارةً أخرى.

وأهم ما ينطلق منه البحث في هذا الأمر قوله تعالى: «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ وَمَا يُبَغِّي لَهُ» [يس: ٦٩] وهل تضمن قوله تعالى: «وَمَا يُبَغِّي لَهُ» نفي علمه إنشاء الشعر، أم نفي إمكان إنشاده؟ وما علة ذلك؟ وما الحكمة منه؟

ويتفرع الكلام إلى ناحيتين: الأولى: إنشاء النبي ﷺ الشعر، والثانوية: إنشاد الشعر وتمثيله به.

تعددت أقوال المفسرين في معنى قوله تعالى: «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ وَمَا يُبَغِّي لَهُ»، وتظاهرت على أن الآية تنفي ادعاء المشركين كون القرآن شرعاً قاله النبي ﷺ.

قال الزجاج^(١): «معنى «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ»: وما علمناه أن يشعر، أي ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر، وحسنه النحاس وقال: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل: إنما خير الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً»^(٢).

^(١) إعراب القرآن ٤٠٥/٣ .

^(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣ / ٤٨٣ .

وقال الألوسي: «ومراد من نفي تعليمه ﷺ بتعليم الكتاب الشعر نفي أن يكون القرآن شعراً على سبيل الكنية، لأنَّ ما علِّمه تعالى هو القرآن، وإذا لم يكن المعلم شعراً، لم يكن القرآن شعراً البتة»^(١).

وبين صاحب (التحرير والتنوير) المراد من الآية بقوله: «فالمعنى أنَّ القرآن ليس من الشعر في شيء، فكانت هاته الجملة ردًا على قولهم: هو شاعر على طريقة الكنية، لأنَّها انتقال من اللازم إلى الملازم، ودلَّ على أنَّ هذا هو المقصود من قوله تعالى: «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ» قوله عَقِبَةُ: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» [يس: ٦٩] أي ليس الذي علِّمناه إِيَّاهُ إِلَّا ذِكْرًا وَقُرْآنًا، وما هو بـشَعْرٍ، فالتعليم هنا بمعنى الوحي، أي وما أوحينا إِلَيْهِ الشَّعْرُ، فقد أطلق التعليم على الوحي في قوله تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» [النَّجْم: ٤]، «عَلَمَهُ شَدِيدُ الْفُؤُى» [النَّجْم: ٥]، وقال: «وَعَلَمْتُكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» [النَّسَاء: ١١٣] فمعنى «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرَ» وما أوحينا إِلَيْهِ شعراً علِّمناه إِيَّاهُ»^(٢).

فمُحمل القول في معنى الآية هو أنَّ القرآن ليس بـشَعْرٍ، وأنَّ النبي ﷺ ليس بشاعر. أما نفي إنشائه ﷺ للشعر فمستفاد من قوله تعالى: «وَمَا يَنْبَغِي لَهُ» قال أهل التفسير: أي ما يتَسَهَّلُ له قول الشعر لا الإنشاد، وهي ظاهرة في أنه عليه الصَّلاة و السَّلام لم يُعطِ طبيعةً شعريةً، اعتمادًّا بشأنه ورفعاً لقدرته، وهو لا يتأتَّي له^(٣).

و تبرز هنا مسألتان يلزم الوقوف عندهما:

١ - هل أنشأ النبي ﷺ كلاماً يمكن أن يُعدَّ شعراً؟

٢ - ما علة الإشكال في قضية إنشاء الشعر.

^(١) روح المعاني ٤٦/٨.

^(٢) التحرير والتنوير ٢٢/٢٦٢-٢٦٣.

^(٣) انظر: معاني القرآن ٤/٢٩٢ وروح المعاني ٨/٧٤ والتحرير والتنوير ٢٢/٢٦٧.

أما إنشاؤه الشعري؛ فقد روى الإمام البخاري أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ قال يوم حنين لمن تفرق عنده أصحابه، فاقتصر مع نفر قليل منهم قبل العدو قائلاً:

أَنَا أَبْنَى عَبْدُ الْمُطَّلِبِ^(١) أَنَا الَّذِي لَا كَذِبٌ

وروى النسائي بسنده إلى جابر رضي الله عنه: أنكحت عائشة ذات قرابة لها رجلاً من الأنصار، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ: «أَهَدَيْتُمُ الْفَتَاهَ؟ أَلَا يَعْشُمُ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ:

أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَاكُمْ^(٢) أَتَيْنَاكُمْ فَحَيَاكُمْ

وقد ذُمِيتُ أَصْبَعُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ في بعض المشاهد فقال:

وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتَ^(٣) وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتَ

وباستطلاع هذه الأخبار المروية ووضعها إزاء ما سلف بيانه في تفسير قوله تعالى:

(وَمَا عَلِمْنَاهُ شِعْرًا وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) يلزم التوفيق وإزالة التعارض.

فنقول: أحب العلماء على ذلك بأقوال:

- منها : أنَّ ما كان يجري على لسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ هو عبارات توافق وزن الرجز، وفي عُرف العرب: الرجز أهون الشعر ، بل إنَّ فحول الشعراء كانوا لا يعدُون الرجز شعرًا لسهولة قوله وسداحة إقامة وزنه. على أن الخليل بن أحمد ما كان يُعدُّ المشطور من الرجز شعرًا، ويدهب إلى أنه من قبيل المسجع.

(١) البخاري، في الجihad والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، (٢٧٠٩).

(٢) سنن النسائي الكبير، كتاب النكاح، باب للهو والغناء عند العرس، (٥٥٦٦).

(٣) البخاري، في الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز وما يكره منه، (٥٧٩٤).

والرجز - كما قال الرافعي - «إنما هو وزن كأوزان السجع، وهو يتّفق للصّيّان والضعفاء من العرب، يتراجون به في عملهم وفي لعبهم وفي سوقهم، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء، فقد يتّسق لهم الرجز الكثير عفواً غير مجهود»^(١).

- ومنها: أنَّ هذا الكلام المتفق وزنه مع الشعر من غير صنعة أو تكُلُّفٍ خالٍ من القصد إلى نظمه بوزن مخصوص، وكثير منه يقع في إنشاءات الناس من الخطب والمحاورات دون تعمُّد الوزن، فالواقع في أوزان البحور غير عزيز التأيي، سواء في كلام العائمة أم في كلام الفصحاء^(٢).

فاما ما في كلام العائمة فإنه - كما قال الجاحظ - «لو أنَّ رجلاً من الباعة صاح: مَن يشترى باذْبَحَانْ، لقد كان تكلم بكلام في وزن (مُسْتَفْعِلُونَ مَفْعُولَانَ) - وهو من منهوك المنسرح - وكيف يكون هذا شعراً وصاحبها لم يقصد إلى الشعر، ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام».

وقال: وسمعت غلاماً لصديق لي وكان قد استسقى بطنه، وهو يقول لغلمان مولاه:

اذهُبُوا بِي إِلَى الطَّيِّبِ سَبِّ وَفُولُوا قَدْ أَكْتَوْي

- وهو من الخفيف - وهذا الكلام يخرج على:

فاعِلَاثُنْ مفَاعِلُنْ فاعِلاتُنْ مفَاعِلنْ

وعلمت أنَّ هذا الغلام لم يختصر على باله قطُّ أن يقول بيت شعر أبداً. ومثل هذا لكثير، ولو تتبعته لتجده^(٣).

^(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

^(٢) انظر الكشاف ٣/١٩٠، و تفسير القرطبي ١٣/٤٨٤.

^(٣) البيان والتبيين ١/١٥٤.

وأما في كلام الفصحاء - فكما قال أهل البديع - : إذا قوي الانسجام في التشر
جاءت قراءته موزونةً بلا قصد لقوّة انسجامه، ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً^(١).

وما أحسن ما وجّهه الإمام الرازى في التفريق بين الشعر الموزون والمشور الموزون، إ:

قال: «الشّعر هو الكلام الموزون الذي تُصد إلى وزنه قصداً أَوْلِيَاً، وأَمَّا من يقصد المعنى
فيصدر موزوناً مَقْفَى فلا يكون شاعراً، وعلى هذا لو صدر من النبي ﷺ كلام كثير موزون
مَقْفَى لا يكون شعراً لعدم قصده اللّفظ قصداً أَوْلِيَاً ... وهنّا لطيفة، وهي أَنَّ النبي ﷺ قال:
«إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لِحِكْمَةً» يعني قد يقصد الشّاعر اللّفظ فيوافقه معنى حِكْمَيٌّ، كما أَنَّ الحكيم
قد يقصد معنى، فيوافقه وزنٌ شعريٌّ، لكنَّ الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً،
والشّاعر بسبب ذلك الذّكر يصير حكيمًا، حيث سَمِّيَ النَّبِيُّ ﷺ شعره حِكْمَةً، ونفى الله
كونَ النَّبِيِّ شاعراً، وذلك لأنَّ اللّفظ قالب المعنى، والمعنى قلب اللّفظ وروحه، فإذا وجد
القلب لا نظر إلى القالب، فيكون الحكيم الموزونُ كلامه حِكْمَيًّا، ولا يخرجه عن الحِكْمَة
وزن كلامه ، والشّاعر الموعظُ كلامه حِكْمَيًّا»^(٢).

وأما علة صرفه ﷺ وتزييه عن الشعر فتنصرف إلى أمور عدّة:

- أولها: أَنَّ الله تعالى جعل ذلك علماً من أعلام نبوّته عليه الصّلاة والسلام لثلا
تدخل الشّبهة على من أرسّل إليه ، فيظنّ أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على
الشعر.

- ثانية: أَنَّ الشعر لا يليق به، لأنَّه يدعو إلى تغيير المعنى لمراوغة اللّفظ والوزن، ولأنَّ
أحسنه المبالغة والمحاجفة والإغراق في الوصف، وأكثره تحسين ما ليس بحسن وتقبيح ما ليس
بقيبح، وكل ذلك يستدعي الكذب، أو يحاكيه الكذب، وجل جناب الشّارع عن ذلك^(٣).

^(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٨٧/٢ .

^(٢) مفاتيح الغيب ١٠٦/١٣ .

^(٣) انظر: تفسير القرطبي ٤٨٤/١٣ .

فضلاً عن أنَّ الشعر كان قد تحمَّل في الجاهلية الكثير من عادات العرب وفيها السُّيَّعة، وكان جعل بدمائهم، فصار مرآة عكست هذه العادات التي هي خصم للهود لنقاء الإسلام وخصاله الحميدة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر والمجاء المقدع والمبالغة الكاذبة وعصبية الجاهلية.^(١)

- ثالثها: تنافي طبيعة الشعر مع طبيعة الرِّسالة والدعوة، فمهما سعت أرواح الشعراء وتبثُّلت غاياتهم ونحوت أشعارهم في تشكيل وجدان الإنسان فإنه لا يمكن أن تلتقي طبيعة الأنبياء مع طبيعة الشعراء لشمول الفرق وبعد ما بينهما في المنهج ومصدره، والسلوك وقواعدِه ، والمُهْدَف ومنظلمات الوصول إليه.

ولمَّا كان الشعر سحراً فإنه ما يكاد اللبيب الفطeln المرهف الإحساس يعالج حتى يستولي على مشاعره، ويستنفذ طاقته ووقته، وهذا لا يليق بحال النبوة من جهة، ويذكر صفة النفس ويشغلها عن تلقّي المضمونات الإلهية الخالدة من جهة أخرى^(٢).

فهو إذاً تدبير إلهي محكم، وحكمة ربانية عجيبة يعبر عنها بحال قوله تعالى: «وَمَا يُبَيِّنُ لَهُ» [يس: ٦٩].

إنشاء الشعر والتمثُّل به :

لم يختلف أهل الحديث والأدب في أنَّ النبي ﷺ تمثُّل بالشعر أحياناً في كلامه، والحقُّ أنه لا تنافي بين ذلك وبين قوله تعالى «وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ»، إذ لا تلازم في الآية بين نفي تعلم النبي عليه الصَّلاة والسلام الشعر ونفي إنشاده له، لأن التمثُّل بالتلزيم اليسير من الشعر لا يوجب أن يكون عالماً بالشعر، فالعلم بالشعر يقتضي معرفة أصحابه والإمام بأعراضه وفنونه، ثم إنَّ ظاهر الآية يشير إلى أنَّ الله تعالى ينفي علم الشعر لا إنشاده.

^(١) أحاديث الشعر / مقدمة المحقق ص ٧ (بتصرف).

^(٢) انظر: علم الحديث والدراسات الأدبية ص ١٧٨-١٧٩.

والمتتبع للأبيات التي تمثل بها النبي ﷺ يجد أنها تمثل بعدين واضحين يتظمان في اتجاه فكري مطرد؛ أحدهما: المعاني الأخلاقية، ثانية: المعاني التعبدية.

كيفيات تمثيله ﷺ بالشعر:

على الرغم من قلة المواقف التي استشهد فيها النبي ﷺ بالشعر فإنه يمكن تصنيفها في أربع هيئات:

١ - التمثيل بيت من الشعر كاملاً :

تظهرت الروايات في تمثيل النبي ﷺ بأبيات من الشعر الإنساني الرافي ذي المضامين الخلقية العالية.

ومن ذلك ما روي في بناء المسجد النبوي، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه يقول:

أَفْلَحَ مَنْ يُعالِجُ الْمَسَاجِدَا

فيقول النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ يُعالِجُ الْمَسَاجِدَا»

فيقول ابن رواحة:

وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَائِمًا وَقَاعِدًا

فيقولوها النبي ﷺ^(١).

كما روي أنه ﷺ: طرق يُنْقُلُ مَعَهُمُ الَّذِينَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ الَّذِينَ:

«هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْرٌ

هَذَا أَبْرُزُ رِبَّنَا وَأَطْهَرُ»

ويقول:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ

فَارْحِمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ

فَارْحِمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»

(١) مصنف ابن أبي شيبة في كتاب الأدب ، باب الرخصة في الشعر ، ح (٢٦٠٥٣) .

- قال عروة: فتَمَثَّلَ بِشِعْرٍ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسْتَمِّ لِي^(١).
وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابَ شَعَرًا صَدَرَهُ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرًا الشَّعْرِ وَهُوَ يَرْجِعُ بِرَحْزٍ عَبْدَ اللَّهِ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَإِنْرِكِنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَبَثَّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَنَا

إِنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا
إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَيْيَنَا

يَرْفَعُ إِلَيْهَا صَوْتَهُ^(٢).

٢- التمثيل بشطر من البيت:

وروى أبو هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةً لَبِيدِ»:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَّ اللَّهُ بِاطِلٍ^(٣)

وَتَمَّتْهُ: وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٍ^(٤)

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استراث الحبر تمثّل بيت طرفة: «وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَرِّهِ»^(٥).

ومن ذلك تمثّله بمصراع بيت أنس فيه معنى حكمياً وبساطة تعبير، وهو قول الأعشى المري:

وَهُنَّ شُرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ.

^(١) البخاري، في فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، (٣٦٩٤).

^(٢) البخاري، في الجهاد والسير، باب الرجز في الحرب ورفع الصوت في حفر الخندق، (٢٨٧٠).

^(٣) مسلم ، في كتاب الشعر ح (٢٢٥٦) .

^(٤) ديوان لبيد ص ٨٤ .

^(٥) السنن الكبرى للنسائي، باب ما يقول إذا استراث الحبر، (١٠٨٣٣) انظر: ديوان طرفة ص ٤١.

روي عن الأعشى المازري^أ أنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْشَدَهُ:

إِنِّي لَقِيتُ ذُرْنَةً مِنَ الدَّرْبِ	يَا مَالِكَ النَّاسِ وَدَيَانَ الْعَرَبِ
فَخَلَقْتَنِي بِنَزَاعٍ وَهَرَبْ	غَدَوْتُ أَبْغِيَا الطَّعَامَ فِي رَجْبٍ
وَهُنَّ شَرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبْ	أَنْخَلَقْتُ الْعَهْدَ وَلَطَّثْ بِالذَّئْبِ
قال: فجعلَ يقولَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ:	
«وَهُنَّ شَرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبْ» ^(١)	

ومنه ما رُوي عنه ﷺ يوم بدرٍ أَنَّه جعلَ يمشي بين القتلى وهو يقولُ: «تُقلَّقُ هاماً»
فيقول الصديق رضي الله عنه متتمماً البيت:

(١) مستند الإمام أحمد ٢٠١/٢ ، (٦٨٨٥)، وسنن البيهقي الكبير، في الشهادات، باب شهادة الشعراة، (٤٠٩٠). ومناسبة الأبيات ما روي أنه كانت عنده امرأة يقال لها معادة، خرج في رجب يمير أهلها من هجر، فهربت امرأته بعده ناشراً عليه، فعاذت برجل منهم يقال له مطرف بن بمصل، فجعلوها خلف ظهره، فلما قدم ولم يجدوها في بيته وأخبر أنها نشرت عليه، وأنها عاذت بمطرف بن بمصل، فأتاه فقال: يا بن عم! أعندي امرأتي معادة؟ فادفعها إلي. قال: ليست عندي، ولو كانت عندي لم أدفعها إليك. قال: وكان مطرف أعز منه، فخرج حتى أتى النبي ﷺ، فعاذ به وأنشأ يقول هذه الأبيات، فشكك إليه امرأته وما صنعت به وأنها عند رجل منهم يقال له مطرف بن بمصل، فكتب له النبي ﷺ إلى مطرف: انظر امرأة هذا معادة فادفعها إليه. فاتاه كتاب النبي ﷺ، فقرئ عليه، فقال لها: يا معادة، هذا كتاب النبي ﷺ فيك، فأنا دافعك إليه. قالت: نخذ لي عليه العهد والميثاق وذمة نبيه لا يعاقبني فيما صنعت. فأخذ لها ذاك عليه، ودفعها مطرف إليه.

عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعْنَقُ وَأَظْلَمُ^(١)

٣- التلميح إلى معنى بيت أو لفظه:

ومن ذلك ما رواه ابن هشام قال: أقطع أهل المدينة، فأتوا رسول الله ﷺ، فشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فاستسقى، مما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحي يشكرون منه العرق، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فاجتاز السحاب عن المدينة فصار حوالها كالكليل، فقال رسول الله ﷺ: «لو أدرك أبو طالب
هذا اليوم لسرّه» فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وَأَبِيضُ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَّاً لِيَتَامَى عِصْمَةً لِلأَرَامِلِ

قال: «أَخْبَرَ»^(٢)

وهو من القصيدة التي مدح فيها أبو طالب النبي ﷺ.

ومن ذلك إشارته في موقف آخر لقصيدة أبي طالب فيما رواه الشعبي عن مسروق عن عبد الله رضي الله عنه قال: لَمَّا نظر رسول الله ﷺ إلى القتلى يوم بدر مصريعين قال لأبي بكر: «لو أَنَّ أبا طالب حي لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأئم». ^{أبي بكر}

قال: وذلك لقول أبي طالب في القصيدة التي مَدَحَ بها:

كَذَّبُمْ وَبَيْتُ اللَّهِ أَنْ جَدَّ مَا أَرَى
لَتَقْتِسَنْ أَسِيافُنَا بِالْأَنَامِ

وَيَنْهُضُ قَوْمٌ فِي الدُّرُونِ إِلَيْهِمْ
نُهُوضَ الرَّوَايَا فِي طَرِيقِ حَلَاجِلِ^(٣)

^(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٨٩ ، والسيرة الحلبية ٣/٢٧٧ والبيت للحسين بن الحمام المري. انظر العقد الفريد ٢/١٣٥.

^(٢) السيرة النبوية ١/٢٨٠ .

^(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠/١٥٨ (١٠٣١٢) ودلائل الإعجاز ١/٢٤ .

٤- التمثيل مع الإخلال بالبنية الشعرية :

روي أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أعطى المُؤْلَفَةَ قلوبُهُم مِنْ سَيِّئِ الْحَيَّينِ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مِنْ الْإِبْلِ، فأعطى أبا سفيانَ بنَ حربٍ مِنَهُ، وأعطى صفووانَ بنَ أُمَيَّةَ مِنَهُ، وأعطى عُيَيْنَةَ بنَ حصنٍ مِنَهُ، وأعطى الأقرعَ بنَ حابسٍ مِنَهُ، وأعطى عَلَقَمَةَ بنَ عَلَاتَةَ مِنَهُ، وأعطى مالكَ بنَ عوفِ النَّصْرَى مِنَهُ، وأعطى العَبَاسَ بنَ مَرْدَاسٍ دُونَ الْمِنَةِ، نَقْصَهُ مِنَ الْمِنَةِ، وَلَمْ يَلْعُجْ بِهِ أَوْلَئِكَ فَأَنْشَأَ العَبَاسُ بنَ مَرْدَاسٍ يَقُولُ:

فَأَصْبَحَ نَهْيِي وَنَهْبِ الْعَبَيْدِ
لِدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ

فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلُهُ، فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْقَائِلُ: أَصْبَحَ نَهْيِي وَنَهْبِ الْعَبَيْدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَأَيِّ وَأَمِّي أَنْتَ، لَمْ يَقُلْ كَذَلِكَ، وَلَا وَاللَّهُ مَا أَنْتَ بِشَاعِرٍ، وَمَا يَنْبَغِي لَكَ، وَمَا أَنْتَ بِرَاوِيَّةٍ، قَالَ: «فَكَيْفَ؟» فَأَنْشَدَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَوَاءُ هُمَا، مَا يَضُرُّكُ بِأَيِّهِمَا بِدَأْتَ؛ بِالْأَقْرَعِ أَمْ عُيَيْنَةَ»^(١).

وُرُوِيَّ عنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:
«كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا»

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَاً. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَوْ عُمَرُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْتَكَ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَكَ^(٢).
وَيُبَرِّزُ هَنَا سُؤَالٌ مُهِمٌّ: مَا تَفْسِيرُ إِخْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ بِبَيْنَةِ الشِّعْرِ أَحْيَانًا مَعَ إِنْشَادِهِ تَامًا صَحِيحًا أَحْيَانًا أُخْرِيًّا.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ إِخْلَالَهُ كَانَ عَمَدًا لِدَفْعَهُ أَمْرَانَ: أَحَدُهُمَا أَنَّ هَذَا الإِخْلَالُ يُوجِبُ عِلْمَ النَّبِيِّ ﷺ بِأَعْارِيضِ الشِّعْرِ وَأَوْزَانِهِ، وَمَنْ ثُمَّ تَغَيَّرَ يُوجِبُ الإِخْلَال.

^(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/٤٨-٤٩ (١٩٣٦).

^(٢) تفسير ابن كثير ٣/١٦٩ وروح المعاني ١٧/٣٠.

ثانيهما أنَّه روي عنه في كثير من الأحيان - كما سبق بيانه - أنه تمثلُ بأبيات تامة لم يغُرِّ في بنيتها شيئاً ، فكيف استقام له ذلك؟

ولعلَ السبب في ذلك يعود إلى أمرٍ يتعلَّقان بشخصية النبيِّ ﷺ بجانبها البشري والنبوى الممتنَّين في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلْهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» [الكهف: ١١٠].

ومن ثُمَّ نلتَمسُ تعليلًا لهذا الأمر في جانب الطبيعة البشرية التي يعتريها النسيان، وهو حائز عليه، عليه الصلاة والسلام، فيما لا ينبع بالتبليغ، فقد تكون هذه الأبيات بقيةً من محفوظ عارض تخلَّل إليه شيءٌ من نسيان، وتسرب إليه خلل من تقدِّم أو تأخيرٍ لا يضرير المعنى الذي يرومُه ﷺ.

وأمَّا في الجانب النبوى من شخصيته ﷺ فقد يُعلَلُ الإخلال في الفجوة والتناكر بين النبوة والشعر طبعاً وشرعاً، فالله سبحانه وتعالى الذي هيأه للوحى والرسالة باعد بينه وبين تملُّك الشعر من نفسه.

ومن تلامِّح هذين البعدين البشريِّ والنبوىِّ نستطيع إدراك موقفه ﷺ من الشعر، وتلتَمسُ توفيقاً بين ما رُوي عنه في حبهِ الشعر وما رُوي في بعضه.

ونبين من خلال ذلك الجانب الثاني من موقفه من الشعر، وهو:

بــ موقفه من قول الشعر:

روي عن الخليل أَنَّه قال: كَانَ الشِّعْرُ أَحَبًّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْكَلَامِ^(١)، وهذا يتعارض مع ما روتَه عائشة رضي الله عنها: «كَانَ أَبْعَضُ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ أَحَبًّا مِنَ الشِّعْرِ»^(٢) وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ حَوْفُ أَخْدِيكُمْ قَيْحًا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»^(٣).

والظاهر في المسألة أَنَّ الْأَمْرَ لا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ الشِّعْرِ، إِذَا هُوَ كَسَائِرُ الْكَلَامِ؛ «خَسَنَهُ حَسَنٌ، وَقَبِيحُهُ قَبِيقٌ»^(٤).

فَبَعْضُ الْبَيِّنَاتِ وَذُمُّهُ لَهُ يَنْصُرُ إِلَى الْمُضَامِينِ الْمُحَرَّمَةِ كَالْفُحْشَ وَالْمُحْنُ وَالظُّلُمُ فِي الْمَحْجُوِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. أَضَفَ إِلَيْهِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ حَوْفُ أَخْدِيكُمْ شِعْرًا...» مِنْ أَنَّ التَّرْهِيبَ وَالذَّمَّ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ غَلَبَ الشِّعْرُ عَلَى قَلْبِهِ وَاسْتَوَى عَلَى فَكْرِهِ حَتَّى يَشْغُلَهُ عَنْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ عِلْمِ دِينِهِ وَدُنْيَاِهِ، فَيَكُونُ مُحْذُورًا بِهَذَا الْوَجْهِ أَيًّا كَانَ نُوْعُ هَذَا الشِّعْرِ، وَلَذِكْرِهِ عَبِرَ بِالْأَمْتَلَاءِ.

وَقَدْ اسْتَبَطَ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَدِيثِ، فَجَعَلَ تَرْجِمَةَ الْبَابِ: (مَا يُكَرِّهُ أَنْ يَكُونَ الْعَالَبُ عَلَى إِلَيْسَانِ الشِّعْرِ حَتَّى يَصْدُدَهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ).

(١) روح المعاني ٣٠/١٧ .

(٢) مسنـد الإمام أحمد ١٣٤/٦ (٢٥٠٦٤) .

(٣) صحيح البخاري، في الأدب، باب ما يكره أن يكون العالب على الإنسان الشعر حتى يصدده عن ذكر الله، (٥٨٠٢) .

أما زيادة «شعرًا هجيـت به» فقد ردـها العلماء سندـاً لـغرابـتها، ومتـناً لـفسادـ معناها، إذ تحريم هجوـ النبي ﷺ يحرـم كـثيرـه وأـقلـ قـليلـه.

(٤) روح المعاني ١٥٠/٢٣ .

ووجه الإمام النووي الحديث بقوله: «المُراد أن يكون الشّعر غالباً عليه مُستولياً عليه، بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان ...»^(١).

ومن ثم فإنَّ الشعر إذا اشتمل على المعاني الجليلة فلا ضير في إنشائه وإنشاده، وحيثما استمعه واستنشاده، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمًا»^(٢). وروي عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِي الشِّعْرِ مَا أَنْزَلَ، فَكَيْفَ تَرَى فِيهِ؟ فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفِسَيْ بِيَدِهِ لَكَانَ مَا تَرَمُوكُمْ بِهِ نَصْحَنُ النَّبِيلِ»^(٣).

وكان النبي ﷺ يحضر الشعراء من الصحابة على المنافحة عن دين الله، وعن رسوله، ويذعن لهم، فقد حدث أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «يا حسَّان، أَجِبْ عن رسول الله، اللَّهُمَّ أَيْدِهِ بِرُوحَ الْقُدْسِ»^(٤)، وعن الزراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لحسَّان: «أَهْمَحُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَعَكَ»^(٥).

لقد كان الشعر في مسيرة الدّعوة سلاحاً مضاعاً يتغيمه النبي ﷺ عند كلّ صاحبي آثار الله تعالى القدرة الشعرية، فيدعوه ويأمره أن يُشهر هذا السلاح في وجه الذين يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، ويصدُّون عن سبيل الله، والأمثلة كثيرة نسوق بعضها في سياق موقفه ﷺ من الشعراء.

وكان الصحابة بعده يحبّون الشعر، ويعظّمون شأن الشعر الراقي.

^(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/١٥

^(٢) سبق تخرجه.

^(٣) مسنّ الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٧/٦ (٢٧٢١٨).

^(٤) صحيح البخاري، في الأدب، باب هجاء المشركين، (٥٨٠٠).

^(٥) صحيح البخاري، في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، (٣٨٩٧).

عن عليٍ رضي الله عنه قال: «الشِّعْرُ مِيزَانُ الْعُقُولِ»، وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإنَّ الشِّعْرَ ديوانُ العرب»^(١).

ومن أبي سلمة قال: «لم يكن أصحاب رسول الله متحرقين، ولا متماوتين، وكأنوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ...»^(٢).

هذا فضلاً عن اشتهر أشعارهم، وإبداع شعراء من أفضلي الصحابة كعبد الله بن رواحة، وكتب بن مالك وغيرهما.

^(١) روح المعاني ٤/٢٩٩

^(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٥٢٣/٨ باب الرخصة في الشعر (٢٦٥٨١). متحرقين: أي متقبضين ومحتمعين.

المبحث الثاني

موقف النبي ﷺ من الشعراء

إذا كان الشعر باباً من الكلام حسنة حسنٌ، وقيحه قبيحٌ، فكذلك قائله؛ محمودٌ ومذمومٌ، ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَمَّ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُفْلِحٍ يَقْلِبُونَ» [الشعراء: ٢٢٤]

قال الطاهر بن عاشور في تفسيرها: «وقد دلت الآية على أن للشعر حالتين؛ حالة مذمومة، وحالة مأدونة، فتعين أن ذمّه ليس لكونه شعرًا، ولكن لـما حفّ به من معانٍ وأحوالٍ اقتضت المذممة، فانفتح بالآية للشعر بـاب قبول ومدحٍ»^(١).
ومن هنا كان ذمّ الشعراء لـما كان عليه شأنهم في الجاهلية من الصدّ عن الحقّ
وإعلاء شأن الباطل في هجاء النبي ﷺ والصحابة وإيذائهم.

وبخلو لنا الروايات العديدة في هذا المجال موقف النبي ﷺ من الشعراء، وهناك أهمها:

١ - الثناء على المضامين الجليلة في أشعارهم

ومن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: قدم رجلان من المشرق (هما الزبير قاتل ابن بدر وعمرو بن الأهتم) فخطبا، فعجب الناس، يعني لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيْانِ لَسِحْرًا» أو «إِنَّ بَعْضَ الْبَيْانِ لَسِحْرٌ»^(٢).

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/١٩.

(٢) سنن أبي داود، في الأدب ، باب ما جاء في المتشدق في الكلام، (٥٠٠٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبدي: ألا كُلُّ شَيْءٍ مَا حَلَّ اللَّهُ بِاطِّلْ». وكاد أميّة بن أبي الصّلت أن يُسلم»^(١).

وعن خُرَيْمَ بْنِ أَوْسٍ بْنِ حَارِثَةَ رضي الله عنه أنه قال: هاجرت إلى رسول الله بالمدينة مُنصرفةً مِنْ تَبُوكَ فَأَسْلَمْتُ، فَسَمِعْتُ الْعَبَّاسَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْتَدِّلَكَ، فَقَالَ: «فُلُونَ، لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَّكَ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ:

مُسْتَوْدِعٌ حَيْثُ يُحْصِنُ الْوَرْقُ
مِنْ قَبْلِهَا طَبِيتَ فِي الظَّلَالِ وَفِي

الآيات السَّبْعَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَّكَ»^(٢).

وعن أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ وَعَدَ اللَّهُ بْنَ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيهِ وَيَقُولُ:

خَلُوا بَنِي الْكَفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
الْيَوْمَ نَصْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ

صَرْبِاً يُرْبِلُ الْهَامَ عَنْ مَقْبِلِهِ
وَئِذْهَلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا بْنَ رَوَاحَةَ! فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ تَقُولُ الشِّعْرُ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «خَلْ عَنْهُ يَا عُمَرُ، فَإِنَّهُ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَصْبِ الْبَلِيلِ»^(٣).

(١) صحيح البخاري، في فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، (٣٦٢٨).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير / ١٥٩ ودلائل النبوة للبيهقي ٣٥٤ / ٥.

(٣) سنن الترمذى، في الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، (٢٨٤٧).

٢ - استماع الشعر واستنشاده:

عن حاير بن سمرة قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يستنشدون الشعر، ويتداءكون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت، فرما تبسم منهم^(١).

وعن الشريد بن سويد الشعبي أنه قال: رددت رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «هل معلم من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم، قال: «هيه»، فأنشدته بيتاً، فقال: «هيه»، ثم أنشدته بيتاً، فقال: «هيه»، حتى أنشدته مئة بيت، وفي رواية: فقال: «فأَلَّفَ كاد يُسلِّمُ في شعره»^(٢).

وعن يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعي قال: شهدت أبي يحدث عن أبيه، قال: شهدت النبي ﷺ ورجل ينشده قول سويد بن عامر المصطافي:

إِنَّ الْمَنَى يَجْسُدُ كُلَّ إِنْسَانٍ	لَا تَأْمَنْ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمٍ
حَتَّى تُلَاقِي مَا يَمْنَى لَكَ الْمَانِي	فَاسْلُكْ طَرِيقاً تَمْشِي عَيْرَ مُخْتَشِمٍ
وَكُلُّ زَادٍ وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ فَانِي	فَكُلُّ ذِي صَاحِبٍ يَوْمًا مُفْلِيْهِ
بِكُلِّ ذِلْكَ يَأْتِيكَ الْجَدِيدَانِ	وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِمَوْعِدٍ فِي قَرْنِ

قال رسول الله ﷺ: «لو أدرك هذا الإسلام» فبكى أبي ...^(٣)

^(١) سنن الترمذى، فى الأدب، باب إنشاد الشعر ، (٢٨٥٠).

^(٢) صحيح مسلم، فى الشعر، (٢٢٥٥).

^(٣) المعجم الكبير للطبراني ٤٣١/١٤ وجمع الزوائد ٢٢٢/٨.

وعن الأسود بن سريع قال: أتى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! إني قد مدحت ربي عز وجل بمحامد ومدح وإياك. فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ربكم عز وجل يحب المدح، هات ما امتدحت به ربكم عز وجل». قال: فجعلت أنسلاه^(١).

٣- نقد أشعارهم :

وإذا استمعت إلى قول شاعر وقف على معنى قوله مصدقًا فهو، أو مصححًا دعواه، ومن ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صدق أمينة في شيء من شعره إذ قال:

رِجْلٌ وَتُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِه
وَالنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلِيَثٌ مُرْصَدٌ

فقال النبي ﷺ: «صدق» وقال:

خُمْرٌ يُصْبِحُ لَوْنَهَا يَتُورَّدُ
وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرٍ لِيَلٍ

إِلَّا مُعَذَّبٌ وَإِلَّا بُخْلَدٌ
تَابَى فَمَا تَطْلُعَ لَنَا فِي رِسْلِهَا

فقال النبي ﷺ: «صدق»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ مرّ بنساء من الانصار في غرس لفون يعني:

وَاهْدِي لَهَا كَبِشاً
تَنْحَنَحُ فِي الْمَرْبَدِ

وَرَوْجَكِ فِي النَّادِ
وَيَعْلَمُ مَا فِي عَدْ

فقال رسول الله ﷺ: «لا يعلم ما في غدر إلا الله، لا قلتم:

^(١) مسن الإمام أحمد ٤٣٥/٣، (١٥٦٢٨).

^(٢) مسن الإمام أحمد ١٥٩/٤ (٢٣١٤).

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ

فَحَيَا نَا وَحَيَا كُم»^(١)

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر به وهو ينشد:

أَلَا هَلْ أَتَى عَسَانَ عَنَّا وَذُونَهُمْ
مِنَ الْأَرْضِ خَرْقٌ حَوْلَهُ يَتَفَعَّقُ

كَرْدْفٌ لَهَا فِيهَا الْقَوَافِسُ تَلْمَعُ
بِحَالِدُنَا عَنْ حُرْمِنَا كُلُّ فَحْمَةٍ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَا كَعْبَ بْنُ مَالِكٍ» فَقَالَ كَعْبٌ: بِحَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلُّ فَحْمَةٍ،

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ يَا كَعْبُ»^(٢).

٤ - اخْتَادُ الشُّعُرَ وَتَكْرِيمُهُمْ:

لم يقف النبي ﷺ عند إقراره الشّعر الحسن واستشهاده، بل تعدى ذلك إلى تكريم الشعراء والدّعاة لهم، لأنّهم حملوا لواء الدّفاع عن الإسلام في معركته مع الشرك، بسلاح الكلمة التي كانت «أسرع فيهم من نَضْبَحَ النَّبِيلَ» فلا غرو أن يكون الشّاعر بمنزلة المُجاهد في سبيل الله، المُناهِج عن دينه، وعن رسول الله ﷺ.

وقد تلازم السلاحان؛ السيفُ والشّعرُ في معازيزِ رسول الله ﷺ وموافقه الحاسمة على مسار الدّعوة وتبلیغ الرّسالة «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ».

ولخطورة شأن الشّاعر في تلك المواقف اخْتَدَ له منير في المسجد للّمنافحة عن رسول

الله ﷺ.

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٣٦٠/٣ (٣٤٠١)، وينظر بجمع الروايد ٢٣٦/٨ باب جواز الشعر والاستعمال له (١٣٣٤٩).

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٩٧/١٩ (١٩٣) وجمع الروايد ٢٣٠/٨ باب هجاء المشركين، (١٣٣٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان مِنْبَرًا في المسجد يقوم عليه قائماً يُفاجر عن رسول الله ﷺ، أو ينافح، ويقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤْيدُ حَسَانَ بِرُوحِ الْقُدْسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَانَحَ عنِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

وعن محمد بن سيرين: هجا رسول الله ﷺ وال المسلمين ثلاثة رهط من المشركين؛ عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبيري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال المهاجرون: يا رسول الله، ألا تأمر علينا أن يهجو عننا هؤلاء القوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لِيَسَ عَلَيَّ هُنَالِكُ». ثم قال رسول الله ﷺ: «إِذَا الْقَوْمُ نَصَرُوا النَّبِيَّ بِأَيْدِيهِمْ وَأَسْلَحْتُهُمْ، فَإِلَسْتُهُمْ أَحَقُّ أَنْ يَنْصُرُوهُ»، فقالت الأنصار: أرادنا. فأتوا حسان بن ثابت، فذكروا ذلك له، فأقبل يمشي، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما أحب أن لي بمقدوري ما بين صناعة وبصرى. فقال رسول الله ﷺ: «أَنْتَ لَهَا»، فقال حسان: يا رسول الله، إنه لا علم لي بقريش، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أخبره عنهم، ونقب له في مثالיהם»، فهجاهم حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

قال ابن سيرين: أُنبئُكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَمِنِهِ هُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقِهِ وَشَنَقَهَا بِزِمامِهَا حَتَّى وَضَعَتْ رَأْسَهَا عَنْدَ قَادِمَةِ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «أَيْنَ كَعْبٌ؟» فَقَالَ كَعْبٌ: هَأْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «خُذْ» وَفِي رَوَايَةِ «أَنْشَدَ»، قَالَ كَعْبٌ:

قَصَّبَنَا مِنْ تَحَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ
وَخَيْرَ، ثُمَّ أَجْمَنَا السُّبُوفَا

فَوَاطَعْهُنْ دَوْسًا أَوْ شَقِيفَا
خَيْرَهَا، وَلَوْ نَطَقْتَ لِقَالَتْ:

^(١) سنن الترمذى، فى الأدب، باب إنشاد الشعر، (٢٨٤٦).

قال: فأنشدَ الكلمةَ كُلُّها، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بَيْدِهِ، هُنَّ أَشَدُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشْقِ النَّبِيِّ»^(١).

ولمَّا انتهى شعرُ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ إلى الْبَيْتِ شَقَّ عليهِ، فدعا عبدُ اللهِ بنَ رواحةَ، فاستئنَّشَهُ، فأنشدَهُ، فقالَ: «أَنْتَ شَاعِرُ كَرِيمٍ»، ثمَّ دعا كعبَ بنَ مالِكٍ، فاستئنَّشَهُ، فأنشدَهُ، فقالَ: «أَنْتَ تُخْسِنُ صِفَةَ الْحَرَبِ»، ثمَّ دعا بحسَانَ بنِ ثابتٍ فقالَ: «أَحِبُّ عَيْنِي»، فأَخْرَجَ لِسانَهُ، فضَربَ به أَرْبَيْتَهُ، ثمَّ قالَ: وَالَّذِي يَعْثُكَ بِالْحَقِّ مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِهِ مِقْوَلًا فِي مَعْدَدٍ، وَلَوْ أَنَّ لِسَانَنَا فَرِي الشَّعْرَ لَفَرَاهُ. ثُمَّ سَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَمْسَسَ مِنْ أَبِي سُفِيَّانَ، فقالَ: «وَكَيْفَ، وَبَيْنَهُ الرَّحْمُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتَ؟» فَقَالَ: أَسْلُكَ مِنْهُ كَمَا تُسْلِلُ الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجَنِ! فَقَالَ: «إِذْهَبْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ»، وَكَانَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَنْسَابِ قَرِيشٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ، وَعِنْهُ أَخْدَ حُبَّيرَ بْنَ مُطْعِمٍ عَلَمَ النَّسَبِ، فَمَضَى حَسَانُ إِلَيْهِ، فَذَكَرَ لَهُ مَعَايِّبَهُ، فَقَالَ حَسَانُ بنُ ثَابِتٍ:

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَحْدُودِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
بُنُوْ بَنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالْدُكُ الْعَبْدُ

وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ مِنْهُمْ
كَرَامٌ، وَلَمْ يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ

وَلَكِنْ لَيْلَمْ لَا يَقُولُ لَهُ زَنْدُ
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ، وَلَا كَابِنْ أَمَّهُ

وَإِنَّ امْرًا كَانَتْ سُمَيَّةَ أَمَّهُ
وَسَمْرَاءُ مَغْمُوزٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ

وَأَنَّتْ زَيْمٌ نِيَطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ
كَمَا نِيَطَ حَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدْحُ الْقَرْدُ

فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا الشَّعْرَ أَبِي سُفِيَّانَ قَالَ: هَذَا كَلَامٌ لَمْ يَغْبُ عَنْهُ أَبِنُ أَبِي قُحَافَةَ^(٢).

^(١) تَهْذِيبُ الْأَثَارِ لِلطَّبِيرِيِّ ٤٦٠/٢ .

^(٢) زَهْرُ الْآدَابِ ١١/١ .

تأثر النبي ﷺ بالشعر :

وإذا لاقت العواطف الدافقة قلب النبي ﷺ الفياض بالرحمة وروحه المفعمة بالرفق،
وحسه المرهف فلا بدّ إذ ذاك أن تفيض عواطفه وتحلّى رحمته.
انظر إلى موقف تحرك فيه وجده، وقد ذكره الشعر مرضعته والبيئة التي درج فيها في طفولته.

عن أبي حمْرَوْنِ رُهْبَرِ بْنِ صُرَدِ الْجَشَمِيِّ: لَمَّا أَسْرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَوْمَ هُوَزَنَّ
وذهب يفرق السبي والشاء أتى به، وأنشأ أقوال في هذا الشعر:

إِنَّكَ الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَتَطَهِّرُ	أَمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ فِي كَرَمِ
مُشَتَّتٌ شَمْلُهَا فِي دَهْرِهَا غَيْرُ	أَمْنُنْ عَلَى بَيْضَةٍ قَدْ عَاقَهَا قَدَرُ
عَلَى قُلُوبِهِمُ الْعَمَاءُ وَالغَمَّ	أَبْقَتْ لَنَا الدَّهْرُ هُتَّافًا عَلَى حَرَنِ
يَا أَرْجَحَ النَّاسِ حِلْمًا حِينَ يُخْتَبِرُ	إِنْ لَمْ تُنَادِ كُهْمٌ نَعْمَاءُ تَنْشُرُهَا
إِذْ فُوكَ تَمْلُؤُهُ مِنْ مُخْضِهَا الدَّرَرُ	أَمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا
وَإِذْ يَرِينُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُّ	إِذْ أَنْتَ طِفْلٌ صَغِيرٌ كُنْتَ تَرْضَعُهَا
وَاسْتَبِقْ مِنَّا، فَإِنَّا مَعْشَرَ رُهْرُ	لَا جَعَلَنَا كَمَنْ شَالْتُ نَعَامَتُهُ
وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مُدَخَّرُ	إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَاءِ إِذْ كُفَرْتُ
مِنْ أَمْهَاتِكَ، إِنَّ الْعَفْوَ مُشْتَهَرٌ	فَالْلِّيسِ الْعَفْوُ مَنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ
عَنِ الْهَيَاجِ إِذَا مَا اسْتَوْقَدَ الشَّرُّ	يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحْتُ كُمْتُ الْجَنَادِلَهُ
هَذِي الْبَرِّيَّةِ إِذْ تَعْفُو وَتَنْتَصِرُ	إِنَّا نُؤْمِلُ عَفْوًا مِنْكَ ثُلْبِسَهُ

فاغفِّ عَنَّا اللَّهُ عَمَّا أَنْتَ رَاهِبٌ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذ يُهْدَى لَكَ الظُّرُورُ

قال: فلما سمع النبي ﷺ هذا الشعر، قال ﷺ: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، وقال قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لله ولرسوله^(١).

وتتأمل هذا الموقف التاريخي حين أراد الله تعالى لنبيه فتح مكة، وكان الذي هاج لهذا الفتح أن عمرو بن سالم الخزاعي ثم أحد بنى كعب خرج من مكة، حتى قدم على رسول الله ﷺ، وكانت خراعنة في حلف النبي ﷺ، وفي عهده وعقده، فلما انقضت عليهم قريش مكة وأصابوا منهم ما أصابوا قبل عمرو بن سالم الخزاعي بأيات قالها، فوقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين أظهر الناس، فقال:

لَا هُمْ إِنِّي نَاسِدُ مُحَمَّداً	جَلَّفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتَلَادَا
وَوَالِدَا كُنْتَ وَكُنْتَ وَلَدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا وَلَمْ تَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ رَسُولَ اللَّهِ نَصْرًا أَعْتَدَا	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَداً
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	إِنْ سِيمَ خَسْنَفَاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِي قَيْلِيقِ كَالْبَخْرِ يَجْرِي مُزِيدَاً	إِنْ قُرْيَاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيشَاقَكَ الْمُؤْكَدَا	وَجَعَلُوا لِي بِكِيدَاءِ رَصَادَا
وَرَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَرْجُو أَحَدَا	فَهُمْ أَذْلُّ وَأَقْلُّ عَدَادَا
هُمْ بَيْتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا	فَقَتَّلُونَا رَعَعاً وَسَجَّدَا

(١) المعجم الصغير للطبراني: ١/٣٩٥ ، وجمع الروايد: ١٢/٣٨٧.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم». فما برح رسول الله ﷺ مرت عنانة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة تستهل بنصرةبني كعب»، وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز^(١).



(١) السنن الصغرى للبيهقي، باب نقض أهل العهد العهد (١٥٠/٣)، ومصنف ابن أبي شيبة ، حديث فتح مكة، (٣٨٠٥٧)، ودلائل النبوة ، لأبي نعيم: ٤٦/١.

الفصل الرابع

الوسائل البلاغية في الحديث النبوى

المبحث الأول: التشبيه في الحديث النبوى

المبحث الثاني: الاستعارة في الحديث النبوى

المبحث الثالث: الكنایة في الحديث النبوى



مدخل : لاشك أنّه من لوازِم الوقوف على الأساليب البلاغية في الحديث النبوى الانطلاق من تصوّرٍ صحيحٍ لماهية الخطاب النبوى؛ منبعه وغاياته، صورته وجوهره، والاعتماد على المحددات السياقية التي يسّير البيان النبوى في أطْرها.

ولا بدّ من أجل ذلك أن نفرق بين بلاغتين؛ بلاغة تنطلق من الحقيقة وتأسس عليها، وتحدُّف إلى تمكينها وإقرارها، وبلاعنة تنطلق من الخيال والتصرُّف، ولا تحدُّف إلا إلى غاية إمتاعيَّة خالصة. ومن ثمَّ يلزم التفريق بين الغاية الجمالية الخالصة، التي يحاول الباحثون الوقوف عليها في الخطاب الشعري، وغاية التمكين للمنتضى التعليمي في نفوس المتعلّقين، والتبيين لما ينطوي عليه من تشريع.

فالخطاب النبوى - التعليمي - يتميّز بخصائصٍ تجعله مغايراً للخطابات التعليمية والجمالية المختلفة، ومن ثمَّ تختلفُ إجراءاتُ التحليل البلاغي في دراسته وتفصيله؛ إذ تختلف الظواهر البينانية في الحديث النبوى الشريف عن الشعر في منابعها وغاياتها، وهذا الاختلاف ينعكس على تكوينها، ومن ثمَّ على وظيفتها التواصيلية.

فأمّا من حيث المنبع فإننا بحد أدنى مصدر الإبداع الشعري هو العاطفة والخيال ولواعج النفس، أما في الحديث النبوى فمنبع الظواهر البلاغية هو الحقيقة. وأمّا الغاية فهي في الخطاب الشعري غاية إمتاعية خالصة، تخيليَّة، يهدف فيها الشاعر إلى تحقيق المتعة، وإثارة القبول على المستوى الجمالي، وتبلور معاناة فردية يخاطب فيها الشاعر نفسه التي يجرّد منها مستمعاً قبل التوجُّه إلى أيٍّ مُستَمِعٍ خارج الذات الشاعرة. في حين تبدو الغاية في الحديث النبوى تعليميَّة تبيينيَّة تشريعية، ثم يأتي البعد الجمالي نتيجةً تاليةً لهذه الغايات، فهو خطابٌ حقيقةٌ يهدف إلى تمكين الحقائق التعليمية التشريعية في نفوس المتعلّقين، عن طريق تضمين نصوص الحديث النبوى الشريف لوسائل التمكين للحقائق المتمثلتين في التأثير والإقناع. فالبلاغة النبوية ليست بلاغة خيالٍ وزينةٍ فحسب، بل هي بلاغة هادفة إلى تمكين حقائق معينة في النفوس والعقول والقلوب، ساعيةً إلى إقرار منهج حياةٍ وتقويم سلوك الأفراد.

أمّا الجمال في البيان النبوي فهو جمال التناسُب بين موضع الحديث والإيجاز الأسلوبي الذي صيغ فيه، وما يتحقق هذا التناسُب من الإتقان والتحسين في بناء التراكيب. فالبحث في بلاغة الحديث النبوي هو بحث في الكيفية الأسلوبية التي تتحقق بها الدقة والإحكام، لأنَّ بعد التشريعي في الحديث يستلزم الدقة في الصياغة، تلك الدقة التي لن تتوفر إلا بالوسائل الأسلوبية المحققة لذلك.

وهكذا يتحقق بعد الجمال، انطلاقاً من التناسُب بين الموضع والأسلوب، هذا التناسُب الذي عدَّه بشرُّ بنُ المعتَمِر (٢١٠ هـ) من أنواع التناسُب المقامي: «وَمِنْ أَرَأَى مَعْنَى كُرِيمًا فَلِيَتَسْمَسْ لَهُ لِفْظًا كُرِيمًا، فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفُ الْفَظُّ الشَّرِيفُ، وَمَنْ حَقَّهُمَا أَنْ تَصُوَّرَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيَهْجُنُهُمَا، وَعُمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكُمْ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهُمَا، وَتَرْهَنَ نَفْسَكُ بِمَلَابِسِهِمَا وَقَضَاءِ حَقَّهُمَا»^(١).

ولَمَّا كانت غايةُ الحديث النبوي الإبانة والتبلیغ والتمكين للحقائق أتت الظواهر البیانية وسیلةً من وسائل التمكين للحقائق التشريعية والحقائق الغیبية في نفس المخاطب. وتمكين التبلیغ هو تحقيق غایةٍ تتلاعُمُ وطبيعةَ المبلغ ﷺ الذي وصفه البيان الإلهي في قوله: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَيْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» [التوبه: ١٢٨] فهذا الحرص وهذه الرأفة وهذه الرحمة مؤثرات تتعلق بالمتكلِّم، وبالبعد النفسي لخطابه، الذي يجعل للكلام مضموناً نفسياً، فلا تقف غاية المتكلِّم عند حدود نقل الخبر والتبلیغ، بل تتعدّى إلى استخدام الوسائل الأسلوبية التي تعمل على تمكين القول مضموناً وأسلوباً في نفس المتكلِّم، فالتحسين متتحقّق في الخطاب النبوي، ولكنه لا يكتسب جماله من الإغراء في المبالغات والخيال، بل من الدقة والإتقان والإحكام، ويأتي الخيال هنا لإثارة تصوّرات ذهنية عند المتألقي تعينه على تصوّر المضمونات النبوية، إذ إنَّ «إثارة الخيال عنصر ضروري في الفن القولي، وقد أدَّتْ مهمَّة رفيعة في الغيث الحمدي، وكانت هذه الإثارة

^(١) صحیفة بشر بن المعتَمِر، كما جاءت في البيان والتبيين: ١/١٣٣.

تنطلق من الواقع وتحتكم إلى عنصر المشابهة، ولا تقصد الخيالات لذاها، بل لها وظائفها الجليلة، مما يفيد أن الخيال أو التصور أو إثارة الخيال عنصر مساعد للفكرة غير طاغٍ عليها»^(١).

وستتناول في هذا الفصل أهمَّ الوسائل البلاغية التي برزت في حديث النبي ﷺ من جوامع الكلم ومن غيرها.

^(١) الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ١١٧

المبحث الأول

التشبيه في الحديث النبوي

كثير التشبيه في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف، كما كثُر في الكلام البليغ للأقدامين والمحدثين، فاصدرين إلى التوضيح والإفهام والتأثير.

والتشبيه هو أول الفنون التي أشار إليها الأقدمون، ولعل أولهم أبو العباس المبرّد (ت: ٥٢٨٥) الذي قرر أن التشبيه جاري في كثير من كلام العرب، «حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد»^(١)، وتبثّق أهميته من أنه يلقي ظللاً كاشفة على المعانٍ، فتبرز المدلولات ناصعةً مُشبعةً بالتأثير النفسي المناسب في المعنى العقلي.

قال أبو هلال العسكري (ت: ٥٣٩٥): «التشبيه يريد المعنى وضوحاً، ويُركِّبه تأكيداً، وهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعلماء عليه، ولم يستغنِ أحدٌ منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يُستدلُّ به على شرفه وموقعه من البلاغة»^(٢).

وقال الرمخري: «ولضرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفى في إبراز خبيثات المعانٍ، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى يُرى لك المُتحجّل في صورة المحقق، والمتوهم في صورة المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين أمثاله، ونشأ ذلك في كلام الرسل والأئباء والحكماء، قال الله تعالى ﴿وَتَلْكَ الْأَمْثَالُ تَضَرِّبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»^(٣).

وإظهار أهمية التشبيه في التّوضيح ودوره في التأثير فإنه لا مندوحة عن العدول عن تعريفات الأقدمين للتشبيه بأنه: الدلالة على مشاركة أمرٍ لأمرٍ في معنى، وإيثار التعريف الذي

^(١) الكامل ٦٩/٢.

^(٢) كتاب الصناعتين ص ١٨٣.

^(٣) الكشاف ١/ ٣٧ عند تفسير قوله تعالى: ﴿مُثِلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

يُبرِز الفعالية الحقيقة للتشبيه وغايته، وهو تعريف د. أحمد بدوي إذ يقول: التشبيه لم يُخْصل بينَ أمرين، من حيثِ وقْعِهما النَّفْسِي، وبه يوضَّحُ الْفَنَانُ شعورَ نحو شيءٍ ما، حتى يصبحَ واضحاً وضوحاً وجداً، حتى يجسَّسَ السَّامِعُ بما أحسَّ المتكلِّمُ به، فهو ليس دلالة مجردة، ولكنه دلالة فنية، وذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه، وليس فيما تقول سوى خبرٍ مجرد عن شعورك نحو قُبْح هذا الرجل، فإذا قلت: إنه كالحمار يحمل أسفاراً، فقد وصفت لنا شعورك نحوه، ودللت على احتقارك له وسخرِيَّتك منه^(١).

وقد ضرب (البيان النبوى) بسهم وافر في هذا المضمار؛ فهو بيان تبلُغ ينطلق من الحقيقة - كما سلف بيانه - ويتخذ الوسيلة الجمالية مطيةً لتمكين هذه الحقيقة، وقد جاءت الرسالة التي يُبعثُ بها النبي ﷺ تجديداً للقيم، وتعديلأً للمفاهيم، وبناءً لكيان إنسانيٍ جديديٍ، فجاء بأنياطٍ من المعانى لم يسعها العقل الدارج إلا بقهر العاطفة وتأثير الوجдан، فأسرَ القلوب وهَرَّ العقول، لتعيد النظر وتختبر الدليل، ثم تختار قانعة راضية، هادئة النفس هائمة الوجدان.

وهكذا لم يكن التشبيه غايةً، بل مرقةً إلى بلوغ أقصى غايات المعانى.

أقسام التشبيه في الحديث النبوى:

للتشبيه أركان أربعة؛ المشبه، والمتشبه به، (ويُسمىان طرفي التشبيه)، لأنَّه لا يمكن حذف أحدهما أو الاستغناء عنه) وأداة التشبيه، ووجه التشبيه. ويقسم التشبيه وفقاً لهذه الأركان إلى الأقسام الآتية:

أولاً - بالنسبة إلى طرفيه؛ المشبه والمتشبه به:

بحدر الإشارة هنا إلى ما يبيَّنه البلاغيون في علاقَةِ المشبهِ بالمتشَبَّهِ به، فقد ذكر قدامة بن حعفر (ت: ٣٣٧هـ) أنَّ أساسَ التشبيهِ أنْ يقعُ بينَ شيئَيْنَ بينَهُما اشتراكٌ في معانٍ تعمَّلُهما

^(١) من بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ ص: ٤٩٠

ويوصَفان بها، وافتراقٌ في أشياء ينفرد كُلُّ واحد منها بصفتها، وهو يعني قوله هذا على أساس أن الشيء لا يشبه نفسه ولا بغيره من كُلِّ الجهات، لأنَّ الشَّيْئين إذا تشاها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البَتَّةُ أَحَدًا، فصار الاثنان واحداً^(١).

وتابعه أبو هلال العسكري وقال: ويصحُّ تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابهه من وجهٍ واحدٍ، مثل قوله: (وجهه مثل الشمس، ومثل البدر) وإن لم يكن مثلاًهما في ضيائهما ولا عظمهما، وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه، وهو الحسن، وعلى هذا قول الله عزَّ وجَّهَ «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ» [الشورى: ٣٢] إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها، لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو^(٢).

وطرفا التشبيه إما حسَّيَانٌ وإما عقليَان، وقد يكونان مختلفين:

١- تشبيه المحسوس بالمحسوس:

ومن ذلك قوله ﷺ: «المرأة كالضلوع، إن أقمنتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»^(٣).

وقوله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلؤ، ومثل المُنافق الذي

^(١) انظر نقد الشعر ص ٧٧-٧٨.

^(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٣٩، وانظر هذه الفكرة عند الجاحظ في الحيوان ٢١١/١ وعند ابن أبي الأصبع في تحرير التحبير ص ١٦١.

^(٣) البخاري، في النكاح، باب المداراة مع النساء وقول النبي ﷺ: «إنما المرأة كالضلوع»، حديث (٤٨٩) ومسلم، في الرضاع، باب الوصية بالنساء، حديث (١٤٦٨). (كالضلوع): هي واحد الأضلاع، وهي

يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر^(١).

أثار النَّصُّ حاسَّة البصر في المئيات المذكورة، وحاسَّة الشِّمْ في رائحة الأترجَة والريحانة، وحاسَّة الذوق في طعم الأترجَة والتمرة، فقدَم في هذا الحديث لوحة متعددة المشاهد، قائمة على فن التشبيه المبِرُز للملامح الحسِّيَّة، فشَّة مشهد الطعم والرائحة في المؤمن قارئ القرآن، ومشهد الطعم من غير رائحة في المؤمن غير القارئ، ومشهد المراة في المنافق غير القارئ.

ومن ذلك قوله: ﴿مَثُلَ الْمُؤْمِنُ كَمَثُلِ الْخَاتِمِ مِنَ الرَّزْعِ، مِنْ حِبْطِ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَهَا، إِذَا اعْتَدَلَتْ تَكْفُأُ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَقَةِ، صَمَاءً مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ﴾^(٢).

وقوله: «مَثُلُ الْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتِ الْحَرَبِ فِي الظَّاهِرِ، إِذَا دَخَلَهُ وَجَدَهُ مُؤْنَفًا، وَمَثُلَ الْفَاجِرِ كَمَثُلِ الْقَبْرِ الْمُشَرِّفِ الْمُحَصَّصِ، يُعِجِّبُ مَنْ رَأَهُ، وَجَوْفُهُ مُمْتَلِئٌ نَّسْنَأً»^(٣).

(١) البخاري في الأطعمة، باب ذكر الطعام، (٥١١)، ومسلم، في صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن، (٧٩٧).

(٢) البخاري، في المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض، (٥٣٢)، مسلم، في صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع، (٢٨١٠). تكفا بالبلاء: تقلب بالمحصصة، أي المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله تعالى، فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله تعالى، فانقلب البلاء خيراً ورحمة. صماء: صلبة شديدة. يقصيمها: من القسم، وهو الكسر مع الإبابة، أي فصل الأجزاء بعضها عن بعض.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي، باب إخلاص العمل لله وترك الرياء، (٦٥٤). مونقاً: معجباً حسناً.

٢ - تشبيه المعقول بالمعقول: ويطلق عليه تشبيه المعنوي بالمعنى

ومنه تشبيه النبي ﷺ الصدقة عند الموت: عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«مَثُلُ الْذِي يُعْتَقُ عِنْدَ الْمَوْتِ كَمَثُلِ الْذِي يُهَدِّي إِذَا شَيَّعَ»^(١).

«إِذَا شَرَعَ التَّشْبِيهُ مِنْ طَبِيعَةِ نَفْسِيَّةٍ ضَعِيفَةٍ، حَيْثُ إِلَهَاءُ عَنِ الشَّيْءِ، لِلدلَالَةِ عَلَى

فضل التَّقْرُبِ إِلَى اللهِ الَّذِي يَكُونُ فِي أَقْلَمِ الْثَّوَابِ، لِأَنَّ كَمَالَ الْعَطَاءِ مَعَ الصَّحَّةِ وَالْحَاجَةِ»^(٢).

وقوله ﷺ: «وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ التَّبَرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(٣).

ومنه ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثُلُ أَصْحَاحِيَّ كَمَثُلِ

الملح في الطعام، لا يصلح الطعام إلا بالملح»^(٤).

قال الجرجاني في هذه الصورة: «فَإِنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لَا وَجْهَ هُنْهَا لِلتَّشْبِيهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ

الصُّورَةِ الْعُقْلَيَّةِ، وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ يَصْلِحُونَ بَهْمَ كَمَا يَصْلِحُ الطَّعَامَ بِالْمَلْحِ، وَالشَّبَهُ بَيْنَ صَلَاحِ

الْعَامَةِ بِالخَاصَّةِ وَبَيْنَ صَلَاحِ الطَّعَامِ بِالْمَلْحِ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ مَحْسُوسًا»^(٥).

٣ - تشبيه المعقول بالمحسوس:

وهو كثير في الحديث النبوى، فالإنسان بطبيعة ينفر من الغامض، والنفس تبحث عن ما هو قريب محسوس، والناس أقدر على تمثيل المآدىات من الأمور المعنوية، وتزداد أهمية هذا النوع من التشبيه في الحديث النبوى لكثرة المعايير الذهنية الجديدة على الأفهام، كالثواب

(١) سنن الترمذى، فى الوصايا، باب ما جاء فى الرجل يتصدق أو يعتق، (٢١٤).

(٢) الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ١٧٧.

(٣) البخارى، فى الأنبياء، باب قول الله: «وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا» (٣٢٣٠)، ومسلم فى فضائل الصحابة،

فضائل خديجة أم المؤمنين، (٢٤٣١). الشريد: الخبز المكسر الذى وضع عليه اللحم والمقر.

(٤) مسنند البزار ٢/٣٥٥ مسنند أنس، (٦٦٩٨) قال الهيثمي: «رواه أبو يعلى والبزار بصحبه، وفيه إسماعيل

بن مسلم وهو ضعيف». جمجم الزوائد ٩/٧٣٩.

(٥) أسرار البلاغة ص ٧٠.

والعقاب والذنوب وغير ذلك، فضلاً عن الجوانب الغيبية التي شغلت حيّاً واسعاً في البيان النبوى، وكان التشبيه كفياً بامتلاك القلوب تأثراً، وشغل العقول إيقاناً.

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا وإن الغضب حمرة في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟! فمن أحسن بشيء من ذلك فليصدق بالأرض»^(١).

فالغضب إحساس شعوري، ماهيته شدة الانفعال النفسي والغليان الشعوري، ولا يمكن للكلمات أن تؤدي وصفه إذا لم تتكلل بصورة تشبيهية حسبية، تثير في النفس تخيله وتصوره، فتنطبع في الذهن واضحة مرئية.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَيْتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثَدِيْهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُفِيقُ إِلَّا سَبَعَتْ، أَوْ وَفَرَّتْ عَلَى جَلْدِهِ، حَتَّى تُخْفَى بَيْتَهُ وَتَعْفُوَ أَثْرُهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُفِيقَ شَيْئاً إِلَّا لَرَقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مِكَائِهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَسْعِ»^(٢).

«لقد شبه طفان بطرفين، وهو تشبيه متعدد قد أحال المتصدق مشهداً، والبخيل مشهداً آخر، وللحظة إبعاد توهם التلامح بقوله (مثل كمثل) إذ أضيفت الكاف إلى مثل، كما تعرف قيمة هذا في قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١] فلا يوجد له مثيل، ولا شبه لمثيل، تعالى الله، وتزهّت أسماؤه»^(٣).

فالصورة تحتاج إلى تفكّر وإمعان نظر لمعرفة تفصيلات اللوحة، وجزئيات المعنى وصولاً إلى تلمس الوجوه المتشابهة، بعيداً عن توهّم التطابق النام بين الطرفين.

(١) الترمذى فى الفتن، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيمة (٢١٩٢).

(٢) البخارى، فى الزكاة، باب المتصدق والبخيل، (١٣٧٥) ومسلم، فى الزكاة، باب المنفق والبخيل، (١٠٢١).

(٣) الصورة الفنية فى الحديث النبوى ص ١٥٤ .

ونظير ذلك ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «مَثَلُ الْجَلِيلِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيلِ السُّوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكَبِيرِ الْخَدَادِ، لَا يَعْدُمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتِرِيهِ أَوْ تَجْدُّدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْخَدَادِ يُحْرِقُ بِدِنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجْدُّدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثًا»^(١).

ثانياً - بالنسبة إلى وجه الشبه:

معلوم أن وجه الشبه هو المعنى الذي يلاحظه المتكلم للجمع بين المشبه والمشبه به، فإما أن يكون مفرداً أو متعددأ، وإما أن يأتي صورةً متنوعةً من أشياء متعددة، ومن ثم فالتشبيه من هذه الجهة إما تمثيل، وإما غير تمثيل، وما أكثر التّنويع في الحديث النبوى.

- فقد تأتي الصورة التشبيهية سريعة موجزة، تدلّى بالمعانى الكثيرة في صورة لطيفة تختزن المعنى، وتطلق عنان الفكر ومساحات الخيال في الوصول إلى المعانى المرادة .

ومن ذلك قوله ﷺ : «مَثَلُ الْبَيْتِ -الذِي يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ وَالْبَيْتُ -الذِي لَا يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٢) وفي حديث موسى والحضر الطويل: «مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعَلِمْكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِنَقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»^(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: تذاكرنا ليلة القدر عند رسول الله ﷺ فقال: «أَيُّكُمْ يَذَكُّرُ حِينَ طَلَعَ الْقَمَرُ وَهُوَ مِثْلُ شَقْ جَهَنَّمَةِ؟»^(٤).

- وقد تتنوع الصورة من متعدد كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فاقْرُؤُوهُ وَأَقْرِئُوهُ ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعْلَمَهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ

(١) البخاري، في البيوع، باب في العطار وبيع المسك، (١٩٩٥).

(٢) مسلم، في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، (٧٧٩).

(٣) البخاري، في الأنبياء، باب حديث الحضر مع موسى عليهما السلام، (٣٢١٩).

(٤) مسلم، في الصيام، باب فضل ليلة القدر، (١١٧٠).

حرابٍ محسُواً مسَاكًا بفوحٍ بريحةٍ كلَّ مكانٍ، ومثلٌ من تعلَّمَهُ فريقٌ وهو في حوفةٍ كمثلٍ حرابٍ
وَكَيْ عَلَى مِسْكٍ»^(١).

ويكثر في الحديث النبوى التّشبّيه القائم على التّمثيل، - هو ما كان وجه الشّبه فيه صورة متزرعة من أشياء متعددة - ويتجلّى في البيان النبوى في لوحٍ تتقدّع فيها المشاهد، ونلتّمس فيها الحركات أحياناً، والألوان أحياناً أخرى.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي : ﷺ «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَاتِمِ مِنَ الزَّرَعِ مِنْ حِيزْ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَهَا، إِذَا اعْتَدَلَتْ تَكْفُأُ بِالْبَلَاءِ، وَالْفَاجِرُ كَالْأَرْزَةِ، صَمَاءٌ مَعْتَدِلٌ حَتَّى يَقْصُمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ»^(٢).

وعنه أيضاً عن النبي : ﷺ «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلٍ تَرَهُ مِنْ كَسْبٍ طَيْبٍ، وَلَا يَصْنَعُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا طَيْبٌ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَعَبَّلُهَا يَمِينَهُ ثُمَّ يُرِيُّهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرِيُّ أَحَدُكُمْ قُلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٣).

ويتميّز التّمثيل في كثيير من وجوهه في شكل التّصوير الفّصصي، وتكون جزئيات الصّورة بمحازية التّعبير، بحيث يكون المشبّه به قصّةً تستدعي الذهن إلى المقارنة بين حالين، وتلتّمس عناصر التّشابك المعنوي، وهذا النوع من التّمثيل يشغل مساحةً مهمةً من البيان النبوى، جديرةً بالوقوف على جماليتها وعوالمها المعنوية، ونكتفي - لضيق المقام - بعرض نماذج منها:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعْثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعْنَيِّ، وَإِنِّي أَنَا التَّدِيرُ الْعَرْبِيَّانُ، فَالنَّجَاءَ

^(١) سنن الترمذى، في فضائل القرآن، باب في فضل سورة البقرة وأية الكرسي، (٢٨٧٦).

^(٢) سبق تخرجه.

^(٣) البخارى، في التوحيد، باب قول الله تعالى «تَرَجَّعَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ»، (٦٩٩٣) .

النَّحَاءِ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ، فَأَدْجَوْا عَلَى مَهْلِهِمْ، فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ، فَصَبَّحُهُمُ الْجَيْشُ
فَاجْتَاهُمْ»^(١).

فالنَّذيرُ هو النَّبِيُّ ﷺ، وطاعةُ الْقَوْمِ هي طاعةُ اللهِ وامتنالُ أَمْرِهِ، والْمَالُ كُونٌ هُم مِنْ
أَعْرَضٍ عن رسالتِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَذَبَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ النَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي
خُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلٌ قَوْمٌ اسْتَهْمَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا، وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي
أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمْرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا، فَتَأَذَّرُوا بِهِ، فَأَنْجَذَ فَأَسَأَ،
فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَالِكٌ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُ بِي، وَلَا بَدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ
أَخْدُنَا عَلَى يَدِيهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَوْا أَنفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرْكُوهُ أَهْلُكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنفُسَهُمْ»^(٢).

إِنَّمَا قَضِيَّةُ تَشْرِيعِيَّةِ تَحْدِيدِ الْحَرَبَةِ الشَّخْصِيَّةِ وَحَقْوقِ الْآخَرِينَ، وَلَمْ يَأْتِ هَذَا الْمَبْدَأُ فِي
صُورَةٍ تَقْرِيرِيَّةٍ، بَلْ بِجَأْيِ الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ إِلَى الصُّورَةِ الْفَنِيَّةِ الَّتِي أَلْقَتْ ضَيَاءَهَا الْكَاشِفَةَ عَلَى هَذِهِ
الْحَقِيقَةِ.

وَأَحِيَا نَا يَخْتِمُ الْبَيَانُ النَّبَوِيُّ الصُّورَةَ بِتَذْيِيلٍ يُوضِّحُهَا، وَيَعُودُ إِلَى الْمُشَبِّهِ لِيَقْرِرُ الْحَقِيقَةَ،
وَيُظْهِرُ الْمَرَادُ مِنَ الْمُشَبِّهِ بِهِ. فَقَدْ رَوَى أَبُو هَرِيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ
كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقْعُدُ فِي التَّارِ
يَقْعُنُ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَعْلِمُهُنَّ، فَيَقْتَحِمُنَّ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِمَحْكُومِكُمْ عَنِ التَّارِ، وَأَنْتُمْ
تَحَمَّلُونَ فِيهَا»^(٣).

(١) البخاري، في الرفاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٦١٧).

(٢) البخاري، في الشهادات، باب القرعة في المشكلات، (٢٥٤٠) المدهن: الرأي المضيع للحقوق ولا
يغير المنكر، من الإدهان، وهو المحاباة في غير حق.

(٣) البخاري، في الرفاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١٨).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثْلِي وَمَثْلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثْلِ رَجُلٍ
بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعُ لَبْنَةٍ مِنْ زَوَابِهِ مِنْ زَوَابِهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطْوَفُونَ بِهِ
وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ الْلَّبْنَةُ، فَأَنَا الْلَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

خصائص التشبيه في الحديث النبوى الشريف:

أشرنا سابقاً إلى تميُّز البلاغة النبوية ووجوب تفريقتها عن سواها من أنواع الخطاب، فهي
بلاغة حقيقة، تنطلق منها، وتأسس عليها، وتحدُّف إلى غاية تعليمية تشريعية، وتحصل من
البعد الجمالي وسيلةً تحسينيةً للإيضاح والتأثير، ثم التمكين.

ويجب أن لا ننسى في هذا السياق طبيعة المتكلم النفسي، صاحب البيان ومبلغ الوحي
ﷺ، الرؤوف الرحيم، الحريص على تبليغ ما أمر به ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم تلزم الإشارة إلى طبيعة الرسالة وماهية المضامين التي اكتنفتها البلاغة النبوية، إذ هي
دعوة إلى الحنيفة السمحاء، المتفقة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي رسالة إنسانية
خالدة لكل زمان ومكان.

ومن هنا يمكن أن نتلمس بعض خصائص التشبيه في البيان النبوى، بحملها فيما يأتي:

- استمداد عناصر التشبيه من الطبيعة، ومن حياة العربي اليومية، فالتشبيهات
النبوية غير مقيدة ببيئة معينة أو عصر دون عصر، بل هي تشبيهات عامة تستمد أجزاءها من
الكون، فيعقلها ويدرك جمالها والمراد منها كُلُّ مَنْ يسمعها، فالماء الذي ينزل من السماء،
والزرع الذي ينبع من الأرض، وغير ذلك من عناصر الطبيعة هي المكونات التي اعتمد عليه
البيان النبوى في إظهار المعانى؛ لأنَّ خطابَ تبليغٍ يريد أن يصل به إلى الناس كافةً، على
اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم.

(١) البخاري، في المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٢٢٨٦) ومسلم، في الفضائل ، باب ذكر كونه ﷺ خاتم
النبيين، (٢٢٨٦).

فمن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِن الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يُسْقَطُ وَرْقُهَا، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدَّثَنَا مَا هِيَ؟»، قال: فوق الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: فوقع في نفسي أكمل النخلة، ثم قالوا: حَدَّثَنَا مَا هِيَ يا رسول الله. قال: «هِيَ النَّخْلَةُ».^(١)

وعنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْإِبْلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ».^(٢)

وما مرّ سابقاً: «مَثَلُهَا بِعَنْتَنِ اللَّهِ بَهْ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْرِ ...».

وفي حديث المراج: «قَمْ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُتَهَىِّ، فَإِذَا تَبَقَّهَا مَثَلٌ قِلَالٍ هَجَرَ، وَإِذَا أُورَاقُهَا مَثَلٌ آذَانُ الْفَيْلَةِ».^(٣)

٢ - التشبيه هو أساس المعنى، وليس جزءاً إضافياً للتوضيح والتفصير، بل المعنى مندرج في الصورة، إذ هو هي، ويكون المعنى في فهم جزئيات الصورة، ومثال هذه المزية هو كل تشبيه نبوي.

٣ - الرابط بين الأساس العقلي والأساس النفسي في الصورة التشبيهية: فالصورة التشبيهية هي خطاب موجه للإنسان بكلّيته، تتلطّف وصولاً إلى كينونته عقلاً وقلباً وروحاً. ويتضمن الأساس العقلي الرابط بين طرفي التشبيه، ويكون الأساس النفسي في الإيحاءات التي تمتلك النفس من خلال الظلّال الكاشفة للمعاني.

(١) البخاري، في العلم، باب قول المحدث حدثنا أو أحبرنا، (٦١).

(٢) البخاري، في فضائل القرآن، باب استذكار القرآن، (٤٧٤٣).

(٣) البخاري، في فضائل الصحابة، باب المراج (٣٦٧٤). نقها: حملها وثمرها، قلال: جرار معروفة عند المخاطبين ومعلومة القدر عندهم.

ومن ذلك ما نبيه - مثلاً - في ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «لا يصدق أحدٌ بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيديه، فيريها كما يري أحدكم فلوه أو قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم»^(١)

وعن أبي ثعلبة الحشني رضي الله عنه، عن النبي ﷺ : «... فإن من ورائكم أيام الصبر فيها مثل القبض على الجمر، للعامل فيه مثل أجرا خمسين رجلاً»^(٢).

٤ - الدقة والإحكام في التشبيه:

ولمّا كانت غاية البيان النبوى التبليغ والتبيين وتفكير الحقيقة استدعاى ذلك أن تكون أخص خصائصه الدقة ووضوح أجزائه، فهو ليس بلاغة خيالٍ وهوى، بل إن المعنى الذي يحمله التشبيه محاط بالحقيقة من جميع أطرافها، فلا حاجة للإضافة عليها، فلا تناقض ولا غموض. وتحلى هذه الخاصية في:

أ - وصف المشبه به أحياناً، كقوله : ﷺ «إنما مثل صاحب القرآن كصاحب الإبل المعقّلة»^(٣) وقوله ﷺ : « وإن هذا المال خضراء حلوة ...»^(٤).

ب - الدقة في اختيار اللفظ مع إيجازه: إن المتبع لجواب كلم النبي ﷺ يدرك هذه المزئنة، كقوله ﷺ : «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(٥).
و «يدخل الجنة أقوام أفتادُهم مثل أفتادَ الطير»^(٦).

^(١) مسلم، في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، (١٠١٤). فلوه: مهره، وهو الصغير من الخيل. قلوصه: هي الناقة الفتية، ولا يطلق على الذكر.

^(٢) سنن الترمذى، باب سورة المائدة، حديث (٣٥٨).

^(٣) سبق تخرجه.

^(٤) البخارى، في الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، (١٣٩٦).

^(٥) سبق تخرجه.

^(٦) مسلم، في صفة الجنة والنار، باب يدخل الجنة أقوام (٢٨٤٠).

ج - التدقيق في استعمال صيغة التشبيه، مع ذكر الأداة أو إخفائها، والتنوع في عرض وجه المشبه، وتصويره - كما سبق بيانه - .

٥- تنوع التشبيهات طولاً وإيجازاً : فأما الإيجاز فحيث تكون الصورة موحية بالتلالم والتتسارع في الربط بين الطرفين.

وأمثلته كثيرة في البيان النبوى كقوله ﷺ : «الصَّلَادُ نُورٌ، والصَّبَرُ ضِيَاءً، والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»^(١) وقوله ﷺ : «العَصَبُ جَرَّةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ»^(٢) و«الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَائِهَا، وَتَنْصَعُ طَيْبَاهَا»^(٣) و«يَحْمُدُونَ النَّاسَ كَإِبَالٍ مِثْلِهِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(٤).
وتطول الصورة التشبيهية أحياناً لتتضمن لوحة جميلة، تتضمن الألوان وتمور فيها الحركات، وتشكل توجيهاً للتخيل، وحضاً على تصور الجزئيات، والأمثلة كثيرة منها قوله : ﷺ «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأَنْجِيَّةِ ...»^(٥).

وقوله : ﷺ «مَثَلُ مَا بَعَنِي بِهِ اللَّهُ مِنَ الْهَدِىِّ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْرِ ...».

٦- الفكرة هي الأساس في الصورة التشبيهية والوسيلة البينية تابعة لها؛ فال فكرة تظل صاحبة الشأن وحدها ممتلكة لما يغلفها من ظلال، فالقلب يقهر القالب، والمضمون يتجلى في الشكل المناسب^(٦).

ولذلك نجد أن البيان النبوى قد لا يعني بجمال المشبه به، بل المعول عليه في الصورة التشبيهية أداء المعنى أتمّ أداء، ومن ثم اختيار ما يتلاءم مع الفكرة من وسائل.

(١) سبق تخرجه.

(٢) سبق تخرجه.

(٣) البخاري، في فضائل المدينة، باب المدينة تبني الخبر، (١٧٨٤).

(٤) سبق تخرجه.

(٥) سبق تخرجه.

(٦) انظر الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ١٤٧.

ومن ذلك تعبيره عن حال الكافر يوم القيمة في ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ضرس الكافر يوم القيمة مثل أحدي، وفحله مثل البيضاء، ومقعده في النار مسيرة ثلاثة مثل الريذة»^(١).

وانظر إلى قوله ﷺ: «... وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشتوى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدّ إلى، فكان يعمل يؤدّى إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبداً كذلك؟»^(٢).

أغراض التشبيه ووظائفه

مهما اختلفت أغراض البيان النبوى فإنها تؤول إلى الغاية العظمى، ألا وهي الإبلاغ والتبيين. وفي سبيل هذه الغاية يمكن أن نشير إلى بعض الأغراض التي أسست تلك الوسائل الجمالية، وانسبكت في سياقها، ونذكر منها:

١- التوضيح والتأخير:

إن اعتماد الحديث النبوى على التشبيه لتوضيح بلاغه وتبیانه جعل تشبيهاته قائمةً على مرئيات الناس، وموافقةً لمفهوماً لهم، ومن ثم كانت العلاقة بين البعد الجمالي والتوضيح والتأثير تبادلية، فهو واضح في سماته، مؤثرٌ مبين في غاياته ووظائفه، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقْعُنُ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْرَعُهُنَّ وَيَنْلِيَهُ، فَيَقْتَحِمُنَّ فِيهَا، فَأَنَا أَحُدُّ حُجَّرَكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْحَمُونَ فِيهَا»^(٣).

(١) سنن الترمذى، في صفة جهنم، باب عظم أهل النار، (٢٥٧٨). مثل الريذة: كما بين المدينة والريذة، والبيضاء جبل مثل أحد.

(٢) سنن الترمذى، في الأمثال، باب مثل الصلاة والصيام والصدقة، (٢٨٦٣).

(٣) البخارى، في الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٦١١٨) ومسلم، في الفضائل، باب شفنته ﷺ على أمته، (٢٢٨٤).

وكل حديث نبوي فيه تشبيه يصلاح شاهداً لهذه الحقيقة.

٢ - الترغيب بالخير، من خلال اختيار الوسيلة الجمالية التي تحذب النفس وتشغل القلب، وانتقاء المشبه به هو الأساس في انبعاث الشوق إلى فعل ما يوازي صورة المشبه به جمالاً وحسناً، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مَئَةَ مَرَةٍ خُطِّطَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلُ زَيْدِ الْبَحْرِ»^(١).

وما رواه أبو هريرة أيضاً عن النبي ﷺ: «مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةً مِنْ بَيْتِهِ، وَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ تَبَعَّهَا حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيراطٌ مِنْ أَجْرٍ، كُلُّ قِيراطٍ مِثْلُ أَخْدِيٍّ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَخْدِيٍّ»^(٢).

٣ - تزيين المشبه به لإظهار حُسْنِ حالٍ من يدلُّ عليه:

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَوْءُ وُجُوهِهِمْ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الْقَمَرِ لِيَلَةَ الْبَدْرِ، وَالْزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ عَلَى مِثْلِ أَحْسَنِ كَوْكِبٍ دَرَّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لَكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجٌ، عَلَى كُلِّ زَوْجٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يَدْوِي مُحْمَّسٌ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا»^(٣).

ومثله ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْمَرِيضِ إِذَا بَرَأَ وَصَحَّ كَالْبَرَدَةِ تَقَعُّ مِنَ السَّمَاءِ فِي صَفَائِهَا وَلَوْنَهَا»^(٤).

وعنه أيضاً فيما يرويه عن أم حرام بنت ملحان: «فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ اسْتَيقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يَضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَاسٌ مِنْ أَمْمَتِي عَرَضُوا عَلَيَّ غُرَاءً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَّاجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرَةِ، – أَوْ – مَثَلُ الْمَلُوكِ عَلَى

(١) البخاري، في الدعوات، باب فضل التسبيح، (٦٠٤٢).

(٢) مسلم، في الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز، (٩٤٥).

(٣) سنن الترمذى، في صفة الجنـة والرقائق والورع، باب في صفة نساء أهل الجنـة، (٢٥٣٥).

(٤) سنن الترمذى، في الطـب، باب التداوى بالرماد، (٢٠٨٦).

الأُسْرَة» (شك إسحاق) قال: فقلت : يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله ﷺ، ثم وضع رأسه ...»^(١).

٤ - الترهيب والتحذير: عن طريق الإيحاءات النفسية التي يلقي ظلها المشبه به، إذ تنفر النفس من الشر، وتتولد الخشية من ارتكاب المنهي عنه من خلال إدراك الصورة. ومن ذلك ما روتته ميمونة بنت سعد عن النبي ﷺ: «مَثَلُ الرَّافِلَةِ فِي الزَّيْنَةِ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا كَمْلَى طَلْمَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وفي حديثه ﷺ - في وصف جهنم - : «... وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبٌ مُثْلُ شُوكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شُوكَ السَّعْدَانِ؟» قالوا: نعم، قال: «فَإِنَّهَا مُثْلُ شُوكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخْطُفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ»^(٣).

٥ - تقبیح الصورة من خلال اختيار المشبه به الذي تنفر النفس منه، ومن ذلك ما رواه أبو المليح عن رجلٍ قال: كنت رديف النبي ﷺ ، فعثرت دابّة، فقلت: تعيس الشيطان، فقال: «لا تُقْتَلُ: تعيس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاعر حتى يكون مثل الدبّاب»^(٤).

^(١) البخاري، في الجهاد والسير، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال، (٢٦٣٦). ثبج هذا البحر: وسطه وظهوره. الأسرة: جمع سرير، يجلس عليه الملوك وأمثالهم ولمعنى أنهم لا يبالون في ركوبهم البحر في سبيل الله تعالى بشيء، وفيه إشارة إلى منازلهم في الجنة، وأنهم على سرر متقابلين.

^(٢) سنن الترمذى، في الرضاع، باب كراهة خروج النساء في الزينة، (١١٦٨). الرافلة: هي التي ترفل في ثوبيها أي تتبعثر، والرفل: الذيل، ورفل إزاره إذا أسلله وتبختر فيه.

^(٣) صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب فضل السجود، حديث (٧٧٣). السعدان: بنت له شوك.

^(٤) سنن أبي داود، كتاب الأدب، حديث (٤٩٨٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي : ﷺ «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه»^(١)
وفي هذا المعنى وما يخيله تنفير شديد تزجر النفس من خلال تمثيله عن فعل أدنى عمل يقارب المنهي عنه، الممثل له بهذه الصورة الموجية.



^(١) صحيح البخاري، كتاب المبة، باب لا يحمل لأحد يرجع في هبته وصدقته، حديث (٢٤٧٩).

المبحث الثاني الاستعارة في الحديث النبوى

إذا كان للصورة التشبيهية فضيلتها الأثيرة في الإيضاح والتأثير والإقناع والإمتناع، فلاغر أن يكون للاستعارة الحظُّ الأولي في تقرير المعنى وتوطيد الأواصر بين الطرفين. ففي الاستعارة تكشف في يعبر عن طاقة تخيلية هائلة، كما أن فيها تكويناً جديداً للغة، يقدم أفكاراً جديدة ودلالاتٍ جماليةً، وهي وسيلة ناجعة للنظر إلى بوطن الأشياء^(١). والاستعارة - كما هو معلوم - استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع القرينة المانعة. فهي إذا منبتقة عن التشبيه، بل إنها تشيبة مضمر في النفس، نحذف أحد طرفيه، وندعى أن أحد طرفيه هو عين الآخر.

يقول عبد القاهر الجرجاني: «فالاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجه كما ترى، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به، لقصدك أن تبالغ فيه، فتضيع اللفظ بحيث يخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور، كي تقوّي أمر المشابهة وتشدّده»^(٢). ولعل المهم في دراسة الاستعارة العناية بالجوانب النفسية، والوقوف على مدى حيوية الفكرة في الصورة الاستعارية، والأفق المعنوية التي تنطلق الاستعارة في فضاءاتها.

وهذا ما يقودنا إلى العدول قليلاً عن المنهج المدرسي التقليدي في تقرير نوع الاستعارة، والاهتمام بالجوانب التأكيدية التطبيقية التي تعطي النص ما يستحق من التحليل وإبراز الجمال. ونلتمس من خلال الأمثلة المخزون المعنوي والنفسي في الاستعارات النبوية، التي لم تكن تجميلاً أو تكلفاً، بل كانت ارتقاءً استعماليّاً في توضيح المعنى وتقريره وفتح آفاقه.

^(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ١٩٣ .

^(٢) أسرار البلاغة ص ٢٤٢ .

ومن الأمثلة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّكُمْ سَتُحِرِّصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسْتَكُونُ نَذَامًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي عَمَّ الْمُرْضِعَةِ، وَبَيْسَتِ الْفَاطِمَةِ»^(١).

لقد أضفى البيان النبوى على المحرّدات الملامح البشرية، فشخصّتها في صورة موحية مؤثرة، من خلال استعاراتين مفسّرتين للمعنى، منهّتين للإحساس والشعور.

قال القاضي عياض في شرح الحديث: ««وَشَبَّهَ الْوَلَايَةَ بِالْمُرْضِعَةِ، وَانْقِطَاعُهَا بِمَوْتِ أَوْ عَزْلِ الْفَاطِمَةِ، أَيْ نَعْمَتِ الْمُرْضِعَةِ الْوَلَايَةَ، فَإِنَّهَا تَدْرِرُ عَلَيْكَ الْمَنَافِعَ وَاللَّذَّاتِ الْعَاجِلَةِ، وَبَيْسَتِ الْفَاطِمَةِ الْمُنْبَأَةِ، فَإِنَّهَا تَقْطَعُ عَنْكَ تَلْكَ الْلَّذَائِذَ وَالْمَنَافِعَ، وَتَبْقَى عَلَيْكَ الْحَسْرَةَ وَالْتَّبَعَةَ، فَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْمَمْ بِلَذَّةِ تَبَعَّهَا حَسَرَاتٍ»^(٢).

ويكمن حُسْنُ تشبّهِ الإِمَارَةِ بِالْمُرْضِعَةِ في ما تتصوّرهُ من اللجوء العظيم للراضع إلى ما يكلاً روحه، ويغذّي بدنه، إذ يسري اللبن الذيّد إلى النفس في العروق، فيتغلّل في أنحاء الجسم، ويترّقّبُ عليها، وحينذاك يتمكّن في الذهن تصوّرُ المنافع الدُّنيوية التي ينالها صاحب الولادة وحرصه على اكتساب المزيد منها، مع تلذّذه النفسي بالحصول عليها.

ثم يستلتفت الحديثُ الذهنَ إلى صورة مقابلة سريعة تصوّرُ بتضادّها النهاية للتعلق بالدنيا والمكاسب العاجلة، وذلك بإشراك الذهن والحواس والشعور في تكثيف في يعلو على الأسلوب التقريري والتفصيل التوضيحي.

إننا نلحظ في كلٍّ من هاتين الاستعاراتين تلاحمًا بين الطرفين، وهو ما يُبرّز جمالهما وقيمهما.

والأصلّة في الاستعارة أن لا يجد طرفين ثابتين متمايزين، بل طرفين يتفاعل كلُّ منهما مع الآخر، بحيث يفقد كُلُّ طرف شيئاً من معناه الأصلي، ويكتسب معنى جديداً نتيجة

(١) البخاري، في الأحكام، باب ما يكره من المحرص على الإماراة، (٦٧٢٩).

(٢) فيض القدير / ١٩٩٧.

لتفاعله مع الطرف الآخر، داخل سياق الاستعارة الذي يتفاعل بدوره مع السياق في ما يسمى التلامُح والإدماج والتماهي^(١).

ونلاحظ هذا التلامُح أو التماهي فضلاً عن إثارة الحواسِ والذهن في ما رواه أبو عتبة عن النبي : ﷺ «إذا أرَادَ اللَّهُ بَعْدِ خَيْرًا عَسْلَهُ» قيل له: يا رسول الله، وما عَسْلَهُ؟ قال: «يُفَتَّحُ لَهُ بَيْنَ يَدِيهِ مَوْتَهُ عَمَلًا صَالِحًا يُرْضِي حَتَّى يُرْضَى عَنْهُ مَنْ حَوْلَهُ»^(٢).

«وهو مأخوذ من العسل كما يقول القائل: عَسْلَتِ الطَّعَامُ إِذَا جَعَلْتَ فِيهِ عَسَلًا، وَسَعَّتْهُ إِذَا جَعَلْتَ فِيهِ سَعَنًا، وَزَيَّتْهُ إِذَا جَعَلْتَ فِيهِ زَيْتًا، وَمَعْنِي عَسْلَهُ: جَعَلَ عَمَلَهُ حَلْوًا يَحْمَدُهُ الصَّالِحُونَ، وَيُرْضِيَ الْمُتَقْوِنَ، فَيَكُونُ كَالشَّيءِ الْمَعْسُولِ، الَّذِي يَسْوَغُ فِي الْمَهْوَاتِ، وَيَلْذُ عَلَى الْمَذَاقَاتِ»^(٣).

وتتعانق في هذه الاستعارة (عَسْلَهُ) الصورة الذوقية والإثارة النفسية مولدين تشكيلاً لفوياً يُحدث صِلاتٍ جديدة بين الحلاوة الحقيقة والحلاوة المعنوية المتمثلة في حسن العمل، في استعارة تصريحية تجعل المتلقِي يتفاعل مع الصورة التي لم يكن النبي ﷺ ليشكلها تزييناً للنفس أو تفْنِيناً في القول، بل تزييناً للمعنى، وإقناعاً للعقل، وتشويقاً للنفس، وإمتاعاً للقلب، وإثارة للخيال.

وتبرز في الحديث استعارة أخرى مكتبة في قوله عليه الصلاة والسلام «بَيْنَ يَدِيهِ» إذ يخَيِّلُ للذهن أن المَوْتَ شخصٌ له يدان، والمَوْتُ لا يَدْلِهُ في الحقيقة، فعبر ﷺ عن قرب الموت المتوقع بهذه الصورة الاستعارة ليشكّل في الذهن صورة حسِينَةً تتلقّاها العين والشعور معاً، في تلامِحٍ يلقي بظلالٍ غير محدودة على المعنى.

^(١) انظر الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ٢٠٦.

^(٢) مسند الفردوس ١/٧١ حديث (٩٤٥) والمجمع الأوسط للطبراني ٣٢٥/٣ (٣٢٩٨).

^(٣) المحازات النبوية ص ٢١.

وبعد النظر في هذين المثالين واستقراء الأمثلة النبوية في الصورة الاستعارة يمكننا أن نشير إلى نوعين من الاستعارة:

١ - الاستعارة الاسمية

٢ - الاستعارة الفعلية

موضّحين ما لكلٍّ منها من ميزات معنوية وطاقات تخيلية.

فمن الاسمية ما رواه عروة بن الجعدي عن النبي ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير

إلى يوم القيمة»^(١).

وقد وضّح الشريف الرضا المراد من هذا الربط بين الخيل والخير بقوله: «وهذا القول مجاز، لأنَّ الخير في الحقيقة ليس يصحُّ أن تُعَدَّ به نواصي الخيل، وإنما المراد أنَّ الخير كثيراً ما يُدرِك بها ويوصل إليه عليها، فهي كالوسائل إلى بلوغه، والأرشية^(٢) إلى قلبيه، فكأنه معقود بنواصيها لشدة ملازمته لها، وكثرة انتهاز فرصه بها، لأنهم عليها يدركون الطوائل ويجبون المغانم»^(٣).

وبهذا التحليل يظهر أنَّ البيان النبوى يشبّه بمحىء الخير بوساطة الخيل في أغلب الأحيان، وللامتنان لها بعقده بنواصيها في قربه منها، وللإمساك بها، واستعار العقد بالنواصي للمجيء بسرعة وقرب، فاشتقَّ من العقد معنى سرعة المجيء.

لقد أثارت هذه الصورة الاستعارية صورة ذهنية من خلال إثبات العلاقة بين الطرفين، في شكلٍ يُظْهر التلاحم واللصوق، حتى غدت العلاقة بين الخيل والخير واضحةً في صورة تخيلية تفتح آفاقاً جديدةً للمعنى.

^(١) البخاري، في الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، (٢٦٩٥).

^(٢) الأرشية: جمع رشاء، وهو الحبل.

^(٣) المحازات النبوية ص ٥٢ .

التلامِح حلياً في الإضافة في الاستعارة الاسمية، ولنلاحظ ذلك في ما رواه المُسْتَورِدُ بْنُ شَدَّادَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بَعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ»^(١).

وهكذا بتلاحمِ الطرفين نتصور أنَّ الساعة شخصٌ يتنفس، فقد اكتسبت كلمةُ (نَفْس) إيحاءاتٍ جديدةً بهذه الإضافة، وظهرت لنا صورة تشخيصية حرارية من خلال انتقاء عناصر الاستعارة، إذ النَّفْس الصادر من شخص لا يدرك أثره إلا حين الدُّنُو منه، والنَّفْس أيضاً يفيد الحرارة، التي يزداد الشعور بها كلما اقتربت من المتنفس.

وقد توقف الرافعي عند هذه الصورة مبيناً، فقال: «يريد أنه بُعثت وال الساعة قرية منه، فوصف ذلك باللفظة التي تدل على أدق معانٍ الحس بالشيء القريب، وهي لفظة النَّفْس، كما يحس المرء بأنفاس من يكون بإزاره، ولا يكون ذلك إلا على شدةِ القرب. وإنما أفرد اللحظة، ولم يقل: (بعثت في أنفاس الساعة) لأنها نفخة واحدة، وهذا معنى آخر، فإنَّ النفخة الشديدة متى جاءت من بعيد كانت كالنفس من الأنفاس، فالساعة من القرب كأنها من كل إنسان في آخر أنفاسه»^(٢).

وروى ابن عباس رضي الله عنهمَا قال: قال رجل : يا رسول الله، أيُّ العمل أحبُ إلى الله؟ فقال: «الحالُ المُرْتَحِلُ»، قال: وما الحالُ المُرْتَحِل؟ قال: «الذِي يضرِبُ من أُولى القرآن إلى آخره، كُلُّما حلَّ ارتحل»^(٣).

ينقلنا البيان البُوي إلى صورة حركية متنوعة في تشبيهه ختم القرآن بالحلول في المكان واستقراره فيه، وتشبيهه افتتاحه بالارتحال عن المكان في صورة نتخيّل فيها الانتقال من حال إلى حال.

(١) الترمذى، في الفتن، باب ما جاء في قول النبي ﷺ: (بعثت)، (٢٢١٤).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٣) سنن الترمذى، كتاب القراءات عن رسول الله ﷺ، حديث (٢٩٤٨).

وقد أظهر السُّرِّيُّ الشَّرِيفُ هذه الصورة بقوله: «وفي هذا الكلام مجاز، لأنَّه عليه الصلاة والسلام إنما أراد المُدَارِّم لِتلاوة القرآن، فهو يختتم ويُفتح، ويُسأَل ويُسأَن، فشبَّهَه عليه الصلاة والسلام بالمسافر المُحَدَّ، بينما ينزل حتَّى يرتحل، وبينما يسير حتَّى ينزل، فشبَّهَه عليه الصلاة والسلام ختم التلاوة بتنزول المنزل، وشبَّهَ استئنافها بسير المرتحل، وجعله مستمراً على هذه الطريقة أبداً، لا يرمي إلى غاية، ولا يقف عند نهاية»^(١).

وشبيه هذه الاستعارة قوله : ﷺ «إيَّاكُمْ وَخَضْرَاءِ الدَّمَنِ؛ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمَبَتِ السُّوءِ»^(٢) فقد شبَّهَ النبي ﷺ المرأة الحسناء بالروضة الحضرة لحسن مظهرها، وشبَّهَ منيتها السوء بالدمنة لقباحتها، والدمنة هي الأبعار المجتمعة التي تأتيها الريح وتُسَفِّرُ التراب عليها، فإذا أصابها المطر أنبت نباتاً خضراءً يرُوق منظره ويسُوء مظهره، فجعل النبي ﷺ مثل هذه النبتة الخضراء كمثل المرأة المطعون عليها في نسبها، الخامدة الذليلة في نفسها، فنهى عن نكاحها، لأنَّ أعراق السوء تنزع إلى ولدها، وتُضرِّبُ في نسبها^(٣).

لقد أحالتنا هذه الصورة الاستعارية إلى تمثيل المعنى من خلال صورة بصرية تُدَاهِّلُ
النفس والشعور في تصوُّرِ أصل هذه النبتة التي تخدع الإنسان بحسنها وجمال مظاهرها، فيرغُب
الإنسان بها، ويتشوّق للحصول عليها، وإذا به يُؤمَرُ بالابتعاد عنها، وبحدُّر من الانخداع
بمظاهرها، لأنَّ المظاهر يتناقض مع الخبر.

وهكذا نجد الجمال التصويري في الاستعارات الاسمية يوم المضمون، ويختلف اللفظ،
ويُفجِّر طاقات المعنى، ويُفتح آفاقاً رحبة لتمثيل أجزاء الصورة وما يوازيها من جوانب متنوعة
للمعنى.

^(١) المجازات النبوية ص ٩٦ .

^(٢) مسند الفردوس ١٠٩ / ١٥٣٧ حدیث (٩٥٧) ومسند الشهاب ٩٦ / ٢ حدیث (٩٥٧).

^(٣) انظر المجازات النبوية ص ٦١ .

وتأتي الاستعارات الفعلية في الحديث النبوي بجمليات أسلوبية أخرى، فهي وإن كانت كالاسمية في تحقيق التلازم والمزج بين عالمين، فإنها تُضفي الحركة على هذا المزج «لأن الفعل بطبيعته يرمي إلى الزمان والحركة، فإذا استعير من الشيء حيز الفعل فقد استعيرت حالته في لحظة الحركة التي تستطيع أن تكون بمجمم الفكرة المحسنة، وهذا إبعاد في إشراك المتلقى، لأن المتحرك يلفت النظر أكثر من الساكت»^(١).

ومن نماذج الاستعارة الفعلية في الحديث النبوي ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي : ﷺ «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَرُدْ يَخْوُضُ فِي الرَّحْمَةِ...»^(٢).

وعنده الخوض في الحديث صورةً صوتيةً متحركةً، تُبرز المهمة العالية عند عائد المريض، أما الرحمة، ذات المعنى الجرئ فقد غدت جسماً محسوساً متحركاً تثيره الحركات القوية التي يشيرها العائد، فهي تحيط به من كل جانب، لأنه حصل فعلاً على الثواب والرحمة من الله تعالى، وهذه الرحمة مستمرة كثيرة غير محددة، يتلمسها الذهن من خلال التخييل الذي أثارته كلمة (يخوض).

ثم إن في استقراره وجلوسه حركة ساكنة تجسمت فيها الرحمة ثابتة مستقرة فهو متنعم في أماكنها، مستقرة نفسه في أحضانها.

ومنه ما رواه أبو هريرة عن النبي : ﷺ «إِنَّ الإِيمَانَ لِيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهِ»^(٣).

^(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ص ٢٢١.

^(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٣٨٠/٣)، كتاب الجنائز، باب فضل العبادة (٦٣٧٥) ومسند الإمام أحمد (١٧٤/٣) (١٢٨٠٥).

^(٣) صحيح ابن حبان ٤٦/٩ باب فضل المدينة، حديث (٣٧٢٨).

إنها استعارة ييرز جمالها في جمال الحركة التي توحى بالمعنى، وُتخرج المعنى من إطاره الذهني إلى المحسوس التخيّل، بل إنها تجسّم المعانٍ في صورة تخيلية مفعمة بالحركة المقبسة من الواقع لتنطبع في الذهن راسمة المعنى المجرد في وضوح وجلاء.

إنه الإسلام الذي يأوي إلى المدينة التي هي « كالوجار^(۱) للإسلام يتخلص إليها وينضم إلى حماها، لأنها قطب مداره، ونقطة ارتكانه»^(۲)

ويقرب من هذه الاستعارة المصوّرة ما جاء في حديث الرّبّير بن العوّام رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمَمِ؛ الْحَسْدُ وَالْبَغْضَاءُ، هِيَ الْحَالَفَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِيقَ الشَّعْرِ، وَلَكِنْ تَحْلِيقَ الدِّينِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَافُوا، أَفَلَا أَبْيَّنُ لَكُمْ مَا يَبْثُ ذَاكُمْ لَكُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(۳).

فالصورة توحى بحركة المشي الخفيّ لهذه الأخلاق الفاسدة في قوله: «دَبَّ إِلَيْكُمْ» كما يوحى اختيار هذا الفعل بحصول هذه الحركة دون أن يُتنطّن لها إلا حين وصولها، كالمطر الداهم من الحشرات المؤذية حين لا يشعر أحد بقدومها، وإذا بها تَبَعَّت الناس حاملةً الأذى والفساد.

إنها صورة حسية واضحة، ما كان معنى هذين الداعين النفسيين أن يتوضّحا بحيثيات الابتلاء بهما ومعاناة خطرهما إلا بهذه اللوحة الأخاذة المتحركة.

ويكتمل وضوح الصورة بإظهاره أثر هذا الداء في حركة مستمرة أفادها استخدام صيغة المضارعة في حدث الترهيب والتخييف، «تحلّق الدين».

وييرز اهتمام البيان النبوي بالتنبيه إلى الاستعمال الاستعاري والعدول عن المعنى الأصلي المعهود في كون الحلقة للشعر، وإظهار فاعلية الاستعمال الجديد لل فعل وهو (تحلّق

(۱) حجر الضبع وغيرها.

(۲) المجازات النبوية ص ۱۰۹ .

(۳) سنن الترمذى، في صفة الجنة والرقائق والورع، (۲۵۱۰).

الدين)، وكذا نلتفت إلى دقة اختيار اللفظ في الحديث إذ استخدام (الحلق) لا يوحى بالاستعمال، وهذه الأخلاق الذميمة لا تستأصل الإيمان من القلب، بل إن الجذور باقية، والفطرة لم تمسّ، ولكن لا تعني شيئاً إذا لم تؤول إلى تطبيق عملي للدين.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ : «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدُ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَاكُلُّ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(١).

فالحسد ذلك الداء الذي يحمل صاحبه على الوقوع في جبائل الإثم، وازدراء نعم الله عليه، فيحيط عمله وتسقط حسناته، ويصير الحسد هو السبب في استحقاق العقاب وإحباط الثواب، وهذا المعنى قدّمه الحديث في صورة تشخيصية تمثل في حركة دائمة، فالحسد يلتهم الحسنات، في تكثيفٍ للمعنى، نرى من خلاله عالمين، أحددهما عناصره من المحرّدات (الحسد والحسنات) والآخر من المحسوسات (النار والخطب)، ولكن الحرارة واحدة وفاعليّة الإفشاء واحدة.

ولا شك أنَّ للحسد هيجاناً داخل الإنسان؛ يتغلغل في الشعور وينبذُ في الأعضاء، فترتفع حرارة الجسم، لبعده عن برد نفحات الإيمان، ودونه من لفحات الشيطان التيراني، وقد قال بعضهم: «ما رأيت ظلماً أشبه بمظلوم من الحاسد، نفسٌ يتتصعدُ، وزفيرٌ يتزددُ، وخُزنٌ يتتجددُ».

وهكذا - ومن خلال الأمثلة - تبرز الاستعارة المحتكمة إلى العقل، المكتملة في التخييل، تبرز بفيض في ونفسي، يسبغ على المعنى جلالاً وجمالاً، في سبيل التبليغ والتعليم، ثم الإقناع والتمكين.

^(١) سنن أبي داود، في الأدب، باب في الحسد، (٤٩٠٣).

ويمكن من خلال ما سبق من أمثلة وغيرها في الحديث النبوى أن نقف على بعض

خصائص الصورة الاستعارية في البيان النبوى، ونحملها فيما يأتى^(١):

١- الإبداع والجدة، فقد أتت الاستعارات النبوية غير مسبوقة، فتناقلها الأدباء عصراً

بعد عصر، وذهبت مثلاً في شتى الوسائل البلاغية.

٢- تناصب جدّة الصورة الاستعارية مع جدّة المضامين التي حملتها والحتوى الفكري

الجديد، ولمقاصد الدينية العليا التي أتى بها النبي ﷺ خلافاً للأساليب الشعرية التي تكرر
الأغراض والأنساق الفنية والصور والأخيلة.

٣- حافظت الاستعارة في الحديث النبوى على صفتها الجمالية، ومضمونها الفكري

الإسلامي، ومضمون الرسالة الذي حملته وتکفل الله بحفظه. إذ هي شرح مقاصد القرآن
الكريم، والحفظ اشتمل على المحتوى والتعبير اللذين لا ينفصمان.

٤- تکمن جمالية الاستعارة في الحديث النبوى في عمق المجاز الذي يحتوي الفكرة

تماماً، وفي إدراك مبدعه لأهميته وفاعليته.

٥- قدرة الاستعارات النبوية على الإيضاح والتأثير، إذ يدرك المتخصص تميّزها وجمالها

وبراعتها، ويعي المتلقى العادي معناها، ويتأثر بيحاجءاتها.

٦- الشكل الاستعاري في الحديث النبوى غنيٌ بتكوينه، لأنّه يعتمد على المشاهدات

وقریب المباعدات تقريباً منطقياً لائقاً بالفکر الديني السامي وغاياته الجليلة، فهو وسيلة
تبليغية تمكينية لا وسيلة جمالية تزيينية.

^(١) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوى ص ٢٣٧ - ٢٤١.

المبحث الثالث

الكنية في الحديث النبوي

أسلوب الكنية من أهم الأساليب البينية التي يسلكها البلغ في الغوص على المعنى، والتشويق إلى إدراك أبعاده، وقد تفاوتت فيه أقدام البلغاء ومنازلهم لحاجته إلى اللمحات الذكية، واختيار اللفظ الدال على المعنى دون تكلف أو تصنُّع، وانقاء التعبير الذي يُخفى تحت ظلاله لطائف مراده.

فهي فنٌ يمتلك حسن الأداء والإيحاء مع الإثارة والتشويق «والسر في بلاغتها أنها في صورٍ كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، والقضية وفي طيّها برهانها»^(١)

لقد اتخذ البيان النبوي الكنية أداة جمالية للوصول إلى الغرض الديني في تمكين المعنى، مع التأثير الوجداني الإمتحاعي، ومن ثم: تميزت الكنية في البيان النبوي، وفاقت في خصائصها، سواها من كنایات البلغاء، للتناسب الكامل بين الوسيلة الجمالية والغاية الدينية.

وعلوم الكنية هي «لفظ أريده به لازم معناه، مع جواز إرادته معه، فظهر أنما تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه»^(٢).

أن ندلُّ إلى بيان قيمة الكنایات النبوية وخصائصها، نقف إزاء التعريف الاصطلاحي ونرصد ظلاله في الكنایات النبوية.

فالتعريف يشير إلى وجهين للKennings، يتعلقان بلزوم المعنى، وجواز الإرادة، فقد يتحقق المعنى الظاهر من اللفظ مع إرادة ما يوحيه من ظلال تقع خلفه، أو يتحقق المعنى المجازي المستشفى من اللفظ دون إرادة المعنى الحقيقي.

^(١) جواهر البلاغة ص ٤٠ .

^(٢) تلخيص المفتاح ص ٧٥ .

فمن الأول ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السُّلَاحَ

فَلَيْسَ مَنَّا»^(١)

والظاهر أن حرفية النص مُراداة وقابلة للتحقق، إذ إن حمل السلاح على المسلمين غير جائز، وفعله حرام اعتماداً على فهم الدلالة الحقيقة للنص، وهذا المعنى لا يلغى الدلالة الرمزية التي تومي إلى العداء والقتال والعصيان والانشقاق، ومن هنا يتراهى المعنيان؛ الحقيقي بحرفية النص، ولازمه القابع خلف اللفظ.

ومن الثاني ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَبِعِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ،
خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا، وَتَبِعِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ
له كراهيَّة، وتبعِدون شرَّ النَّاسِ ذَا الوجَهَيْنِ، الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ، ويأتي هؤلاء بوجهٍ^(٢).

ففي الحقيقة ليس ثمة رجل ذو وجهين، فالمعنى الحقيقي ممتنع، في حين يلزم هذا المعنى وجود رجل ذي طويَّة فاسدة، يُظهر خلاف ما يبطن، ويعيش ازدواجية المناافق وسوء خلقه.

القيمة الفنية والدلالية في الكتابة:

تضمين الكتابة ألواناً جمالية تتجلى أضواؤها في الإثارة والتشويق والمتاعة والإقناع، فهي وسيلة تصويرية تستلفت النفس وتعمل الذهن وتقنن المعنى.

قال عبد القاهر: «أمَّا الْكِتَابَةُ فَإِنَّ السَّبِيلَ فِي أَنْ كَانَ لِلْإِثْبَاتِ بِهَا مَزِيَّةٌ لَا تَكُونُ لِلتَّصْرِيفِ أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ - إِذَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ - أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَةِ بِإِثْبَاتِ دَلِيلِهَا، وَإِيجَاجِهَا

بِمَا هُوَ شَاهِدٌ فِي وُجُودِهَا أَكْدٌ وَأَبْلَغٌ فِي الدُّعْوَى مِنْ أَنْ تَحْيِيَ إِلَيْهَا فَشْبَثَتْهَا هَكُذا سَادِجًا

(١) البخاري، في الفتن، باب قول النبي ﷺ من حمل علينا السلاح، (٦٦٠) ومسلم، في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السُّلَاحَ»، (١٠٠).

(٢) البخاري، في المناقب، (٤٢٠٤)، ومسلم، في الأدب، باب ذم ذي الوجهين، (٢٥٢٦).

عُفلاً، وذلك أنك لا تَدْعِي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يُشَكُ فيه، ولا يُظَنُ بالمخير التحوز والغلط»^(١).

وتشتمل الكنایة على إيجاز في التعبير، ولطافة في المعنى، وجمال في التصوير، ومتلك الأداء والإيحاء مع الكثير من التشويق، لأنه يلوّح إلى الفكرة تلوّحاً يوظّف بحسب سياق الفكرة، والإيحاء له لذة في النفس لأنّه حالة استشفاف وانفعال بلذة الكشف عن المعنى بعد مرور الفكرة بالعقل، وفي هذا تشويقٌ وتعزيزٌ وجمالٌ بين التصريح والتلميح^(٢).

ومن الكنایات الجميلة التي تُذكر في هذا المقام ما جاء في الحديث الذي روتته عائشة رضي الله عنها: أن بعض أزواج النبي ﷺ قلن للنبي ﷺ: أينما أسرع بك حُوقاً؟ قال: «أطُولُكُنَّ يَدَاً»، فأخذُوا قصبةً يدرّعونها، وكانت زينب أطْوَلَ يَدًا، فعلمُنا بعدَ أَنَّما كان طول يدها الصدقة، وكانت أسرعَنا حُوقاً به، وكانت تحبُ الصدقة^(٣).

لقد أثار هذا الوصفُ أزواج النبي ﷺ اللاتي فهمن من طول اليد الطول الحسي، وإذا بالمعنى القابع خلف اللفظ يبرز - بعد تمثيل الصورة الحسية - ويظهر أن المراد الكرم وبذل المعروف.

يقول الشريف الرضي في هذا الحديث: «... إلى أن توفيت زينب بنت جحش بن رباب الأسدية، أول من ثُوقي منهن، وكانت كثيرة المعروف، فعلمُن حينئذ أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بطول اليد كثرة البر، وبذل الوفر، وكنایته عليه الصلاة والسلام عن هذا

^(١) دلائل الإعجاز ص ٧٢ .

^(٢) انظر: الصورة الفنية في الحديث النبوى ض ٢٤٣ .

^(٣) البخاري، في الزكاة، باب أي الصدقة أفضل، (١٣٥٤)، ومسلم، في فضائل الصحابة، باب فضل زينب، (٢٤٥٢).

المعنى بطول اليد مجازٌ واسعٌ، لأنَّ الأغلبَ أنْ يكونَ ما يعطيهُ الإنسانُ غيرهُ من الرُّفْدِ والبرِّ
أنْ يعطيهُ ذلكَ بيدهُ، فسُمِّيَ النَّيلَ باسمِ الْيَدِ»^(١).

وهكذا لم تغير الدلالة، فهي في التصريح وفي التلميح سواءً، ويبقى للكتابية إثارةً
الوجдан مع امتلاكها ناصيةً الفكرَةِ.

كما تتحلى الغاية الجمالية مع الإقناعية في تلامُّح الخير والجمال في الصورة الحسية في
الكتابية، إذ نجد أنفسنا إزاء صور بدعة تلوّح وراءها معانٍ موحبة.

ونستشهد بما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالسُّرُّ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ
الرَّئِبُّ يُقْتَلُ أَوْ يُلْمَمُ، إِلَّا أَكْلَةُ الْخَضْرَاءِ»^(٢).

يقول القاضي عياض في شرح النص: «ضرب له ﷺ مثلاً بحالتي المقتصد المكشر، فقال
أنتم تقولون إنَّ نبات الربيع خيرٌ، وبه قوامُ الحيوان، وليس هو كذلك مطلقاً، بل منه ما
يقتلُ لو يقاربُ القتل، فحالةُ المبطون المتخلوم كحالةُ من يجمعُ المال ولا يصرفُه في وجهِه،
فأشار ﷺ إلى أنَّ الاعتدال والتَّوْسُطَ في الجمعِ أحسنُ، ثم ضربَ مثلاً من ينفعُه إنكاره، وهو
التشبيه بأَكْلَةِ الْخَضْرَاءِ، وهذا ملخصُ صرفه في وجوهِ الشرعية»^(٣).

لقد تجلت المعاني الذهنية في كتابية اكتنافها صورة حسية واقعية.

والكتابية في كثير من الأحيان أمرٌ لا مندوحة عنه في التوصيل الفكري والفنِّي، ولا
سيما حيث لا يحسن التصريح، هذا ما أكَّدَه أحدُ الباحثين بقوله: «لقد كانت الصورة
الكتابية في الحديث النبوِّي ضرورة فنية لأنَّها مادة تصويرية، وضرورة اجتماعية دينية لطابعها
النهذفي، إذ ألغى التلميح عن التصريح وفاته تأثيراً وتنبيهاً للمعنى، فالصورة الكتابية في

(١) المجازات النبوية ص ٦٦ - ٦٧.

(٢) البخاري، في الزكاة، باب الصدقة على اليتامي، (١٣٩٦)، ومسلم، في الزكاة، باب تحوف ما يخرج
من زهرة الدنيا، (١٠٥٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٤/١٥٣ - ١٥٤.

ال الحديث ذات وظيفتين، لأنها أصلاً سجلاً يحفل بالعادات والتقاليد الاجتماعية ... ولهذا الفن جماله في الحديث النبوي، وأصالته في الفنون البلاغية»^(١).

ويبرز هذا الجمال التصوري في الكنيات النبوية في كل شاهد، ونذكر هنا ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا مشت أمتى المُطَيِّطاء، وخدمتها أبناء الملوك فارسٍ والروم، وسلط شراؤها على خيارها ...»^(٢) في حديثٍ عن علامات الساعة، والمُطَيِّطاء إشارة إلى التباهي والكبرياء، صورتها حركة مرئية، يشدُّ صاحبها نفسه إلى الأعلى فتمتدُّ أطرافه، وتعلو إيزاناً بالصلف.

وهذا الشكل التراثي وصف به البيانُ القرآنيُّ المشرك: «ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى» [القيامة: ٣٣] وكذا التطاول في قوله تعالى: «وَلَا تَمْشِيٰ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِنَانَ طُولاً» [الإسراء: ٣٧].

وبتقريبي الكنيات النبوية وتلمس الوقف على وجهها الدلالية يمكن الخروج بتصور محمل لبعض خصائص الكنيات النبوية، نذكر منها:

١ - بروز الملامح الحسية: إنَّاً البيان النبوي في سائر صوره وتعبيراته على المحسوس القريب، تمهدًا للمعنى ويسيراً لحسن التلقي، إذ لا يخفى ما للجزئيات المعتمدة على الحواس من تأثير في تمكين المعنى في العقل وترسيخه في النفس.

ونخاول من خلال الأمثلة أن نتبين أثر الملامح الحسية في الأداء والإيحاء في الكنيات النبوية.

فمن ذلك ما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المؤذنون أطولُ النَّاسِ أعناقاً يومَ القيمة»^(٣).

^(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ص ٢٥٢-٢٥١.

^(٢) سنن الترمذى، أبواب الفتنة، (٢٢٦٢).

^(٣) مسلم، في الصلاة، باب فضل الأذان، (٣٨٧).

وتبدو الصورة الكنائية جلية بالتخيل التي يثيره المشهد الطولي الممتد إلى الأعلى حيث الثواب في العالم العلوى.

واستشعار العلو الحسي يثير في النفس الرقي والسمو، إنه يذكّر بمقام الأبرار في قوله:

﴿كَلَّا إِنْ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلْيَيْنِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيَوْنَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ۱۸ - ۲۰].

إنه تكريم لهم يوم الجزاء، والجزاء من جنس العمل، فالمؤذن يرفع صوته، ويمد حروفه، معظّماً بلال الله وشعائره، قائلاً : الله أكبر، الله أكبر، فيأتي يوم القيمة مشرقاً مستشراً النعيم قبل الآخرين، فكلمة الطول تولد المعنى الذهني المُشير بالكرامة.

يقول الدكتور عز الدين السيد: «طول العنق يظهر في رفع الرأس إلى الأعلى شعوراً بكلمة المنزل، وفرحاً بحسن الثواب، وقد شاع هذا التعبير في الدلالة على الشرف والكرامة، فيقال من أثال أهله شرقاً: أطلت أنفاسنا، ورفعت رؤوسنا، ويقال في العكس للمسني: قصررت رقبتنا ... وفهم المدلول الكنائي إنما يأتي بحركة تخيلية تُكسب العبارة قيمة فنية رائعة، لأن الكلام في مقام المدح بحسن المحازاة، وطول العنق في ذاته - وبخاصة على سبيل المبالغة بصيغة التفصيل - قد لا يكون جميلاً، وإذ يقترب المقام باللفظ المظلّ يحرك الذهن إلى ما هو الأنسب من المعانى الممزومة، فتساعده الصورة التي يستحضرها الخيال من تجربة الحياة المماثلة، فيصل إلى المراد بعد هذه الحركة التفصية، فيكون ذلك إنما من أسرار التقرير والتوكيد»^(۱).

ويبرز المعنى في التصوير الحسي في الصورة الكنائية التي نلمحها في ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيمة ليس في وجهه مُزْعَةٌ لحم»^(۲).

(۱) الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاعية [ص ۴۱۳ - ۴۱۴].

(۲) البخاري، في الزكاة، باب من سأل الناس تكتل (۵۰۵). [ت ۱].

ولما كان الوجه أشرف أعضاء الإنسان وأكرمها جلت الصورة الكنائية المعنى، في طاقةٍ تخيليةٍ تُظْهِر إنساناً له وجهٌ غير لحم، وإنفاد كلمة (ثُرْعَة) يومي إلى تسلسل سقوط اللحم، وكأنه كلما سأله طلب سقطت قطعة إلى أن يتلاشى اللحم من وجهه، مما يؤدي إلى منظر يثير الرعب والقبح.

وقد أشار القاضي عياض في شرح الحديث إلى جواز إرادة المعنى الحقيقي للحديث مع جواز إرادته لازمه بقوله: «قيل معناه: يأتي يوم القيمة ذليلاً ساقطاً، لا وجه له عند الله، وقيل: هو على ظاهره، فیحشر ووجهه عظم لا لحم عليه عقوبة له، وعلامة له بذنبه حين طلب وسائل بوجهه، كما جاءت الأحاديث الأخرى بالعقوبات في الأعضاء التي كانت بها المعاشي، وهذا فيمن سأله غير ضرورة سؤالاً منهياً عنه»^(١).

٢ - البُعد التهذيبِي في الكنية: التهذيب جانب يتعلق بحقيقة الرسالة الحمديّة وطبيعتها التي دعت إلى مكارم الأخلاق، ونفت عن الفحش والبذاء، فكان البعد الفكري التهذيبِي للKennya أحد أهمّ أبعادها تبعاً لمنهج القرآن التهذيبِي الذي لفت إليه علماء البلاغة، ومنهم ابن أبي الإصبع المصري إذ يقول: «وهي - الكنية - التي يعبر المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالظاهر، كقوله سبحانه: ﴿كَاتَ يَأْكُلُانِ الطَّغَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كنایة عن الحدث»^(٢).

ونورد في هذا المقام ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من يضمّن لي ما بين حيّي وما بين رجليه أضمن له الجنة»^(٣).

بهذه الكنية اللطيفة حذر البيان النبوى من أمرتين؛ شرّ اللسان وشرّ الفرج، فجاءت الكنية معبرة عن أدلة الشرّ الأولى بأسلوب كنائي، كان التلميذ فيه أجمل من التصريح،

^(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٤ / ١٣٠ .

^(٢) تحرير التحبير ص ١٤٣ .

^(٣) البخاري، في الرفاق، باب حفظ اللسان، (٦١٠٩).

دلف من حاله إلى أسلوب كنائي تهذبي، نأى فيه عن التصريح، وغلّ حقيقة المعنى بطبقة من اللفظ تصون شرف العربي، وتحفظ النحوة والتهذيب الذي كان موائماً لصفة العرب.

وقد عَرَّفَ البيان النبوى بأوجز لفظ عن مجموعة من المحرّمات بقوله: «ما بين لحىيه»، إذ اللحيان هما جانب الوجه اللذان هما منبت الشعر من الرجل، وما مثلهما من الأنثى، وبينهما الفم موضع الحلال والحرام من المأكول والمشرب، وفيه اللسان الذي دعا الإسلام إلى صونه، وحدّر من خطایاه وآثامه، إذ يقول : ﴿وَهُلْ يُكُبُّ النَّاسُ عَلَى وِجْهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَسْتِيْهِمْ﴾^(١) فقد يكون سبباً للموبقات؛ من كفر أو كذب أو نمية أو شهادة زورٍ أو غير ذلك، وقد يكون سبلاً للجنان في إعلاء كلمة الحق وإظهار شهادة الإيمان والتسبيح والتکبير، وفي تلاوة كتاب الله، ودعوة المؤمنين ونصحهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... وهو مسلك البطن وطريق للخبيث من المطعم والمشرب، وكذا هو طريق للحالل الطيب

﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ثم جاء الأدب النبوى بما تناهى الفطرة السليمة عن التصريح بذلك ليحدّر من شهوة الفرج، والوقوع في المحرّمات، ويدعو إلى ضمان هذا المكان، أن يلم به فحش أو يسقط به في الحنا فجور، وهي دعوة للMuslim الطاهر العفيف، ليسلم بها شرفه ودينه، ويحظى بما ضمن له أصدق ضامن ﷺ، جنات النعيم.

ومن الأمثلة التي يظهر فيها الأدب النبوى ما رواه زيد بن حارثة رضي الله عنه قال:

كساني رسول الله ﷺ قبطية كانت مما أهدتها دحية الكلبي، فكسوتها امرأة، فقال ﷺ : «ما لكَ لم تلبس القبطية؟!» قلت: كسوتها امرأة، فقال: «مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصْفَ حَجَمَ عَظَامِهَا»^(٢).

^(١) جزء من حديث رواه الترمذى بسنده عن معاذ رضي الله عنه، في الإيمان، باب في حرمة الصلاة، ٢٦١٦).

^(٢) مستند الإمام أحمد ٢٠٥/٥ والسنن الكبرى ٢٣٤/٢ .
٢٩٠

لقد عَبَرَ البيان النبوى بسمٍّ ورصنانة عن تأثير الثوب إذا لبسته المرأة، بلفظٍ لا توحى بحقيقة الأمر الذي لا يحسن التصریح به، فأدى المعنى بأسنار من اللفظ المهدب بقوله «حجم عظامها» بدل «حجم أعضائها».

وقد عَلَقَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ عَلَى جَمَالِ التَّعْبِيرِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: «وَهَذِهِ اسْتِعْارَةُ، وَالْمَرَادُ أَنَّ الْقَبْطِيَّةَ بِرْ قَهَا تَلْصُقُ بِالْجَسْمِ، فَتَبَيَّنُ حَجْمُ الْثَّدَيْنِ وَالرَّادِفَتَيْنِ وَمَا يَشْدُدُ مِنْ لَحْمِ الْأَعْضَدَيْنِ وَالْفَخَدَيْنِ، فَيَعْرِفُ النَّاظِرُ إِلَيْهَا مَقَادِيرَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ حَتَّى تَكُونَ كَالظَّاهِرَةِ لِلْحَظَّةِ، وَالْمُمْكِنَةِ لِلْتَّسِيَّةِ، فَجَعَلَهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْحَالَ كَالواصِفَةِ لِمَا خَلْفَهَا، وَالْمُخْبِرَةِ عَمَّا اسْتَرَّ بِهَا»^(۱).

ولفت الرافعي النظر إلى حسن استخدام اللفظ الموجي والعدول عمّا لا يليق فقال: وهذا كلام حسن، ولكن في عبارة الحديث سرّاً من معجزات البلاغة النبوية لم يهتمد إليه الشَّرِيفُ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةُ الْفَنِّ فِي هَذِهِ الْكَلْمَةِ بِخَلَاصَتِهَا، وَلَا نَظَنُ أَنَّ بِلِيغًا مِنْ بَلَاغَةِ الْعَالَمِ يَتَأَتَّى مِثْلَهُ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَقُلْ: «أَنْحَافٌ أَنْ تَصُفَ حَجْمُ أَعْضَائِهَا»، بل قال: حجم عظامها، مع أنَّ المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه، وذلك منتهى السمو بالآدب، إذ ذكر (أعضاء) المرأة في هذا السياق، وبهذا العرض، هو في الآدب الكامل أشبأ بالرفث، ولفظة (الأعضاء) تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبئ على صورة ذهنية كثيرة، هي التي عدَّها الرَّضِيُّ فِي شَرْحِهِ، وَهِيَ تَوْمِئُ إِلَى صُورٍ أُخْرَى مِنْ وَرَائِهَا، فَتَبَرُّزُ الْبَيْنُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ، وَضَرَبَ الْحِجَابُ الْلِّغُوِيُّ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي السَّافِرَةِ، وَجَاءَ بِكَلْمَةِ (الْعَظَامِ) لِأَنَّهَا الْفَظْةُ الْطَّبِيعِيَّةُ الْمُبَرَّأَةُ مِنْ كُلِّ نَزَعَةٍ، وَلَا تَقْبِلُ أَنْ تَلْتَوِيَ، وَلَا تَتَبَرَّزَ مَعْنَى، وَلَا تَحْمِلَ غَرَضاً، إذ تكون في الحيِّ والميَّتِ، بل هي بهذا أنسِبُ وأَنْحَصُ، وفي الجميل والقبح، هي هنا أليق، وفي

^(۱) المحازات النبوية ص ۱۶۶ .

الشباب والهرم، بل هي في هذا أوضاع، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام، فالجهاز على ما نرى، والحقيقة هي ما علمت^(١).

٣- الإفادة من عنصر البيئة في الكناية:

اتخذ البيان النبوى من البيئة المحيطة مادة لأداء معانىء، إذ كانت متقدّساً للبيان النبوى، ومنهلاً لتبيّل المضمون الدينى حرصاً على التأثير والإقناع من خلال تقرير المعانى وتوضيحةا، بكل ما هو محسوس ومتّلّف ومشاهد، ونمثّل لهذا الجانب بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي : ﷺ «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللّين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: ألي يغترون، أم عليّ يجترؤون؟ في حلفت لأبعنّ على أولئك فتنة تذرُّ الخيلَ فيهم حيران»^(٢).

إن عناصر الصورة المؤدية للمعنى هي عناصر تمثل مظاهر البيئة الحيوانية، فالخraf والذئاب نقىضان للوداعة والمكر، فالرجال في الحديث ذئاب متسلّكون في هيئة خراف يُطّلّون الشر ويظهرون الخير، ثم إن المشهد يشكّل بكلمة (يختلون) صورة للصيد، وهو لفظ خاص بالذئب الذي يخدع الفريسة.

إنه ليس ذئباً واحداً بل ذئاب لهم قلوب، وصورة جمعهم تشير الهمّ والخوف، فهم خطّر مُحْدِق، ووراء اللفظ يقع أولئك الذين جعلوا الدنيا وأهلها صيداً، والذين أداة يخدعون بها الصيد، فكلامهم معسول، ظاهره أحلى من العسل، لكن السُّمُّ فيه مدسوس يُخفي الضغينة والغدر. والإيحاءات النفسيّة التي تثيرها صورة ذئاب داخل الخراف هي نفسها إيحاءات الخوف التي يشّيرها وجود المنافقين بين المسلمين وهم ينخرتون في الأمة كالسوس، ويفتكون بال المسلمين كفتاك الذئاب بالخفاف.

^(١) وحي القلم . ٢٣/٣

^(٢) سنن الترمذى، في الرهد، (٢٤٠٦).

والمشهد مقتبس من بيضة عايشها العربي، فغدت الصورة مألوفة، قريبةً من النفس، وحملت طاقةً كبيرةً من التأثير وامتلاك النفس.

وبعد أن حلّي البيان النبوى صورة هذا النموذج الخبيث من الناس أظهر أن هذا التظاهر، إن حفى على الناس فلن يخفى على الله، الذى يهدهم ويتوعدهم بالنكال وسوء المنقلب: «في حلفت لأبعنّ عليهم فتنَة تذرُّ الحليم فيهم حيران».

قال الدكتور عز الدين السيد في هذا الوعيد: ويؤكد الله القسم على أن يجازيهم جزاءً لا يُدرى، «فتنة تذرُّ الحليم فيهم حيران» الفتنة نكرة في مقام التهويل والترهيب، وما أعظمها فتنَة، ثم هي موصوفة بالجملة الفعلية، وضميرها قد أنسد إليه الفعل المتعدي إنذاراً بالخطورة، ثم على من وقع الأثر؟ إنه وقع على الحليم العاقل الحكيم المتأمل، وما أثره عليه؟ إنه الحيرة التي لرمته، للفتنة التي لرمتهم، أليس الوصف بزيادة الألف والنون عدواً عن حائر يدل على اللزوم، أليس اتصف الحليم بذلك دليلاً على فطاعة الفتنة، هكذا تُرسم الصورة جزءاً جزءاً، وهكذا تلتاح وتشتال، وهكذا تكون الكنایات من أروع ما يتخذ أنصح العرب من وسائل البيان^(١).

ومن الكنایات البدیعة في هذا المجال ما رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنهمما عن النبي: ﷺ «هُدْنَةٌ عَلَى ذَخِنٍ، وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْدَاءٍ، فِيهَا أَوْ فِيهِمْ»^(٢).

إنما صورة الدخان الموحى في اسوداده وسوء أثره في إفساد الطعام، المحسّن لما تنطوي عليه القلوب من الأحقاد، مع الحرارة المنبعثة من النار المولدة لهذا الدخان، فالظاهر هو المدوى في المدنة، لكن الحقيقة أن ثمة نفوساً كافرة تكاثفت فيها الشرور ولواعج الشر، وهذه صورة كنائية أخرى يشير من خلالها إلى الأمراض والأوساخ التي غطتها مظاهر سليمة، وتؤمي إلى المرض النفسي الذي يتصرف به الكفرة.

^(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٣١٤ .

^(٢) سنن أبي داود، في الفتن والملاحم، باب الفتنة ودلائلها، (٤٢٤٥).

إنما صورتان كنائستان اتخذتا من البيئة المحيطة أدلة ألبست المعنى الخطير لبوساً بديعاً
جعلها تعتل القلوب في حسنها ووحارتها وغزارتها معانها.

وللرافعي كلام بديع في تحليل «هدنة على دخن» إذ يقول: وهذه العبارة لا يعدها كلام في معناها، فإن فيها لوناً من التصوير البلياني، لو أذيت له اللغة كلُّها ما وفت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة وليناً، وانصرافاً عن الحرب وكفأً عن الأذى، وهذه كلُّها من عواطف القلوب الرحيمة، فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلة من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدتها، حتى لا يسترح غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد أكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد. فهذا في تصوير معنى الفساد الذي تنطوي عليه القلوب الواغرة، ثم لون آخر في صفة هذا المعنى، وهو اللون المظلم الذي تتصبغ به النية (السوداء) وقد أظهرته في تصوير الكلام لفظة (الدخن).

ثم معنى ذلك، وهو النكتة التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سرّ البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كلّ عبارة تكون في هذا المعنى، وذلك أن الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب، فهذه حرب قد طفت نارها، بما سوف يكون فيها ناراً أخرى، كما يُلقى الحطب الرطب على النار تخبو به قليلاً، ثم يستوقد فيستعر، فإذا هي نار تلظى، وما كان فوقه الدخان فإن النار - ولا جرم - من تحته، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وبحدث اللون البلياني يصوّره في تلك اللفظة لفظة (الدخن)^(١).

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

٤- الوضوح وعموم التأثير في الكنایات النبوية:

ولمّا كانت الكنایة واحدةً من الوسائل التبلیغیة لم تخرج عن هاتین السمتین، كسائر الوسائل التي كانت أدوات إقناعيةً إمتعاضةً تأثیریةً في آنٍ معاً.

فالصورة الكنایية الحدیثیة (لم تکن غامضة، فلا يحفل البيان النبوی بالغموض، بل يزدری به، فكانت الكنایة واضحة الصلة بين المظہر اللغوی والمدلول خلفه، ولكن وضوھها لم یمنع من الإیماء اللطیف، ولم یقترب من المباشرة في التعبیر).

- والكنایة الحدیثیة أداة تصویریة رائعة، وُظفت في غایاتٍ دینیةٍ سامیةٍ، وحافظت على رونقها وظلاھا النفیسیة على مدى العصور.

- كما أن هذه الكنایة اتسمت بعموم التأثير، واللاماح البیئیة فيها تعنى شدة التأثير - ولصیوق التعبیر بالمشاهد القریبة، وإنقاذه للأفادۃ من الروعاء الحیط بالأشخاص في السیجل «الفی»^(۱).

^(۱) الصورة الفنية في الحديث النبوي ص ٢٨٥ . وانظر ص ٢٥٤ وما بعد.



الفصل الخامس

دراسات لفنون من الخطاب النبوي

المبحث الأول : القصة في الحديث النبوي

المبحث الثاني: الخطابة في الحديث النبوي

المبحث الثالث: رسائله وكتبه ﷺ إلى الملوك

ورؤساء القبائل

المبحث الرابع: الأمثال في الحديث النبوي



المبحث الأول

القصة في الحديث النبوى

كانت القصة ولا تزال من أهم الفنون الأدبية التي يميل إليها الإنسان تواهماً مع فطرته، ويرغب فيها الأديب والمعلم وسيلةً لتقرير المبادئ وتمكين الأهداف، ومن هنا كانت من أهم الفنون الشعبية منذ القديم، وعرفها العرب وحفل تراثهم بأشكالٍ متنوعةٍ منها، بل «إنه لم يسبق الأدب العربي أي أدب آخر في نوع الأقاوصيس»^(١).

والقرآن الكريم الذي جاء على أساليب العرب في التعبير كان يشير إلى أساطير الأوّلين، وينفي مزاعم الكفار بأنّ القرآن من قبيلها، مما يشير إلى معرفة العرب بأساطير، وقد روي عن التّضُر بن الحارث أنه كان يجلس إلى كفار مكة، ويقص عليهم قصص الملوك وأحبار الماضين، مناواً بذلك مجالس النبي ﷺ وأحاديثه.

وزخر القرآن الكريم بأحسن القصص التي كانت ميداناً واسعاً لتقرير مبادئ الدين الحنيف، وترسيخ المضامين الإلهية، في صور حيّة واقعية، تتعانق فيها الصياغة الأدبية الرفيعة مع الهدایة التربوية الحنيفية، فقد «خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية ... ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني، ووفاؤها بهذا الغرض تمام الوفاء لم يمنع بروز الشخصيات الفنية في عرضها»^(٢).

وقد كان البيان النبوى تبياناً للقرآن الكريم، وتفصيلاً لمضامينه، ومن ثمّ اتخذ النبي ﷺ القصة وسيلةً من وسائل الدعوة، يبلغ من خلالها قيم الإسلام، ويرسخ تعاليمه، وينشئ جيلاً متمثلاً العقيدة فكراً وتصوراً وسلوكاً.

(١) انظر : الأدب القصصي عند العرب لموسى حليل سليمان ص ١٥ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١١٣ .

ولأهمية هذا الجانب في الفن النبوي نرى لزاماً الوقوف على معلم القصة النبوية وخصائصها من خلال الأمور الآتية:

- البنية العامة للقصة الحديثية.
- العناصر الفنية.
- أنواع القصة الحديثية.

و قبل التفصيل في بيان هذه الأمور نرى أنه من الأمثل التقديم بسرد قصص نبوية تكون نماذج للتمثيل والتحليل.

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّه سمعَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، بَدَا لَهُ أَنْ يَتَلَيهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلِكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجَلْدٌ حَسَنٌ، قَدْ قَدِيرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجَلْدًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ الْمَالٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبَلُ - أوَّلَ مَا قَدِيرَنِي النَّاسُ، هُوَ شَكٌ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبَلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ - فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ، فَقَالَ: يُيَارِكَ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِي هَذَا، قَدْ قَدِيرَنِي النَّاسُ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. قَالَ: فَأُعْطِاهُ بَقْرَةً حَامِلًا وَقَالَ: يُيَارِكَ لَكَ فِيهَا. وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرَدُ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأَبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْعَنْتُ. فَأُعْطِاهُ شَاءَ وَالِّدًا. فَأَنْجَحَ هَذَا وَوَلَّهُ هَذَا، فَكَانَ هَذَا وَادِي مِنْ إِبَلٍ، وَهَذَا وَادِي مِنْ بَقَرٍ، وَهَذَا وَادِي مِنْ غَنِمٍ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيَّئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِنٌ تَقْطَعُتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا يَلَغُ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجَلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحَقْوَقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَمَّيْ أَعْرُكُ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدِرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرَثْتُ لِكَ أَبْرَصًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَبَرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيَّئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ هَذَا، فَرَدَ عَلَيْهِ

مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً صيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكيٌّ وابن سبيل، تقطعت بي الحال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاء أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فرداً الله بصري، وفقيراً فقد أعني، فخذ ما شئت، فوالله لا أحهدك اليوم بشيء أحذته الله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابْتُلِيْتُمْ، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك^(١).

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلّم في المهد إلا ثلاثة؛ عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً، فاتَّخذ صومعة، فكان فيها، فأتنَّه أمُّه وهو يصلّي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِه، فانصرفَتْ، فلما كان من العدِيْتِ وهو يصلّي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِه، فانصرفَتْ، فلما كان من العدِيْتِ وهو يصلّي فقالت: يا جريج، فقال: أي رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاتِه، فقالت: اللهم لا تُنْهِي حتى ينظر إلى وجوه المؤمنات. فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يتمثل بحسنها، فقالت: إن شِئتم لأقتُنَّه لكم. قال: فتعرضت له، فلم يلتقط إليها. فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فامكتنه من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج. فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَيَّت بهذه البغي فولدت منك. فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي. فصلّى، فلما انصرفَ أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام، من أبوك؟ قال: فلان الراعي. قال: فأقبلوا على جريج يقلّلونه ويتمسّحون به، وقالوا: تبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدها من طين كما كانت. فعلوا.

^(١) البخاري، في الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى، (٣٢٧٧) ومسلم، في الوجه والرقاء، (٢٩٦٤).

وبينا صبيٌ يرضع من أمه، فمرَّ رجلٌ راكبٌ على دابةٍ فارهةٍ وشارفةٍ حسنةٍ، فقالت أمُه:
 اللَّهُمَّ اجعلْ ابني مثلَ هذَا، فتركَ الشَّدِيْ واقبَلَ إلَيْهِ، فنظرَ إلَيْهِ، فقال: اللَّهُمَّ لَا تجعلنِي مثلَهُ، ثمَّ
 أقبَلَ عَلَى ثَدِيْهِ فجَعَلَ يرَضِعُ.

قال: فكَانَ أَنْظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَمْكُي ارْتِضَاعَهِ بِاصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ،
 فجَعَلَ يَمْصُها.

قال: ومَرُوا بِجَارِيَّهِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَيَّتْ، سَرَقْتْ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسِيْ اللَّهُ وَنَعِمْ
 الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجعلْ
 ابْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَاحَعَا الْحَدِيثُ، فَقَالَتْ: حَلْقِي^(١)! مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيَّةِ فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ اجعلْ
 ابْنِي مِثْلَهُ، فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُوا بِهِنْدِيَّةِ الْأَمَّةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَيَّتْ
 سَرَقْتْ، فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ اجعلْ ابْنِي مِثْلَهَا! قَالَ: إِنَّ ذَكَ الرَّجُلُ
 كَانَ جَبَارًا فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا: زَيَّتْ وَلَمْ تَرُنْ، وَسَرَقْتْ وَلَمْ
 تَسْرِقْ، فَقَلَّتْ: اللَّهُمَّ اجعلْ ابْنِي مِثْلَهَا»^(٢).

٣- عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قُتِلَ
 تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا.
 فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَئْتَ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا،
 فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ تَقْرَئَ، وَأَوْحَى اللَّهُ
 إِلَيْهِ أَنْ تَبَاعِدَهُ، وَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَيْهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَعَفَّرَ لَهُ»^(٣).

(١) حَلْقِي: أي أصابه الله تعالى بوجع في حلقه.

(٢) البخاري، في الأنبياء، باب «وَادْكَرْ فِي الْكِتَابِ مَرِيمًا»، (٣٢٥٣) ومسلم، في البر والصلة والأداب،
 باب تقديم بر الوالدين، (٢٥٥٠) واللفظ مسلم.

(٣) البخاري، في الأنبياء، باب حديث الغار، (٣٢٨٣) ومسلم، في التوبة، باب قبول توبة القاتل،
 (٢٧٦٦)

٤ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهطٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَى أَوْوا الْمَبْيَتْ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَإِنْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارُ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُعِيْجُكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُ اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ». فقال رجلٌ منهم: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبْوَانٌ شِيْخَانٌ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ^(١) قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَتَنَاءَ بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أَرْعِنْهُمَا حَتَى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَينَ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبَثْتُ، وَالْقَدْحُ عَلَى يَدِي، أَنْتَظَرْتُ اسْتِيقَاظَهُمَا، حَتَى بَرِقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجِهْكَ فَفَرِّجْ عَنِّي مَا نَخَرَ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ. فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يُسْتَطِيعُونَ الْخَرْوَجَ. قال النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرْدَاهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَى أَلْمَتْ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنَنِ، فَجَاءَتِنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِئَةَ دِينَارٍ، عَلَى أَنْ تُخْلِي بَيْنِي وَبَيْنِ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَفْضُّلَ الْخَاتَمِ إِلَّا بِحَقِّهِ. فَتَحرَّجْتُ مِنَ الْوَقْوَعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا، وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرْكَتُ الدَّهْبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءً وَجِهْكَ فَافْرُجْ عَنِّي مَا نَخَرَ فِيهِ. فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يُسْتَطِيعُونَ الْخَرْوَجَ مِنْهَا. قال النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَأْجِرُ أَجْرَاءَ، فَأَعْطِيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رِجْلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَشَرَّمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ! أَدْ إِلَيَّ أَجْرِيِ، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكِ؛ مِنَ الْإِبْلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنْمِ وَالرَّقْبَقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ! لَا تَسْتَهِرْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهِرْ بِكَ. فَأَخْدَهَ كُلَّهُ، فَاسْتَأْفَهُ فَلَمْ يَرْكُ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ

^(١) لا أغبق : من الغبوق، وهو شرب العشى.

فإِنْ كُنْتَ فَعْلَتْ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجِهْكَ فَأَفْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّحْرَةُ، فَخَرَجُوا
يَمْشُونَ»^(١).

٥ - عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «اشترى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا
لَهُ، فوجَدَ الرَّجُلَ الَّذِي اشترى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشترى العَقَارَ:
خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشترَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ». وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ:
إِنَّمَا يُعْتَكُ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا. فَتَحَاجَّا كَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاجَّا إِلَيْهِ: أَلَّكُمَا ولَدٌ؟ قَالَ
أَحَدُهُمَا: لِي غَلامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةً. قَالَ: أَنْكِحُوهُمَا الْغَلامَ الْجَارِيَةَ، وَأَنْفَقُوهُمَا عَلَى
أَنفُسِهِمَا مِنْهُ، وَتَصَدِّقَا»^(٢).

٦ - عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: لَا تَصَدِّقُنَّ
بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحَوْا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقُ عَلَى سَارِقٍ!
فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَا تَصَدِّقُنَّ بِصَدَقَةٍ. فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَوْهَا
يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقُ اللَّيلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَا تَصَدِّقُنَّ بِصَدَقَةٍ.
فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحَوْهَا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقُ عَلَى غَنِيٍّ! فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ
الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ. فَأَتَيْ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتْكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعْلَهُ أَنْ

(١) البخاري، في الإجارة، باب من استأجر أحيراً، (٢١٥٢) ومسلم، في التوبة، باب قصة أصحاب الغار، (٢٧٤٣).

(٢) البخاري، في الأنبياء، باب حديث الغار، (٣٢٨٥) ومسلم، في الأقضية، باب استحباب إصلاح المحاكم بين الخصميين، (١٧٢١).

يستعفَّ عن سرقةٍ، وأمّا الزَّانِيَة فلعلُّها أن تستعفَّ عن زِناها، وأمّا الغُنْيُ فلعلُّه يعتريه فِينِيقٌ ممَّا أُعطاه اللَّه»^(١).

٧- عن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَسِّمَا كُلُّ بَطْفٍ يَطِيفُ بِرَكَاتِكَادَ يَقْتَلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَهُ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ، فَعُفِرَ لَهَا بِهِ»^(٢).

٨- عن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِهِ فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكُلِّ يَلْهَثٍ، يَأْكُلُ الرَّى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ تَلَعَّهَا مِثْلُ الدِّيْبَى بَلَغَ بِي. فَمَلَأَ حُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقَى فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَعَفَّرَ لَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: «فِي كُلِّ كِيدِ رَطْبَيْةٍ أَجْرٌ»^(٣).

٩- عن أبي هُرَيْرَةَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الدَّيْبُ فَذَهَبَ بَيْنَ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ. وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ. فَحَاكَمَتَا إِلَى دَاؤِدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَضَى بِهِ لِكُبُرِيٍّ، فَخَرَجَتَا

(١) البخاري، في الزكاة، باب إذا تصدق على غني وهو لا يعلم، (١٣٥٥) ومسلم، في الزكاة، باب ثبوت أجر المتصدق ... ، (١٠٢٢).

(٢) البخاري، في الأنبياء، باب حديث الغار، (٣٢٨٠) ومسلم، في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، (٢٢٤٥).

(٣) البخاري، في المسافة، باب فضل سقي الماء، (٢٢٣٤) ومسلم، في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، (٢٢٤٤).

٢٠١ على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرته، فقال: أتُؤْنِي بالسُّكُنِ أَشْفُهُ بِينَكُمَا، فقلت الصُّغرى: لا للهُنَّ، يرْحَمُ اللَّهُ، هُوَ أَبُوهُنَّ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى».
قال أبو هريرة: والله إِنْ سِعْتُ بِالسُّكُنِ قُطُّ إِلا يَوْمَئِذٍ، وَمَا كُنَّا نَقُولُ إِلا الْمِدْيَةِ^(١).

١٠ - عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ «أَنَّهُ ذَكَرَ رجلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشَّهَدَاءِ أَشْهُدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَائْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفِى بِاللَّهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجْلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلأَجْلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَنْجَدَ خَشْبَةً فَنَقَرَهَا، فَادْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَوَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسْلَفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفِى بِاللَّهِ كَفِيلًا، فَرَضَيْتَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفِى بِاللَّهِ شَهِيدًا، فَرَضَيْتَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقِدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكُمَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَجَתَ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَنْرُجُ إِلَى بَلْدَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ، لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشْبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخْدَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ. ثُمَّ قَدِيمُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلْبِ مَرْكَبٍ لِآتِيكَ بِمَا لَكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ. قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعْثَتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أَخْبَرْتُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جَئْتُ فِيهِ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَى عَنْكَ الَّذِي بَعْثَتَ فِي الْخَشْبَةِ، فَانْصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا»^(٢).

(١) البخاري، في الفراط، باب حدث إذا ادعت المرأة ابنًا، (٦٣٨٧) ومسلم، في الأقضية، باب اختلاف المهددين، (١٧٢٠).

(٢) البخاري، في الكفالة، باب الكفالة في القرض والديون، (٢١٦٩).

١١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يَنِمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ عُصْنَ شُوكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَنْتَرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»^(١).

١٢ - قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَانَ رِجُلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِدِينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرِي الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصُرُ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصُرُ، فَقَالَ: حَلَّنِي وَرِبِّي، أَبْعَثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَنْقُرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يَدْخُلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ أَرْوَاهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْنَتُ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كَنْتُ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْكُرْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخرِ: اذْهِبْ إِلَيِ النَّارِ» قال أبو هريرة: والذِّي نَفْسِي بِيْدِهِ، لَتَكُلُّمَ بِكُلِّمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَا وَآخِرَتِهِ^(٢).

أولاً - البنية العامة للقصة النبوية:

ونعني بهذه البنية الهيكل الذي تُبَنِّي عليه القصة الحديثية، حيث تتسلسل الحوادث وتسير بروابط معينة، مُحَقِّقةً الترابط العضوي بين أحزانها، مُؤَدِّيةً بتلاحمها أركان القصة الثلاث: البداية والمتوسط والنهاية.

= فأما البداية فقد تكون مسبوقةً بمقدمة، أو تكون مباشرةً للحدث دون تمهد.

وتتنوع المقدمات التي لا تخرج عن إطار القصة، بل تكون: لوضع القصة في جوّها العام تارةً، وتُفْنِي في التشويق وإثارة المُتلقِّي تارةً أخرى، وهي في كل الأحوال مقدمات قصيرة خاطفة، فمن الأول حديث - الثلاثة الذين ابتلاهم الله عزّ وجلّ، إذ بين النبي ﷺ الإطار

^(١) البخاري، في الجماعة والإماماة، باب فضل التهجير إلى الظهر، (٦٢٤) ومسلم، في البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، (١٩١٤).

^(٢) سنن أبي داود، في الأدب، باب النهي عن البغي، (٤٩٠١).

التاريخي للحدث بقوله: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيهِمْ...» و«كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قُتِلَ تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَفْسًا...».

ومن الثاني - التشويق من خلال إثارة قضية غريبة - ما جاء في قوله ﷺ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْحٍ، وَكَانَ جُرَيْحٌ...». وقد يكون باستشارة التساؤل، كما في قوله ﷺ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ صَاحِبِ فَرْقَ الْأَرْزَ فَلِيَكُنْ مِثْلَهُ»، قالوا: يا رسول الله! ما صاحب فرق الأرز؟ قال: «خَرَجَ ثَلَاثَةٌ، فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ...» وذكر حديث الغار حين سقطت عليهم صخرة من الجبل^(١).

وقد تكون بداية القصة دون مقدمة، بل بإثارة الحدث مباشرة، مما ينقل المتنقلي إلى إيحاءات الحدث التي تشيرها الألفاظ منذ البداية، ومن ذلك ما روي عنه ﷺ أنه قال: «أشَرَّى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوْجَدَ الرَّجُلُ...»^(٢). ومن ذلك: «قَالَ رَجُلٌ: لَا تَصْدِقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصِدْقَةٍ...».

= وأما وسط القصة: فهي مرحلة مهمة في القصة، حيث تكمّن تفاعلات الحدث، ويتشكل الرائز الحيوي الرابط بين حلقتين في البناء الهيكلي للقصة، وعند بلوغ الذروة في تطور الحدث يحصل التشويق والانفعال لدى المتنقلي.

واللافت للنظر لدى تتبع تطور الحدث غلبة الحركة الناشطة، وتلاحم المواقف، ففي قصة ثلاثة الذين ابتلهم الله عز وجل، يتوسط الأحداث جيء الملك مرة أخرى في هيئة رجل مسكين يطلب الإحسان، فيتتكر الأقرع والأبرص نعمة الله عليهما، في حين يشكراها الأعمى.

(١) سنن أبي داود، في البيوع، باب في الرجل يتاجر في مال الرجل، (٣٣٨٧) ومسند الإمام أحمد /١١٦/ (٥٦٧٣).

(٢) البخاري، في الأنبياء، باب حديث الغار ، (٣٢٨٤).

وفي قصة صاحب العقار مثلاً تبلغ الذروة في الخلاف بين صاحب العقار ومشتريها، وكلاهما يتدفعان الذهب الموجود في العقار، إلى أن يتحاكمَا وتحل العقدة، وتؤول القصة إلى خاتمتها.

وهكذا تكون مرحلة الوسط المرحلة الحافلة في القصة، حيث تتطور المشكلة، وتتشابك المواقف فيما سُمي العقدة أو المشكلة.

= وأما النهاية فهي المرحلة الخامسة التي تؤول إليها القصة، ويتجلى فيها الأثر النهائي الذي تبُثُ الأحداث في نفس المتلقي المتلهف، وترضي حاجته في الكشف عن الجوانب الخفية في الحدث، وقد تكون تلك النهاية كشفاً لسرٍّ خفي تثير غرابة المتلقي، ويدفع بالأحداث إلى الجھول، فتظهر المفاجأة في نهاية القصة، لتجاجع النظارة وأبطال القصة أنفسهم.

وقد تكون الخاتمة حلاً مشكلة تبدأ من أول القصة، وتتطور في وسط القصة؛ لتشكّل عقدة تلهف النفس لمعرفة سبب لحلها، فتأتي الخاتمة في حلقة متسلسلة متازرة مع ما قبلها من حدث، لتصرج بآبطالها من مأزقهم وبالمتلقي من حيرته.

ففي قصة الثلاثة المبتَلين - مثلاً - يتَشَوَّقُ المتلقي لمعرفة حقيقة مسألة الرجل لهؤلاء الثلاثة، وإذا بالخاتمة تكشف السرّ، وتظهر المفاجأة أمام النظارة وأبطال القصة في آنٍ واحدٍ، ليقول للأعمى: «أمسِكْ عليكَ مالكَ، فإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُوكَ وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبِيْكَ».

وفي قصة صاحب العقار، بعد تطور الحدث، وظهور المشكلة في الخلاف بين البائع والمشتري وتحاكمِهما، تلوح في النهاية الخاتمة، متمثلةً في حلّ المشكلة «فقال: أنكِحوا الغلام الحاربة، وأنفقوا على أنفسيهما منه وتصدقَا».

وفي قصة الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً: «فاختصمتْ فيه ملائكة الرجمة وملائكة العذاب»، ويأتي الحال بقوله: «فأوحى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَغُفرَ لَهُ».

- وتجدر الإشارة إلى أنه في حالات قليلة نجد قصصاً لا تسير على هذا النهج المتسلسل في العرض من البداية إلى العقدة إلى الخاتمة، بل نجد القصة تبدأ من خاتمة، فتتطلّق القصة من نقطة متأخرة ثم تعود بتفاصيلها إلى الوراء، وهو ما يسمى بالبناء الدائري، ومن ذلك ما روي عنه عليه السلام: «عُفْر لامرأة موسيٍ مَرَّت بكلِّ على رأس ركبيٍ يلهث، قال: كاد يقتلُه العطشُ، فترَعَتْ خفَّها، فأوثقَتْ بخمارِها، فترَعَتْ له من الماء، فعُفِرَ لها بذلك»^(١)، وكذا في حديث الثلاثة أصحاب الغار.

ثانياً - العناصر الفنية في القصة النبوية:

معلوم أنَّ القصَّة الفنِّيَّة تقوم على مقومات وعناصر تشَكِّل بناءها وهي كلُّها، وهي: الشخصيات، والحدث، والحوار، والبيئة، وال فكرة، والتَّسْيِع الفيُّ الذي يضمُّ هذه العناصر. وكلُّ من هذه المقومات الفنية مساحة في القصَّة لا تتجاوزها، وحدٌ لا تبعده، لتسجُّم معاً في تشكيل بنية القصَّة.

ويختلف الأمر في القصَّة الحديثيَّة إلى حدٍ ما، إذ تخضع هذه القصَّة - كما هو شأن القصَّة القرآنية - خصوصاً تاماً للغرض الديني، وتسجُّم التواهي الفني لتحقيق المدف التربوي من القصَّة، ومن ثم يختلف الاهتمام بإبراز هذه العناصر في تشكيل بنية القصَّة وفقاً لخدمة الغرض الذي سيقت لأجله، فقد تختفي إحدى العناصر، أو يطغى أحدها على الآخر، إذ إنَّ القصَّة الحديثيَّة ليست فنَّا أدبياً خالصاً، وإنما هي وسيلة تبليغية توجيهية مُوَدَّعة في قالب فني رفيع، يتحقق الغايتين الإقناعية والإمتحانية في آنٍ معاً.

^(١) البخاري، في بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، (٣١٤٣). ركي: بفر.

١) - الشخصيات:

وهي من أهم العناصر المكونة للقصة النبوية، إذ يتواكب وجود الشخصيات والحدث في القصة باطراد، بحيث لا يمكن أن يتحققَا.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الشخصيات في القصص النبوية هي شخصيات حيَّة واقعية تصنُّع الأحداث المتطابقة مع الحقيقة التاريخية، فهي نماذج حقيقة لم ترسمها ريشة الخيال، ولم تسهم في فلسفة واقع ما، بل هي نماذج إنسانية حقيقة لا تزيدُ في وصفها، ولا إسهاب أو تقصير في إبرازِ معاملها المؤدية للغرض الذي سبقت لأجله.

والإنسان هو العنصر البارز في القصة النبوية، تجري الأحداث على يديه، وينبعُ الخير والشَّرُّ من أفعاله، ويحملُ القيم المختلفة المتنوعة في تصوفاته، ووفقًا لهذا التنوُّع يمكن تصنُّيف الشخصيات في القصة النبوية باعتبارات مختلفة:

- شخصيات إيجابية، وشخصيات سلبية.

- شخصيات أساسية، وشخصيات ثانوية.

- شخصيات نامية تتطور مع الحدث، وشخصيات مسطحة (ثابتة).

أ- الشخصيات الإيجابية، والشخصيات السلبية:

وتنصبُ عنابة الحديث النبوي على إبراز النماذج الإنسانية الحية للاقتناء أو الاعتبار،

فالمهمُ هو ما تحمله الشخصية من قيم إيجابية للتغيير بها، أو إبراز ما تمثله من قيم سلبية أو أبعاد نفسية سيئة للاعتبار والتغير منها، وهذا لا نكاد نجد في القصة النبوية ذكرًا لأسماء الأبطال الذين تجري الأحداث على أيديهم إلا قليلاً، إذ السُّنة الغالبة هي السُّكوت عن الأسماء، لتكون العبرة بالحدث نفسه، والاتِّعاظ بالشخصية النموذجية، كائنةً من كانت -

وهذا هو شأن القرآن الكريم في إبهام أسماء الشخصيات، كقوله تعالى: «وَحَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى» [يس: ٢٠] وقوله: «وَاصْرِبْ لَهُمْ مُثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَاحَيْنِ مِنْ أَعْنَابِ وَحَقَقْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا رَزْعًا» [الكهف: ٣٢] و«وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ» [غافر: ٢٨].

وتلزم الإشارة إلى أنه تُستثنى من هذه السمة البارزة شخصيات الرُّسل والأنبياء الذين بربَرَتْ شخوصهم في القصص النبوي مُحَمَّدةً أسماؤهم، وهذا بلا شك يجعل المتكلمي أكثر قرباً من هذه الشخصيات، وأكثر تأثراً بها يجري من أحداث معها، ويكون ذلك أدعى للإيمان بها والاقتداء بفعلها. كما ورد في قصة المرأتين المتحاكمتين إلى سليمان وداود عليهما السلام.

وما سوى الأنبياء والرسل من الشخصيات الإيجابية، هي شخصيات تُبرِّزُ القيم الخيرية وترغب فيها، وتعرض القصة للجوانب النفسية لهذه الشخصيات في ظروف مختلفة، بعيداً عن الاهتمام بالبعد الاجتماعي أو إبراز البعد الجسدي^(١).

ففي قصة الرجل الذي استلف مالاً تظهر إيجابية المفترض الذي قدَّم ماله مُعيناً لغيره، راضياً أن لا يكون ثمة شاهد أو كفيل من الناس يضمن حقه، ورضي بالله شاهداً وكفياً بإيماناً به وثقة.

ثم تبرز شخصية المفترض الذي جهد في أداء ما عليه في الأجل الذي فرضه على نفسه، وأرسل المال في عرض البحر في خشبة إيماناً بالله وثقة، ثم يأتي فيما بعد ليؤكدي بيده ما عليه، وإذا به يعلم أنَّ الله قد أدى عنه.

ومن الشخصيات الإيجابية - وهي كثيرة جداً في القصص النبوي - شخصية الأعمى، أحد الثلاثة المبتلَّين الذي شكر نعمة الله، وصبر على ما ابتلاه به، فكان عاقبة أمره إلى خير، خلافاً لما مثَّله شخصيتنا صاحبيه الأبرص والأقرع من جوانب سلبية؛ من جحود نعمة الله ونكران فضله.

وفي مقابل النموذج الإيجابي الذي تمثَّله شخصية جُريج تظهر شخصية تمثُّل النزوة الشريرة لدى البشر، إنما تلك البغيُّ من بني إسرائيل التي افترَتْ على جُريج العابد، إذ لمكنت نفسها من راعٍ، وحملت منه، ولما ولدت زعمت أنه من جُريج.

(١) إلا إذا استلزم الأمر إبراز البعد الجسدي لإظهار ملابسات الحديث ومسوغاته.

ب - الشخصيات الأساسية، والشخصيات الثانوية:

والقصة النبوية شأنها شأن أيّ قصة يدير أحداثها أشخاص يشكلون ثللاً في الحركة وتسلسل الحدث، وتسير حركاتهم وأفعالهم مواكبةً لشخصيات أخرى ثانوية تساعد في تطوير الحدث، فتظهر في حدثٍ ما، وختفي في موضعٍ من مواضع القصة. وقد تنفرد بأداء الحدث شخصيات أساسية إلى نهاية القصة؛ ففي قصة أصحاب الغار مثلاً ثلثة ثلات شخصيات أساسية تدور القصة في فلكها، تسهم في تطوير الأحداث، وتفاعل معها. وتواكب هذه الشخصيات شخصيات ثانوية ذات حجم أقل، ولكنها تشكل جانباً مهمّاً في إبراز جوانب الشخصيات وتوضيح ملامحها من خلال تفاعಲها معها، كوالدي الرجل الأول في قصة أصحاب الغار، وابنه عمُّ الثاني، وأخراء الثالث. وينفرد البطلان المفترض والمفترض في تفاعل الأحداث، ويستأثر بائع العقار ومشتريه بأحداث القصة، مع ظهور بسيط لشخصية من تحاكما إليه.

وقد تنفرد شخصية في تسخير الحدث وتفاعلها وتحقيق الوظيفة الفنية في آن واحد، ومن ذلك قصة الذي أمات الأذى عن الطريق، وقصة الرجل الذي سقى الكلب الذي أجهده العطش، وكذا البغيّ.

ج - الشخصيات النامية والشخصيات المسطحة:

فتشمل شخصيات متطرّفة تتغيّر بتفاعلها مع الحدث، مظهراً حيوية جديدة مختلفة عما كانت عليه في البداية، فـ«الشخصية في الرواية لا تنمو إلا من وحدات المعنى، إنما تتصاعد من الجمل التي تتطقّها هي، أو يتطقّها الآخرون عنها»⁽¹⁾.

ففي قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم عرض علينا شخصيته بصورة الشريرة وقد تلطّخت يداه بالدماء، ثم كتب له أن يتوب، لكنَّ ديدنه القتل، فقتل الملة. وفي تفاعلٍ مع الحدث، تتحرك الشخصية في بحثٍ عن توبة وتحرّر لأسبابها، إلى أن يدركه الموت.

⁽¹⁾ نظرية الأدب ، وارين وويليك ص ١٦٠ .

وكذلك في قصة أصحاب الغار، وشخصية من أحب ابنة عمّه، وقد مكنته من نفسها، تغيير الأحداث وفقاً لتغيير يطرأ على شخصيته، بسبب تصوّن المرأة وخشيتها من اقتراف الفاحشة، إذ بمحده يعود إلى رشه ويتركها ويترك المال.

وشخصية الأعمى أحد الثلاثة المبتلين تشکل نموذجاً إيجابياً في تطور الشخصية المتأتى من تطور الحدث، فبعد أن عانى ما عانى من مرضٍ ومن عَوْزٍ يأتي الامتحان، فتبرز الجوانب الحسنة، ويفاعل مع حاجة السائل اعترافاً بنعمة الله وشكراً.

وكثيراً ما نجد الشخصيات في القصة النبوية مسطحة ثابتة، نظراً لقصر الكثير من الشخص، فهي ذات حيز محدود؛ إذ تُعرض الشخصيات فيها ناضجة، فبز إحدى ملامحها، ومن ثم تأتي لقطات من مراحل حياتها، في موقف قصيرة سريعة، ومن ذلك: ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَبْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعَجِّبُهُ نَفْسُهُ مُرْجَلٌ جُمُّهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

ومن الشخصيات الثابتة على سليتها المرأة البغى من بنى إسرائيل، في قصة جريرا، التي مكنت الراعي من نفسها، ولم يذكر لها توبة بعد ذلك، شأنها شأن الراعي صاحبها.

٢) - الحدث:

وهو روح أيّ قصة، يحقق حيويتها وتفاعلها غير مفصول عن فاعله، محققاً بسلسلة الحبكة التي هي «سلسلة الأحداث التي تجري فيها مرتبطة عادة برابطة السبيبية، وهي لا تفصل عن الشخصيات إلا فصلاً مؤقتاً، وذلك لتسهيل الدراسة»^(٢).

^(١) البخاري، في اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، (٥٤٥٢) ومسلم، في اللباس والزيمة، باب تحرير التبخر في المشي مع إعجابه بشيابه، (٢٠٨٨).

^(٢) فن القصة ص ٦٣ .

والحدث في الحديث النبوى ليس فلسفةً لواقع، بل هو نقلٌ أمينٌ لحقائق تاريخية، يدور على أيدي شخصيات مبهمة الأسماء غالباً - كما أشرنا - فهى أدوات للحدث تقوم بوظيفتها في تحريكه ودفعه في طريق التمّ.

و بما أن القصة النبوية تُسمى في الغالب بالقصر من ناحية الحجم، فإننا لن نجد فيها قصة حياة، أو إظهاراً لجوانب مختلفة للأحداث، بل إنها - وإن أظهرت موقفاً متعددة - تقتصر في عرضها على إبراز الحدث المهم الذي يقوم به البطل، وبطبيعة سلوكاً لهذه الشخصية أو تلك، دون إسهاب أو تفصيل.

وتسلسل الأحداث في القصص النبوى يتميز بالترابط من الداخل، إذ يُسهم كل جزء من الحدث في توليد ما يليه، فينتقل بقوّة وحيويّة من نقطة إلى نقطة مُظهراً ترابطاً لبنيّة الحدث من الداخل، والتدليل على ذلك يكمن في كل قصص نبوى. وقد أسلفنا ذكر البنية العامة للقصة النبوية في البدء إلى النهاية.

ونشير ثمة إلى تسريع الحدث وإبطائه، وإسهام كل في أداء المراد، دون إخلال أو إملاك. والغالب - كما هو ملاحظ - سرعة الأحداث، وفاعليتها وحيويتها، ويزّ ذلك من خلال اختيار المفردات والحركة التصويرية للمشهد التسريع.

وتلاؤح الأحداث غالباً ما يظهر في الفاء الدالة على التعقيب، كما رأينا في قصة الرجل والكلب، والرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وقصة سليمان وداود عليهما السلام، والمرأتين المتحاكمتين إليهما، وغير ذلك كثير.

وستلزم القصة في بعض الأحيان أضواءً كاشفةً على بعض الجزئيات المصورة للمشاهد؛ وهنا تبرز الجزئيات اللغوية التي تسهم في تبطيء الحدث، ثم ما يليـثـ الموقفـ آنـ يفرض تسريعاً وفاعليـةـ لـتـسـلـلـ الأـهـدـاـتـ، فـفـيـ قـصـةـ أـصـحـاـبـ الـغـارـ بـنـجـدـ قـوـلـهـ ﷺـ: «ـحـيـ آـوـاهـمـ المـبـيـثـ إـلـىـ غـارـ فـدـخـلـوهـ، فـلـخـدـرـتـ عـلـيـهـمـ صـحـرـةـ مـنـ الـجـبـلـ، فـسـدـتـ عـلـيـهـمـ الـغـارـ»ـ.

وفي قصة الثلاثة المبتلين بحد حواراً للرجل الذي أرسله الله إليهم، حواراً يتكرر، ومواقف متتالية يظهر فيها تفصيل وتمثيل يمكن من تصوّر الفارق النفسي بين أحوال الثلاثة.

وقد حرصت القصّة النبوية في أثناء عرض أحداثها على قوة التأثير من خلال التسويق وإثارة الانفعالات، بما يعكس أهمية الغاية التربوية والتعليمية في ترسیخ المعنى وتمكينه في القصص النبوي.

«إذا ذكرنا التسويق فلا مناص من أن نذكر الدُّرُّورة، وهي القيمة التي تبلغها أحداث القصّة في تعقدها، وعندما يبلغها القارئ ينفعُ أشدَّ الانفعال، وتتلاحمُ أنفاسه، وتضطرب عواطفه، وتختلط أحاسيسه، فتزداد بهذا متعته، ويتضاعفُ شوّفه إلى معرفة الحل»^(١).
ففي قصة أصحاب الغار - وقد سدّت عليهم الصخرة باب الغار - يتفاعل المتلقي مع أولئك الذين قاربوا الموت، لولا أن تداركتهم رحمة ربّهم، وإذا بالانفعالات تتولى مع كل لحظة تزاح فيها الصخرة، متدرجة إلى أن ينفرج الكرب، وتشعر نفوسهم بنشوءٍ ترافق مع نشوة المتلقي.

ويشير عواطفنا وانفعالاتنا شأن المفترض الذي لم يجد سبيلاً لإيصال المال الذي وعد بوفائه في الأجل المسمى، فإذا نحن بالخشبة يحفظها الله تعالى حاملة الأمانة التي تكفل الله بها، وكان شهيداً عليها، لنجاًجاً بوصولها إلى صاحب الحق، بقدرة من الله.

وقد يتمثل التسويق والإثارة في إظهار المفارقات المتناقضة، كما في قصة موسى والخضر عليهما السلام، وفي دعاء الأمّ ودعاء ابنها الرضيع حين دعت أن لا يجعل ابنها مثل صاحب الشّارة واللحاء، على عكس دعاء ابنها، وهكذا إلى آخر القصة تثير الأحداث مفاجآتٍ وغواصاتٍ تلهب نشاط المتلقي للمتابعة ومعرفة أسرار الحدث.

٣) - الحوار

يسهم الحوار في إبراز سمات الشخصيات في كثيرٍ من الأحيان، فضلاً عن أثره في تطوير الأحداث، مما يعني أنه مظهرٌ حيويٌّ بارز في العملية القصصية، وقد قامت بنية أكثر

^(١) فن القصّة، د. نجم، ص ٤٣ .

القصص النبوية على عنصر الحوار استغناءً عن الوصف والتفصيل، وهو حوار قصير في غالب الأحيان، يفرضه تساُر الأحداث والتفاعل بين الشخصيات.

- والحوار ذو صلة وثيقة بالسُّرد القصصي، ولا سيما في ظل غياب راوي القصة -

وترك الشخصيات تصوّر الأحداث بمقولاتها وتحاوراتها، وهنا تبرز أهمية الحوار في رسم ملامح الشخصية، وإظهار أبعادها النفسية، وترجمة عواطفها وأحساسها من خلال ما تبوج به من كلمات، ويزير ذلك جلياً في قصة المبتَلين الثلاثة، وفي قصة الرَّجُل في حواره النفسي، وإبداء عواطفه تجاه الكلب العطش اللاهث، ولهمة الأم في قصتها مع رضيعها.

كما يسهم الحوار - كما أشرنا - في تطوير الحدث وتنشيطه، ثم في تعزيز أثره في نفوس المتألقين، وتكرر الأمثلة على ذلك، ونشير منها إلى أصحاب الغار وحكاياتهم وأحوالهم، وقصة الرجلين المتواхدين من بنى إسرائيل.

٤) - البيئة (الزمان والمكان):

الحديث عن الزمان في القصة النبوية يبرز في ناحيتين؟

الأولى من حيث كونه إطاراً لتحرك الشخصيات ضمنه، وتدور الأحداث منتظمةً في سياقه إلى نهايتها، وهنا نجد أنه يتسم بالتنوع ما بين طول وقصر، فقد يقصر أحياناً ليكون موقعاً يمثّل به بطل القصة، كالبغي والكلب، والرجل والكلب، وقد يطول الزمن كما رأينا مع المقترض، حين يأتي الأجل ويرسل المال في عرض البحر، ثم يمتدُّ الزمن إلى مجده وملاقاته صاحبه.

ويتطاول الزمن في قصة أصحاب الغار الذين عادوا إلى الوراء إلى أحداث ماضية مررت بهم في حياتهم، وشكّلت تطويراً لأحداث القصة.

والثانية: من حيث تأثير القصة بتحديد الزمان الذي حصلت فيه.
و غالباً ما نجد الإشارة إلى أنَّ الحادثة حصلت في الزمن الماضي، دون تحديد، فما أكثر قوله ﷺ: «كان فيمن كان قبلكم» وقوله: «كان فيمن سلف» أو باستخدام صيغة الماضي: «أن رجلاً اشتري ...».

أما حين تتعلق الأحداث باليوم الآخر فلا شك أن هذا الزمن سبب، لأنه جزءٌ أساسيٌ من الحدث، وعنصر مهمٌ في خطورته.

ولا شك أن عدم تأثير الرمان في القصص النبوي يتساوى مع ما ذكرناه من إهمام ذكر اسم الشخصية، وهو ما يؤكد أن الاهتمام بالفكرة وبالشخصية النموذج وبالحدث والعبرة هي غاية القصة ونهاية مقصدها.

وشأن المكان في القصة النبوية كشأن زمانها؛ إذ هو مسرح تدور عليه الأحداث، وتتنقل فيه الشخصيات، وهو مذكور محمدٌ يقدّر ما يسهم في إبراز الحدث وتوضيحه، وتعزيق تصوّره والتأثير به.

فالمكان مثلًا متباًع ومموج في بعض القصص، كما في قصة أصحاب الغار، وكما في قصة الثلاثة المبتلين، وفي قصة الرجل قاتل الملة، وقد يتولّد كما في قصة الرجل والكلب، وفي قصة المتكبر المغدور.

وإبراز الأمكانية خاطف في أكثر الأحيان، وموضوح في أحياناً قليلة، كما في قوله ﷺ: «... فأحرجاني إلى أرضٍ فضاء، أو أرضٍ مُستوية ... فإذا بيتٌ مبنيٌ على بناء التئور ... فإذا روضةٌ حضراء ... فإذا فيها شجرةٌ عظيمة ... فادخلاني داراً لم أر قط داراً أحسنَ منها ...»^(۱).

أما بالنسبة إلى تأثير المكان، والحدث عنه على أنه وعاء للحدث، فإذا استثنينا عرض أحداث اليوم الآخر في أرض المحسر والجنة والنار، فإننا نلاحظ بروز السمة نفسها، سمة الإبهام، إذ كان التعبير في القصص غالباً بقوله: «قرية كذا وكذا»، و«جبل كذا، وكذا».

^(۱) مستند الإمام أحمد ۳۲/۸ ۲۰۱۶۵.

٥) - الفكرة:

لما كان القصص النبوي قصصاً هادفاً كان لابدّ فيه من سيادة عنصر الفكرة، وعَيْتها على سائر العناصر، بل إنّ الفكرة هي رائدة القصة، ومحرك الأحداث، ومسير الأشخاص.

و«المضمون الفكري في القصص الحديثي إطلاق القواعد الدينية إلى شكلها المثالى، حيث نصرة الدين وإقامة العبادات، واتباع الفضائل على أكمل وجه، والبعد عن الرذائل أشدّ الابتعاد، فالأخيار هنا على أعلى مرتبة من التمسّك بالدين، والأشرار في أدنى المخطاط بشرى، وهم وسيلة للشّرّ، يمكن أن تُعدّ نماذج عامةً لكلّ عصر، وعلى هذا المنوال تُعدّ القصة الحديثية نوعاً من التصوير، وشكلاً من أشكال تحسيد الفكرة الدينية الحقيقة في لباس

حقيقي ليس من بنات الخيال»^(١).

وتُسمّ موضوعات القصص النبويّ بالعمق والتنوع والغنى، إذ هي من صلب الديانة الإسلامية تمثّل موضوعاتها، فهي موضوعات إنسانية تتّسع اتساع الحياة، وتغطي مختلف جوانب حياة الإنسان، لتصبّ في النهاية في الغاية العليا، ألا وهي التبليغ، فهي وسيلة إقناعية إجتماعية تربوية من وسائل الخطاب التعليمي في الحديث النبوي.

٦) - النسيج الفني:

هو الجزئيات الفنية واللغوية التي تتشابك وتتآزر مع الهيكل العام لإقامة بنيان القصة النبوية، ويتمثل النسيج الفني في تلاحم مقوماته التي تجعل القصة مؤدية لأغراضها، مبلّعة إلى المتلقى أقصى ما يمكن أن تبلغ. ونذكر من أهم مقومات النسيج:

١- الأسلوب

٢- التصوير

^(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

١ - الأسلوب: وتكمّن أهميّته في قدرة القاصِّ على توظيف طاقات الألفاظ في تأدية المعاني، و اختيار الأولى لتحقيق الغاية المرجوة في التأثير والإقناع. ولا تختلف المظاهر الأسلوبية في القصص النبوى عن سواها من فنون الخطاب النبوى، إنما بلاغةً من أوى جوامع الكلم. ولكن لابد من الإشارة إلى تلك المظاهر من جهة توظيفها في الفن القصصي، وإبراز إسهامها في النهوض بالمقومات الفنية الأخرى للقصة.

ومن أبرز تلك المظاهر:

- سهولةُ اللفظ وبُعدُه عن التعقيد أو الغرابة، مما يسهم في إمتناع القارئ، وتقرير الحدث من عقله ثمَّ من قلبه.
- قصر العبارات، مع نظم متسلسل، جيد الفصل والوصل، وبساطة التراكيب، دون تقديم أو تأخير، مما يدفع العناء والتعثر عن المتلقى.
- توظيف الألفاظ وطاقاتها لتكون أداة فعالة في العنصر الثاني من مقومات النسيج،

وهو:

٢ - التصوير في القصة: ويقصد به تلك الكيفيات الدقيقة في استخدام اللفظ وتوظيفه في رسم الصورة، وبيان الحركة، وإثارة الخيال. ومن ذلك تصوير المشاهد التي عرض لها النبي ﷺ في قوله: «يُجاء بالرَّجُل يوم القيمة، فيلقى في النار، فتندلى أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيحتمل أهل النار عليه، فيقولون ...»^(١).

نلحظ في استخدام الفعل المضارع استحضاراً للصورة، وإبرازها متحرّكةً أمام الخيال، في مشهد غيبي مستقبلي.

^(١) البخاري، في بدع الخلق، باب صفة النار وأنما مخلوقة، (٣٠٩٤) ومسلم، في الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، (٢٩٨٩).

ومن استخدام الفعل المضارع قوله ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهِيَةً كَبِشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مَنْدِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَشْرِبُونَ وَيَنْظَرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ! هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ. فَيَذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خَلُودٌ فَلَا مَوْتٌ. ثُمَّ قَرَا: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحُسْنَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفَلَةٍ - (وَهُؤُلَاءِ فِي غَفَلَةٍ أَهْلَ الدُّنْيَا) - وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»^(١).

ويُسْهِم استخدام الفعل الماضي في إضفاء معنى التتحقق على الحدث الذي سيحصل في المستقبل، وما أكثر شواهد هذا الاستخدام في القرآن الكريم في تصوير مشاهد يوم القيمة. ولا يختلف الأمر في الحديث النبوي، ومن ذلك قوله ﷺ: «الْتَّقَى مُؤْمِنًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، مُؤْمِنٌ غَنِيًّا، وَمُؤْمِنٌ فَقِيرٌ كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَأَدْخَلَ الْفَقِيرَ الْجَنَّةَ، وَحُبِسَ الغُنْيُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُحْبَسَ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلَقِيَهُ الْفَقِيرُ، فَيَقُولُ: أَيْ أَجِي! مَاذَا حَبَسْتَ؟ وَاللَّهُ لَقَدْ احْتَسِنْتَ حَتَّى يَحْفَظَ عَلَيْكَ، فَيَقُولُ: أَيْ أَجِي! إِنِّي حُبِسْتُ بَعْدَكَ مُحِسِّنًا فَظِيلًا كَرِيهًا، وَمَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى سَأَلَ مِنِي الْعَرْقُ مَا لَوْ وَرَدَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ كُلُّهَا أَكِلَّهُ حَمْضٌ لَصَدَرْتُ عَنْهُ رَوَاءً»^(٢).

كما توظّف طاقات الألفاظ في تصوير الانفعالات والعواطف وإبرازها للمتلقي، كما في قصة اليائس من ناقته وفرجه بلقائهما: «اللَّهُ أَشَدُ فَرَحًا بِتوبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دُرْقَةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامٌ وَشَرَابٌ، فَنَامَ وَاسْتَيقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَّبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطْشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامَ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ، فَاللَّهُ أَشَدُ فَرَحَةً بِتوبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادَهُ»^(٣).

(١) البخاري، في التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحُسْنَةِ﴾، (٤٥٣) ومسلم، في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجنaron... (٢٨٤٩).

(٢) مسنـد الإمام أحمد ١/ ٣٠٤ (٢٧٧١)

(٣) مسلم، في الرائق، باب في الحض على التوبة، (٤) دُرْقَةً: هي البرية التي لا نبات بها.

وللوصف في بعض القصص أثرٌ مهمٌ في تصوير المشهد وتشخيصه أمام السامع، وهو أمرٌ مهمٌ في التأثير بالمتلقي، وخاصةً إن كان من المشاهد الغيبة المستقبلية، ومن ذلك: قوله ﷺ: «ثُمَّ يُوضَعُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرِيْ جَهَنَّمَ، وَالْأَنْسِيَاءُ بِنَا حَيَّتِهِ، قَوْلُهُمْ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلَّمْ، وَإِنَّهُ لَدَخْضُ مَرَّلَةٌ، وَإِنَّهُ لَكَلَالِبُ وَخَطَاطِيفُ»، – قال عبد الرَّحْمَنُ (أحد الرواة) : لا أدرى لعله قد قال: تخطف الناس –، وحسكة تبث بنجدٍ يُقال لها سعدان». قال: «ونعَّها لهم ...»^(١). ويشكّل التشبيه أحد الوسائل القرية في التصوير، ونقل المشهد الغيبي أو الغريب إلى محسوسٍ مألوفٍ، ومن ذلك ما مرّ من قوله ﷺ: «يُجَاهُ بِالرَّجُلِ ... فَيُذُورُ كَمَا يَذُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاه».

وقوله ﷺ في حديثه عَمَّن يعتقدهم الله من النار يوم القيمة:
 «... فَيُدْخَلُونَ فِي نَارِ الْحَيَاةِ، فَيُنَبَّئُونَ كَمَا تَبَثُ الْحَبَّةُ فِي غُثَاءِ السَّيْلِ ...»^(٢).

ثالثاً - أنواع القصة الحديبية:

والقصة الحديبية على تنوعها وكثراها يمكن أن تصنف ضمن أنواع ثلاثة^(٣):

١ - القصص الواقعة للرسول ﷺ:

وهي تجارب إيمانية ذاتية حدثت معه ﷺ، فقصصها على أصحابه لتعزيز إيمانهم برسالته، وإنبائهم عن ما أوحاه الله تعالى إليه، ولتشبيتهم وشدّ عرىتهم، وغير ذلك من الأغراض التربوية التعليمية التي تحملها كل حادثة قصتها.

^(١) مسنن الإمام أحمد ١٦/٣ (١١١٤٣)

^(٢) البخاري، في الإيمان، باب تقاضل أهل الإيمان في الأعمال، (٢٢) ومسلم، في الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، (١٨٤)

^(٣) انظر القصص في الحديث النبوي ص ٣٣٣ وما بعد .

ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتيك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال، فلم يحبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلهم أستفتق إلا وأنا بقرين الشعاب، فرقعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت، فإذا هي جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملائكة الجبال، فسلم علىي، ثم قال: يا محمدًا فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطريق عليهم الأحسابين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»^(١).

ومن ذلك ما حكاه ﷺ مما حرى معه في حادثة شق صدره الشريف في حديث الإسراء الطويل: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ فَفَرَّجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَّلَهُ بِماءِ رَفَزَمْ، ثُمَّ جَاءَ بَطْسِتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ بِحِكْمَةٍ وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخْدَى بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ ...»^(٢).

ومنه ما رواه من أحداث في حديث الإسراء والمعراج الطويل، وغير ذلك من مشاهد

حياته ﷺ.

٢ - القصص التمثيلية:

وهي قصص لم تقع، ذات أحداث يرسمها النبي ﷺ مثلاً بما حقائق ذهنية، وأمراً مجردة، متخدلاً إياها وسيلةً من وسائل التوضيح والبيان، مثلاً في ذلك مثل القرآن الكريم في تجسيم المعاني المجردة وإبرازها أمام العين. من ذلك وصفه تعالى للأحوال النفسية للمنافقين بقوله: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَرَرَكُهُمْ فِي

^(١) البخاري، في بدء الخلق، باب «إذا قال أحدكم أمين الملائكة ...»، (٣٠٥٩) ومسلم، في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (١٧٩٥).

^(٢) البخاري، في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، (٣٤٢).

ظُلْمَاتٍ لَا يُبَصِّرُونَ * صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيْبٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ
وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَايِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتَ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ》
[البقرة: ١٧ - ١٨].

ومن ذلك في الحديث قوله ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حَدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ
اسْتَهْمَوْا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْقَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا
إِذَا اسْتَقَوا مِنَ الْمَاءِ مُرْوُا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَا حَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذَ مَنْ
فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخْذَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ بَجَوَ وَنَجَوْ جَمِيعًا»^(١).
وقوله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ
بَعْيَنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ لِلْعَرَبِيَّانُ، فَالْجَاءَتِ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ، فَأَدْجَلُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْ،
وَكَدَّبُتْهُ طَائِفَةٌ، فَصَبَّحُهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاهُمْ»^(٢).

وهذه القصص التي يضرب بها النبي ﷺ المثل - وإن كانت ذات أحداث لم تقع،
وشخصيات لم تكن - هي قصص تحاكي الواقع، أي يمكن أن يجد أمثالها في واقع الحياة،
فضلاً عن توفر المقومات والعناصر الفنية فيها كسائر القصص الواقعي الذي قصه النبي ﷺ.

٣- القصص الغيبية:

وهي قصص لم ينسجها النبي ﷺ من خياله، أو يغلِّف بها الواقع، بل هي نقل أمينٍ
لحقائق تاريخية لم يكن لها إلا مصدر واحد، إلا وهو الوحي: «إِنَّهُو إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»
[النجم: ٤]، فهي قصص واقعية صيغت في قالب أدبيٍّ رفيع، لتحقّق الغايات التربوية

^(١) البخاري، في الشركة، باب هل يقع في القسمة، (٢٣٦١).

^(٢) البخاري، في الرقائق، باب التهاء عن المعاصي، (٦١١٧) ومسلم، في الفضائل، باب شفقته ﷺ على
أمتة، (٢٢٨٣) العريان: الذي تجرّد من ثوبه ورفعه بيده إعلاماً لقومه بالغارة عليهم. ضرب به النبي ﷺ
المثل لأمته لأنّه تجرّد لإإنذارهم. فأدجلوا: من الإدلاج، وهو السير في الليل أو أوله. مهلهم: تأنيتهم
وسكينتهم. فصَبَّحُهُمْ: أتاهم صباحاً أي بغتة. فاجْتَاهُمْ: استأصلهم وأهلكهم.

والتعليمية، وعرضت عرضاً فنياً لم يخل بالواقع التاريخي، أو يتعارض معه، أو يزيد فيه، أو ينقص. وهذا النوع من القصص هو الغالب في مساحة القصص النبوى، ويتضمن:

أ- قصصاً تاريخية من الماضي، وأمثالها كثيرة جداً، سبقت الإشارة إليها في المبحث السابق^(١).

ب- قصصاً من غيب المستقبل، كعلامات الساعة، والفتن، واللاحِم، وخروج الدَّابة... أو أحداث ستحصل يوم القيمة يوم الحشر والجزاء.

ج- قصصاً من غيب الحاضر، وهي قصص تروي واقعاً غير مشاهد لدى الإنسان، ك الحديث الملائكة السياحين في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةً سَيَاحِينَ فِي الْأَرْضِ، فُضْلًا عَنْ كِتَابِ النَّاسِ، إِذَا وَجَدُوا أَقْوَامًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هُلْمُوا إِلَى بُعْيَتِكُمْ، فَيَحِيُّهُنَّ، فَيُخْفِيُّنَّهُنَّ إِلَى سَماءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ اللَّهُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَرْكُّمُ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: تَرْكَنَا هُنَّ يَخْمَدُونَكُمْ وَيَجْدُونَكُمْ وَيَذْكُرُونَكُمْ». قال: فَيَقُولُ: فَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكُمْ لَكُمْ أَشَدُ تَحْمِيدًا، وَأَشَدُ لَكُمْ ذِكْرًا، قَالَ: فَيَقُولُ: وَأَيُّ شَيْءٍ يَطْلَبُونَ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَطْلَبُونَ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا لَهَا أَشَدُ طَلَباً، وَأَشَدُ عَلَيْهَا حِرْصاً، قَالَ: فَيَقُولُ: مَنْ أَيُّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا مِنْهَا أَشَدَّ هَرَبَاً، وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفاً، وَأَشَدَّ مِنْهَا تَعْوِذاً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أُشَهِّدُكُمْ أَيُّنِّي قَدْ غَرَّتْ لَهُمْ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ فِيهِمْ قُلَّاتَا الْخَطَاءِ لَمْ يَرْدُهُمْ، إِنَّمَا جَاءُهُمْ لَحَاجَةٍ، فَيَقُولُ: هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْكُّ لَهُمْ جَلِيلٌ»^(٢).

^(١) كقصة أصحاب الغار ، و المبتلين ، و القاتل ...

^(٢) سنن الترمذى ، فى الدعوات ، باب «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةً سَيَاحِينَ فِي الْأَرْضِ» ، (٣٦٠٠).

المبحث الثاني

الخطابة في الحديث النبوى

الخطابة ظاهرة كلامية عميقه الجذور في الماضي، ذات أثرٍ جليلٍ فعالٍ منذ القدم، فقد كانت مطية الأنبياء لإعلام الناس رسالات رحّم ونشرها، وتوضيح معالم دينهم وشرائعهم.

وكانت الخطابة كذلك ظاهرةً أصيلةً في حياة العرب، ذات شأنٍ في حالتي الحرب والسلام، فاهتموا بها في اجتماعاتهم الموسمية وفي أسواقهم الأدبية، وفي دار ندوتهم مجمع رؤساء القبائل، ومحلٌّ مشاورتهم.

وعلى الرغم من مكانة الخطابة لدى العرب فإنها لم تتبّأ منزلة تساوي منزلة الشعر، لهذا لم تحفظ لنا كتب الأدب الكثير من النصوص الموثوقة قبل الإسلام، وقد يكون سبب ذلك أميّة العرب من جهة، وصعوبة الاحتفاظ بالخطب في الذاكرة خلافاً للشعر الموزون، الذي يُنْعَنِي بجمال وزنه وموسيقاه من جهة أخرى.

ولم تكن الخطابة مركباً مستباحاً لدى العرب، بل كانت مورداً سادة القوم وكبارهم وأرباب الفصاحة والبيان، خلافاً للشعر الذي يركب متنه ويردّ موارده الزعيم في القوم كامرئ القيس، والعبد المملوك كعترة بن شداد.

وهكذا كان الخطيب من حيث شخصه؛ أعلى من الشاعر، فهو السيد المُطَاع، والحكيم القدوة، والسفير المؤيد^(١)، وكان الشاعر من حيث قوة تأثيره أكثر أهميةً من الخطيب.

^(١) العقد الفريد ٢٢٨/١.

وقد تنوّعت وتعدّدت أنواع الخطابة قبل الإسلام، فكان منها: خطب القتال، والمحض على الثأر، وخطب الوفود، وخطب الإصلاح، وخطب الإرشاد، وأسم أسلوبها بالقوة والجزالة وفخامة اللفظ، وغرابته وخشونته أحياناً، وتربيته بالحسنات البدعية، وتسريع إيقاعه، وإيجاز تراكيبه.

ولمّا كانت الخطابة خاضعة لبيتها وتابعة لمؤثراها، فلا بد أن يحدث فيها تغيير حاسم في عهد الإسلام.

فقد أحدث الإسلام تغييراً جذرياً في واقع حياة العرب في جميع مناحيها، فكراً وعقيدةً ومنهج حياة، فلا غرو أن يعكس هذا التحول في الحياة الأدبية، وفي فنونها كافة. وكانت الخطابة أكثر هذه الفنون تأثراً نظراً لما كتبها للدعوة الإسلامية، واتخاذ النبي ﷺ إياها مرقاً للصياغة ونشر تعاليم الدين، فقد كانت له أمضى سلاحه، من يوم صعد على المنبر حين جهر بالدعوة: «أرأيتم لو أتيتُكم أني أخربكم أنّ خيلاً بالوادي ثریدُ أنْ تُغيِّرَ علَيْكم أَكُشْمُ مُصَدِّقِي؟»^(١) إلى آخر أيام حياته حين صعد على المنبر وقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»^(٢).

وقد تجلّى تأثير الفن الخطابي بالإسلام في وجوه متعددة؛ مكانةً ومضموناً وأسلوباً، فأماماً مكانة الخطابة فقد ارتفت حتى عدّت إحدى شعائر الإسلام عندما فرضت في صلاة الجمعة، فضلاً عن سائر الخطاب الدينية التي سنّها النبي ﷺ، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب التي سنّبّها لاحقاً، وأماماً مضمونها فبع الأغراض والمضمونين الدينية التي اتسعت اتساع الحياة، وشملت كلّ الميادين وشؤون المجتمع.

(١) البخاري، في التفسير، باب سورة المسد، (٤٦٨٧)

(٢) البخاري، في فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، (٣٦٩١) ومسلم، في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه، (٢٣٨٢)

وأما أسلوحاً فهو أسلوب الخطاب النبوى الناصل المتأسى بأعلى خصائص الفصاحة والبلاغة، مع سهولة المأخذ وجمال البيان.

يقول الدكتور شوقي ضيف: إنَّه عليه السلام هو الذي فتق معايير هذه الخطابة الدينية التي لم يعرها العرب قبله، فهو الذي رسماها وفجَّرَ ينابيعها، بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده، وكأنَّما احتشد الكلم بأزْمَته إليه، ليختار منه أفضحه وأسلَسَه، وأبيَّنه في الدلالة، يسعفه في ذلك ذوقٌ مرهفٌ وحسُّ دقيقٌ نتبينهما فيما روي عنه من قوله: «لا يُقُولُنَّ أَحَدُكُمْ: خَبَثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لَيَقُولُنَّ: لَقَوْسَتْ نَفْسِي» كراهيَةً أن يضيِّفَ المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار، البريء من كل ما يُستَكره، اللفظ الذي يحبُّ إلى النفوس لحلوته وعدوبته، وصفاته ونقاءه^(١).

الخصائص الموضوعية والفنية للخطابة النبوية:

١- موضوعات الخطاب النبوية:

دارت مضمون الخطاب في ذلك الدعوة والتبلیغ، فقد كانت ديدن النبي ﷺ وصحابته من بعده في كل موقف وكل مناسبة، فكان من أهم هذه الخطاب الخطابُ الدينية. وكان منها ما هو مرتبط بوقت أو حدث خطبة الجمعة، وخطبة العيد، وخطبة عرفة، والكسوف، والحسوف، والاستسقاء. ومنها ما كان غير مرتبط بوقت معين أو ظرفٍ محددٍ، كخطاب الحضُّ على القتال، وخطاب المحافل والوفود، وخطاب الوعظ والإرشاد، وما أكثرها.

فمن الأول: أول خطبة خطبها الرسول ﷺ حين قدم المدينة إذ قال: «الحمدُ لله أَحَمَدُهُ وَأَسْتَعِيهُ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَسْتَهْدِيهُ وَأَوْمَنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ، وَأَعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ، وَأَشَهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ، وَقَلْلَةٍ مِّنَ الْعِلْمِ وَضَلَالِّ مِنَ النَّاسِ، وَانْقِطَاعٍ مِّنَ الْإِيمَانِ ... وَأَوْصِيكُمْ

(١) العصر الإسلامي ص ١٢١ .

بتقوى الله، فإنَّه خيرٌ ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يمْضيَ على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضلَ من ذلك نصيحةً، ولا أفضلَ من ذلك ذكرِي، وإنَّه تقوى لِمَن عملَ به على وَحْلٍ وَخَافِهِ، وعوْنٌ صدِيقٌ على مَن تَبَغُونَ من أمر الآخرة

(١) ...».

ومن الثاني: ما خطب يوم بدر محِررًا المؤمنين على القتال قائلًا: «لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيقتل صابراً محتسِبًا، مقيلاً غيرًا مدبرًا إلا أدخلَه الله الجنة»^(٢).

ومن الوعظ والإرشاد ما رواه ابن عباس رضي الله عنهمَا قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب على المنبر يقول: «إِنَّكُمْ تُحَشِّرُونَ حُفَّاهُ عُرَلًا،» **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيَّدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** [الأنبياء: ٤٠] وإنَّ أَوَّلَ الْخَلَقَيْنِ يُكَسِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنَّه سَيُجَاهُ بِرِجَالٍ مِنْ أَمَّتِي، فَيُؤْتَدُ بَهْمَ ذاتِ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثَتْ بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: **وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ** إلى قوله: **«الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**» [المائدة: ١١٧، ١١٨]^(٣).

٢ - أسلوب الخطب النبوية:

تبَيَّنَتْ سابقاً تميُّزُ البيان النبوِي فصاحةً وبلاطَةً وسموًّا خطابِ تعليميٍّ تبليغيٍّ، ولِمَا كانت الخطابة فنًا قولياً يتوجّهُ بها الخطيب إلى السامِع مباشرةً، ليصل إلى عقله وقلبه كأن لا بد أن تحمل الخطبة سمات الخطاب المباشر المقنع المؤثر. فبقدر ما يكون الخطيب حكيماً في

^(١) السيرة النبوية لأبي كثير ٣٧٤/٣.

^(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٨٧.

^(٣) البخاري، في الرائق، باب كيف الحشر، (٦١٥٨) غرلاً: جمع أغزل، وهو الذي لم يختن، والمعنى أفهم بمحشرون كما خلقوا لم يفقد منهم شيء، وليس معهم شيء.

انتقاء الألفاظ التأثيرية والكلمات الإيحائية يكون أقدر على تبليغ ما يريد، وأسرع في التأثير في المخاطب وامتلاك نفسه ومشاعره وعواطفه.

وسنة النبي ﷺ في انتقاء اللُّفْظ في جلٌ كلامه معلومة معهودة، وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره د. شوقي ضيف في ذلك. فقد جاءت الألفاظ في غالب خطبه سهلةً واضحةً مأنوسةً مألوفةً، لا نكاد نجد فيها لفظاً مستكريهاً أو كلاماً وحشياً، والأمثلة على هذه السمة كلُّ خطبة وردت عنده ﷺ.

أما التركيب فقد اتسمت بالقوَّة والتَّماسُك، وكانت متَّالفة في حروفها، مع تناغم إيقاعها وإيماء لفظتها، محققة المعنى المراد.

ومن الأمثلة على ذلك خطبته في الأنصار يوم حنين: «أوجذُم يا معشَّر الأنصار في أنفُسِكم في لِعَاعَةٍ من الدُّنْيَا تَأْلَفُتُ بها قَوْمًا يُسَلِّمُوا، وَوَكَلتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُم»^(١). كما نلحظ فيها التوازن، بحيث تنازَر الألفاظ بعضها مع بعض مشكلة تركيب متوازية محققة إيقاعاً موسيقياً تطرب له النفس «ولو سَلَكَتُ الأنصار شِعْباً وَسَلَكَتُ الأنصار شِعْباً لَسَلَكَتُ شِعْبَ الأنصار، الأنصار شِعْباً والنَّاسُ دِنَارٌ»^(٢)، اللَّهُمَّ ارْحِمُ الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار».

ومن الخطب التي يظهر فيها حسن التوازن وجمال السجع غير المصنوع، ما رويه عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله: «أئُها النَّاسُ! اسْتَحْيُوا من اللهِ حَقَّ الْحَيَاةِ» فقال رجل: يا رسول الله! إِنَّا نَسْتَحْيِي من اللهِ تعالى!

(١) مستند الإمام أحمد ٣/٧٦ (١١٧٣٠) لِعَاعَة: أي بقية يسيرة.

(٢) (شعار) هو الثوب الذي يلي الجلد من البدن. (دثار) هو الثوب الذي يكون فوق الشعار. ومعنى الحديث: الأنصار هم البطانة والخاصة والأصفباء، وألصق الناس بي من سائر الناس.

فقال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَحِيًّا فَلَا يَبْيَثَنَّ لَيْلَةً إِلَّا وَأَجْلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَيُخْفَطِ الْبَطْنُ
وَمَا حَوْيَ، وَالرَّأْسُ وَمَا وَعَى، وَلَيُذْكَرِ الْمَوْتُ وَالْبَلْى، وَلَيُشْرُكْ زِينَةُ الدُّنْيَا»^(١).

والواضح في هذه الخطبة أن السجع جاء عفوياً بديهياً، غير متكلف، إذ لم يكن ﷺ
يقصد إلى تزيين كلامه، ولا يتجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يرميه^(٢). وسجعه في
هذه الخطبة وغيرها بعيد كل البعد عن ما كان عليه السجع المتكلف المصنوع الذي كثر في
خطب الجahلية.

وقد تنوّعت التراكيب طولاً وقصراً، وفقاً لما يقتضيه المعنى المراد والتأثير اللطلوب،
فمعلوم أن الخطبة التي يراد بها إثارة العواطف، وتحريك المشاعر، تحتاج في التعبير عن معانيها
إلى التراكيب القصيرة والعبارات الخاطفة، لتبتّ الحماسة في النفوس وتدفع إلى العمل
الحاصل.

ومن ذلك قوله ﷺ في إحدى خطبه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، كَانَ الْحَقُّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا
وَجَبَ، وَكَانَ الْمَوْتُ عَلَى غَيْرِنَا كُتُبٌ، وَكَانَ الَّذِينَ نُشِيعُ مِنَ الْأَمَوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا
رَاجِعُونَ، نَبُوَّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ، وَنَأْكُلُ ثُرَاثَهُمْ، كَانُوا مُخْلَدُونَ بَعْدَهُمْ، نَسِينَا كُلَّ مَوْعِظَةٍ، بِوَمِنْتَنَا
كُلَّ جَائِحَةٍ، طُوْيِ لَمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عَيْوَبِ النَّاسِ، وَأَنْفَقَ مَا لَأَ كَسَبَهُ فِي غَيْرِ «عَصَيَّةٍ»^(٣).
وقد كانت ملائم التشويق والإثارة تبدو جلية على قسماته ﷺ تفاعلاً وحماسةً، فقد
رُوِيَ عن جابر رضي الله عنه. قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَتْ عَيْنَاهُ وَعَلَّا
صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَانَهُ مُنْذِرٌ جِيشٍ يَقُولُ: صَبَّحْكُمْ وَمَسَّاكمْ»^(٤).

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٢٢٦/٢ (٧٣٤٢).

(٢) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٨٢.

(٣) شعب الإيمان ١٤٢/١٣ باب الرهد وقصر الأمل، (١٠٠٧٩).

(٤) متنلهم، في الجمعة، باب تحريف الصلاة والخطبة، (٨٦٧).

وروى حابر رضي الله عنه أيضاً: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ، أَوْ وَعَظَ قَلْتُ: نَذِيرُ قَوْمٍ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ، فَإِذَا ذَهَبَ عَنِيهِ ذَلِكَ رَأْيُهُ أَطْلَقَ النَّاسَ وَجْهًا وَأَكْثَرُهُمْ ضَحْكًا، وَاحْسَنُهُمْ بِشْرًا»^(١).

وقد يستلزم موضوع الخطبة بعض الطول في التراكيب كما في معرض التعليم، ومن ذلك خطبته ﷺ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمْرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهَلْتُمْ مَا عَلِمْتُنِي يوْمِي هَذَا، كُلُّ مَا لَيْخَلْنَاهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ كُلُّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَنَّهُمْ عَنِ دِينِهِمْ ...» قال: «وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْبِسٌ مُتَصَدِّقٌ مُوْفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفَّفٌ ذُو عِيَالٍ» قال: «وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الْمُضَعِّفُ الَّذِي لَا زَيْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِي كُمْ تَبَعًا لَا يَتَبَعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَنْفَئِ لَهُ طَمْعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصِيبُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يَخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ»، وَذَكَرَ الْبَخْلَ أَوِ الْكَذْبَ، وَالشَّسْطِيرَ الْفَحَاشَ^(٢).

كما تراوحت خطبه بشكل عام بين الطول والقصر وفقاً لمقتضيات الأحوال والمقامات، وغالباً ما اتصف خطبته بالقصر، وقد روى عنه ﷺ الحث على ذلك بقوله فيما يرويه عمّار بن ياسر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ طَوْلَ صَلَاتِ الرَّجُلِ وَقَصْرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِيقِهِ، فَأَطْلِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسْحَرًا»^(٣).

(١) مجمع الزوائد ٦٧٩/٨ باب في حسن خلقه وحياته، (١٤٢٠٢).

(٢) مسلم، في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٢٨٦٥).

(٣) مسلم، في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٨٦٩) مئنة: أي علامة.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كنت أصلّى مع النبي ﷺ، فكانت صلاة قصداً، وخطبته قصداً»^(١).

وعن الحكَم بن حَرَن رضي الله عنه: «... فأقمنا أياماً شهداً فيها الجمعة مع رسول الله ﷺ، فقام متوكلاً على عصاً أو قوسٍ، فحمدَ الله وأثنى عليه، كلماتٌ خفيفاتٌ طيباتٌ مباركاتٌ»^(٢).

وإن اقتضى الأمر وأحوال الناس تطويلاً في الخطبة كان الأمر كذلك، ومن أمثلته خطبته الطويلة التي حدث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن طولها وشغلها ما بين صلاة العصر إلى قرب غروب الشمس، فقد رُوي عنه أنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر بنهاية، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسقه من نسيه، وكان فيما قال: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حَلْوَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِعُكُمْ فِيهَا فَنَاظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» فذكر أبو سعيد من الخطبة، ثم قال: وجعلنا نلتقي إلى الشمس هل يبقى من النهار شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَقِنْ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضِيَ مِنْهَا إِلَّا كَمَا يَقِنُ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ»^(٣).

- واستقراء خطب النبي ﷺ يُظهر ثبوتها وعمومها، فهي شاملة في موضوعاتها لجميع مناحي الحياة الإنسانية، إذ إنها لم تكن منحصرة في مناسبات خاصة أو لأشخاص معينين، بل واكبت حياة النبي ﷺ الت汴ية التعليمية، ولا يكاد باب من الأبواب الموضوعية في المصنفات الحديثية يخلو من خطبة في موضوعات تلك الأبواب؛ من بيان ما أجمل من

^(١) مسلم، في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٨٦). قصد في الأمر قصداً: توسط وطلب الأسد، ولم يجاوز الحد. (المصباح المنير).

^(٢) سنن أبي داود، في الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس، (١٠٩٦).

^(٣) سنن الترمذى، في أبواب القدر، باب ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيمة، (٢٢٨٦).

الآيات، أو توضيح أمر من **المُشَكِّلَات**، أو إنشاء حُكْمٍ لم يَرِد في الآيات، أو لتنبيه القلوب وتركية النفوس، والبحث على العمل والجهاد، إلى غير ذلك مما هو متشعب اتساع الحياة.

وكانت أيضاً خطاباً عاماً لكل الأمة، غير منحصرة في زمانها أو مقيدة بأعيان من الناس، أو متطرفة لمسائل تخص أقواماً دون آخرين، بل هي عامة لزمان المخاطبين ومن بعدهم، ولأعيانهم ومن سواهم، ولذا كان لها من السمات الأسلوبية والموضوعية ما يوائم صلاحيتها أن تكون خطاباً عاماً من حيث الزمان والمكان والحال.

وهكذا دراسة لنموذج من خطبه الجليلة ﷺ وهي:

خطبة حجّة الوداع

روى الإمام البخاري بسنده إلى أبي بكر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرَّبَّانَى قَدْ اسْتَدَارَ كَهْيَتِهِ يَوْمَ خَلْقِ اللَّهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةُ حُرُومَةٍ، ثَلَاثُ مُتَوَالِيَّاتٍ؛ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَذُو الْحِرَمَةِ وَرَجَبٌ مُضَرَّ الْذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ. أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟!» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَّتَ حَتَّى طَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيَ بِعَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةَ؟» قُلْنَا: بَلِى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟!» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَّتَ حَتَّى طَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيَ بِعَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةَ؟!» قُلْنَا: بَلِى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟!» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَّتَ حَتَّى طَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيَ بِعَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟!» قُلْنَا: بَلِى. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ - قَالَ مُحَمَّدٌ (أَحَدُ الرُّوَاةِ) وَاحْسِبْهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ - عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرُمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَلْقَوْنَ رَبِّكُمْ فَيَسِّئُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلُّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ بِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لَيَتَلْبَلَ

الشَّاهِدُ الْغَائِبُ، فَلَعْلَهُ بَعْضُ مَنْ يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَّنْ سَمِعَهُ» وَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ قَالَ: صَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ - مَرَّتِينٌ»^(١)

فِي يَوْمِ حَاسِمٍ مِّنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ ﷺ، وَفِي لَقَاءِ أَكْبَرِ جَمِيعِ آمِنِيهِ وَهِمَا حَاجَاهُ بِهِ، يَقْفَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْجَمْعِ الْغَفِيرِ فِي لَقَاءِ لِنْ يَتَكَبَّرُ، بِخَطَابِ عَالَمِيٍّ يُعْلَمُ فِيهِ لَأْمَتِهِ أَحْكَاماً وَتَشْرِيفَاتٍ ذَاتِ خَطْرٍ، يَحْذِرُ مِنَ الْإِجْتِرَاءِ عَلَى الْحَرَمَاتِ وَتَحْاوزِ الْحَدُودِ، وَيَذَكُّرُ بِاللَّقَاءِ الْأَكْبَرِ بَيْنَ يَدِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَهِيبُ بِكُلِّ مَنْ سَمِعَ أَنْ يُؤْدِي الْأَمَانَةَ وَبِلَغِ الرِّسَالَةِ.

وَقَدْ افْتَنَحَ النَّبِيُّ ﷺ خَطْبَتِهِ بِرَاعِيَةِ الْأَسْتَهْلَالِ، فَقَبْلَ أَنْ يَقْرَرِ الْأَحْكَامَ وَيَنْهَا عَنِ الْأَنْهَاكِ الْحَرَمَاتِ، أَعْدَادَ الْحَقِّ إِلَى نَصَابِهِ، وَصَحَّحَ لِكُلِّ شَهْرِ حَسَابِهِ، بَعْدَ أَنْ تَلَاقَتْ بِهِ أَهْوَاءُ الْعَابِثِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِيِّينَ، فَجَاءَ بِعَبَارَاتٍ تَقْرِيرِيَّةٍ إِخْبَارِيَّةٍ لَا يَبْسُسُ فِيهَا، وَلَا تَشْكِيكُهُ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهْيَتِهِ ...» ثُمَّ اتَّنْقَلَ إِلَى أَسْلُوبٍ آخَرَ، وَهُوَ أَسْلُوبُ الْإِثَارَةِ وَالْتَّشْوِيقِ بِاسْتِخدَامِ الْإِسْتِفَاهَمِ عَنِ أَمْرَوْمَعْلُومَةِ، إِظْهَارِ الْحُرْمَتِهَا، وَاسْتِحْضَارِ الْأَفْهَامِ الْمُتَخَاطِبَيْنِ، وَاسْتِدْعَاءِ لِإِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِمْ، وَإِشْعَارًا لَهُمْ بِأَهْمَيَّةِ مَا يَخْبِرُهُمْ بِهِ، وَقَدْ سَكَتُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِحُسْنِ أَدْبُهِمْ، وَلَعْنُهُمْ أَنَّهُ لَا يَخْفِي عَلَيْهِ مَعْرِفَتِهِمْ لِلْجَوَابِ، وَأَنَّهُ يَرِيدُ إِعْلَامَهُمْ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، لِذَلِكَ قَالُوا: «حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيِّسَمِيهِ بِغَيْرِ اِعْمَهِ».

وَيَلَاحِظُ التَّنْوِيْعُ فِي التَّراكيْبِ أَيْضًا فِي الْاِنْتِقَالِ مِنَ الْأَسْلُوبِ الْإِخْيَارِيِّ التَّقْرِيرِيِّ إِلَى الْأَسْلُوبِ الإِنْشَائِيِّ، مَا يُمْكِنُ مِنْ تَبَيِّنِ الْأَذْهَانِ، وَالْأَخْذِ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ وَالتَّأْثِيرِ فِي النُّفُوسِ. فَقَدْ بَدَأَتِ الْخَطْبَةُ بِالتَّقْرِيرِ مِنْ خَلَالِ الْأَسْلُوبِ الْخَبْرِيِّ، ثُمَّ اتَّنْقَلَ إِلَى الْأَسْلُوبِ الإِنْشَائِيِّ مِنْ خَلَالِ إِثَارَةِ التَّسْأَوْلَاتِ عَنِ الشَّهْرِ وَالْيَوْمِ وَالْبَلَدِ، ثُمَّ الْإِسْتِفَاهَمُ التَّقْرِيرِيُّ: «أَلَيْسَ يَوْمُ النَّحْرِ؟» لِيَتَدَبَّرُ مِنْ خَلَالِ ذَلِكَ إِلَى تَقْرِيرِ الْحُكْمِ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ...». ثُمَّ يَقُولُ: «أَلَا فَلَا تَرْجِعوا بَعْدِي كُفَّارًا ...» وَلَا يَخْفِي مَا لِأَدَافَ الْإِسْتِفَاتَاحِ

(١) الْبَخَارِيُّ، فِي الْأَضَاحِيِّ، بَابُ مِنْ قَالَ: الْأَضْبَحِيُّ يَوْمُ النَّحْرِ، (٥٢٣٠) وَفِي كِتَابِ الْمَغَارِبِيِّ، بَابُ حَجَةِ الْوَدَاعِ، (٤١٤٤).

من أثرِ التَّبَيِّهِ إِلَى خَطْوَرَةِ مَا بَعْدِهَا، وَضُرُورَةِ الالْتِفَاتِ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَيْهِ، ثُمَّ مَا لِأَسْلُوبِ التَّنْهِيِّ
التَّحْذِيرِيِّ مِنْ أَثْرٍ فِي رُدُعِ النَّفْسِ بَعْدِ هَاتِيكِ الْمُقْدَمَاتِ.

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى أَسْلُوبِ التَّبَيِّهِ وَالْمُتَطَلِّبِ بِقُولِهِ: «أَلَا لِيَئِلُّ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ» إِلَى أَنْ يَتَوَجَّهَ
بِخَطَابِ جَلِيلٍ إِلَى الْأُمَّةِ، وَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةُ وَبِلْغَ رسَالَةِ رِبِّهِ: «أَلَا هُلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هُلْ بَلَّغْتُ». وَقَدْ كَثُرَتِ الْاسْتِفَهَامَاتِ التَّقْرِيرِيَّةِ فِي هَذِهِ الْخَطْبَةِ لِإِلْزَامِ الْمُخَاطَبِينَ الْحَجَّةَ، وَالْإِعْلَامِ
بِلِوْغِ الْغَايَةِ فِي مَهْمَمَتِهِ كَفَلَهُ، وَمِنْ ثُمَّ نَلَحَظُ كَثْرَةَ الْمُؤَكِّدَاتِ الَّتِي بَرَزَتِ فِي التَّكْرَارِ فِي قُولِهِ مَثَلًاً:
أَيُّ يَوْمٍ؟ أَيُّ شَهْرٍ... أَلِيسْ كَذَّا، أَلِيسْ كَذَّا؟ وَكَذَّلِكَ فِي إِعَادَةِ أَدَاءِ أَلَا الْاسْتِفَاتِاحِيَّةِ الْمُؤَكِّدَةِ، فَضَلَّاً عَنْ تَكْرَارِهِ قُولَهُ: «أَلَا هُلْ
بَلَّغْتُ؟».

وَقَدْ أَعْطَى هَذَا التَّوْكِيدُ الْخَطْبَةَ أَهْمِيَّةَ بِالْعَدَةِ، وَمِمَّا فِي النُّفُوسِ الشَّعُورُ بِخَطْوَرَةِ مَا
اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامٍ هِيَ رُكْنُ رِكْنَيْنِ فِي حَيَاةِ الْفَرَدِ وَحِيَاةِ الْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ.
وَقَدْ تَرَوَحَتْ تَرَاكِيبُ هَذِهِ الْخَطْبَةِ وَفَقَاءُ لِلسِّيَاقِ بَيْنَ طُولِ وَقْصِّيِّ، فَحِيثُ كَانَ تَقْرِيرُ
الْأَحْكَامِ طَالِتِ التَّرَاكِيبِ، وَظَهَرَ ذَلِكُ فِي الْجَمْلِ الْخَبَرِيِّ فِي الْخَطْبَةِ، وَحِيثُ كَانَ التَّشْوِيقُ
وَإِشَارَةُ الْإِهْتِمَامِ مِنْ خَلَالِ الْاسْتِفَهَامِ قَصَرَتِ التَّرَاكِيبُ وَتَسَارَعَ إِيقَاعُهَا مِسْتَلْفِنَا النَّفْسَ وَمِمَّا
الْمَعْنَى فِي الْقَلْبِ وَالْوِجْدَانِ.

وَلَا يَخْفَى مَا اتَّسَمَتْ بِهِ الْفَاظُ الْخَطْبَةِ مِنْ سَهْوَةٍ وَوَضُوحٍ وَحْسَنِ اِنْتِقاءِ، فَضَلَّاً عَنْ
قَوَّةِ التَّرَاكِيبِ وَجَزَالَتِهَا وَحْسَنِ تَالِفَهَا فِي أَدَاءِ الْمَعْانِيِّ الْمُتَنوَّعةِ.

المبحث الثالث

رسائله وكتبه إلى الملوك ورؤساء القبائل

في سنة سبع للهجرة بعث النبي ﷺ رسلاً من أصحابه إلى ملوك العرب والجم
يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم معهم كتاباً.

روى البخاري بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ
يَكْتُبَ إِلَى رَهْطٍ أَوْ أَنْاسٍ مِّنَ الْأَعْجَمِ، فَقَيْلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا عَلَيْهِ خَاتَمٌ . فَالْخَاتَمُ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمًا مِّنْ فَضْلَةِ نَفْسِهِ (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)، فَكَانَ يُبَيِّضُ أَوْ يَصْبِيِضُ الْخَاتَمَ فِي إِصْبَعِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ فِي كَفَّهُ»^(١).

ومن كتبه ﷺ كتابه إلى النجاشي أصححه ملك الحبشة، بعثه مع عمر بن أمية
الضئري رضي الله عنه، وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ
الْأَصَحَّمِ مَلِكِ الْحَبْشَةِ، سَلَّمَ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ
السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمَّيْنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلْمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ
الْحَصِينَةِ، فَحَمَلْتُ بَعِيسَى، حَمَلْتُهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفْخِهِ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَهُ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ
إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُوَالَةُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتَبَعَّنِي وَتَؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي
رَسُولُ اللَّهِ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي جَعْفَرًا وَنَفَرًا مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا جَاءَكَ فَاقْرِهِمْ،
وَدَعْ التَّجَبُّرَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ بَلَغْتُ وَنَصَحتُ، فَاقْبِلْ نُصْبِحِي،
وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى»^(٢).

وبعث ﷺ حاطب بن أبي بلثمة إلى الموقس عظيم القبط، وبعث معه كتاباً يدعووه
فيه إلى الإسلام، وفيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُوقَسِ عَظِيمِ

(١) البخاري ، في اللباس ، باب نقش الخاتم ، (٥٥٣٤). الوبيض: البريق والمسعان (المصباح المنير)

(٢) السيرة الخالية ٢ / ٣٦٩ ، و تاريخ الطبرى ٣ / ٨٩ ، وتاريخ ابن خلدون ٢/٣٦.

القبيط، سلام على من اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَائِيَةِ الإِسْلَامِ^(١)، أَسْلِمْ تَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْقَبِطِ، وَفُلْنَ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَبْيَنُنَا وَيَبْيَنُكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ٦٤]^(٢).

وبعث رسول الله ﷺ وحْيَةً بن خَلِيفَةَ الْكَلَبِيِّ إِلَى هِرقلَ قِيسَرَ عَظِيمِ الرُّومِ بِكِتَابٍ يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الإِسْلَامِ وَفِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرقلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَائِيَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرْبَيْنِ، وَفُلْنَ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ يَبْيَنُنَا وَيَبْيَنُكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ٦٤]^(٣).

وبعث ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى بن هرمنز ملك فارس، وفي كتابه إليه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارسٍ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَشَهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَدْعُوكَ بِدُعَائِيَةِ اللَّهِ، فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَةً لِأَنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيَاً وَيَحْقِقَ القَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَسْلِمْ تَسْلِمْ، فَإِنْ أَيَّتَ فَإِنِّي أَمِّيَّنَ الْمَحْوِسِ عَلَيْكَ»^(٤).

وبعث ﷺ شحـاعـ بنـ وهـيـ الأـسـديـ إلىـ الـحـارـثـ بنـ أبيـ شـمـرـ الغـاصـيـ صـاحـبـ دـمـشـقـ منـ قـبـلـ قـيـصـرـ، وـفيـ كـاتـبـهـ: «بـسـمـ اللـهـ الرـحـمـنـ الرـحـيـمـ، مـنـ مـحـمـدـ رـسـوـلـ اللـهـ إـلـىـ الـحـارـثـ بنـ أبيـ

(١) أي بالكلمة الداعية إلى الإسلام وهي كلمة التوحيد، والباء يعنى إلى.

(٢) السيرة الحلبية ٢/ ٣٧١ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٨ .

(٣) البخاري، باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (٧).

(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٦٥٤ والبداية والنهاية ٤/ ٣٦٩ .

شهر، سلام على من اتبع المدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يقى لك ملوكك»^(١).

وكتب ﷺ لأبي كيدهر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان ملكاً على دومة الجندي: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِّنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِأَكِيدَرِ دُومَةَ، حِينَ أَبْجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْأَصْنَامَ، مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ سَيِّفِ اللَّهِ فِي دُومَةِ الْجَنْدِلِ وَأَكْنَافِهَا، إِنَّ لَنَا الصَّاحِيَّةَ مِنَ الصَّحْلِ وَالْبُورِ وَالْمَعَامِيِّ وَأَغْفَالِ الْأَرْضِ وَالْحَلْقَةِ وَالسَّلَاجِ وَالْحَافِرِ وَالْحِصْنِ، وَلَكُمُ الضَّامِنَةُ مِنَ النَّخْلِ، وَالْمَعْيَنُ مِنَ الْمَعْمُورِ، لَا تُعَدِّلْ سَارِحَتُكُمْ، وَلَا تُعَدِّ فَارِدَتُكُمْ، وَلَا يُحْظَرُ عَلَيْكُمُ الْبَيْثَ، تُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ لَوْقَتِهَا، وَتَؤْتُونَ الزَّكَوةَ بِحَقِّهَا، عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَالْمِيثَاقِ، وَلَكُمْ بِذَلِكَ الصَّدَقَ وَالْوَفَاءُ، شَهِدَ اللَّهُ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

وكتب ﷺ مع طهفة بن أبي زهير التهدي حين وفد عليه كتاباً إلى بني نمير، فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى بَنِي نَمِيرٍ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَكُمْ يَا بَنِي نَمِيرٍ فِي الْوَظِيفَةِ الْفَرِيقَةِ، وَلَكُمُ الْعَارِضُ، وَالْفَرِيشُ، وَذُو الْعِنَانِ الرَّكْوَبُ، وَالْفَلَوُ الْضَّيْسُ، لَا يُمْنَعُ سَرْحَكُمْ، وَلَا يُعَضَّدُ طَلْحَكُمْ، وَلَا يُجْبَسُ ذَرْكُمْ وَلَا يُؤَكِّلُ أَكْلُكُمْ، مَا

(١) السيرة الحلبية ٣٧٦/٢، تاريخ الطبرى ٨٨/٣ .

(٢) السيرة الحلبية ٣٢٩/٢، والروض الأنف ٣١٩/٢ .

الضاحية: الناحية البارزة من الأرض، والمراد هنا أطراف الأرض، الص محل: القليل من الماء يكون في الغدير ونحوه، البور: الأرض التي لم تزرع، المعامي: الأراضي المجهولة التي لا أثر للعمaran فيها، أغفال الأرض: المجهولة التي لا أثر يعرف فيها، الحلقة: السلاح عاماً، وقيل: الدروع خاصة، الحافر: الخيل والبراذين والبغال والحمير، الحصن: هو حصن أكيدر بدومة الجندي، المعين من المعمور: الماء الذي ينبع من العين في العامر من الأرض، لا تعدل سارحتكم: لا تصرف ما شئتم، ولا تُمْلَأ عن المرعى ولا تُمْنَع، الفاردة: الرائدة على الفريضة، لا تُعَدْ فريدتكم: أي لا تُضم إلى غيرها، ولا تُحْشَر إلى الصدقة حتى تُعاد مع غير وتحسب.

لَمْ يُضِمُّوا إِلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَتَأَكَّلُوا الرِّبَاقَ، مَنْ أَفَرَّ بِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ فَلَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْوَفَاءُ
بِالْعَهْدِ وَالْدُّمَّةِ، وَمَنْ أَبْيَ فِعْلَيْهِ الرِّبَوَةَ»^(١).

وكتب عليه السلام إلى وائل بن حجر وأهل حضرموت: «من محمد رسول الله إلى الأقباط العبايله من أهل حضرموت، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التبيعة الشاه، والتيمه لصاحبيها، وفي السعيوب الحمس، لا خلاط ولا وساطة ولا شناق ولا شغاف، ومن أحبني فقد أربى، وكل من يشك في حرام»^(٢).

^(١) صبح الأعشى: ٢٤٤، والعقد الفريد: ١١٤.

محمد: قبيلة في اليمن، الوظيفة: النصاب في الزكاة، وأصله شيء الراتب، الفريضة: المرة المسنة، والمراد أنها لا تؤخذ منهم في الزكاة بل تكون لهم، ويروى «عليكم في الوظيفة الفريضة» أي في كل نصاب ما فرض فيه، العارض بالعين: المريضة، وقيل: هي التي أصابها كسر، يقال: عرضت الناقة إذا أصابها كسر أو آفة، أي إنما لا تأخذ ذات العيب فتضطر بالصدقة. ويروى بالفاء، الفارض: وهي المسنة كالفريضة، الفريش: هي التي وضع حديثاً كالنفساء من النساء، والفرس بعد نتاجها بسبع ليال، وهو خير أوقات الحمل عليها، ذو العنان الركوب: الفرس النذلول، الفلو: كحمل وعدو وسمو: المهر الصغير، وقيل: العظيم من جميع أولاد الحافر، الضبيس: العسر الصعب الذي لم يرض، السرح: المواشي السائمة، أي إنما لا تمنع من المراعي، يعتصد: يقطع، الطلح: شحر عظام، الدر: اللبن، والمراد ذوات الدر من المواشي، أراد إنما لا تخسر إلى المصدق، وتنبع المراعي إلى أن تجتمع الماشية ثم تعود، لما في ذلك من الإضرار، الإمام: مخفف من الإمام: نكث العهد من الأنفة، من أماق: إذا صار مأقة (بالفتح) وهي الحمية والأنفة. يقول: لكم الوفاء بما كتبت لكم ما لم تأتوا بالملائقة فتغدروا وتنكثوا، وقيل الإمام مصدر أماق، وهو أفعال من الموق بضم أي الحمق، والمراد إضمار الكفر والعمل على ترك الاستبصار في دين الله تعالى. الرياق: جمع ريق بالكسر، وهو حبل فيه عدة عرى تشدد به البهيمة من يدها أو عنقها، ولله تعالى تقطعوا رiac العهد الذي في عنقكم وتتقضوه، واستعار الأكل لذلك لأن البهيمة إذا أكلت الريقة خلصت من الشد، الربوة: الزيادة، أي من تقاعد في أداء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له.

^(٢) صبح الأعشى: ٢٤٦، والعقد الفريد: ١١٢.

يشكّل هذا الجانب من كلامه عليه السلام نوعاً خاصاً من أنواع الخطاب، كيف لا، وهو يمثل مرحلة متميزة من مراحل الدعوة، ويوجه إلى أشخاص مميزين ذوي جاه وملك !!
فلا غرابة أن يختص هذا النوع من الخطاب بسمات تميّزه عن سائر الأنواع، ومع ذلك فهو حقيقة من حلقات عقد البيان النبوى البديع، يشاركها في سماتها العامة في الفصاحة والبلاغة، ويتحدّد معها في سياق الدعوة والتبلیغ.

ومن خلال النماذج المذكورة يمكن استخلاص بعض ميزات هذا الخطاب:
= تحمل هذه الكتب سمات الخطاب التقريري المباشر، إذ لا مقدمة إلا السلام، ثم يأتي التبليغ والإنذار، تصوغه أساليب الطلب: من نهيٍ وأمرٍ، ثم الشرط، وحيث يتطلّب الخطاب استشهاداً بأية حاسمة من القرآن الكريم تقطع السبيل أمام الجدال بمحضها تدرج في الخطاب.

= الأقفال: جمع قيل (كشمس) وهو الملك من ملوك حمير، أو هو دون الملك الأعلى، فهو في حمير كالوزير، العبالة: الذين أفرروا على ملکهم فلم يرثوا عنه، حضرموت بفتح الميم وتضم: في أقصى اليمن، التبيعة: اسم لأدنى ما تجحب فيه الركبة من الحيوان، كالخمس من الإبل، والأربعين من الغنم، التيمة: الشاة الرائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، وقيل: هي الشاة التي تكون لصاحبها في منزله يجلبها وليست باسمة، وهي بمعنى الداجن، السيبوب: جمع سيب (كشمس) وهو الركاز، ويشمل المعدن والكنز، فالمعدن ما حلقه الله تعالى تحت الأرض، والكنز ما دفعه العباد، وسيّى لأنه من سيب الله أي من عطائه وفضله لمن أصابه، الخلط: مصدر خالط كالمخالطة، والمراد أن يخالط الرجل إبله بابل غيره أو بقره أو غنمته ليمنع حق الله تعالى منها. الشناق: المشاركة في الشنق بالتحرّيك، وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجحب فيه الركبة، الشغار: نكاح معروف في الجاهلية، وهو أن يرّجح الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه ابنته أو أخته بغير مهر، الإحياء: بيع الزرع قبل بدء صلاحه، وقيل: هو أن يعيّب إبله عن المصدق، وقيل: هو أن يبيع من الرجل سلعة بشمن معلوم إلى أجل معلوم، ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذي باعها به، أربى: وقع في الربا.

= إنه خطاب رسمي موجز سريع، يحمل طاقات تعبيرية مكثفة من خلال جزالة لفظه، وحسن انتقاء تعابيره التي لا تحتمل تأويلاً، ولا تحمل اشتباهاً أو تنوعاً في الدلالة، بل هو خطاب صريح ناصع، قويٌّ ملهمٌ.

= ولاشك أنَّ خطاباً من هذا النوع التقريري المباشر لا يتسع لتزيين صورة أو إثارة خيال، لذا نجده بخلوٍ من الصُّور البينية، أو المحسنات البدعية اللفظية والمعنوية، فهو - كما قلنا - خطاب رسمي حاسم.

= واللافت للنظر لدى استقراء كتبه ﷺ بروز ظاهرة مراعاة مقتضى الحال، فقد اختلفت أحوال المخاطبين بهذه الكتب، وأظهرَ هذا الاختلاف اختلافاً مواقفهم وردودهم حيالها.

. فنجد - مثلاً - خطابه ﷺ للنجاشي يختلف عن خطابه هرقل، وخطابه للمقوس يختلف عن خطابه لكسري.

ويظهر ذلك في انتقاء العبارات واختلاف لهجة الخطاب، وعرض الدعوة إلى الإسلام. ففي خطابه إلى النَّجاشي - وهو رجل مؤمن من أهل الكتاب - يستثير عاطفته الدينية بذكره بوحданية الله تعالى «الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ»، وهي صفات الله تعالى، تُظہرُ أنه مالك الملُك، ومالك الملوك، والمهيمن على خلقه كائناً من كانوا؛ ملوكاً أو عامة، ويدركه بيامنه بعيسي عليه السلام، وأمه الحصينة البتول، مستحثاً إياه على الإيمان بمن دعا عيسى عليه السلام إلى الإيمان به مِنْ بعده، وهو النَّبِيُّ ﷺ، ومنبهَا إياه على أنَّ النُّبُوَّاتِ مِنْ مِشْكَاهٍ وَاحِدَةٍ، ثم يخاطبه ناصحاً متطلطاً: «وَقَدْ بَلَغْتُ وَنَصَّحْتُ، فَاقْبَلْتُ نُصْحِحِي».

وهذا الخطاب الإيماني يختلف عن خطاب المشرك الممعن في التجبر والسلط، خطاب هرقل عظيم الروم الذي مرق كتاب النَّبِيِّ ﷺ حين بلغه، فهو خطاب يخلو مما اشتمل عليه خطاب النَّجاشي؛ من حمد الله والشاء عليه، بل هو دعوة مباشرة إلى الدُّخول في الإسلام، وتحذير من إثم الإعراض والتولي، في عبارات سريعة موجزة.

ويتشابه خطابه ﷺ هرقل مع خطابه كسرى في المضمون والشكل، إذ لا يختلف أحدهما عن الآخر في الشرك والعنوّ والبعد عن الحقّ.

ويلفتنا من هذه الكتب، كتبه ﷺ إلى ملوك العرب وقبائلهم من دخلوا في الإسلام، الذين يلزم تبليغهم ما يجب عليهم من مقتضيات الدخول في الإسلام من التشريعات والأحكام بلغة يفهمونها، وطريقة يستسيغونها.

= وتبرز فصاحته ﷺ وقدرته التي آتاه الله عزّ وجلّ في مخاطبة الناس على اختلاف لغاتهم بما لا يفهمه من كانت لهجتها مثل لهجته ﷺ، ولا يفقهه من رُويَّ مع النبي ﷺ وكان معه من أبٍ واحد، فهو قدرة خاصة من لوازם التبليغ، إذ هو رسول الله إلى الناس كافة.
ولذا نجد في كتابه لبني هدى الألفاظ الغريبة المستهجنة، وكذا في كتابه لأهل حضرموت، ولأكيدر دومة وهم عرب أقحاح، فقد عيّن خطابه لهم بما لا طاقة لكثيرٍ من الفصحاء بفهمه، والوقوف على مراده.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى: ومن ذلك كتبه الغربية التي كان يميلها ويعتبر بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحوذهم، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقىهم، وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يدخلهم ويقارهم، ولا تجوز في غير أرضهم، ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تتألف مع أوضاع اللغة القرشية، فما ندرى أي ذلك أتعجب: أن ينفرد النبي ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه، وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتُقَّ اسمهم منها، وخالفوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم، وحين يتوافرون إليهم في موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه، ولا يديرونه في ألسنتهم، ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ باباً على حدةٍ، كما يؤخذ كل ذلك من قول علي:

«نَحْنُ بْنُ أَبِي وَاحِدٍ، وَنَرَاكُ تَكَلَّمُ وَفُودُ الْعَرَبِ بِمَا لَا يَفْهَمُ أَكْثَرُهُ» فَلَيْسَ الْعَجَبُ فِي أَحَدٍ
الْقَسْمَيْنِ إِلَّا فِي وَزْنِ الْعَجَبِ مِنَ الْآخِرِ^(۱).



(۱) إِعْجَازُ الْقُرْآنِ وَالْبَلَاغَةُ النَّبُوَّيَّةُ ص ۳۱۸.

المبحث الرابع

الأمثال في الحديث النبوي

هي إحدى الوسائل البينية التي زخر بها الحديث النبوي، وكانت حِكْمَةً عالية وأوابد أدبية تناقلها البلغاء عصرًا بعد عصر وتأسوا بها.

و قبل الحديث عن المثل وأنواعه في البيان النبوي لابد أن نمهّد بتبيّان موجز للمثل وضروريه، لشُيُّ ببيان إطلاقات المثل في الحديث النبوي.

المَثَل لغةً : من المماثلة والمشابهة، ومثل الشيء بالشيء: سوأه به، وجعله مثله وعلى مثاله.

وللمثل معانٍ عديدة منها : الشَّبَه والنَّظِير والخَجَّة، والعِظَة، والقصبة ذات الشأن، والصفة الغريبة، وعلاقة المثل والمثل كعلاقة الشَّبَه والشَّبَه، بيد أنَّهما يفترقان في نحو: (أَنْتَ كَمِثْلِكَ) أي يشبهك، ولا يقال: (أَنْتَ مِثْلِكَ).

وقد عَرَفَ أبو عبيد القاسم بن سلام المثل فقال: (الأمثال: حكمه العرب في الجاهلية والإسلام، وما كانت تعارض كلامها، فتبليغ ما حاولت من حاجاتها في النطق، بكلناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلات خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشبيه)^(١)، وأضاف لها النَّظَام سعة رابعة وهي جودة الكلناية.^(٢)

والمثل عند الحكيم الترمذمي وسيلة لإيضاح، تمكّن المعنى، وترسّخ الفكرة، وتنتقل المعنوي إلى الحسي، يقول: «الأمثال: نمذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار، لتهتدي النفوس بما أدركت عياناً»^(٣).

^(١) الأمثال لابن سلام ١/١.

^(٢) مجمع الأمثال/المقدمة.

^(٣) الأمثال من الكتاب والسنة: ص ٤.

وبحث البلاغيون في المثل، فجعلوا منه ما كان على ضرب التشبيه المركب، وأدخلوا فيه ما جاء على سبيل الاستعارة.

يقول الحرجاني: «وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أنَّ المثل الحقيقي، والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً - لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح - ما يجده لا يصلح لك إلا من جملة من الكلام، أو جملتين أو أكثر»^(١). ومثل له بقوله تعالى: «إِنَّمَا مُثَلُّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءُ أَئْرَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ يَمْلُكُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخْدَتِ الْأَرْضَ رُخْرُقَهَا وَارْتَبَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَيْنَهَا أَنَّا هَمْ نَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَمَّا لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [يونس: ٢٤].

وقال فيما جاء منه على سبيل الاستعارة: وأما التمثيل الذي يكون مجازاً بحسبه على حد الاستعارة فمثاليه: قولك للرجل يتردد في الشيء بين تركه وفعله: (أراك تقدم رحلاً وتؤخر الأخرى). فالالأصل في هذا: أراك في ترددك كمن يقدم الرجل وبؤخر الأخرى^(٢). ولما كانت الأمثال «قصاري فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها وبيضة منطقها، وزبدة جواهرها وبلاعتها»^(٣) كان لزاماً الوقوف على هذا الضرب من فصيح الكلام في البيان النبوى الذى بلغ شأواً بعيداً في وضوح المنطق ونصاعة المعنى وجمال الصورة. ولا يبالغ إذ نقول : إن المثل في الحديث النبوى كان من أهم الوسائل البلاغية التي أسهمت في توضيح المعنى بلة ت McKينه، ثم تحسين الفكرة وتعميق تأثيرها، تأسياً بالبيان القرآني الذي حفل بالأمثال في شتى الموضوعات.

وقد تفنن النبي ﷺ في ضرب المثل، فضربها عباراً وإشارةً وصورةً.

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٨٥ .

(٣) المستقصى في الأمثال / المقدمة/ .

فَأَمَّا أَمْثَالُ الْغَبَرَةِ فَهِيَ مَوْضِعٌ بَحْثُنَا هَذَا، وَأَمَّا أَمْثَالُ الإِشَارَةِ فَقَدْ سَبَقَ بِيَانَهَا^(١)، وَنَذَكَرَ بَمَا وَرَدَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «بَعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتِينَ»، وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوَسْطَى^(٢).
 وَأَمَّا أَمْثَالُ الصُّورَةِ أَوِ الرَّسْمِ، وَسَبَقَ أَيْضًا بِيَانَهَا فَمِنْهَا: مَا وَرَدَ عَنْهُ خَطَّ النَّبِيِّ^(٣)
 خَطَّاً مَرِيعًا، وَخَطَّاً خَطَّاً فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّاً خَطَّ طَاطِ صِفَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي
 الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، وَقَالَ: «هَذَا إِنْسَانٌ، وَهَذَا أَجْلُهُ مَحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ
 أَحْاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذَا الْخُطْطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا
 نَحْشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَحْشَهُ هَذَا»^(٤).

وَنَسْعَى هُنَا إِلَى إِضَاءَةِ الْجَانِبِ الْبَلَاغِيِّ فِي أَمْثَالِهِ؛ أَمْثَالُ الْعَبَارَةِ الَّتِي شَغَلَتْ حِيزًًا مَهِيماً
 فِي حَدِيثِهِ^(٥)، وَكَثُرَتْ حَتَّى قَارِبَتِ الْمِئَاتِ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ قَوْلُهُ:
 «عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ^(٦) أَلْفَ مَثَلٍ»^(٧).

وَبِاستِقْرَاءِ الْأَمْثَالِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ تَبَيَّنَ أَنْوَاعًا ثَلَاثَةَ هِيَ:

أولاً - الأمثال القائمة على التشبيهات التمثيلية التصويرية:

وَالْمَثَلُ مِنْ هَذَا النَّوْعِ؛ هُوَ تَشْبِيهٌ مُرَكَّبٌ تَشْبِهُ فِيهِ الْأَحْوَالُ وَالْمَهِيَّاتُ بِمَا هِيَ لَهُ شَبَهٌ لِيَتَرَرَّ
 أَمْرُ الْأُولَى بِقِيَاسِهَا عَلَى الْآخِرِيِّ.

^(١) فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ.

^(٢) سَبَقَ تَخْرِيجَهُ.

^(٣) الْبَخَارِيُّ، فِي الرِّفَاقِ، بَابُ فِي الْأَمْلِ وَطَوْلِهِ، (٦٠٥٤).

^(٤) مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ٢٠٣/٤ (١٧٨٣٩).

من ذلك ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي : ﷺ «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحِبِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضُّوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمْى»^(١).

فحقيقة الإيمان كالدم المتدقق في الجسم، يسري في قلوب المؤمنين، فتدبر الحياة فيه، وتترابط الأعضاء، ويتماسك بعضها مع بعض، فإذا ألم أدى بعضو من هذه الأعضاء هم سائر الجسد لحماء وسهر لسهره، فهي حالة حسية وجданية، تخلّي مظهر الإيمان الحقيقي الذي يجعل المؤمن يبذل الود والرحمة والعطف لإخوانه المؤمنين؛ يفرح لفرحهم ويتالم لألمهم. وتأتي كلمة (تداعى) بصيغة (تقاعل) لتدل على المشاركة في الفعل تشاركاً حسياً وجданياً، ثم في وصف (الجسد) بصفة (الواحد) تأكيد للوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء التي هي السهر والحمى.

ومن هذا الضرب ما رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ : «مَثَلُ مَا يَعْنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ أَهْدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْعَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا نَفَّيَةٌ، قَبِيلَتُ الْمَاءِ، فَأَبْنَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعَشَبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسُ فَشَرِبُوهَا وَسَقَوُا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرِيَّ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُثْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعْنَى اللَّهُ بِهِ، فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدًى اللَّهُ الَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ»^(٢).

إنه تمثيل لضروب المعاني، فحاجة الناس الماسة إلى الإسلام هي حاجة الأرض العطشى للماء، إنما حاجة لا تقوم الحياة إلا بها، وحياة الأرواح بالإسلام كحياة الأجساد بالماء، وبعثته ﷺ بعد الجاهلية العميماء كالغيث في نجدتة الناس والأرض بعد الجدب والمحل، ثم إن

^(١) مسلم، في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، (٢٥٨٥).

^(٢) البخاري، في العلم، باب فضل من علم وعلم، (٧٩).

تبادر الأراضي في تلقيف الغيث كاختلاف أحوال الناس من المداية الإلهية، إنما أحوال ثلاثة بينها يحيط ب بصورة حسية تراها العين لوحهً ملونةً متنوعةً للأجزاء، والأمثلة على هذا النوع كثيرة مرّ ذكر بعضها في مبحث التشبيه.

ثانياً - الأمثال القائمة على الاستعارة التمثيلية:

معلوم أن الاستعارة التمثيلية بحاجز مركب، إذ تشبيه صورة بصورة لما بينهما من صلة من حيث المعنى، ثم تُحذف الصورة الأولى - المشبه - ويبقى المشبه به.

وهي من أكثر الاستعارات بلاغةً وتأثيراً، تلك الاستعارة التي إذا اشتهرت وصارت مثلاً ينبغي أن لا يغيب فيها شيء، وعندها تكون مما (شبيه مضرره بمورده) أي تشبه الحالة التي ضرب لها بالحالة التي قيل فيها أول مرة.

ومن ذلك ما روي عنه : ﴿لَا يُلدَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرْتَبِينَ﴾^(١).

وهو قول النبي ﷺ لأبي عزة الشاعر الذي كان يهجو النبي ﷺ وال المسلمين، ويقاتل مع المشركين يوم بدر، فأسره المسلمون، فمن عليه النبي ﷺ وأطلقه، وقد وَعَدَ أن لا يعود إلى ما كان عليه، بيد أنه عاد إلى سيرته الأولى، فأُسر يوم أحد، ورغم أن يمين عليه النبي ﷺ، فقال له ﷺ هذا القول الذي صار مثلاً.

ولا تخفي بلاغة هذا القول في تصوير الأثر البالغ للإيذاء الذي تحدّثه الأفعى، ومن ثم ما يحدّثه هذا الرجل من الإيذاء باليد واللسان، فمن أصيب بأذى من لدغ مرّة، ثم شفي فإنه حتماً سيتّعظ ويبتعدّ أسباب الحيطة والخذر من أن يُتّال بأذى من الموضع نفسه؛ وهذا خزيٌ بالمؤمن الذي لا يليق بكمال إيمانه أن يخدع أو يخلب.

^(١) البخاري، في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، (٥٧٨٢) ومسلم، في الرهد والرفاق، باب لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين، (٢٩٩٨).

وهذا المعنى لم يبق متعلقاً بمورد الحديث، بل جرى مثلاً سائراً في كلٍّ ما أشبه مورده. ومن ذلك ما رواه حابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ هَذَا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هُنَّ أَهْلَكُوا نَفْسِكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَ لَا أَرْضًا فَطَعَ وَلَا ظَهَرَ أَبْقَى»^(١).

وصف النبي ﷺ الدين بالمتانة، فهو صعب الظهر، شديد الأسر، وهو معنى مأخوذ من متن الإنسان، وهو ما اشتد من لحم منكبيه، وإنما وصفه ﷺ بذلك لمشقة القيام بشرائطه والأداء لوظائفه كافية، لذلك يأمر النبي ﷺ الإنسان أن يدخل أبوابه مترفقاً، ويرقي هضابه متدرجاً، ليستمر على أداء تكاليفه، ويدرن على امتطاء مصاعبه، فيبين ﷺ أن العابد الذي يكلف النفس ما يفوق قدرته، ويبالغ ولا يترفق في العبادة كالذى يعذُّ السير، ويكتُّ الظهر منقطعاً عن رفقة، منفرداً عن صحبته، فتتعب مطيةه ولا يصل إلى بغيته، فإذا به منفرد غريب بلا ظهر يوصله، ولا رفيق يؤنسه^(٢).

ومن ذلك قوله ﷺ يوم حنين: «حَمِيَ الْوَطِيسُ»^(٣). والوطيس حفرة تختقر فيها النار للاشتواء، وفي استعمال اللفظ ثمة لا بحد حفرة، بل بحد تعبيراً عن حمى الحرب وعظم الخطب، وفي هذا التمثيل مرأى احتلال الرجال، وتصوير لحرق القراع وموقع السيوف، وتشبيه الحرب بالنار إذ تأكل رجالها وتنفي أبطالها، كما تأكل النار حطتها.

لقد انفصلت هذه العبارة عن معركة حنين، وأضحت مثلاً بليغاً يُضرب في كل موقف يشتد فيه أمر بين اثنين أو جماعات من صراع أو جدل أو رهان أو حرب أو غير ذلك.

^(١) سنن البيهقي الكبير ١٨/٣ باب القصد في العبادة، (٤٥٢٠).

^(٢) النظر: المحازات النبوية، ص ٢٦٠.

^(٣) مسلم، في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٥).

ثالثاً - الحِكْمَ السَّائِرَةُ الْقَائِمُ صَدْقَهَا فِي الْعُقُولِ:

وهي أقوال موجزة سائرة، تعدد من بديع جوامع كلمه بِكْلَلٍ ، نذكر منها:

- ١- «المؤمن مرأة أخيه» ^(١).
- ٢- «اليمين الفاجر تدعى الديار بلا قع» ^(٢).
- ٣- «الناس معادن» ^(٣).
- ٤- «الناس كبابل مئنة لا تجد فيها راحلة» ^(٤).
- ٥- «المؤمن واه راقع» ^(٥).
- ٦- «حُبُك الشيء يعمي ويصم» ^(٦).
- ٧- «الدال على الخير كفافعله» ^(٧).
- ٨- «المتشبع بما لم يعط كلبس ثواب زور» ^(٨).

^(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٩٣/١ باب المسلم مرأة أخيه، (٢٣٨).

^(٢) سنن البيهقي الكبير ٣٥٨٠ ، باب ما جاء في اليمين الغموس، (١٩٦٥٥). بلا قع: حالية خربة.

^(٣) ولفظ الحديث: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، صحيح البخاري، في الأنبياء، باب قول الله تعالى: «لقد كان في يوسف وأخيه» (٣٢٠٣)، ومسلم، في فضائل الصحابة، باب خيار الناس، (٢٥٢٦).

^(٤) سبق تخربيجه.

^(٥) شعب الإيمان: ٣٢٨/٩ باب معالجة كل ذنب بالتوبة. والمعجم الصغير للطبراني: ١٢١/١ (١٧٩).

^(٦) سنن أبي داود، في الأدب، باب في الهوى، (٥١٣٠).

^(٧) سنن الترمذى، في العلم، باب الدال على الخير كفافعله، (٢٦٧٠).

^(٨) البخاري، في النكاح، باب المتشبع بما لم ينزل، (٤٩٢١) ومسلم، في اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، (٢١٣٠).

٩ - «الأعمال بخواتيمها»^(١).

١٠ - «الحرب محددة»^(٢).

١١ - «هذلة على ذهنِ، وجماعة على أقداء»^(٣).



(١) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، في الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم.... (٦١٢٨).

(٢) البخاري، في الجهاد، باب الحرب محددة، (٢٨٦٦) ومسلم، في الجهاد، باب حواز المذاع في الحرب،

(١٧٣٩).

(٣) سنن أبي داود، في الفتن وللملأ، باب ذكر الفتن ودلائلها، (٤٢٤٦).

الفصل السادس

**دراسة أدبية ولغوية لنصوص
من
ال الحديث النبوي الشريف**



الحديث الأول

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِيلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعَشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتِ مِنْهَا أَجَادِبٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَطَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسُ فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَرَزَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْهِيَ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَطَعَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعِلْمٌ وَعِلْمٌ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرَفِعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَتِ بِهِ»^(١).

أولاً - شرح المفردات:

مَثَل: في أصل اللغة: المثل: المثل والشبيه، ويراد هنا الصفة العجيبة التي تستحق أن يُصرَب بها المثل، لا القول السائر.

الغَيْث: هو المطر، يقال: غاثَ الغَيْثُ الْأَرْضَ إِذَا أَصَابَهَا. وغاث الله البلاد غيثاً: أُنْزِلَ عَلَيْهَا الغَيْث.

نَقِيَّة: وفي بعض الروايات (طيبة)، وكلاهما بمعنى الكمال ونفي الخبث.

الْكَلَأُ: النبات رطباً كان أو يابساً.

الْعَشْبُ: هو الرطب من النبات، والمراد من ذكر الْكَلَأَ وَالْعَشْبَ أَنَّهَا أَنْبَتَتِ الزُّرُوعَ التي يُنْتَفَعُ بِهَا.

أَجَادِبُ: قال ابن الأثير: الأجادب: صِلَابُ الْأَرْضِ الَّتِي تَمْسِكُ الْمَاءَ فَلَا تَشْرِبُه سريعاً.

^(١) البخاري، في العلم، باب فضل من عِلْمٍ وعِلْمٌ، (٧٩) ومسلم، في الفضائل، باب مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، (٢٢٨٢).

قِيعان: الأرض التي لا تُمسك ماء، وتكون عادة صلبة مستوية أو رملية، أو صخرية
ملساء.

ثانياً - شرح الحديث:

يَبْيَّنُ هَذَا الْحَدِيثُ بِطَرِيقَةٍ تصوِيرِيَّةٍ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى الْهُدَى الَّتِي تُغْيِّثُ الْقُلُوبَ،
وَيَجْعَلُهُمْ بِإِزَارَةٍ حَاجَةً لِلأَرْضِ إِلَى الْمَطَرِ الَّذِي يَغْيِثُهُمْ مِنَ الْقَحْطِ، وَيَوْضُّحُ مِنْ خَلَالِ ذَلِكَ
أَصْنَافَ النَّاسِ وَمَوَاقِفَهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَصْنَافَ الْأَرْضِ وَأَحْوَالَهَا
بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْغَيْثِ الَّذِي يَأْتِيهَا مِنَ السَّمَاءِ.

«مَثَلٌ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا»:
إِنَّمَا أَمْرَانِي لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ إِلَّا بِهِمَا، الْحَيَاةُ الْمَعْنُوَيَّةُ الَّتِي تَسْرِي فِي الرُّوحِ بِالْإِيمَانِ
وَالْيَقِينِ، وَالْحَيَاةُ الْمَادِيَّةُ الَّتِي تَسْرِي فِي الْأَرْضِ بِالنَّصَارَةِ وَالرَّوْنَقِ.
ثُمَّ إِنَّ الْغَيْثَ يَأْتِي مِنْ جَهَةِ سَمَوَاتِ الْمَادِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ لِلْأَرْضِ، وَهُدَى اللَّهِ تَأْتِي مِنْ جَهَةِ سَمَوَاتِ
الْمَعْنُوَيَّةِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمُشَيْئَتِهِ.

وَمَا أَشَبَّهُ النَّازَلَيْنِ بَعْضَهُمَا بَعْضًا، إِنَّمَا أَمْرَانِي نَقِيَّانَ طَاهِرَانَ يَحْلَّانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ،
فَالْغَيْثُ يَوْفَى الْأَرْضَ كُلَّهَا، لَا يَمْيِّزُ بَيْنَ حَجَرٍ صَلَدٍ، وَأَرْضٍ خَصْبَيَّةٍ، وَرَمَالٍ لَبِنَةٍ، بَلْ يَوْفِيهَا
عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَكَذَلِكَ هُدَايَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهِيَ مُسْدَادَةٌ إِلَى النَّاسِ كَافَةً، تَعْلَمُهُمْ
وَتَرْشِدُهُمْ.

«فَكَانَ مِنْهَا نَفِيَّةٌ قَبِيلَتُ الْمَاءِ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعَشْبَ الْكَثِيرَ»:
فَيَنْبَرُ أَجْوَدُ الْأَرْضِيْنِ الْأَرْضُ الطَّيِّبَةُ الْخَصْبَيَّةُ، الْمُعْتَطِّشَةُ لِلْغَيْثِ، الْمُتَلَقِّفَةُ لَهُ عِنْدَمَا
يَصْبِيْهَا، فَتَحْتَوِيهِ ذَرَّاً تَحْمَلاً، فَيَرُويُهَا ظَلْمَاهَا، وَيَسْتَقِيُّ بِذَوْرِهَا، فَتَتَفَقَّدُ عَنْ خَيْرِهَا، وَتَفِيضُ حَيَاةً
وَإِشْرَاقًا، وَتُنْبِتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، يَنْتَفِعُ بِهَا كُلُّ مَنْ يُرُودُهَا لِشَمَرَاهَا وَخَيْرَاهَا، وَمَنْ يَرُومُهَا
لِمَائِهَا وَرِيَّهَا.

ويجعل النبي ﷺ هذا الصنف من الأرض مثلاً لطائفة هي من أجود أصناف الناس، وهم المتصفون بحسن الفطرة ولبن العريكة، فهم المتعطشون للهداية والمعرفة، والحكمة ضالّتهم، لأنّ فيها سعادتهم، فما أن تُعرض عليهم دعوة النبي ﷺ حتى تلامس قلوبهم وتخالط عقولهم، فتطمئن بها نفوسهم، وترسخ عقيدة في كيافهم وعملاً صالحًا بجوارحهم، لتفجر ينابيع الحكمة من نفوسهم، فيكونوا هادين مهديين عالِمين معلمين.

ولكن الأرض الطيبة تتفاوت في انتفاعها ونفعها غيرها، فهي وإن كانت طيبة فليست بمثابة واحدة، وكذلك الناس تتباين مستوياتهم، ليكون منهم من بلغ الذروة كحالة الصحابة والتابعين، ومنهم من دونهم، إلى أن نجد من لديه إيمان صحيح، وقليلٌ نفعٌ وخيرٌ للناس.

«وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسُ فَشَرِبُوا وَسَقُوا وَرَزَعُوا»: وَمِنْهُ طائفةٌ من الأرض تقلُّ منزلةً عن سابقتها، فهي أرض لا يحصل فيها ولا تنمو، لكنّها أرض منخفضة ذات تجاويف، يأيتها الغيث فترتشفه وتختضنه في طياتها، وتحبسه لواردها، بيد أنها لا تنفع نفسها به، فلا تزهر ولا تثمر، بل تنفع غيرها، إذ يأتي الناس محتاجين إليها، فينتفعون بما احتوته من ماء؛ سقياً وزرعاً وشرباً.

وتتفاوت قدرة هذه الطائفة من الأرض في مقدار ما تحفظه من الماء، فمنها ما يحفظ البحيرات الواسعة، والآبار الغنية، ومنها ما يحفظ أقلً من ذلك.

ومثل هذه الأرض هو مثل طائفة أخرى من الناس، تلقيفت المدى والعلم كتلفف هذه الأرض للمياه، فاستوعبت ما أتاها وما بلغها، واستودعته عقلها وحافظتها، بيد أنه لم يلامس القلب أو يرسخ في النفس ليترجم عملاً في الجوارح، إنما طائفة من الناس استمعت فاستوعبت، بيد أنها لا عملت بما علمت، ولا انتفعت بما حفظت، ولكن إن أتاها طالب علم وجد عندها علمًا نافعًا، فاستفاده وانتفع به وعمل به. ونظير هؤلاء الناس علماء اليهود الذين لم يعلموا بعلمهم ولم ينتفعوا به، وقال الله تعالى فيهم: «مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ

يَحْمِلُوهَا كَمَثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا يَتْسَنَّ مَثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [الجمعة: ٥].

«وَاصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرِيَ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً».

إنها أقل أنواع الأرض حظاً، فهي أرض ذات صخور صلدة قاسية ملساء، أو رمال لينة لا تتماسك، يصيغها غيث السماء ذو الخير العميم، لكنها لا تنتفع بهذا الماء، فلا تماسكه ولا تحفظه، ومن ثم لا تثبت شيئاً، ولا تنفع به أحداً، إنها شبه فريق من الناس بلغتهم دعوة النبي ﷺ، لكنها وافقت قلوبها منكرة وعقولاً حامدة وطبعاً جافية، فلم تقبل الحق على الرغم من ظهوره، وأغمضت عينيها عن الثور، على الرغم من سطوعه.

ثالثاً - جمال الأسلوب:

أخذ البيان النبوى طريقة التكثيف والإيجاز، فاشتمل الحديث على معانٍ كثيرة جليلة

يهدى إلى فيها العقل من خلال صورة تشيعية محسومة، وعبر ألفاظ متنقلة، وتركيب متولدة متراضفة.

وقد تجلّى التكثيف في الإجمال الذي بدأ به الحديث، فقد أفادت الفقرة الأولى أفكاراً من خلال إعمال العقل والتدبر في أواصر العلاقة بين المشبه والمشبه به. ثم تبع هذا التكثيف تفصيل في أحوال الناس وأصناف الأرضين مما شكل ترابطًا وقامساً بين أجزاء النص.

ويلاحظ في النصّ حسن انتقاء اللفظ، بحيث تؤدي الألفاظ معنى لا يؤديه غيرها لو حل محلها، ومن ذلك: استخدام كلمة (مثل) وتكرارها لبيان قوة الترابط والتلاحم بين المشبه والمشبه به.

لم يقتصر النبي ﷺ على الإشارة إلى المداية التي يُبعث بها، بل نوّه بالعلم، لأنهما جنحان لا سبيل للنجاة إلا بهما معاً، والنفع والانتفاع لا يكون بالاهتداء فحسب، بل بالعلم والتعليم، وقد قدم المدى على العلم، لأن الأولى تقدم الأول.

واختار النبي ﷺ من أسماء المطر (الغيث) ليؤذن باضطرار الخلق إليه، قال تعالى: **«وَهُوَ الَّذِي يَنْزَلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَتَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ»** [الشورى: ٢٨] والغيث ليس فيه إلا الخير، مخلافاً للمطر: ولم يكتفي بتسميته غيثاً، بل وصفه بالكثير، وهو إشباع للمعنى.

ثم إنَّ في تنكير (أرضاً) إفادَة التنويع، فهي ليست أرضاً واحدة، بل ذات أنواع ثلاثة، أمَّا التنكير في قوله: «لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْتِ كَلَّا» فقد أفاد الشمول والعموم.

وفي قوله ﷺ: **«الْكَلَّا وَالْعَشَبُ الْكَثِيرُ»** ذكر الخاص بعد العام، للاهتمام به لشرفه. وثُمَّ إشباع بقوله: (الكثير).

وفي قوله: **«فَشَرَبُوا وَسَقَوَا وَرَزَعُوا»** حذف، فقد حذف المفاعيل لأنها معلومة، والتقدير: فشربوا من الماء، وسقوا دوايهم، وزرعوا ما يصلح للزرع. أو اقتصر على الفعل دون نظر إلى المفعول، لأهمية هذه الأفعال، فيكون المعنى: فكان منهم شرب وسقي وزراعة.

وقد خالف البيان النبوى في التعبير عن الطائفة الثالثة من الناس، فقد ذكر الطائفة الأولى بقوله: «فَكَانَ مِنْهُ طَائِفَةً»، وكذلك الثانية، وعبر عن الثالثة بأسلوب مغاير بقوله: «وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى» ليُظْهِر اختلافهم عن سابقיהם، فهم أناس متكبرون، لا يُجْدِي فيهم الموعظ، ولا تقع قلوبهم الزواجر، ولا تلوح لهم البوارق مهما كان قوية ساطعة، فهم أشباه أموات **«فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُذَبِّرِينَ»** [الروم: ٥٢]. وهذا العدول بلاغة عالية، ذلك أنه عادة عند العرب أَهْمَّ إِذَا أَرَادُوا الاهتمام بأمر والعناية به أخرجوه عن بابه، وأزالوه عمَّا عليه نظائره.

واستخدم أسلوب الحصر بقوله: **«إِنَّمَا هِيَ قِيَانٌ»** من باب قصر الموصوف على الصفة، ولم يأت ﷺ بهذا الأسلوب في التعبير عن القسمين السابقين، للتأكيد على واقع المشبه، وإظهار قوة إصرارهم وعنادهم، فهم ليسوا إلا مثل هذه القيعان غير النافعة، وهم كذلك ليس لهم إلا هذه الصفة من الكبر والعناد، فلا أمل ولا رحاء في اهتدائهم وعدوهم إلى طريق الخير والحق.

وفي استخدام اسم الإشارة: «فَذِلِكَ مثُلٌ مَّنْ فَتَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ» استحضار للصورة، واستلهفات للخيال، ليرى الأمر الذهني المعقول ماثلاً بصورة محسوسة، مما يرسّخ المعنى في الذهن، ويزيد التفاعل والتشويق.

ويغلب على النص اختيار الجمل الفعلية التي تحقق سمة الحركة الفاعلة، فهو تفاعل على المستويات المختلفة، تفاعل الأرضي مع غيث السماء، وتفاعل الناس مع هدي رب السماء.

وقد ظهرت التراكيب متوازنة محققة طابعاً موسيقياً يواكب تقسيم الفكرة، ففي قوله: «منها نقية» «منها أجادب» «منها طائفه» «فَذِلِكَ مثُلٌ ...» «وَمِثْلُ مَنْ ...» توازن أضفى على النص قوة وتماسكاً وجمالاً.

وتتجلى الوحدة العضوية في النص من خلال البناء المغلق الدائري الذي يُتي عليه الحديث، فقد ختم النص بما افتتح به؛ فقد افتتح بقوله: «مَثُلَ مَا بَعَثَنَا اللَّهُ بِهِ»، وختمه بقوله: «هُدِيَ اللَّهُ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» وفي ذلك ما فيه من تحقيق الترابط والإحكام بين جزئيات النص وأفكاره، وبلاعنة براعة الاستهلال وحسن الختام.

رابعاً - جمال التصوير:

قام النَّصُ على التجسيم من خلال نقل المعاني العقلية المجردة إلى عالم الحسن، وقد اشتربكت في رسم الصورة المتعددة الأجزاء ثلاثة من العوامل الفنية؛ اللفظية والتركيبية والتخيلية، فجاء النص لوحةً فنيةً تترعرع بالحركة والألوان.

وقد كانت عبارة «مَثُلٌ ... كَمَثَلٍ» بوابةً بديئةً للولوج إلى العالم التفاعلي الذي مثَّله النص، (وهذه الصيغة «مَثُلٌ ... كَمَثَلٍ» تسترعى الانتباه بكثرة الكاثرة في صور الحديث التشبيهية، وهي عبارة عن مشبّك أو منهٍ يستحوذ على الذهن معلناً ومنوهاً بأن ثمة لوحة ستكون بديلة عن الكلام التقريري، ويعني هذا تفصيلاً في المشبه به، ليأخذ المرء الصفات

المناسبة لقضيته، كما أن الأحاديث التي ترد فيها هذه الصيغة طويلة نسبياً، وذلك لاستيفاء عناصر اللوحة التشبيهية^(١).

وقد حفل النص بالتشبيهات الرايعة، وهي خمس صور؛ أولاًها تشبيه الهدى والعلم بالغيث الكبير، وهو تشبيه نقل المعانى الذهنية إلى المحسوس وهو الغيث، وهو تشبيه مُرسَلٌ، وثانيها تشبيه الناس بالأرض، وهو تشبيه محسوس بالمحسوس، وثالثها تشبيه الطائفة الطيبة من الناس بالطائفة الطيبة من الأرض، رابعها تشبيه الذين لم يعلموا بما علموا بالأرض الأحادب المسككة للماء غير المتيبة، خامسها تشبيه المستكبرين المعرضين من الناس بالأرض القيعان غير المتنفعه ولا النافعة.

ويُلحظ في تشبيه الطائفة الثانية من الناس إيجاز في عدم ذكر المشبه، والاكتفاء بذكر المشبه به، وهي الأرض الأحادب استغناً بفهم القسمين الآخرين، وإعمالاً للذهن في عقد علاقة حتمية مستفادة من فهم الصورتين المحيطتين بهذه الصورة البينية، وتفصيلاً في رسم اللوحة بما يشير في النفس التفاعل والتshawiq إلى استكمال المعنى من خلال ملاحظة السياق.

وهذه التشبيهات في غالبيتها هي من نوع التشبيه المرسَل الذي حُذف منه وجه الشبه، وحُسنت الصورة بتراكِه والتَّعوِيل على خيال المتألِّف للتَّحليق في آفاق المعنى.

وقد تلاحت الصور الحركية واللونية في المكان المتنوع المتشعّذ الذي تجلّى في النص، فنَمَّة صورة الغيث المنهر على الأرض التي تتلقّاه بتفاعل متباين، وحركة الناس في انتفاعهم بالماء «فسرموا وسقوا وزرعوا» والصورة الجامدة الهامدة في تلك الأرض القيعان، والمتكبر غير المتفاعل، ثم حركة إيمانية نشطة في تفاعل المؤمن مع هدى الله وحركته الخيرة في نشر الهدى والعلم، وأخيراً التحسيم في قوله: «لم يرفع بذلك رأساً» المُعْظَمْ عدم المبالغة المسبَب عن الكبير بما يوحى بالهبوط والاحتطاط المعنوي.

^(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ص ١٥٣ .

وتتنوع الصور اللونية وفقاً لأنواع الأرض، فهناك اللون الأخضر النّضر الذي يوحى به «الكلاً والعشب الكبير» ثم اللون الباهت للأرض (الأجداب) واللون الكالح للأرض القيعان.

وثمة كنایة عن صفة التكثير في قوله: «لم يرَعَ بذلك رأساً» تخيل من خلالها صورة المُعرض وموقفه المتعنت الآني من المداية، وعدم إصغائه وأكتراشه، بخلاف ما يوحى به رفع الرأس من السُّمُّ والرُّفعة والارتقاء.

الحديث الثاني

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهمما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْبَهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبَرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعِي حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حَمَى، أَلَا وَإِنَّ حَمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَفَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

أولاً - شرح المفردات:

الحلال: المباح الذي يجوز فعله ويجوز تركه بلا حرج، والمقصود في الحديث: الحال من الشبهات والاحتمالات.

الحرام: ما لا يجوز فعله، أو لا يجوز تركه، والمقصود أيضاً: الحال الحال من الشبهات والاحتمالات.
بَيْنَ: ظاهر واضح.

مشبهات: مشكلات، بسبب ما فيها من وجود التعارض، إذ فيها عناصر تشبه الحال، وعنابر تشبه الحرام.

استبراً: طلب البراءة التي هي الحال من والسلامة. قال الرمخري: استبرأت الشيء: طلبت آخره لقطع الشبهة.

لدينه وعرضه: أي لأجل دينه ولأجل عرضه، فدینه بينه وبين الله عز وجل، وعرضه بينه وبين الناس.

^(١) البخاري، في الإيمان، باب فضل من استبرا لدینه، (٥٢) ومسلم، في المسافة، بابأخذ الحال وترك الشبهات، (١٥٩٩) واللفظ لمسلم.

الحِمَى: يقال: حَمَى فَلَانُ الشَّيْءٌ إِذَا مَنَعَهُ وَدَفَعَ عَنْهُ، وَالحِمَى الْمَكَانُ الَّذِي يَحْمِيهُ صاحبُه، وَيَحْرُمُ الدُّخُولَ إِلَيْهِ أَوِ الْأَنْدَادِ مِنْهُ، أَوِ الرُّتْبَةُ فِيهِ.

ثانياً - شرح الحديث:

أجمع العلماء على أهمية هذا الحديث وعظم موقعه، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، وقالوا: هو ثالث الإسلام، وإن الإسلام يدور عليه وعلى حديث: «الأعمال بالثواب» وحديث: «مَنْ حُسْنَ إِسْلَامَ الْمَرءِ تَرُكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

وقد جمع الحديث أموراً تتعلق بأمهات الأحكام، من خلال تقسيمه أصنافها إلى أقسام ثلاثة لا رابع لها، ثم ضرب المثل لذلك بالحِمَى الذي ينبغي أن يُزداد عنه ويُحدَّر من الواقع فيه، وجعل القلب حَكَماً على ضمير الإنسان في التزامه ووقفه عند تلك الأحكام، وحدَّر من انتهاء الحِمَى.

ابتداً الحديث بعبارة صريحة جازمة بقوله: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ».

ولا شك أنَّ ثمة حلالاً خالصاً لا حرج في فعله، ويكون إدراك حله عقلياً حيناً، بحيث لا يختلف الناس فيه، أو يكون إدراكه شرعاً يلزمـه دليل قاطع، وفي كلا الحالين هو واضح بـيـن لا يـكـاد يـخـتـلـفـ فـيـ اـثـنـانـ.

وكذلك الحرام الخالص، فمنه ما يدرك بالعقل، إذ لا يختلف في حرمته عقلاً الناس، ومنه ما يدرك بالدليل الشرعي القاطع، ويكون مـا يـعـرـفـ مـنـ الـدـيـنـ بـالـضـرـورةـ.

والخطير في القسم الثالث المُشْكِلُ المُشْتَبِهُ، إذ يشبه الحلال من وجيهه ويشبه الحرام من وجيهه، فلا يعرف حكمه أكثر الناس، ويقتصر على فهم دقائق أحكامه أولو العلم والراسخون فيه منهم، والأخطـرـ فيـ المشـتـبـهـاتـ الـلـبـسـ فيـ الـأـمـرـ المـشـتـبـهـ لـكـوـنـهـ عـلـىـ حدـودـ الـحرـمـاتـ،ـ وـالـوقـوعـ فـيـ يـحـرـفـ صـاحـبـهـ إـلـىـ مـلـامـسـ الـحرـمـاتـ،ـ ثـمـ الـوـقـوعـ فـيـهاـ «إـذـ الـحـلـالـ الـجـاـهـورـ للـحرـامـ تـسـاقـطـ عـلـيـهـ عـادـةـ ظـلـالـ مـنـ الـحرـمـاتـ حـتـىـ يـشـبـهـ عـلـىـ النـاظـرـ إـلـيـهـ:ـ هـلـ هـوـ مـنـ الـحرـامـ

^(١) عمدة القاري ٤٣٨/١.

أو لا؟ والحرام المحاور للحلال تتراكم عليه عادة ظلال من الحلال، حتى يشتبه على الناظر إليه: هل هو من الحلال أو لا؟^(١).

ولخطورة هذا الضرب من المشتبه ضرب له الرسول ﷺ المثل في الحديث، وجعل الحرام الذي يخشى من الوقوع فيه حمًى الله تعالى ينبغي أن لا يواضعه الإنسان، بل يتتجنب كلَّ ما قد يؤدي إلى مقارفته، أو ملامسة حدوده الجارفة إلى هاويته، ومن هنا أشار ﷺ إلى السبيل الذي يبعد الإنسان عن خطر الوقوع في المهالك، ألا وهو التقوى واحتساب اقتراف كلَّ ما كان كذلك من عمل موِّد إلى حرام، وهو مسلك الاحتياط والورع الذي كان نهج السَّلْفِ الصالح، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: «تَمَامُ التَّقْوَى أَنْ يَتَقَبَّلَ الْعَبْدُ اللَّهُ، حَتَّى يَتَقَبَّلَهُ»^(٢). من إيثار ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً، حجاً بينه وبين الحرام»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ أَدْعَ بَيْنِ وَبَيْنِ الْحَرَامِ سُرَّةً مِنَ الْحَلَالِ لَا أُخْرُقُهَا»^(٤).

ولمَّا كان محلُّ هذه التقوى القلب كما بينَ ﷺ بقوله «التقوى هنا» وأشار إلى صدره^(٥)، كان مدار الأمر كله على هذه المضيغة التي يصلح الجسد بصلاحها ويفسد

^(١) روایع من أقوال الرسول ﷺ، ص ٢١٦.

^(٢) جامع العلوم والحكم ١٦٠/١.

^(٣) جامع العلوم والحكم ٢٢/٨ وكتاب الورع للإمام أحمد ٥٠/١.

^(٤) مسلم، في البر والصلة والأداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله،

٢٥٤٦).

بفسادها، فهي الأساس في تقويم النفوس وسلوك حادة الحق في ترك الحرام وما يوقع في مسالكه.

ثالثاً - جمال الأسلوب:

اشتمل الحديث على معانٍ جليلة وأحكام عظيمة بألفاظ وجيبة، فهو من جوامع كلامه عليه السلام. قال القرطبي: «إنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب»^(١).

وهو مع ما شمل من معانٍ يتسم بالبساطة في اللفظ، والغفوة في الأداء، والبعد عن التكليف، والسهولة والوضوح، وحسن اختيار اللفظ والتركيب، فقد ابتدأ بأسلوب تقريري إخباري صارم من خلال استخدام الجملة الاسمية المؤكدة «إنَّ الحلالَ بَيْنَ، وإنَّ الحرامَ بَيْنَ» التي تفيد الختمية والثبات، وجاءت كلمة (اتَّقِ) موحيةً بخطرٍ يحذِّر منه والابتعاد عنه، والأخذ الوسائل لتجنبه، وجَعَ ما بين الدين والعرض ليشمل بإيجازٍ كلَّ ما يتوجَّب على المرء من تكليف إزاء خالقه وإزاء خلقه.

وعبرَ عن القلب بكلمة توحِي بالصُّغرِ، وجاء بها بصيغة النكرة مبهماً تشويقاً لمعرفتها بعد أن بينَ أهميتها، فبلغت الإثارة مبلغها حين تشوّقت النفس لمعرفة سرُّ هذا المخلوق الصغير، فجاء الجواب بأسلوب فحيم باستفتاحه وقوله: «ألا وهي القلب».

رابعاً - جمال التصوير:

الأخذُ التَّيُّبُ عليه السلام البيان وسيلةً من وسائل التأثير والإيضاح، فلم يكن الحديث مجرّد تبليغ أحكام وتكاليف، بل ارتقى في سبيل ذلك سلّم البيان مختاراً من فنونه ما يُلْغِي الغاية.

وفي هذا الحديث البالغ الأهمية، الجليل المعاني يظهر الإكثار من الأسلوب الإخباري الذي تولَّت فيه أدوات التوكيد لترسيخ المعنى، وإزالة الاحتمال، وتقوية الكلام، ففي قوله: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ» استخدام إِنَّ المؤكدة، واختبار صيغة المبالغة (بَيْنَ)، وتقوية

^(١) فتح الباري ١٢٩/١

الكلام من خلال استخدام الجملة الاسمية، ونلمح التأكيد والتبيه باستخدام (ألا) الاستفتاحية التّنبيهيّة الموافقة لـ (إن) في أربعة مواضع: «ألا وإنَّ لكل ملك حُمَى» «ألا وإنَّ حُمَى الله محارمه» «ألا وإنَّ في الجسد مضغة» «ألا وهي القلب» وهذا الدّأب على استخدام الأسلوب نفسه مكرّراً له موقعه في النفس، وتطرّيه في الأذن، مما يخلق جوًّا موسيقياً هدّاراً يؤلّف مع المعنى طاقاتٍ تعبيريةً وإيحائيةً.

وقد عَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عن خطورة الاقتراب من المحرّمات بصورة محسوسة أخرج من خلاها المعاني الذهنية المجرّدة إلى أوضح صورة، وذلك حين شَبَّهَ الإنسان المكْلَفَ بالراعي، ونفسه التي بين جنبيه بالأنعم التي يقودها حيث أراد، والمشتبهات من الأمور بحدود الحمى، فكما أن الراعي إذا جرّه رعيه إلى حدود الحمى ثم الرتع فيه استحق العقاب، وكذلك المكْلَفُ إذا قارف الشُّبهات و تعرض لمقدّماتها، وانحرّ إلى الحرام استحق العذاب، وهذا الحمى هو بمثابة حمى الملوك الذي كانت تحميّه مواشيها وتتوعد من يقترب منها أو يواعيها، ومن خاف عقوبة السلطان لم يدان بحدود الحمى وابتعد عنها، ومن لم يبال اقترب وأوشك أن يقع في المحظور «تُلَكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا» [البقرة: ٢٢٩].

وبهذا التشبيه التّمثيلي نجد أمامنا لوحة فنية متنوّعة متصرّفة متداخلة متكمّلة، قائمة على التصوير الحسّي والتحسّيم المستمدّ من بيئته العربيّة وحياته. وقام الحديث على الإيجاز، إيجاز القصر وإيجاز الحذف؛ فأماماً إيجاز القصر فلشموله تبيان الأحكام المتعلّقة بالمكْلَف في لفظ وجيز محكم، ولاكتفائء بضرب المثل لأدنى أحوال الواقع في الشُّبهات، وهو الاقتراب من حدود الحرام، وعدم ذكر الأعلى انكاءً على إدراك العاقل بأنَّ التّحذير من الأخفّ يتضمّن التّحذير من الأعلى والأشدّ.

وأثنا إيجاز الحذف ففي قوله: «الحلالُ بَيْنَ، والحرامُ بَيْنَ» والمراد: الحلال الخالص الصّرّف، والحرام الخالص الصّرّف، فقد حذف الصفة لأنَّه حذر أيضاً من حرمّة الواقع في

الشَّيْهَاتُ وَهِيَ غَيْرُ بَيْنَةٍ، وَفِي قَوْلِهِ: «لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ» وَالْمَرَادُ: لَا يَعْلَمُ حَكْمَهَا،^{*}
لأنَّهُ هُوَ الْمَطْلُوبُ، وَقَوْلُهُ: «فَمَنْ أَتَقَى الشَّيْهَاتِ» يُرِيدُ بِهِ فَمَنْ أَتَقَى الْوُقُوعَ فِي الشَّيْهَاتِ^(١).
وَيَفْهَمُ مِنْ مَعْنَى: «فَمَنْ أَتَقَى الشَّيْهَاتِ فَقَدْ اسْتَبَرَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ» أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَقَى
الشَّيْهَاتِ لَمْ يَسْتَرِئُ، وَهُوَ مَا لَمْ يَذْكُرْهُ الْبَيَانُ النَّبُوِيُّ اعْتِمَادًا عَلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَذْكُورُ، وَهُوَ
مَا يُعْرَفُ بِمَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ، وَقَدْ اكْتَفَى بِذِكْرِ الْأَهْمَمِ إِيجَازًا وَاحْتِصَارًا.

(١) انظر: رواية من أقوال الرسول ﷺ ص ٢٣٠

الحادي عشر الثالث

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَنْ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ سَوَارَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاهُ، وَعِنْدَ رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: اسْتَقِيمُوا عَلَى الصِّرَاطِ وَلَا تَغُوَّجُوا، وَفَوْقَ ذَلِكَ دَاعٍ يَدْعُو، كَلَّمَا هُمْ عَبَدُوا أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيَحْكُمُ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجِهُ».

ثم فسره فأخبر: «أَنَّ الصِّرَاطَ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمُفَتَّحَةَ حَمَارِمُ اللَّهِ، وَأَنَّ السُّورَ الْمُرْخَاهَ حَدُودُ اللَّهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ وَاعْظَمُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

أولاً - شرح المفردات:

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: الضَّربُ: المِثْلُ وَالشَّيْءُ، وَالضَّرَائِبُ: الأَسْكَالُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاصْبِرْ لَهُمْ مَثَلًا» [الكهف: ٣٢] أي اذْكُرْ لَهُمْ وَمِثْلَ لَهُمْ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ: اعْتِبَارُ الشَّيْءِ بِغَيْرِهِ.
صِرَاطًا: الصِّرَاطُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ.

سُورٌ: السُّورُ أَشْرَفُ حِيطَانَ الْمَدِينَةِ، وَيَكُونُ قَوِيًّا مَانِعًا حَصِينًا.

حَدُودُ اللَّهِ: الْحَدُودُ هُوَ الْمُؤْمَنُ الْفَاَصِلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، وَالْفَاَصِلُ يَمْيِّزُ الشَّيْءَ عَنِ الشَّيْءِ الْآخَرِ، حَتَّى لَا يَخْتَلِطَا وَلَا يَتَدَخَّلَا، وَسَمِّيَتْ أَحْكَامُ شَرِيعَةِ اللَّهِ حَدُودًا لِأَنَّهَا ذَاتُ مَقَادِيرٍ مُحَدَّدةٍ مُقَدَّرةٍ^(٢).

^(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٧/٣٦٨، (١٧٦٣٤) والبيهقي في شعب الإيمان ٥/٤٤ باب في الطبع على القلب أو الرین.

^(٢) رواي من أقوال الرسول ﷺ ص ٤٢٥.

ثانياً - شرح الحديث:

يرسم البيان النبوي صورة متكاملة لرحلة الامتحان في الحياة من خلال ضرب المثل، مُظهراً حقيقة الإسلام والدعوة إليه ومواطن التكليف الإلهي، وأحكام تشريعاته والداعي إليها، والزاجر عن نواهيها.

وقد عَبَرَ عن الإسلام بالصِّراط المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا لَيْس، وهو صراط النجاة والفلاح.

وقد جعل على طرق هذا الصِّراط سوران يمثّلان في الحقيقة شيئاً لا يستطيع الإنسان أن يخترقه أو يتجاوزه، بل هو كالحسن الحسين والستّر المنينغ، إنما أمور لا تخضع لاختيار الإنسان ولا لسلطان إرادته، فهي تمثّل إرادة الله تعالى وقوانينه التي لا قدرة لكائن على مخالفتها، أو تغييرها، بل هو مقهور محكوم بها، كالحياة والموت وقوانين الكون التي لا يَدِ أحدٍ فيها ولا اختيار.

وثمة أبواب في السُّورين يُفَنَّد من خلالها إلى ما وراء الصِّراط، وهذه الأبواب عن اليمين والشمال مفتوحة، لا تمنع أحداً من دخولها، وهي كالمعاصي والذنوب، يقتربها كلُّ من شاء باختياره وإرادته.

يبين أنَّ هذه الأبواب واضحة غير مشتبهة، إذ أسللت عليها ستور تدلُّ السالك على مواضع هذه الأبواب، فلا ينزلق في سيره داخلًا فيها خارجاً عن الصِّراط، وهي في الصورة بمثابة حدود الله، وهي الأحكام التي يبيّنها لعباده يعرفون من خلالها الحرام من الحلال، فمن شاء انتفع بها وارتدع عن ولوج هذه الأبواب، ومن شاء لم يرفع لها رأساً ودخل الأبواب، واقترف المعاصي كاشفاً الستور غير مُبالٍ بها.

وعند أول الصِّراط داعٍ ينادي الناس محدداً من الخروج عن الصِّراط داعياً إلى الاستقامة، وهو في هذا المثل القرآن الذي احتوى مواعظ وأحكاماً تلامس قلب المؤمن، فتأمره وتنهاه، فيتمثل المدى من حلاله، ويستقيم على الإسلام، واقفاً عند حدود الله معظماً شعائره.

وأمام الداعي الذي هو من فوق الصراط فهو كما وضّحه البيان النبوى في هذا المثل يتمثل في العناية الإلهية بسلوك الطريق المستقيم، إذ تنزل مواعظ الله تعالى على قلبه، متمثلة في وارعٍ نفسيٍ وشعورٍ قلبيٍ يذكّره بربه، وينهاه عن معصيته، ويحثّه على طاعته، ومقدار حرص الإنسان على تحقيق رضا ربّه والتزام حدود يزداد هذا الشعور قوّةً وتشيّتاً له على الحقّ، وزجراً له عن اقتراف المعاصي والآثام **﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾**

[المر: ٢٢]

ثالثاً - جمال الأسلوب:

اعتمد الحديث في بيان هذه المعانى الجامحة على ضرب المثل، ولا يخفى ما في هذا الفن الكلامي من الإيجاز والتکثيف مع التشويق والإمتعاع.

ويمثل هذا الحديث تحسيناً لرحلة الإنسان في هذه الدنيا، ورسماً لمنهج حياته في طريق الوصول، فإنّما سلوك الاستقامة ثم النجاة، وإنّما سلوك متن الهوى والغرائز ثم الهملاك، وقد اشتمل الحديث - كما تبيّن من خلال شرحه - على معانٍ جمّة خطيرة، سلك فيها البيان النبوى مسلكاً موضحاً مبيناً من خلال:

- انتقاء المفردات المنسمة بالسهولة والوضوح.

- حُسن تقسيم الجمل، وسبك الألفاظ ضمن تركيب متالفة، تدرج تصعيدياً في

أداء المعانى، وإثارةً وتشويقاً في أداء الصورة.

- اختيار الجمل الاسمية غالباً لرسم أركان الصورة الختامية، التي تُوصف جزءاً جزءاً بما

يشي بأهميتها وكوّها ثابتة لا مجال فيها لاحتعمال أو تأويل.

- اختيار التكثير لمفردات القسم الأول من الحديث، حيث الإبهام ورسم الصورة

الموحية، التي تتوقّف النفس إلى الغوص في جلّها واستخراج ذرّها: (صراطاً) (سوران) (أبواب)

(ستور) (داع) (عبد).

- اختيار التعريف لمفردات القسم الثاني من الحديث، حيث كشفَ الستارة عن أسرار الصورة، وإظهار السر الكامن الذي تشوّقت النفوس إلى معرفته، وحيث يلزم الاعظام والانفاس.

وَمِنْ صُورٍ حُرْكَيَّةٍ رَسَمَتْهَا أَلْفَاظٌ مُوحِيَّةٌ، كَالْمُطَلَّبُ فِي «إِسْتَقِيمَوْا وَلَا تَعْوِجُوهُ» وَالْإِيمَاءَ إِلَى التَّكَارِ فِي قَوْلِهِ: «كُلَّمَا هُمْ عَبْدٌ أَنْ يَفْتَحُ شَيْئًا» الَّذِي يُوحِي بِنَوَازِعِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسَّوءِ، وَتَكَارِ إِيحَائِهَا لِلْإِنْسَانِ الْمُوْضَحِّ بِقَوْلِهِ: «كُلَّمَا هُمْ»، ثُمَّ بِنَحْدِ الْقُوَّةِ فِي اسْتِخْدَامِ لِفْظِ (وَيَحْكُمُ) الْمُوْحِيِّ بِالشَّدَّةِ وَالرَّصَانَةِ فِي النَّهْيِ وَالرَّدْعِ.

رابعاً - جمال الصور:

قامت أفكار الحديث على بناء تمثيليًّا أَخْذَ ضرب المثل سبيلاً في تقرير الأفكار وتزيينها وتوضيحها.

«وَالْمَئُولُ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ هُوَ مِنْ قَبْلِ تَشْبِيهِ التَّمْثِيلِ الْمَرْكُبِ الْقَائِمِ عَلَى تَقْدِيمِ لَوْحَةٍ بِيَانِيَّةٍ مَرْكَبَةٍ مِنْ عَنَاصِرٍ تَصْوِرُ عَدَةَ مَفَرِّدَاتٍ مَتَلَاقِيَّةٍ فِي صُورَةٍ، تَقَابِلُهَا فِي الْمَمْثَلِ لَهُ مَفَرِّدَاتٍ مَشَابِهَةٍ لَهَا مَتَلَاقِيَّةٍ فِي صُورَةٍ، عَلَى أَنْ كُلُّ فَرِيدٍ يُشَبِّهَ الْفَرِيدَ الْمُقَابِلَ لَهُ، وَلِهِ وَجْهٌ شَبِهٌ خَاصٌّ بِهِ، مَعَ التَّشَابِهِ الْكَلِّيِّ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ، إِذْ يُتَتَّسِّعُ لَهُ وَجْهٌ شَبِهٌ عَامٌ يُوَحَّدُ مِنْ الْمُتَعَدِّدَاتِ»^(۱).

فَالصَّرَاطُ يُشَبِّهُ الْإِسْلَامَ فِي كَوْنِهِمَا سَبِيلًا مُوصِلًا لِلْغَاِيَةِ الْمَرْجُوَةِ، وَالْمَدْعِيُّ عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ يُشَبِّهُ الْقُرْآنَ مِنْ جَهَةِ كَوْنِهِمَا دَاعِيَيْنِ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَالسُّورَانِ الْقَائِمَانِ عَلَى جَانِبِيِّ الصَّرَاطِ يُشَبِّهانِ عَبُودِيَّةَ الْإِنْسَانِ الْمُجْرِيَّةِ، مِنْ حِيثِ عَحْزٍ مَنْ يَحْاولُ اخْتِرَاقَهُمَا وَيَخْوازِهِمَا. عَلَى خَلَافِ الْأَبْوَابِ الْمُفَتَّحَةِ الْمُشَبِّهَهَا أَفْعَالِ الْإِنْسَانِ الْأَخْتِيَارِيَّةِ فِي إِمْكَانِ الْمُرْءِ عَبْرَهَا وَاخْتِرَاقَهَا.

^(۱) رَوَاعَ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ ﷺ ص ۴۳۶.

والستور المُرخاة على الأبواب تشبه أدلة حدود الله وبيان أحکامه، وكلتاها تدلان على مواضع ما يجب الحذر من تجاوزه وتعديه.

والداعي من فوق الصراط يشبه الواقع النفسي لدى المؤمن، في أنَّ كلاًًاً منهما رفيق رحيم، يدعو إلى النجاة.

فالحديث إذاً لوحقة فنية مجسمة، نقلت المعاني المجردة إلى العين، فرأتها واضحة جلية، وإلى العقل فوعاها، وإلى النفس فنافت إلى تلمس أركانها، وتأملت بديع رسماها.

والحديث فوق ذلك مثال جلي على حسن الإيجاز وتكثيف المعاني التي اقتضتها النص بمفهومه، إذ لم يصرّح البيان النبوي بكل تفصياته، بل وَكَلَ إلى فهم العاقل وبراعة فكره استلهام المعنى كاملاً من دلالات الصورة والألفاظ.

الحديث الرابع

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منْ كُنَّ فِيهِ وَجَدٌ حَلَاوةُ الإيمانِ؛ مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفُرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَلَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

أولاً - شرح المفردات:

ثلاث: ثلاثة خصال، والتثنين عوض عن اسم مضاد محفوظ.

وَجَدٌ: حَصْلٌ وأصاب.

حلابة الإيمان: حلابة: مصدر حلا الشيء، وهو نقىض المركب. قال النووي: معنى حلابة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمّل المشاق في رضي الله عز وجل ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى، بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة رسول الله ﷺ^(٢).

من كان الله ورسوله: على تقدير مضاد: «خصلة من كان ...».

ثانياً - شرح الحديث:

يحضّر البيان النبوى على التحلّي بأجل الخصال من خلال تشويقه إلى ثمرتها، وتصويره للسعادة الناتجة عنها، فقد ابتدأ بيان الجزاء الذي يحصله كل من اتصف بهذه الخصال وتحلى بها، والحلابة هي شيء حسي يرغب به ويطلبها كل ذي ذوق سليم وفطرة سوية، فكيف إذا كانت الحلابة معنوية يجد الإنسان آثارها سعادة في قلبه، والتذاذا في نفسه.

^(١) البخاري، في الإيمان، باب حلابة الإيمان، (٦٦) ومسلم، في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلابة الإيمان، (٤٣).

^(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/٢.

وبعد هذا التقديم المشوق بين هذه المصالح التي هي من أفعال القلوب ليكون حسن الجزاء من حسن حسن العمل.

«مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبًّا إِلَيْهِ مَمَّا سَواهُمَا»:

ذلك أنَّ المرء لا يستكمل الإيمان حتى يستشعر عظمة الله تعالى، ويقرَّ بكمال فضله ونعمائه، وحتى يخالط ذلك دمه ولحمه وينشرح له صدره، وينتزع عنه التزام طاعته والانتهاء عمَّا نهى عنه، وإثارة ذلك على هوى نفسه.

وكذلك محبة رسوله ﷺ والإقرار بفضله، قال القاضي عياض: «وَمَنْ مُحِبِّهِ نَصْرَةٌ سَتَّةُ
وَالدَّبْعُ عن شريعته، وَتَنْيَ حضور حياته، فَيُبَذِّلُ نَفْسَهُ وَمَالَهُ دونه»^(١).

«وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ»:

فيرتقي بعلاقته مع الناس عن حدود المصلحة الشخصية وأهواء النفس، ويسمى على الدوافع المادية وعلى كل اعتبار، فيكون الحبُّ الإلهي المجرد منظم العلاقة بينه وبين الناس، مما يجدهما إلى الإخلاص لهم، وإرادة الخير والوئام لهم، وينفعه عن كل أذى ومفسدة فيما بينه وبينهم، فيسمى فلا يحقد ولا يبغض، بل يرفق وينصح ويتسامح، وجاءت الجملة الحالية «لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ» لتقييد هذه المحبة وترسيخها.

«وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَدَهُ اللَّهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»:
وذلك أنَّ مَنْ انسرح صدره لأنوار الإسلام، واستشعر نعمة الله تعالى في بحاته من ظلمات الكفر والجهالة فإنه - لا محالة - يمْقت العودة إلى الكفر مقتاً شديداً، وتفرُّ نفسه منه خشيةً ونفوراً، خشيتها من ولوج النار، ونفرتها من حرّها وعداها.

ثالثاً - جمال الأسلوب:

اعتمد أسلوب الحديث على التكثيف ثم التفصيل، وهو أسلوب يثير التشويق في قلب السامع، والرغبة في معرفة تفصيل ما أجمل، وقد جاء الإجمال في كلمة (ثلاث) ليتطابع المرء

^(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/٢

إلى معرفة كلٍّ علىٰ حدة، ويضع نفسه إزاء كلٍّ خصلة من تلك الحالات، ويعرف مدى قدرته علىٰ تملّها وصولاً إلى السعادة والنشوة التي تغمر قلبه وتشعُّ في نفسه. وتتوازى التراكيب في نسقها وفي صورها مواكبة للتوازي في معانيها، «من كان الله أحب...» «من أحب المرأة...» «من كره أن يعود...».

ذلك أنها أفعال ثلاثة من أفعال القلوب، تتبّق عن إيمان راسخ ويقينٍ كامل.

والواضح في النص تاليف اللفظ مع المعنى في تكرار مادة المحبة، محبة الله ومحبة رسوله...، ومحبة المرأة في الله، ومقابلاً لها كراهيّة العودة إلى الكفر، مما يشير العواطف، ويُمْحَق سلف النفس إلى الحصول على ثمرات هذه المشاعر السامية، ألا وهي السعادة الكبرى المعبّر عنها بـ«حلوة الإيمان».

رابعاً - جمال التصوير:

يقدم البيان النبوى المعانى الجليلة بطريقة مؤثرة واضحة، وقد غدا هذا الأمر معهوداً في غالب نصوصه، فهو يُعنى بتوضيح المعانى الجرّدة من خلال نقلها إلى ساحة المحسوس، غير غافل عن قلب المتلقى ونفسه وخياله. فهو دائماً يخاطب الإنسان بكلّيته؛ عقله وقلبه وخياله، فيتّحد من الحسن وسيلةً لتوضيح المعنى لإقناع عقله، ومن أساليب التسويق والإثارة مركباً لبلوغ قلبه، ومن أساليب التصوير مطأةً لإمتاع خياله.

وقد اختار البيان النبوى حاسة الذوق التي تفید التّماس الشديد والقوّة والاستمرار، ذلك أنّ ذوق الشيء يدل على احتلاله ذرّات هذا الشيء بكيان الإنسان، وكذلك ذوق حلوة الإيمان تثير إلى مخالطة هذه الحلوة القلب لتغمره السعادة والنشوة. وهذه الصورة هي صورة استعارية تشي بوجه الشبه الجامع بين الجهتين، وهو الالتذاذ وميل القلب.

وَمُثْمِة صُورَة تشبيهية يَتَكَافَأُ بَيْن طَرْفِيهَا كَرَاهَةُ الْقَلْب، وَوَجْدَانُ الْأَلْم وَنَفْرَةُ النَّفْس،
وَتَوَاکِبُ هَذِه الصُّورَة حَرْكَيَّة شَاقُولِيَّة تَصْوِرُ بِقُولِه (يَقْذِف) أَوْ (يَلْقَى) – كَمَا فِي رِوَايَة
أَخْرَى – التَّخْوِيفُ مِنْ وَلُوجِ النَّارِ، وَالْتَّحْذِيرُ مِنْ مُسَبِّبَاتِه.

الحديث الخامس

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسيء، فقلت: يا رسول الله، أخربني بعمل يدخلني الجنة ويُبعدني عن النار. قال: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيُسِيرٌ عَلَىٰ مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ تَعْبُدُ اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحْجُجُ الْبَيْتَ». ثم قال: «أَلَا أَذْلِكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَاحٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطَبَيْتَ كَمَا تُطْفِئُ الْمَاءَ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيلِ، ثُمَّ تَلَاقُهُ تَسْجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ» ... حتى بلغ **(يَعْمَلُونَ)** [السجدة: ١٦، ١٧].

ثم قال: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَاهِهِ؟» فقلت: بل يا رسول الله، قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ إِلَّا إِسْلَامُهُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَاهِهِ الْجِهَادُ». ثم قال: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِمَلَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فقلت: بل يا رسول الله، فأخذَ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قلت: يا نبي الله، وإنما لَمُؤاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ! فقال: «ثَكَلَّكَ أَمْكَ يَا مُعَاذُ، وَهُلْ يَكُبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَىٰ مَنْأَرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!»^(١).

أولاً - شرح المفردات:

جُنَاحٌ: حماية ووقاية من النار.

الصدقة تطفئ الحطبة: تطفئ أثرها.

جوف الليل: وسط الليل أو أثناءه.

تسجافى: ترتفع وتبتعد.

^(١) سنن الترمذى في أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (٢٦١٩) وسنن ابن ماجه، في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، (٣٩٧٣).

ذروة سلامه: السلام: ما ارتفع من ظهر الجمل، وذرته أعلاه.

مِلَّاْكُ الْأَمْرِ: ما يكون به انتظام أمره وجماعه.

تَكِلْتُكَ أَمْكَ: ظاهره دعاء بالموت، ولا يراد حقيقة معناها، بل هو تنبية من العففة، وتعجب من أمره.

يَكْبُثُ: يلقى في النار، وهو مضارع كَبَّهَ إِذَا ضُرِعَهُ عَلَى وَجْهِهِ.

ثانياً - شرح الحديث:

ينطلق الحديث من سؤال معاذ رضي الله عنه الذي يمثل شدة اعتمائه بالأعمال الصالحة، وحرصه البالغ على معرفة السبيل إلى الجنة، ويدل على فصاحته وبلاعنته، إذ سأله سؤالاً وجيراً بليغاً، ينطلق منه فعل كلٍّ مأمور به، وترك كلٍّ محظور، لذا أثني النبي ﷺ على هذا السؤال بقوله: «لقد سألتني عن عظيم» وفي هذا الجواب ما فيه من تشويق النفس إلى معرفة ما يلقي إليها رداً على السؤال. ثم، أتبعه بقوله: «وإنه ليس بيِّزْ عَلَى مَن يسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ» فهذا الأمر - وإن كان عظيماً - غير متعرّض ولا شاقٌ، فمن صدق في توجّهه إلى الله والرغبة إليه في العبادة، سهل الله عليه سلوك طريقه.

«تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تَشْرُكُ بِهِ شَيْئاً، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ...»:

قد خول الجنة لا يكون إلا بتحقيق هذه الأركان التي هي دعائم الإسلام، بتوحيد الله عز وجل، وأداء الفرائض: الصلاة والزكاة والصيام والحج، فإن أداها العبد حقاً أدخله الله بهنه ورحمته الجنة.

ثم دلَّ النَّبِيُّ ﷺ معاذًا على ما يتحقق المراتب العالية مفتاحاً بأسلوب يشير الشوق بقوله: «أَلَا أَدْلِكُ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ» والأبواب هي الأسباب المؤصلة إلى الخير.

فبعد أن استوفى الفرائض دلّه على النوافل ليظفر بمحبة الله عز وجل، ففي الحديث القدسي: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إلى بالنّوافل حتّى أحبه»^(١).

«الصوم جنة»: المراد به صوم النفل، إذ تقدّم الصوم المفروض في فرائض الإسلام، وقد عَبَر عن فضل الصوم بطريقة حسنية، فجعله درعاً واقياً للمسلم من العذاب، واقتضاها من الذنوب، إذ به تعناد النفس التزام الحدود والامتناع عن الشهوات، فتضيق الضبط وتقارب من التقوى التي هي فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى عنه.

«والصدقة تُطْفِئُ الْخَطَايَا»:

وهي صدقة التطوع، فقد تقدمت الزكاة المفروضة، وبين النبي ﷺ فضلها وجزاءها بطريقة محسوسة، فهي تحوّل أثر الخطية وتزييلها، كما يذهب لهب النار بالماء، وهذا التصوير يشير إلى أنّ الذنب المترتب عليه الجزاء يُمحى فتمحى عقوبته، وقد ورد عن النبي ﷺ: «إن الصدقة تُطْفِئُ غَصْبَ الرَّبِّ، وتدفع ميتة السُّوء»^(٢).

«وصلاة الرجل في جوف الليل»:

من أجل الأعمال وأعلاها صلاة التطوع في الليل بعد النوم، فهي دأب الصالحين الذين دفعهم حبهم لله عز وجل إلى هجر الفرش ومجاهدة النفس للوقوف بين يدي الله تعالى مستأنسين بعبادته متلذذين بقربيه. قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنّ دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل فرصة إلى الله عز وجل، ومتها عن الإثم، وتکفیر للسيئات، ومطردة للذاء عن الجسد»^(٣).

^(١) جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، في الرقاق، باب التواضع، (٦١٣٧).

^(٢) سنن الترمذى، في الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، (٦٦٤).

^(٣) سنن الترمذى، في الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ (٣٥٤٩).

«أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمْدَوْهِ وَذُرْوَةِ سَنَامَه»:

يظهر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رأى لدى معاذ حِجَّاً وَتَشْفِيقاً لِمَعْرِفَةِ الْمُزِيدِ مِنْ عِلْمِ النَّبُوَّةِ، فَمِنْ عَلَيْهِ بِتَعْلِيمِهِ عَظَائِمُ الْأَمْرِ بِطَرِيقَةٍ تَربُّوِيَّةٍ تَزِيدُ مِنْ اِنتِباهِهِ وَاهْتِمَامِهِ قَائِلاً: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ؟».

وقد قَدِمَ لِذِكْرِ هَذِهِ الْأَمْرِ بِبَيَانِ مَكَانَتِهَا وَعَلَوْ شَأنَهَا، فِرَاسُ الْأَمْرِ هُوَ مَا لَا تَقُومُ حَيَاةُ الشَّيْءِ إِلَّا بِهِ، وَالْجَسَدُ بِدُونِ رَأْسٍ جَثَّةٌ هَامِدَةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا.

«رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ»

بِإِقَامَةِ فَرَائِضِ الْإِسْلَامِ تَقُومُ الْحَيَاةُ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِسِنَدِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَأْسَ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ تَشَهَّدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»^(١).

«وَعَمْدَوْهُ الصَّلَاةُ»:

وَبِطَرِيقَةٍ مَحْسُوسَةٍ وَاضْبَحَهَا السَّامِعُ، وَلَا سِيمَّا الْعَرَبِيُّ الَّذِي يَعْلَمُ أَهْمَى الْعَمْدَ في خِيمَتِهِ الَّتِي تَزوِّدُهُ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَتَقِيهِ عَوَارِضِ الْأَنْحَاطَارِ، ذَلِكَ الْعَمْدُ الَّذِي لَا تَقُومُ الْخِيمَةُ إِلَّا بِهِ. بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَصُورُ النَّبِيُّ ﷺ خَطُورَةَ أَمْرِ الصَّلَاةِ، إِذَا لَا تَقُومُ حَيَاةُ الْمُسْلِمِ إِلَّا بِهَا، وَلَا وَقَايَا لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَهِيَ تَرْفَعُ أَمْرَ الدِّينِ وَتَظْهَرُهُ، إِذَا هِيَ مِنْ أَجْلِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ.

«وَذُرْوَةُ سَنَامَهِ الْجَهَادُ»:

وَبِطَرِيقَةٍ مَحْسُوسَةٍ أُخْرَى يَبِينُ النَّبِيُّ ﷺ أَهْمَى الْجَهَادِ فِي رَفْعِ شَانِ الْإِسْلَامِ، وَإِعلَاءِ كَلْمَةِ اللَّهِ، وَالْدَّافَعِ عَنِ حَمَّى الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ فِي أَهْمَىِهِ وَأَنْوَرِهِ فِي مَنْعِمَةِ الْأَمَّةِ وَقُوَّتِهِ بِمَنْزِلَةِ السَّنَامِ رَفِعَةً وَعَلَوْأَ، فَهُوَ فَوْقَ كُلِّ خَطَرٍ لَا يَنْالُهُ سُوءٌ وَلَا ضَرَرٌ.

^(١) مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدِ ٨/٤٩٥، ٢٢١٢٢، ٢٠/٧٥ وَالْمُعْجمُ الْكَبِيرُ لِلْطَّهْرَانِيِّ (٤١).

وقد روى الشَّيْخان عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضَل؟ قال: «إيمانٌ بالله، وجهادٌ في سبيله»^(١).

«ألا أخِبرُك بِمَا لَكَ ذَلِكَ كُلُّهُ؟»

اختتم النَّبِيُّ ﷺ توصياته لمعاذ رضي الله عنه مستكملاً جوانبها ببيان ما يملكونها ويضبطها و يجعلها على غاية الكمال، ممهداً لذلك بقوله على طريقته التربوية نفسها: «ألا أخِبرُك...»

«كَفَ عَلَيْكَ هَذَا» ومن هنا ظهرت أهمية حفظ اللسان وضبطه.

روى أنس رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قوله: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلْمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا درجاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلْمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهُوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٣).

فيجب على المرء أن لا يتكلم إلا بما فيه نفع، وأن يمسك عن الكلام المحرّم، ولا يكثر من الكلام المباح، لأن الإكثار قد يجره إلى المكروه أو الحرام.

وباستفهام فيه تعجب واستغراب يقول معاذ رضي الله عنه: «وَإِنَا لَمْؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» فقد اعتاد الناس على قول ما يشاؤون ظانين أنهم مؤاخذون على عمل الجوارح فحسب، غير متتبّعين إلى مخاطر زلات اللسان وجريرتها، وكأنَّ معاذاً رضي الله عنه كان

^(١) البخاري، في العنق، باب أبي الرقاب أفضَل، (٢٣٨٢) ومسلم، في الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضَل الأعمال، (٨٤).

^(٢) مسند الإمام أحمد ٤٠١٥، ٤٠٤٨، (١٣٠٤٨).

^(٣) البخاري، في الرفاق، باب حفظ اللسان، (٦١١٣) ومسلم، في الرهد والرفائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، (٢٩٨٨).

متأثراً بما درج عليه الناس في هذا الاعتقاد، ومن ثم جاء تعجبه من خطر اللسان، فجاء جوابه عليه السلام موقظاً من الغفلة، منبهًا إلى الخطر العظيم قائلاً: «تكلتك أملك يا معاذ...» وهو دعاء لا يُراد معناه، وإنما هو حارٍ على سنة كلام العرب في إرادة ما يقتضيه من تنبيه وإثارة إلى أمر مهم.

وبصورة أخرى محسوسة معبرة يُظهر البيان النبوى التتائج الخطيرة لآفات اللسان من خلال استفهام إنكارى وصورة استعارية، إذ يشبه اللسان بالمنجل الذى يحصد الزرع، ويقطع الأخضر واليابس، فكذلك من يتكلّم ما شاء ولا يبالي، فهذه الأقوال إما حصادٌ خيرٌ تنجي صاحبها، وإما حصادٌ نار تلقي صاحبها في الهاوية والمهلكة.

قال ابن رجب الحنبلي: «ولمراد بحصاد الألسنة جزاء الكلام المحرّم وعقوبته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيمة ما زرع، فمن زرع خيراً من قولٍ أو عملٍ حصد الكرامة، ومن زرع شرًّا من قولٍ أو عملٍ حصد غداً الندامة»^(١).

ثالثاً - جمال الأسلوب:

يقوم الحديث على حوار بين طرفين هما: النبي صلوات الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل رضي الله عنه، وينطلق من سؤال مهمٌ من معاذ رضي الله عنه لتوالى بعده الفوائد الجمة. ومعلوم منهج النبي صلوات الله عليه وسلم في عدم الاقتصار على إجابة السائل بما يريد، بل كان يفيض ويزيد، وخاصة أنه لمس عند المخاطب رضي الله عنه تلهفاً للمعرفة ووعياً لما يستحق الاهتمام.

ويتوالى في الحديث أسلوب التشويق والإثارة من خلال تفاعله صلوات الله عليه وسلم مع حاجة معاذ، وكلّ مبلغ، وحرصه على التعليم والتربية والنفع، لذلك كثرت في النص النبوى أساليب التوكيد؛ كالقسم في «لقد سألت»، واستعمال أدوات التوكيد في «إنه ليسير...» والتنبيه

^(١) جامع العلوم والحكم . ٢٠ / ٢٩

مع التوكيد في «ألا أدلك؟» «ألا أخبرك؟ ...» وترافق الجملة الاسمية مكونة بناءً حتمياً
وقواعد ثابتة في قوله: «الصوم جنة» «الصدقة تطفئ ...» «رأس الإسلام ...».

ويظهر التوازن في التراكيب مما يولد موسيقا هادئة رصينة تتواتي معها المعاني، وتعاقب
مصدقة إلى أن تبلغ ذروتها في بيان المعول عليه في نتائج الأعمال والعبادات، إنه حصيدة
اللسان الذي غيرَ البيان النبوى أسلوبه لدى التنبيه على خطره، فاستخدم وسيلة تعليمية
عملية عندما أخذ بلسانه ﷺ، ثم وضح بأسلوب طلي يوحى بضرورة الانقياد: «كفْ عليك
هذا».

ثم يأتي تعبير «ثكلتك أمك» مثيراً للسامع وللمخاطب إلى قلب التوهم السائد
وتصحيح المفهوم المعروف. وبطريقة إنكارية تعجبية يخبر ﷺ عن أثر حصاد اللسان في
مهلكة الإنسان وخسارته بقوله: «وهل يكتب الناس في النار على وجوههم - أو على
مناخرهم - إلا حصادُ أستتهم».

رابعاً - جمال التصوير:

رسم البيان النبوى صوراً متنوعة للمعاني الجليلة التي احتواها النصُّ، مجسماً المجرّدات،
وموضحاً مكانة الأمور المهمّات، فقد توالت الصور الاستعارية والتّشبّهية في سيل إغناء
المعنى، والانطلاق بالمتلقي إلى آفاق النصِّ.

فجعل الخير بمعناه الواسع الربح ذا أبواب مجسمة، لتمكن النفس من معرفة كيفية
سلوك طريق المدى واضحًا، فبولوج تلك الأبواب يبلغ المرء بعيته من تحصيل للخير والمدى.
ثم إن الصوم بكيفيته وأهميته وثمرته يجيئ في كلمة واحدة، صورته وسيلة دفاعية
وقائية.

والصدقة في الحديث فاعلة فعل الماء بالنار المضطربة، فبرد يقين صاحبها وقرة عين
آخذها تطفئ حرّ العاصي والآنام، ويظهر هذا المعنى في صور استعارية تتعانق مع الصورة
التّشبّهية لتشكل في الذهن معنى واضحًا يشوق النفس لحب الإنفاق والتصدق في سبيل الله
تعالى.

ثم يصوّر البيان النبوي صورة من يقوم في الليل الدامس فعَّبْر بقوله: «جوف الليل» ليثير النفس إلى استشعار ظلمة الليل، ثم الاستشهاد بقوله تعالى المبين لجزاء هذا الجهد النفسي «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَيَ لَهُمْ مِنْ قُرْئَةً أَعْيُنُ حَزَاءً إِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [السجدة: ١٧]

ويضرب البيان النبوي صُفْحًا عن ذكر الخبر، ليفتح للمعنى آفاقًا تتشوّق إليها النفس، ولا سيما أنه لا أحد يعلم هذا الجزاء - كما في الآية - فترك ذكره.

وتتوالى صور ثلاثة مجسمة يختار لها التعبير بأهم ركن في الجسد أو البناء فيقول: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة س McCabe». «جهاز»

ثم تأتي الصورة الإشارية المثلثة أمام العيان لتكون وسيلة إيصال، ومشاركة الإشارة العبارة في بيان خطورة الأمر، ليأتي التعبير بعدها بالأسلوب الإنكارى مع التعبير بصورة حركية عنيفة «وهل يكب الناس في النار» لتكون هذه الأعمال فاعلاً قوياً مجسماً، يحرك الإنسان ويلقى على وجهه في تصوير للألم النفسي المرافق للألم الجسدي.

وفي قوله (حصائر) صورة استعارية مجسمة لأثر معاصي اللسان وإتلافها صاحبها وهلكته.

وبعد بيان معنى النص وجمال تصويره بات يجلينا أن البيان النبوي رسم بطريقة فنية بايضة منهاجاً متاماً لسلوك طريق المدى بايقون واضح مؤثر، مسيوك في تعابير لفظية وإيحاجية قوية، متالفي في تراكيب متوازنة، مصوّر في لوحة فنية متناسقة، تكونت أجزاؤها حمير استعارية وتشبيهية، وأخرى حركية ونفسية، تالفت معاً في إقامة بنيان نص يعيد من أروع النجاح على جمال البيان النبوي ووضوحه وبلاخته، وقوه تأثيره.

والحمد لله رب العالمين



المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق د. مصطفى ديب البغدادي، دار ابن كثير، دمشق - بيروت ط ٢٤٢٧، هـ ١٤٠٦.
- الإحکام قی أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسی، بإشراف أحمد محمد شاکر، مطبعة السعادة بمصر، ط ١، هـ ١٣٤٨.
- أحكام القرآن، محمد بن إدريس الشافعی، تحقيق عبد الغنی عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت - هـ ١٤٠٠.
- الأدب القصصي عند العرب، موسى سليمان، دار الكتاب، مكتبة المدرسة، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، لابن عبد البر القرطبي، ط / بذيل الإصابة.
- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاکر، شركة القدس، ط ١، نشر دار المدى بجدة ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجید عبد المجید ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤ م.
- الأشباه والنظائر في النحو، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الإصابة في تمییز الصحابة، ابن حجر العسقلانی، دار الكتاب العربي، بيروت.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعی، دار الكتاب العربي، بيروت - هـ ١٤١٠ = ١٩٩٠ م.
- إعراب الحديث النبوي، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكّري، تحقيق عبد الإله نبهان، مجمع اللغة العربية بدمشق، ط ٢، هـ ١٤٠٧ = ١٩٨٦ م.
- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، دائرة المعارف العثمانية، حیدر آباد، هـ ١٣٥٩.

- الأمثال من الكتاب والسنة، أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذى، تحقيق د.السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م.
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى، تحقيق علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربى، ط١، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٠ م.
- بلاغة الرسول في تقويم أخطاء الناس وإصلاح المجتمع، دراسة في الصحيحين، د.ناصر راضي الزهرى إبراهيم، ط١، دار البصائر، القاهرة، ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨ م.
- البيان النبوى، د.محمد رجب البيومى، ط٢ / دار الوفاء، مصر، المنصورة، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر.
- ناج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٤٢٥ هـ = ١٩٩٥ م.
- تاريخ ابن خلدون، المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار لفکر، بيروت، ١٤٢ هـ = ٢٠٠١ م.
- تاريخ الاحتجاج النحوى بالحديث الشريف، د. فخر الدين قباوة، دار الملتقى، حلب، ط١، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م.
- تاريخ الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢.
- تاريخ علوم اللغة العربية، طه الرواى، مطبعة الرشيد، بغداد، ط١، ١٩٤٩ م.
- تاريخ اللغات السامية، د.إسرائيل ولفنسون أبو ذؤيب، مطبعة الإعتماد بمصر، ط١، ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٩ م.

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د. حفيظ محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م.
- تحفة الأحوذى، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تدريب الراوى في شرح تقييف النواوى، جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ونسخة دار الكلم الطيب، دمشق، تحقيق د. بدیع السید اللحام.
- تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التذليل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسى، تحقيق د. حسن هنداوى، دار القلم، دمشق.
- التصویر الفنی في القرآن، سید قطب، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦ م.
- التطور اللغوي التاریخي، د. إبراهیم السامرائی، محاضرات نشرت من قبل معهد البحوث والدراسات العربية في جامعة الدول العربية، دار الرائد للطباعة، القاهرة ١٩٦٦ م.
- تفسیر القرآن العظیم، الحافظ عماد الدین أبو الفداء إسماعیل بن کثیر الدمشقی، دار المعرفة، بيروت ١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م.
- تقیید العلّم، أَحْمَدُ بْنُ عَلَيْ بْنِ ثَابِتِ الْمَعْرُوفِ بِالْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، ١٩٧٤ م.
- تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدایع، الخطیب القرزوینی، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، تحقيق یاسین الایویی، المکتبة العصریة، بيروت، ٢٠٠٢ م.
- تهدیب التهذیب، شهاب الدین احمد بن علي بن حجر العسقلانی، دائرة المعارف النظمیة، الهند.

- ونسخة دار الفكر، ط١، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م.
- توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر الجزائري الدمشقي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م.
- الجامع الصحيح، سنن الترمذى محمد بن عيسى أبي عيسى الترمذى، تحقيق محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ.
- الجامع الكبير / جامع الأحاديث، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجود، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤ م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر شمس الدين القرطبي، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٣ م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الماشي، د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٩ م.
- الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية، د. عز الدين علي السيد، دار اقرأ، بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م.
- الحديث النبوى الشريف وأثره في الدراسات اللغوية وال نحوية، د. محمد ضاري حمادى، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط١، ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى، دار الكتب العربية، بيروت، ط٤، ١٤٠٥ هـ.
- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الحاخامي، القاهرة، ط١، ١٩٥٦ م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنى، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ط٢.
- دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٣.
- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، بيروت، ١٩٤٥ م.

- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، ط ١٤٠٩ هـ.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البهقي، تحقيق عبد المنعم قلعجي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، بيروت، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م.
- ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣ م.
- ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م.
- الرسالة ، للإمام الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، دار المعرفة، بيروت.
- روائع من أقوال الرسول ﷺ، عبد الرحمن حسن جبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ٧، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨ م.
- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، شهاب الدين محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- زهر الآداب وثمر الآداب، أبو إسحاق الحصري القيرواني، تحقيق د. زكي مبارك، المطبعة الرومانية بمصر، ط ٢، ١٤٣٥ هـ = ١٩٣١ م.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي، تحقيق إبراهيم شمس الدين، كتاب ناشرون، ط ١، ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م.
- السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م.
- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القرطبي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

ونسخة ط/ دار السلام، الرياض.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٨ م.

ونسخة ط/ دار السلام، الرياض.

- سنن الترمذى، ط/ دار السلام، الرياض.

- سنن الدارمى، تحقيق د. مصطفى البغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق.

- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، ط١، ١٣٤٤ هـ.

- سنن النسائي بشرح السيوطي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٠ هـ = ١٣٦٧ م.

ونسخة: ط/ دار السلام، الرياض.

- سنن النسائي الكبير، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م.

- سيدنا محمد رسول الله ﷺ شمائله الحميده وخصاله المجيده، عبد الله سراج الدين، مكتبة دار الفلاح، حلب، ط٧، ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.

- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الريالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م.

- السيرة الخليلية/ إنسان العيون في سيرة المؤمنون، علي بن برهان الدين الخلي الشافعى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٢ م.

- السيرة النبوية لابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد.

- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧١ م.

- شرح جمل الزجاجي، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق أنس بدبوبي، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، ٢٠٠٣ م.
- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول،
دار الكتاب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي المغربي، دار
ال الفكر، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٦ م.
- الشمائل الحمدية، محمد بن عيسى الترمذى، تحقيق أسامة الرجال، دار الفيهاء، دمشق،
ط١، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م.
- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك، جمال الدين محمد بن
عبد الله الطائي النحوى، مكتبة القدسى، القاهرة.
- الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس، أبي الحسين أحمد بن فارس
بن زكريا، المكتبة السلفية، القاهرة، مطبعة المؤيد بالقاهرة، ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م.
- صبح الأعشى، أبو العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٠ هـ =
١٩٢٢ م.
- الصحاح ومدارس المعجمات العربية، أحمد عبد الغفور عطار، مطبع دار الكتاب العربي
يمصر، نشر حسن شربيلي، ط١.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،
تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م.
- صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى
دib البغـا، دار ابن كثير، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط٤، ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.
ونسخة: ط / دار السلام، الرياض.
- صحيح مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحاج القشيري التيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد
الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ونسخة: ط / دار السلام، الرياض.

- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي، دمشق.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله، تحقيق علي محمد المعاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٥٢ م.
- الصورة الفنية في الحديث النبوي، د.أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط ٢، ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م.
- ضحي الإسلام، أحمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧ م.
- طبقات الحفاظ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م.
- عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ١٩٨٤ م.
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣ م.
- علل الحديث، لابن أبي حاتم الرازي، دار المعرفة ، بيروت.
- علم الحديث والدراسات الأدبية، د.نور الدين العتر، ط ١، جامعة دمشق.
- علوم الحديث / مقدمة ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن أبي عمرو تقي الدين ، تحقيق د.نور الدين العتر، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م.
- العمدة في محسن الشعر وأدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القمياني ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، الإمام بدر الدين محمود بن أحمد العيني، إشراف ومراجعة صدقى جليل العطار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠٢ م.
- غريب الحديث، حمد بن محمد بن إبراهيم الخطاطي السبتي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزياوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢ هـ.

- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البحاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط٢.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- فتح المغیث بشرح ألفية الحديث، شمس الدين السخاوي، تحقيق د. عبد الكريم الحضير، د. محمد آل فهید، ط / مكتبة دار المنهاج، الرياض.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسی أبو محمد علي بن أحمد، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧١م.
- فن القصة، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ط٥، ١٩٦٦م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، العلامة المناوي، دار الفكر، بيروت.
- القصص في الحديث النبوى، د. محمد حسن الزير، الرياض، ط٣، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- قواعد التحديد من فنون مصطلح الحديث، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد بمححة البيطار، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م.
- الكامل: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقوایل في وجوه التأویل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العيکان، ط١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
- الكفاية في علم الرواية، أبو أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي، تحقيق أحمد عمر هاشم، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط٣، هـ١٤١٤ = م١٩٩٤.
- مباحث في علوم القرآن، د.صبحي الصالح، دار العلم للملائين، بيروت، ط١، م١٩٨٣.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير أبو الفتح ضياء الدين بن محمد بن محمد الموصلي، تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، م١٩٩٥.
- المحاذات النبوية، الشريف الرضي، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة.
- المجتبى، ابن دريد، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط٢، هـ١٣٦٢.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، هـ١٤٠٨ = م١٩٨٨.
- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للإمام الحسن عبد الرحمن الرامهرمزي، تحقيق د.محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط٣، هـ١٤٠٤.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى، تحقيق عبد السلام عبد الشافعى محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، هـ١٤١٣ = م١٩٩٣.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، دار الفكر بيروت.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، هـ١٤١١ = م١٩٩٠.

- المستقى في أمثال العرب، أبو القاسم محمود بن عمر الرمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧ م.
- مستند إسحاق بن راهويه، إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الخنظلي، تحقيق د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م.
- مستند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.
- مستند البزار / البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمر بن عبد الخالق العتكي البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٩٨٨ م.
- مستند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضايعي، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م.
- مستند الفردوس / فردوس الأخبار بتأثير الخطاب المخرج على كتاب الشهاب، شيرويه بن شهردار الديلمي، تحقيق فواز أحمد الزمرلي ومحمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤ م.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض البحصي، دار الفكر، مكتب البحوث والدراسات، بيروت، ١٩٩٧ م.
- المصنف في الحديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩ هـ = ١٩٩٧ م.
- معاني القرآن، أبو جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٩ هـ = ١٩٩٧ م.
- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله محمد وعبد الحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥ هـ.
- المعجم الكبير أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.

- معجم مصطلحات النقد العربي القديم، د.أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠٠١م.
- معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه، لأبي عبد الله الحكمي التيسابوري، تحقيق أحمد السلوم، ط/دار ابن حزم، بيروت.
- المغني في الضعفاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق أ.د. نور الدين عتر، دار المعارف، حلب.
- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- من بلاغة القرآن، د.أحمد أحمد بدوي، مكتبة هضبة مصر، ط٣.
- منهاج النقد في علوم الحديث، أ.د. نور الدين عتر، دار الفكر، بيروت.
- موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد مغوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- نظرات في اللغة والنحو، طه الرواوى، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢م.
- نظرية الأدب، أوستن وارين ورينيه ويليك، ترجمة محيي الدين صبحي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، تحقيق د.طه حسين وعبد الحميد العبادي، مكتبة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٣٣م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق طاهر أحمد الرواوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربي، بيروت.

اللجنة العلمية :

أ.د. مزيد نعيم

أ.د. هيثم غرة

أ.د. أميمة بدر الدين

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة

ل مديرية الكتب والمطبوعات

